

تأليف

السيد محمود شكري الألوسي
البغدادي

عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجة الأثري

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سبق فى اواخر الجزء الثانى من هذا الكتاب نبذة مما كان يعتقده بعض العرب من النكت المتعة ولم نستوفـ ذكرها هناك لملاحظة ان يخرج حجم الجزء عن مشـاكلة أمثاله فاقتضى ايراد تتمة ذلك البحث فى هذا المقام حرصـا على ما انطوى عليه من الادب فنقول متمسكين بحبل التوفيق .

ما ثبت عنهم فى الغائب اذا لم يقفوا على خبره

كانوا اذا غُمَّ[1] عليهم أمر الغائب ولم يَعْرِفوا له خبراً جاءوا الى بئر عادية (أى مظلمة بعيدة القعر و بالتشديد منسوبة الى عاد كناية عن قدمها) أو جاءوا إلى حفر قديم ونادوا فيه : يا فلان ، أو يا أبا فلان ثلاث مرات و يزعمون أنه إن كان ميتاً لم يسمعوا صوتاً و إن كان حياً سمعوا صوتاً ربما توهموه وهماً أو سمعوه من الصدى فبنوا عليه عقيدتهم . قال بعضهم :

دعوت أبا المغوار فى الحفر دعوةً ... فما آضَ صوتى بالذى كنتُ داعيا

أظنُّ أبا المغوار فى قعر مظلم ... تجر عليه الذارياتُ السوافيا[2]

ومعنى آض : رجع . وقعر مظلم : كناية عن القبر . وقال آخر :

وكم ناديته والليل ساجٍ[3] ... بعاديِّ البِئار فما أجابا

وقال آخر :

ألم تعلمى أنى دعوت مجاشعاً ... من الحفر والظلماء باد كسورُها

فجاوبنى حتى ظننت بأنه ... سيطلع من جَوْفاء صعب حدورُها

---

(١) بالبناء للمفعول أى خفى . (٢) الذاريات : الرياح الهائجة والسوافى جمع سافية وهى هنا التراب .

(٣) يقال سجا الليل يسجو سجوا : أى سكن . ومنه قوله تعالى: والليل اذا سجا . قال الزجاج وابن الاعرابى : أى سكن . وقال الفراء : سجا الليـل ركد واظلم ومعنى ركد سكن . وفى المصباح : سجا الليل ستر بظلمته .

لقد سكنت نفسي وأيقنت أنه سيقدم والدنيا عُجابٌ أُمورها

والكسور : الأرض ذات صعود ونزول . والجوفاء : شجرة ذات جوف وأراد بها البئر التي صاح ونادى فيها . ومعنى حدورها : الانحدار إليها وقال آخر :

دعوناه من عادية نَضْبَ ماؤها وهدم جاليها اختلافُ عصورِ

فرد جواباً ما شككتُ بأنه قريبٌ إلينا بالإيابِ بصيرُ[1]

أقوى[2] في البيت الثاني وسكن (نضْب) ضرورة كما قال « لو عُصر منه البانُ والمسك انعصَرْ »[3] ومعنى جاليها : جوانبها . وقال آخر :

غاب فلم أرج له إيابا والحفر لا يرجع لى جوابا

وما قرأت مذ نأى كتابا حتى متى استنشد الركابا

* عنه وكل يمنع الخطابا *

(ومن مذاهب العرب وأعاجيبها) أنهم كانوا فى الحرب ربما أخرجوا النساء فبلنَ بين الصفّين يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم إلى السلم . قال بعضهم:

لقونا بأبوال النساء جهالةً ونحن نلاقيهم ببيضٍ قواضبِ

والبيض : السيوف . والقواضب : القاطعات . وقال آخر :

---

(١) نضب الماء نضوبا من باب قعد : غار فى الارض ، وينضب بالكسر لغة. وسكن الضاد للضرورة ومن هذا القبيل الشاهد الذى أورده الاستاذ . والاياب : الرجوع . (٢) أقوى : أى خالف قوافيه برفع بيت وجر آخر . والاقواء من عيوب القافية ، مأخوذ من قولهم حبل قو بمعنى مختلف القوى أى الطاقات من عدم احكام فتله بأن تفتل احدى الطاقتين على اليمين والاخرى على اليسار ثم اذا جمعت بينهما لا ينفتل هذا الحبل للمخالفة بل ينفك . سمى العيب المذكور بذلك لما فيه من المخالفة بين القافيتين أو مأخوذ من قولهم : أقوى الربع اذا تغير وخلا عن سكانه لان الروى تغير وخلا عن حركته الاولى .. وقلت قصيدة لشعراء الجاهلية ينشدونها بلا أقواء ثم لا يستنكرونه لانه لا يكسر الشعر وأيضا فان كل بيت منها كأنه شعر على حياله ، كذا فى التاج . ولنا هنا بحث لا يسعه مثل هذا المقام وتجده فى كتابنا (العروض والقوافى) . (٣) هذا الشطر لابى النجم العجلى وقبله :

كأنما فى نشرها اذا نشر فغمة روضات تردين الزهر

هيجها نفح من الطل سحر وهزت الريح الندى حتى قطر

قال البطليوسى : ويروى (لو عصر منها) فمن أنث الضمير أعاده على المرأة التى تغزل بها . ومن ذكر الضمير أعاده على الفرع المذكور قبل هذا البيت فى قوله :

بيضاء لا يشبع منها من نظر خود يعطى الفرع منها المؤتزر

بالتْ نساءُ بنى خراشةَ خيفة ... منّا وأدبرتِ الرجالُ شلالا (١)

وقال آخر :

بالت نساؤهم والبِيض قد أخذت ... منهم مآخذ يستشفى بها الكلب (٢)

وهذان البيتان يمكن أن يراد بهما أن النساء بُلْنَ خفيفة وذعراً لا على المعنى الذى نحن فى ذكره فحينئذ لا يكون فيهما دلالة على المراد .

وقال الآخر :

هَيْهَاتَ رد الخيل بالأبوال ... إذا غدت فى صور السعالى (٣)

وقال آخر :

جعلوا السيوف المشْرَفِيَّةَ منهم ... بول النساء وقل ذاك غناء (٤)

فأما مذهبهم فى الخرزات والأحجار والرقى والعزائم فمشهور

فمن خرزتهم (السُلوانة) ويقال لها السُّلْوَة وهى خرزة يسقى العاشق منها فيسلو فى زعمهم وهى بيضاء شفافة . قال الراجز :

لو أشرب السلوان ماسَليتُ ... مابى غنى عنكم وإن غَنِيت

السلوان جمع سلوانة . وقال اللحيانى : السلوانة تراب من قبر يسقى منه العاشق فيسلو . قال عُروة بن حِزام (٥) :

(١) قال الزبيدى : ذهب القوم شلالا أى انشلوا مطرودين وجاؤا شلالا اذا جاء يطردون الابل والشلال القوم المتفرقون . قال ابن الدمينة :

أما والذى حجت قريش قطينه ... شلالا ومولى كل باق وهالك

(٢) الكلب : داء يعرض للانسان من عض الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحدا الا كلب وتعرض له أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا . وزعمت العرب أن دواءوه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه ، ومنه يقال كلب الرجل اذا أصابه ذلك . (٣) هيهات : بعد . والسعالى جمع سعلاة وهى أخبث الغيلان وقيل نوع من المتشيطنة مغايرة للغول . وقد ذكرها العرب فى شعرهم كثيرا . وقال بعضهم : لم تصف العرب بالسعلاة الا العجائز والخيل . (٤) المشرفية بفتح الميم المنسوبة الى مشارف وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، وقيل هذا خطأ بل هى نسبة الى موضع من اليمن . (٥) هو أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى . قيل لا يعرف له شعر الا فى (عفراء) ابنة عمه عقال بن مهاصر . وفى الاغانى طرف من اخباره مع عفراء . وأبياته هذه من قصيدة له رنانة ، ذكرها أبو على القالى البغدادى فى نوادره . (راجع ذيل الامالى والنوادر ص ١٥٩ من طبعة المطبعة الكبرى الاميرية سنة ١٣٢٤) .

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكمه وعراف نجد إن هما شَفَيانى [١]
فقالا : نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العُوّادِ يبتدران
فما تركا من رُقْيةٍ يعرفانها ولا سلوةٍ إلا وقد سقيانى

وقال آخر :

سقونى سلوةً فسلوت عنها سقى الله المنيةَ من سقانى

أى سلوت عن السلوة واشتد بى العشق ودام . وقال الشمردلُ :

ولقد سُقيتُ بسلوة فكأنما قال المُداوى للخيال بها ازدد

ومن خرزاتهم (الهِنّمة) وهى خرزة يجتلب بها الرجال و يستعطف بها قلوبهم فيما يزعمون . ورقيتها : أخّذته [٢] بالهِنِمّة ، بالليل زوج و بالنهار أمة ، ومنها (الفَطْسة والقَبَلة . والدرديس) وكلها لاستجلاب قلوب الرجال . قال الشاعر :

جمّعْنَ من قَبلٍ لهن وفَطْسةٍ والدرديس تمائماً فى المنظم [٣]
فانقاد كل مُشذّب مَرِسِ القُوى لحبالهنّ وكل جَلد شَيْظَمِ [٤]

وقيل : الدرديس خرزة سوداء يتحبب بها النساء إلى بعولتهن توجد فى القبور العادية ورقيتها : أخّذته بالدرديس ، تدرُّ العرق اليبيس وتَذَرُ الجديد كالدريس [٥] . وأنشد :

قطعت القيد والخرزات عنى فمن لى من علاج الدردَبيس

وأصل الدرديس فى اللغة الداهية ونقلت إلى هذه الخرزة لقوة تأثيرها بزعمهم .

ومن خرزاتهم (القِرْزَحْلَةُ) أنشد ابن الأعرابى :

لا تنفع القِرْزَحْلَةُ العجائزا إذا قطعنا دونها المفاوزا [٦]

---

(١) قال ابن خلدون : عراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف الابلق الاسدى . والعرافة : سيأتى الكلام عنها فى هذا الجزء (٢) أى رقيته . (٣) القبل : جمع قبلة والقبلة والفطسة خرزتان . والمنظم : الخيط ينظم الخرز فيه ، وقوله « تمائما » يروى أيضا « مقابلا » .

(٤) المشذب : الشارد ، والمشذب الطويل الحسن الخلق . والمرس : الشديد المراس . والشيظم : الطويل الجسيم الفتى من الناس (٥) الدريس : القديم البالى من الثياب (٦) المفاوز جمع مفازة وهى الموضع المهلك مأخوذ من فوز ــ بالتشديد ــ اذا مات لانها مظنة الموت وقيل من فاز اذا نجا وسلم وسميت به تفاؤلا بالسلامة

وهى من خرز الضرائر ، إذا لبستها المرأة مال إليها بعلها دون ضرتها .

ومنها خرزة (العُقرة) تشدها المرأة على حَقْوَيْها[١] فتمنع الحبل ذكر ذلك ابن السكيت فى (إصلاح المنطق) . ومنها (اليَنْجَلِبُ) ورُقيتها : أخذته باليَنجلب فلا يَرِمْ ولا يَغِب ، ولا يَزَل عند الطُنُب . ومعنى لا يرم لا يبرح من مكانه وذكر الأزهرى هذه الخرزة فى الرباعى قال : ومن خرزات الأعراب الينجلب وهو الرجوع بعد الفرار والعطف بعد البغض . ومنها (كَرَار) مبنية على الكسر . ورقيتها : يا كَرَار كُرِّيه إن أقبل فسُرِّيه ، وإن أدبر فضُرِّيه ، من فرجه إلى فيِّه . ومنها (الهَمرة)[٢] ورقيتها ياهمرةَ اهمريه ، من استه إلى فيه ، وماله وبنيه . ومنها (الخَصْمة) وهى خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت فص الخاتم أو فى زر القميص أو فى حمائل السيف قال بعضهم :

يعلّق غيرى (خصمة) فى لقائهم   ومالى عليكم خصمة غير منطق

ومنها (الوجيهة) وهى كالخصمة حمراء كالعقيق . ومنها (العَطْفة) وهى خرزة العطف ، والكَحْلة خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم . والقبلة خرزة بيضاء تجعل فى عنق الفرس من العين . والفطسة خرزة يمرض بها العدو ويقتل . ورقيتها : أخذته بالفطسة ، بالثُوبا[٣] والعطسة ، فلا يزل فى تَعسه ، من أمره ونكسه ، حتى يزور رمسه . . (ومن رقاهم للحب) هوابه هوابه[٤] ، البرق والسحابة ، أخذته بِمِرْكن[٥] ، فحبه تمكن ، أخذته بإبره ، فلا يزل فى عَبْره ، جلبته بإشْفَى[٦] فقلبه لا يهدأ ، جلبته بِمبْرد ، فقلبه لا يبرد . . وترقى الفارك[٧] زوجها إذا سافر عنها فتقول : بأفول القمر ، وظل الشجر ،

---

(١) الحقو : موضع شد الازار وهو الخاصرة . ثم توسعوا حتى سموا الازار الذى يشد على العورة حقوا والجمع أحق وحقى مثل فلس وأفلس وفلوس

(٢) قال فى اللسان : الهمرة خرزة الحب يستعطف بها الرجال . يقال : ياهمرة أهمريه ، وياغمرة أغمريه ، ان أقبل فسريه ، وان أدبر فضريه .

(٣) الثؤباء بالمد فترة تعترى الشخص فيفتح عندها فمه . وهى هنا بالقصر مراعاة لوزن المنهوك (التاج) . (٤) الهوابة : النار الملتهبة والشمس المتوهجة . « عن كتاب المرأة العربية للعفيفى » (٥) المركن : أجانة تغسل فيها الثياب ونحوها . (٦) الاشفى : بالكسر والقصر ، المثقب يكون للاساكفة .

(٧) الفارك : المرأة التى تبغض زوجها .

شمال تشمله[١] ، ودَبُور تدبره[٢] ونكباء[٣] تنكبه ، شيكَ فلا انتقش[٤] . ثم ترمى فى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة . وتقول : حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راثت خبره ، لفعته[٥] ببعره . . وقالت فارك فى زوجها — والفارك هى المبغضة لزوجها :

أتبعته إذ رحل العيس ضحى بعد النواة روثة حيث انتوى
* الروث للريث وللنأى النوى[٦] *

وقال آخر :

رمت خلفه لما رأت وشك بينه نواةً تلتْها روثة وحصاةُ
وقالت : نأت منك الديار فلا دنت وراثت بك الأخبار والرجعات[٧]
وحصت لك الآثار بعد ظهورها ولافارق الترحالَ منك شتات

وقال آخر يخاطب امرأته :

لاتقذفى خلفى إذا الركب اغتدى روثة عير وحصاة ونوى
لن يدفعَ المقدار أسباب الرقى ولا التهاويل على جنّ الفلا[٨]

هذا الرجز أورده الخالع فى هذا المعرض وهو بأن يدل على عكس هذا المعنى أولى لأن قوله :

لن يدفع المقدار أسباب الرقى ولا التهاويل على جنّ الفلا

كلام يشعر بأن قذف الحصاة والنواة خلفه كالعوذة له لا كما تفعله الفارك

---

(١) الشمال : الريح تقابل الجنوب . (٢) الدبور : وزان رسول ريح تهب من جهة المغرب تقابل الصبا ، ويقال تقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحوالمشرق . وفى الحديث : نصرت بالرعب وأهلكت عاد بالدبور . (٣) هى ريح انحرفت ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال .

(٤) الانتقاش : استخراج الشوك من الرجل ومنه حديث أبى هريرة (ض) : واذا شيك فلا انتقش أى دخلت فيه الشوكة فلا خرجت وهو دعاء عليه .

(٥) كذا ويظهر أن فى العبارة سقطا . (٦) انتوى : قصد ، والريث : الابطاء ، والنأى : البعد . (٧) رثت : أبطأت

(٨) التهاويل جمع تهويل وهو ما هول به الانسان . والفلا : جمع فلاة وهى الارض التى لا ماء فيها ، والعير : الحمار وغلب على الوحشى .

التى تتمنى الفراق . وقد أبطل الشرع ذلك كله والأحجار لاتنفع ولا تضر فى مثل ماسبق من الأمور . ومثل ذلك النشر والتمائم ، ففى سنن أبى داود عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال سألنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن النُشرة فقال : هى من عمل الشيطان . والنشرة ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن أن به مسّ الجن . وقيل سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه أى يحل عنه ماخامره من الداء . وعن الأصمعى قال : النشرة من السحر . وأنشد من قول جرير :

أدعوكَ دعوةَ ملهوفٍ كأنّ به ... مسًّا من الجنّ أو ريحًا من النَّشَر

وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ما أبالى ما أتيت إن أنا شربت ترياقاً أو تعلقت تميمة أو قلت الشعر من قبل نفسى قال الخطابى : ليس شرب الترياق مكروهاً من أجل أن التداوى محظور ، وقد أباح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التداوى والعلاج فى عدة أحاديث ولكن من أجل مايقع فيه من لحوم الأفاعى وهى محرمة . والترياق أنواع فإذا لم يكن فيه لحوم الأفاعى فلا بأس بتناوله والله أعلم . والتميمة يقال إنها خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، واعتقاد هذا الرأى جهل وضلال إذ لامانع ولا دافع غير الله سبحانه ، ولايدخل فى هذا التعوذ بالقرآن والتبرك والاستشفاء به لأنه كلام الله سبحانه ، والاستعاذة به ترجع إلى الاستعاذة بالله سبحانه . . ويقال بل التميمة قلادة تعلق فيها العوذ . قال أبو ذُؤَيْب :

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ... ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لاتنفع[1]

(١) البيت من شواهد التلخيص ، والشاهد فيه الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية فهو هنا شبه فى نفسه المنية بالسبع فى اغتياله النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا رقة لمرحوم فأثبت لها الاظفار التى لايكمل الاغتيال فى السبع بدونها تحقيقا للمبالغة فى التشبيه فتشبيه المنية بالسبع استعارة بالكناية واثبات الاظفار لها استعارة تخييلية . والبيت من قصيدة لابى ذؤيب — واسمه خويلد بن خالد بن محرث بن ربيد (بالراء المهملة) بن مخزوم ، ينتهى نسبه لنزار — قالها وقد هلك له خمس بنين فى عام واحد وكانوا فيمن هاجر الى مصر فرثاهم بهذه القصيدة وأولها :

وقال آخر :

بلادٌ بها عقّ الشباب تميمتى(١)   وأول أرض مسّ جلدى ترابها

وقد قيل إن المكروه من العوذ هو ما كان بغير لسان العرب فلا يفهم معناه ولعله قد يكون فيه سحر ونحوه من المحظور وتمام الكلام فى الرقى والتعاويذ يطلب من كتب العقائد ونحوها والله أعلم .

ومن مذاهب العرب فى الجاهلية الوشم

وهو على ماذكره أهل اللغة أن يغرز فى العضو إبرة(٢) ونحوها حتى يسيل الدم ثم يُحْشَى بنورة(٣) أو نحوها فيخضر وكانوا يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم أنواعا من النقوش من صور حيوانات وغيرها وكذلك الشفاه

أمن المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أمامة ما لجسمك شاحبا   منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا   الا اقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها أرثى لجسمى أنه   أودى بنى من البلاد فودعوا
أودى بنى فأعقبونى حسرة   عند الرقاد وعبرة لا تقلع
فالعين بعدهم كأن حداقها   كحلت بشوك فهى عورى تدمع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب   وأخال انى لاحق مستتبع
سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم   فتخرموا ولكل جنب مصرع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم   فاذا المنية اقبلت لا تدفع
واذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تمينة لا تنفع
وتجلدى للشامتين أريهم   انى لريب الدهر لا أتضعضع
حتى كأنى للحوادث مروة   بصفا المشرق كل يوم تقرع
والدهر لا يبقى على حدثانه .   جون السحاب له جدائد أربع

(١) يقال للصبى اذا نشأ مع حى حتى شب وقوى فيهم عقت تميمته فى بنى فلان والاصل فى ذلك أن الصبى ما دام طفلا تعلق أمه عليه التمائم تعوذه من العين فاذا كبر قطعت عنه. ووقع فى خطبة المطول للسعد (بلاد بها نيطت على تمائمى) وما ذكره الاستاذ هو الأصح . راجع تاج العروس ج ٧ ص ١٨

(٢) الصواب أن يقال : (أن يغرز (أى ينخس العضو بابرة ونحوها الخ) .

(٣) كذا الصواب « ثم يحشى بنؤور أو نحوه » والنؤور كصبور النيلج ودخان الشحم وحصاة كالاثمد تدق فتسفها اللثة .

فترى شفاه غالب نسائهم زرقاً ، وأما الرجال فكانوا يستعملون الوشم فى بعض المواضع من الجسد يزعم أنه يقوى المفصل الذى وشم عليه . والأطفال منهم يوشمون فى بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة ، وهو مذهب باطل وعادة مستقبحة جداً فلذلك أبطلته الشريعة المحمدية لما فيه من تغيير خلق الله . فنى الحديث : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . والمتنمصات جمع متنمصة . وحكى ابن الجوزى : متنمصة وهى التى تطلب النماص والنامصة هى التى تفعله والنماص إزالة شعر الوجه بالمنقاش ويسمى المنقاش نماصاً لذلك وهى حديدة يؤخذ بها الشعر ويقال إن النماص مختص بإزالة الشعر من الحاجبين ليرققهما أو ليسويهما . والمتفلجات جمع متفلجة والفلج تباعد ما بين الثنايا والرباعيات بمبرد ونحوه والحاصل أن كل مافيه تغيير خلق الله حرام .

ومن مذاهبهم النياحة على الهالك منهم والندب ونحو ذلك

كان العرب فى الجاهلية يوصون أهليهم بالبكاء والنوح عليهم إذا ماتوا وكان ذلك مشهوراً من مذاهبهم وهو موجود فى شعرهم كقول طَرَفة بن العبد :

فإنْ مُتُّ فانعِيني بما أنا أَهْلُهُ ... وشُقِّى عَلَىَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ (١)

وقال لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة :

تمنّى ابنتاىَ أن يعيشَ أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ؟ (٢)

فقوما وقولا بالذى تعلمانه ... ولا تَخْمِشا وجهاً ولا تحلقا شَعَرْ

وقولا : هو المرء الذى لا صديقَهُ ... أضاع ولا خان الأمين ولا غدر

---

(١) النعى : اشاعة خبر الموت . والجيب من القميص هو الذى يدخل منه الرأس. وابنة معبد : ابنة أخيه معبد . (٢) قال السيد المرتضى فى أماليه : أراد هل أنا الا من أحد هذين الحيين فسبيلى أن أفنى كما فنيا وانما حسن ذلك لان قصده الذى أجرى اليه وغرضه الذى نحاه هو ان يخبر بكونه ممن يموت ويفنى ولا يخل به أجمال ما أجمل من كلامه فأضرب عن التفصيل لانه لا فائدة فيه ولانه سواء كان من ربيعة أو مضر فموته واجب . . .

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حَوْلاً كاملا فقد اعتذر (١)

وبعد وفاته كانتا تلبسان ثيابهما فى كل يوم وتأتيان مجلس جعفر بن كلاب قبيلته فترثيانه ولا تعولان فأقامتا على ذلك حولاً كاملا ثم انصرفتا . ومعنى قوله : وهل أنا الخ أن جميع آبائى من ربيعة أو مضر قد ماتوا ولم يسلم أحد منهم من الموت فكذلك أنا لابد لى من الموت . وإنما قال إلى الحول لأن الزمان ساعات وأيام وجمع وشهور وسنون والسنون هى النهاية فالحول والسنة مدة هى نهاية الزمان فى التقسيم إلى أجزائه ويمكن أن يكون ذلك لما روى فى بعض الآثار أن أرواح الموتى لا تنقطع من التردد إلى منازلهم فى الدنيا إلى سنة كاملة فكأنه إنما أمرهما بما ذكر من الذكر والدعاء وغير ذلك ليشاهد ذلك منهما . ولذلك قال ومن يبك حولا الخ. وقال بعضهم إنما وقّت بالحول لأنه مدة عزاء الجاهلية وهذا لا يصح هنا لأن قائله صحابى ومثل هذا كثير فى أشعارهم وقد أبطلت ذلك الشريعة . وفى الحديث : إن الميت ليعذب ببكاء أهله . قال أهل الحديث : الميت إنما تلزمه العقوبة فى ذلك بما تقدم من أمره إياهم بذلك وقت حياته وإن لم يأمرهم لا يلحقه عقوبة (ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) والوزر إنما هو على من ناح وأظهر الجزَعَ من تلقاء نفسه . وفى الحديث : «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « برىء من الصالقة والحالقة والشاقة » . والصالقة : هى التى ترفع صوتها بالنياحة . والحالقة : هى التى تحلق شعرها عند المصيبة . وفى الصحيحين أيضاً عن أم عطية قالت : « أخذ علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه

(١) هذا البيت يورده بعض النحاة على أن لفظ (اسم) مقحم . قال ابن جنى : هذا قول أبى عبيدة ، وكذلك قال فى بسم الله . ونحن نحمل الكلام على أن فيه محذوفا ، قال أبو على : وانما هو حد حذف المضاف أى ثم اسم معنى السلام عليكما واسم معنى السلام هو السلام وكأنه قال ثم السلام عليكما فالمعنى لعمرى ما قاله أبو عبيدة لكنه من غير الطريق التى أتاه هو منها ! الا تراه هو اعتقد زيادة شىء واعتقدنا نحن نقصان شىء ؟

وسلم فى البيعة أن لا ننوح » وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة يرفعه : « اثنتان فى الناس هما بهم كفر الطعن فى النسب والنياحة على الميت » . والنياحة : رفع الصوت بالندب . والنـــدب : تعديد النادبة بأعلى صوتها محاسن الميت وقيل هو البكاء مع تعديدها وأما البكاء على الميت لرقة ورحمة خاليا عما ذكر فلا محذور فيه فإن الله تعالى أودع الرحمة فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

(ومن عوائدهم فى هـذا الباب) ما حكاه الأصمعى قال : كانت العرب إذا مات فيهم ميت له قدر ركب راكب فرسا وجعل يسير فى الناس ويقول : نعاء فلانا أى انعه وأظهر خبر وفاته وهى مبنيـة على الـكسر مثل نزال وعلى ذلك قول المتنخل الهذلى :

أقول لما أتانى الناعيان به : لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجل

رمح لنا كان لم يفلل ننوء به توقى به الحرب والضراء والجلل

رَبَّاء شَمَّاء لا يأوى لقُلَّتها إلا السحابُ وإلا الأوْبُ والسَّبَلُ[1]

أى هو رباء لأصحابه بالهمز إذا صار ربيئة لهم أى طليعة فوق شرف وموضع مرتفع والشماء مؤنث أشم من الشمم وهو الارتفاع أراد هضبة شماء فحذف الموصوف بدليل القلة وهى رأس الجبل . والهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض . ومن المعلوم أيضا أن التى لا يأوى إلى قلتها إلا السحاب والمطر لا تكون إلا هضبة . والأوب قال الخوارزمى : هو المطر لأنه بخار ارتفع من الأرض ثم آب إليها أى رجع ولذلك سمى رجعاً فسموه أوباً ورجعاً تفاؤلا ليرجع ويثوب . وقيل لأن الله تعالى يرجعه وقتا فوقتا وإليه ذهب صاحب الـكشاف عند قوله تعالى (والسماء ذات الرجع) وأنشد هذا البيت على أن المطر يسمى رجعا كما فى الآية وأوبا

---

(١) هذا الشعر من قصيدة طويلة يرثى بها ابنه أثيلة (مصغرا) قتلتــه بنو سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر . راجع الاغانى ج ٢٠ ص ١٤٥ من طبعة الساسى . وقوله : ذو النصلين، النصل حديدة السهم والنصلان مثنى عبارة عن النصل والزج . ومعنى تنوء : تنهض . والجلل محركة الامر العظيم والصغير ضد والمراد هنا الأول .

كما فى البيت تسمية بمصدرى رَجَع وآبَ ، وذلك أن العرب كانت تزعم أن السحاب يحمل الماء من البحر ثم يرجعه إليه . والسبَل بفتحتين المطر المنسبل أى النازل .

(ومن مذاهبهم) أنهم يقولون الميت إذا مات لا تبعد : قالت الخِرْنِق[1] :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين همُ سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجزْرِ
النازلينَ بكلّ مُعْتَرَكٍ والطيبونَ معاقِدَ الأُزْرِ

وفى كتاب اللب : أن العرب قد جرت عادتهم باستعمال هذه اللفظة فى الدعاء للميت ولهم فى ذلك غرضان . أحدهما : أنهم يريدون به استعظام موت الرجل الجليل وكأنهم لا يصدقون بموته وقد بين هذا المعنى زهير بن أبى سُلْمى بقوله :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسُهم وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزلْ نجوم السماء والأديم صحيح

يريد أنهم يقولون مات حصن ثم يستعظمون أن ينطقوا بذلك ويقولون كيف يجوز أن يموت والجبال لم تنسف والنجوم لم تنكدر والقبور لم تخرج موتاها وجرم العالم صحيح لم يحدث فيه حادث . والغرض الثانى : أنهم يريدون الدعاء له بأن يبقى ذكره ولا يذهب لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته ألا ترى إلى قول الشاعر :

فأثنوا علينا (لا أبا لأبيكم) بأفعالنا إن الثناء هو الخلد

وقال آخر يرثى يزيد بن الشيبانى :

فإن تك أفنته الليالى فأوشكت فإن له ذكراً سيفنى اللياليا

---

(١) هى بنت بدر بن هنان بن مالك وهى أخت طرفة لامه .. وهذان البيتان أوردهما سيبويه فى باب الصفة المشبهة : قال الاعلم ، الشاهد فيه (أى البيت الثانى) نصب معاقد الازر بقولها الطيبون تشبيها بالمفعول به لانه معرفة باضافته الى الازر فهو كقولك الحسنون أوجه الاخ . وصفت قومها بالظهور على العدو ونحر الجزر للاضياف والملازمة للحرب والعفة عن الفواحش فجعلت قومها لاعدائهم يقضى عليهم ، وآفة للجزر لكثرة ماينحرون منها . والمعترك : موضع ازدحام فى الحرب . ويقال فلان طيب معقد الازار اذا كان عفيفا لا يحله لفاحشة .

وقال المتنبي وأحسنَ :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاتَهُ وفضول العيش أشغال[١]

وقد بين مالك بن الريب المزنى مافى هذا المحال من قصيدة تقدمت على غيرها :

يقولون لا تبعدْ وهم يدفنونى وأين مكان البعد إلا مكانيا[٢]

وقال الفرار السلمى[٣] :

ما كان ينفعنى مقالُ نسائهم وقُتِلْتُ دون رجالهم لا تبعدِ[٤]

ومن مذاهبهم جز النواصى

كانت العرب إذا أنعمت على الرجل الشريف بعد أسره جزُّوا ناصيته وأطلقوه فتكون الناصية عند الرجل يفخر بها والنواصى جمع ناصية وهى الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة . قال بشر بن أبى خازم الأسدى :

وإذ جزت نواصى آل بدر فأدوها وأسرى فى الوثاق
وإلا فاعلموا أنا وأنتم بُغاةٌ ما بقينا فى شقاق[٥]

وسبب هـذا الشعر أن قوماً من آل بدر الفَزاريين جاوروا بنى لأم من طيء فعمد بنو لأم إلى الفزاريين فجزوا نواصيهم وقالوا : قد مننَّا عليكم ولم نقتلكم

---

(١) قال ابن القطاع : صحف الرواة هذا البيت فرووه (فاته) بالفاء والصواب بالقاف وعليه فسر الواحدى فقال : اذا ذكر الانسان بعد موته كان ذلك حياة ثانية له وما يحتاج اليه فى دنياه قدر القوت وما فضل من القوت فهو شغل كقول سالم بن وابصة :

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

(٢) البيت من قصيدة له قالها وهو مريض يذكر مرضه وغربته . وقد أوردها القالى فى أماليه (ج ٣ ص ١٣٧) . (٣) اسمه حيان بن الحكم : حيان فعلان من الحياء . والسلمى منسوب الى سليم بالتصغير (٤) وقتلت دون رجالها جملة وقعت حالا وجملة لا تبعد وقعت مقول القول . يقول : ما ينفعنى أن يندبننى ويقلن لا تبعد وقد بعدت (٥) البغاء جمع باغ وهو الظالم من البغى وهو الطلب لانه يطلب ما ليس له بحق . والشقاق العداوة لان كل واحد من المتعاديين يفعل ما يشق على الآخر ، أو من الشق بمعنى الجانب لان كل واحد يكون فى طرف غير طرف الثانى . وفى البيت شاهد العطف على محل اسم أن بعد مضى الخبر تقديرا .

و بنو فزارة حلفاء بنى أسد فغضب بنو فزارة لأجل ما صنع بالبدريين فقال بشر هذين البيتين من قصيدة يذكر فيها ما صنع ببنى بدر و يقول للطائيين فإذ قد جززتم نواصيهم فاحملوها إلينا وأطلقوا من قد أسرتم منهم وإن لم تفعلوا فاعلموا أنا نبغيكم ونطلبكم فإن أصبنا أحداً منكم طلبتمونا به فصار كل واحد منا يبغى صاحبه فنبقى فى شقاق وعداوة أبداً . . وربما جزت ناصية مطلق الأسير شريفاً كان أم لا ، وأخذ للافتخار والعرب متفاوتون فى المذاهب . وقال زهير من قصيدة مدح بها هرم بن سنان المرى أحد الأجواد فى الجاهلية :

حَدِبٌ على المولى الضريك إذا نابتْ عليه نوائبُ الدهْرِ
عظمت دسيعته وفضـله جزّ النواصى من بنى بدر
أيام ذبيان مراغمة فى حربها ودماؤها تجرى
ومُرَهَّق النيران يطعم فى اللأْواء غير مُلَعَّنِ القِدْر

الحدب : المشفق . والمـولى : ابن العم . والضريك : الفقير المحتاج . والدسيعة : العطية الجزيلة . وجز النواصى تقدم معناه . وراغمهم : نابذهم وهجرهم وعاداهم . ومرهق النيران : أى تغشى ناره يقال رهقت الرجل إذا غشيته وأحطت به والمشدد للتكثير : يصف أنه يوقد النار بالليل للطبخ و إطعام الناس وليعشو إليها الضيف والغريب . وكثرة النيران للأخبار عن سعة معروفة . واللأواء شدة الزمان والقحط . وقوله : غير ملعن القدر أى لا يؤكل ما فيها دون الضيف والجار واليتيم والمسكين فهو محمود القـدر لا مذمومها وأوقع اللعن على القدر مجازاً ، وهو يريد صاحبها . . وما أحسن قول الخنساء فى هذا الباب مفتخرة بقومهم على الأصحاب :

جَزَزْنَا نواصى فُرْسانهم وكانوا يَظُنُّونَ أن لا تُجَزَّا
ومن ظنّ ممن يلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظن عجزا[1]

---

(١) تقول : أن من دخل الحرب وقارع الابطال ، وظن أنه لا يصاب بشيء فقد ظن ظنـا باطلا وسمته عجزا تجوزا .

نضيف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمدَ ذُخراً وكنزا

ونلبس فى الحرب سرد الحديد وفى السِلْم خزاً وعَصْباً وقزا[١]

ومن مذاهب العرب شد اللسان

كان من مذاهب العرب أنهم إذ أسروا أسيراً وكان شاعراً ربطوا لسانه بنِسعة وعلى ذلك قول عبد يغوث القحطانى الحارثى اليمنى من قصيدة :

أقول وقد شدوا لسانى بنسعةٍ : أمعشر تَيمٍ أطلقوا عن لسانيا

أمعشر تيمٍ قد ملكتم فأسجحوا فإن أخاكم لم يكن من بوائيا

فإن تقتلونى تقتلوا بى سيداً وإن تطلقونى تحربونى بماليا

النسعة بكسر النون : سير منسوج . وأسجحوا بتقديم الجيم على الحاء المهملة بمعنى سهلوا ويسروا . والبواء : السواء أى لم يكن أخاكم نظيراً لى فأكون بواء له وتحربونى تسلبونى وتغلبونى . وبما ذكرنا من المذهب فسر البيت جمع وقالوا :

إنهم شدوا لسانه بنسعة حقيقة وإليه ذهب الجاحظ فى البيان والتبيين والأصفهانى فى الأغانى وحكاه أيضاً ابن الأنبارى بأنهم ربطوه بنسعة مخافة أن يهجوهم وكانوا سمعوه ينشد شعراً فقال أطلقوا لى عن لسانى أذم أصحابى وأنوح على نفسى . فقالوا : إنك شاعر ونحذر أن تهجونا فعاهدهم أن لا يهجوهم فأطلقوا له عن لسانه .

قال الجاحظ : وبلغ من خوفهم من الهجاء أن يبقى ذكرهم فى الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق وربما شدوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص الحارثى حين أسرته تيم يوم

---

(١) السرد : نسج الدرع واسم للدروع وسائر الحلق . والخز : قال الفيومى ، اسم دابة ثم اطلق على الثوب المتخذ من وبرها . والقزمعرب قال الليث هو ما يعمل منه الابريسم ولهذا قال بعضهم القز والابريسم مثل الحنطة والدقيق . والعصب : مثل فلس برد يصبغ غزلة ثم ينسج .

الكلاب . وفى تفسير شد اللسان قول آخر وهو : إن هذا مثل وذهب إليه شراح أبيات الشعراء والقالى فى أماليه ، وحكاه ابن الأنبارى فى شرح المفضليات وقال : لأن اللسان لا يشد بنسعة وإنما أراد افعلوا بى خيراً لينطلق لسانى بشكركم وإنكم مالم تفعلوا فلسانى مشدود ولا أقدر على مدحكم . والوجه ماتقدم فإن الحقيقة هى الأصل !

ومن مذاهبهم خضاب النحر

كانت العرب فى الجاهلية تعيش فى الغالب بلحوم الصيد وكانت خيلهم لجودتها وعراقتها تسهل عليهم مايراه غيرهم من الصعوبة فى ذلك وتعينهم على نيل مقاصدهم فكانت عندهم من أعز الأموال ، تلحظ لديهم كما يلحظ العيال ، وكان السابق منها يرفع له فى الفخر رايات ، وتوضع عليه لأجل المباهاة علامات ، ولذلك كان من ديدنهم وعوائدهم أنهم إذا ساقو الخيل على الصيد وأغاروها نحوه فالسابق على غيره فى الوصول إليه يخضبون نحره بدم ما يمسكونه من الصيد علامة على كونه لايدرك فى الغارات ، وأنه سباق غايات ، وقد بطلت بعد ظهور الإسلام هذه العادة ولم يعرفها سكان البوادى من العرب اليوم ، غير أن لأعراب الحجاز عادةً قريبة من ذلك وهى أنهم إذا نزل بهم ضيف يعتنى بشأنه ذبحوا له أو نحروا فإذا سافر منهم وترحل عنهم لطخوا طرفَىْ سنام بعيره بدم ما ذبحوه على شكل المثلث إيذاناً بأنه من الرجال المعتنى بشأنهم بين قبائل العرب ومن الأماجد الأعزة الحرى بأن يعز .

ومن مذاهبهم التعقية

قال أبو العباس ثعلب . التعقية سهم الاعتذار : وقال ابن الأعرابى : أصل هذا أن يقتل الرجل رجلا من قبيلته فيطلب القاتل بدمه فيجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم العفو وقبول الدية فإن كان أولياؤه ذى قوة أبَوْ ذلك وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة الأمر والنهى .

فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون أن تأخذ سهما فترمى به نحو السماء فإن رجع إلينا مضرجا بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية وإن رجع كما صَعِدَ فقد أمرنا بأخذها وحينئذ مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية وكان مسح اللحية علامة الصلح . قال الأشعر[1] الجعفى :

عَقُّوا بسهم ثم قالوا : سالموا ياليتنى فى القوم إذ مسحوا اللحى !

قال ابن الأعرابى : ما رجع ذلك السهم قط إلا نقياً ولكنهم يعتذرون به عند الجهال . ومن شعر الهذلى ما أنشده أبو عبيد البكرى فى شرح نوادر القالى :

لا ينسىء الله منا معشراً شهدوا يوم الأميلح لا عاشوا ولا مرحوا[2]

عقوا بسهم فلم يشعر بِهِ أحد ثم استفاءوا وقالوا حبذا الوَضَحُ[3]

قال البكرى : هذا من شعر يهجو به ناساً من قومه كانوا مع أبيه حجاجاً[4] يوم قتل وقوله لا ينسىء الله أى لا يؤخر الله موتهم من الإنساء وهو التأخير . وعقوا بضم القاف وفتحها لأنه جاء من بابين فإنه يقال عق بالسهم إذا رمى به نحو السماء وذلك السهم يسمى عقيقة بقافين ويقال له أيضاً سهم الاعتذار فعقوا بضم القاف . ويقال عقى بسهمه تعقية إذا رماه فى الهواء فعقوا بفتح القاف . وكانت العرب تعيب على من يأخذ الدية ويرضى بها من درك ثأره وشفاء غيظه كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الإبل :

وإن الذى أصبحتمُ تحلبونه دمٌ غير أن اللون ليس بأشقرا

---

(١) هكذا بالشين المعجمة ومثله فى التاج (مادة عق) وصوابه « الا سعر » بالسين المهملة كما ورد فى كتب الأئمة ، ومنهم الاصمعى فى مختاراته (الاصمعيات) المطبوعة فى (ليبسك) . وقد ورد صحيحا فى موضع آخر من التاج (مادة سعر) قال : والاسعر لقب مرثد بن أبى حمران الجعفى الشاعر ، سمى بذلك لقوله :

فلا تدعنى الاقوام من آل مالك اذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

(٢) الاملیح ، موضع فى بلاد هذيل كانت به وقعة . ومعنى لا مرحوا لا جرحوا . يقول لم يغيبوا فنكفى أن يؤسروا أو يقتلوا ولا جرحوا أى ولا قاتلوا اذا كانوا معنا . عن اللسان .

(٣) اخبر أنهم آثروا ابل الدية والبانها على دم قاتل صاحبهم ، والوضح ههنا اللبن .

(٤) فى بعض الكتب (كانوا مع ابنة « حجاج ») . ولا أعلم أن كان له ابن يعرف بهذا الاسم ..

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلا :

ألا أبلغ بنى حجر بن وهب　　بأن التمر حلو فى الشتاء

وقال آخر :

خليلان مختلف شكلنا　　أريد العلاء وتبغى السمن

أريد دماء بنى مالك　　ورأى المعلى بياض اللابن

ولهذا كان يأبى أولياء المقتول عن قبول الدية إذا كانوا أقوياء . هذا وإن كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بما هو خير منه وأصلح فى المعاش والمعاد من تخيير الأولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفى وبين أخذ الدية فإن القصد به أن العرب لم تكن تعير من أخذ بدل ماله ولم تعده ضعفاً ولا عجزاً البتة بخلاف من أخذ بدل دم وليه .

ومن مذاهبهم حمل الملوك على الأعناق إذا مرضوا

قال أبو عبيدة : وكانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه لأنه عندهم أوطأ له من الأرض[1] .

قال النابغة الذبيانى :

ألم أقسِمْ عليك لتُخْبِرَنى　　أمحمولٌ على النعش الهُمَامُ ؟[2]

فأنى لا ألومك فى دخولٍ　　ولكن ما وراءك يا عِصَامُ ؟[3]

---

(١) معنى أو طأله من الارض : أن ذلك أسهل له وأكثر راحة مما لو وضع على الارض .

(٢) المراد بالنعش هنا مركب شبه الهودج . والهمام : الملك العظيم الهمة ويطلق ايضا على السيد الشجاع السخى . (٣) قوله : ماوراءك يا عصام مثل يضرب فى استعلام الخبر . قيل أول من قاله الحرث بن عمرو ملك كندة وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها (عصام) ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف فمضت فدخلت اليها فنظرت الى مالم ترقط مثله فخرجت وهى تقول : ترك الخداع ، من كشف القناع ، فأرسلتها مثلا ثم انطلقت الى الحرث فلما رآها مقبلة قال لها . ما وراءك يا عصام ..؟ الخ . وقيل ان المثل على التذكير وقائله النابغة الذبيانى قاله (لعصام ابن شهبر) حاجب النعمان .. ويجوز أن يكون أصل المثل ما ذكر أولا ثم اتفق الاسمان فخوطب كل بما استحق من التذكير والتأنيث . ومعنى البيت : لست ألومك بمنعك اياى من الدخول ولكن اعلمنى حقيقة خبره .

فإن يَهلِكْ أبو قابوسَ يهلكْ ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرام ؟ (١)
ونأخذْ بعـدَهُ بذناب عيش أجَبِّ الظهر ليس له سنَامُ (٢)

ومن حديث هذه الأبيـات أن النابغة كان عند النعمان ملك العرب بالحيرة كبيراً عنده خاصاً به وكان من ندمائه وأهل أنسه فحسد على منزلتــه منه فاتهموه بأمر فغضب عليه النعمان وأراد البطش به وكان للنعمان بواب يقال له عِصام ابن شهْبرَ الجرمى قال للنابغة إن النعمان موقع بك فانطلق فهرب النابغة إلى ملوك غسان ملوك الشام فـكان يمدحهم وترك النعمان فاشتد ذلك عليه وعرف أن الذى بلغه كذب فبعث إليه : إنك لم تعتذر من سخطة إن كان بلغتك ولـكنا تغيرنا لك عن شيء مما كنا لك عليه ولقد كان فى قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت إلى قوم قتلوا جدى و بينى و بينهم ما قد علمت وكان النعمان وأبوه وجده

---

(١) أبو قابوس كنية النعمان بن المنذر . وقابوس ممنـــوع من الصرف للعلمية والعجمة لانه معرب كاووس كذا فى القاموس وغيره . ونرى أنه عربى مأخوذ من القبس وهو النار أو الشعلة من النار ، والقابوس لغة ، الرجـل الجميل الوجه الحسن اللون » ومنعه من الصرف يجوز أن يكون للعلمة وشبه العجمة . وقوله « ربيع الناس والشهر الحرام » يريد أنه كالربيع فى الخصب لمجتديه وكالشهر الحرام لجاره لا يوصل الى من أجاره كما لا يوصل فى الشهر الحرام الى أحد .

(٢) قوله (نأخذ) قال النحويون : (روى بالجزم عطفا على جواب الشرط ، والرفع استئنافا ، والنصب بأن مضمرة وجوبا) . والذناب بالكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر بذنبه فيلطخ راكبه ،ومن كل شيء عقبه ومؤخره . والأجب المقطوع ، وقد شبه العيش بجمل أجب الظهر أى مقطوعه بمعنى أنه لا سنام له . فهو يقول أنا بعده سنكون فى ضيق من العيش كمن يمسك بذناب بعير لا سنام له وذلك أن البعير اذا قطع سنامه أو أكله الرحل لاينمو فكأنه كان لعيشهم بمنزلة السنام للبعير فاذا ذهب سنامه لم يرج منه خير. والظهر يروى بالرفع والنصب والجر . قال الامام ابن مالك فى (الكافية) فى باب الصفة المشبهة باسم الفاعل :

والرفع والنصب حكوا والجرا فى قول من قال : أجب الظهرا

قال فى شرحها — قال النـابغة :

ونأخـذ بعـــده بذناب عيش أجب الظهـــر ليس له سنام

يروى أجب الظهر بالرفع وهو نظـير قولنا جميل الوجه . ويروى أجب الظهر على الاضافة وهو نظير قولنا جميل الوجه انتهى . وفى حاشية الصبان على شرح الاشمونى على الفية ابن مالك : وروى فى أجب الجر صفة لعيش وجره بالكسرة ان أضيف الى مابعده والا فبالفتحة نيابة عن الكسر لانه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل والرفع خبرا لمبتدأ محذوف والنصب حالا .

قد أكرموا النابغة وشرفوه وأعطوه مالاً عظيماً وبلغ النابغة أن النعمان ثقيل من مرض أصابه حتى أشفق عليه منه فأتاه النابغة فألفاه محمولاً على رجلين ينقل ما بين الغمر وقصوره التى بين الحيرة فقال لبوابه عصام « ألم تقسم عليك لتخبرنّى » الأبيات المذكورة ، فعافاه الله وعفا عن النابغة . قال حسان بن ثابت : وفدت إلى النعمان فحسدت النابغة على ثلاث لا أدرى على أيتهن كنت أشدّ حسداً : أعلى إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ؟ أم على جودة شعره ؟ أم على مائة بعير من عصافيره [1] أمر له بها ؟ قال أبو عبيدة : قيل لأبى عمرو ؛ أمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك ؟ قال : لا لعمر الله ما لمخافته فعل . إنْ كان إلا آمناً من أن يوجه إليه النعمان جيشاً . وما كان النابغة يأكل ويشرب إلا فى آنية الذهب والفضة من عطايا النعمان وأبيه وجده ولا يستعمل غير ذلك .

ومن مذاهبهم فى دية الملوك وغيرهم

كان عامة العرب يأخذون فى دية النفس مائة من الإبل وكان هذا الحكم جاريا بين قبائلهم . وقد ذكرنا سابقاً أول من سن لهم ذلك ولما كان الملوك ممتازين عندهم فى كثير من الأحكام جعلوا دية أحدهم إذا قتل ألف بعير . قال قراد بن حنش الصاردى [2] :

---

(١) فى الصحاح : عصافير المنذر ابل كانت للملوك نجائب . وفى التهذيب : روى أن النعمان أمر للنابغة بمائة ناقة من عصافيره ؛ قال بن سيده : أظنه أراد من فتايا نوقه . وقال الازهرى : كان للنعمان بن المنذر نجائب يقال لها عصافير النعمان قال حسان بن ثابت : فما حسدت أحدا حسدى للنابغة حين أمر له النعمان بن المنذر بمائة ناقة بريشها من عصافيره وحسام وآنية من فضة . قوله بريشها : كان عليها ريش ليعلم أنها من عطايا الملوك . كذا فى اللسان .

(٢) هو قراد بن حنش بن عمرو بن عبد الله بن عبد العزى بن صبيح بن سلامة . من بنى صاردة بتقديم الراء على الدال . قال فى التاج : (وبنو الصاردة حى من بنى مرة بن عوف بن غطفان وهو لقب واسمه سلامة . قال ابن دريد : هو من صرد السهم أو من صرد الرجل من البرد) .

ونحنُ رَهَنَّا القوس ثمت فوديت ... بألفٍ على ظهر الفَزَارى أقرعا[1]
بعشر مئين الملوك سَعَى بها ... ليوفى سيار بن عمرو فأسرعا

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد : إن سيار بن عمرو بن جابر الفزَاري احتمل للأسود بن المنذر دية ابنه الذى قتله الحرث بن ظالم ألف بعير وهى دية الملوك ورهنه بها قوسه فوفى . وكان هذا قبل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة فى مقاتل الفرسان : إن أخا سيار لأمه الحرث بن سفيان الصاردىّ تكفلها للأسود فقام منها بثمانمائة ثم مات فرهن سيار قوسه على المائتين الباقيتين لا غير فلما مدح قراد بن حنش بنى فزارة جعل الحمالة[2] كلها لسيار . ومثل هذا ما قاله الفرزدق من قصيدة طويلة :

فدى لسيوف من تميم وفَى بها ... ردائى وجلّت عن وجوه الأهاتم[3]
شفين حزازات الصدور ولم تدع ... علينا مقالاً فى وفاء للائم[4]
أبأنا بهم قتلى وما فى دمائهم ... وفاء وهن الشافيات الحوائم[5]
جزى الله قومى إذ أراد خفارتى ... قتيبة سعى الأفضلين الأكارم
هم سمعوا يوم المحصّب من منى ... ندائى إذا التفت رقاق المواسم[6]

---

(١) ألف أقرع أى تام . يقال : سقت اليك ألفا أقرع من الخيل وغيرها أى تاما وهو لكل ألف كما أن هنيدة اسم لكل مائة كما فى الصحاح قال الشاعر :

قتلنا لو أن القتل يشفى صدورنا ... بتدمر ألفا من قضاعة أقرعا

وقال آخر :

ولو طلبونى بالعقوق أتيتهم ... بألف أؤديه الى القوم اقرعا

والالف مذكر ولذلك قالوا ألف أقرع ولم يقولوا قرعاء . وقيل : لو أنث باعتبار الدراهم لجاز بمعنى هذه الدراهم ألف . (٢) الحمالة : كسحابة ، الدية يحملها قوم عن قوم . (٣) قال البغدادى فى الخزانة : قال العينى — الرداء فى البيت بمعنى السيف وانشد عليه بيتا . . . وجلت بالتشديد بمعنى جلت بالتخفيف من جلا القوم عن البلد يجلون بالضم اذا جلوا وخرجوا ، والمعنى كشفت ردائى حين وفت بدية الملوك الثلاثة هم ذلك وتمادى الحروب عن أعيان الاهاتم وكبرائهم فافهم ، هذا كلامه وهو كلام من لم يصل الى العنقود . أ هـ (٤) حزازات الصدور : غيظ الصدور .

(٥) قوله : أبأنابهم ، يقال أبأت فلانا بفلان فباء به اذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا الا والثانى كفء للاول . والحوائم من الابل العطاش التى تحوم حول الماء (٦) المحصب : موضع رمى الجمار بمكة ، ومنى : قال ياقوت بالكسر والتنوين فى درج — الوادى الذى ينزله الحاج ويرمى فيه الجمار من الحرام سمى بذلك لما يمنى به من الدماء أى يراق

وقصة رداء الفرزدق رواها أبو عبيدة قال : كان الفرزدق بالمدينة حين جاءت وقعة وكيع ، وحج سليمان بن عبد الملك فبلغه بمكة وقعة وكيع بقتيبة فخطب الناس بمسجد عرفات فذكر غدر بنى تميم ووثوبهم على سلطانهم وإسراعهم إلى الفتن وأنهم أصحاب فتن وأهل غدر وقلة شكر فقام إليه الفرزدق فقال وفتح رداءه : يا أمير المؤمنين هذا ردائى رهن لك بوفاء بنى تميم والذى بلغك كذب . فقال الفرزدق فى ذلك حيث جاءت بيعة وكيع لسليمان تلك الأبيات . يعنى بالأهاتم الأهتم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن الحرث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن مناة بن تميم فعرف أن الأهتم ليس لقباً لسنان بن خالد . والحوائم : العطاش التى تحوم حول الماء .

ومن مذاهبهم تحريم الخمر على نفوسهم إلى أن يأخذوا بثأرهم

كانت العرب تحرم الخمر على أنفسهم فى مدة طلبهم لأنها مشغلة لهم عن كريم الأخلاق والإقبال على الشهوة . قال الشنفرى يرثى خاله تأبط شرًّا ويذكر إدراكه ثأره من قصيدة له [1] :

---

(١) نسبة القصيدة التى منها هذان البيتان الى الشنفرى وانه رثى خاله تأبط شرا غير صحيحة لان الشنفرى مات قبل تأبط شرا ورثاه تأبط شرا بأبيات مشهورة وممن رواها أبو الفرج الاصبهانى وابن الانبارى وأولها :

على الشنفرى صوب الغمام ورائح ... غزير الكلى وصيب الماء باكر

— ولان تأبط شرا ليس بخال للشنفرى . والصحيح ان هذا الشعر مولد . قال أبو زكريا الخطيب فى شرح ديوان الحماسة : « وذكر أنه لخلف الاحمر وهو الصحيح وقيل : قال ابن أخت تأبط شرا . قال النمرى : ومما يدل على انها لخلف الاحمر قوله فيها (جل حتى دق فيه الاجل) فان الاعرابى لا يكاد يتغلغل الى مثل هذا . قال أبو محمد الاعرابى : هذا موضع المثل : ليس هذا بعشك فادرجى ليس هذا كما ذكره بل الاعرابى قد يتغلغل الى أرق من هذا لفظا ومعنى وليس من هذه الجهة عرف أن الشعر مصنوع لكن من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى قال : مما يدل ان هذا الشعر مولد انه ذكر فيه سلعا وهو بالمدينة واين تأبط شرا من سلع . وانما قتل فى بلاد هذيل ورمى به فى غار يقال له رخمان وفيه تقول أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان ... بثابت بن جابر بن سفيان

من يقتل القرن ويروى الندمان » .

فادَّركنا الثأر منهم ولما ينج من لحيان إلا الأقل [١]

حلَّتِ الخمر وكانت حراماً وبلأىٍ ما ألمَّتْ تحِلُّ [٢]

وفى كتاب (مساوئ الخمر) غزا امرؤ القيس بنى أسد ثائراً بأبيه وقد جمع جموعاً من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها [٣] وهرب بنو أسد من بين يديه حتى أنضوا [٤] الإبلَ وحسروا [٥] الخيل ولحقهم فظفر بهم وقتل بهم مقتلة عظيمة وأبار [٦] حلمة بن أسد ومثل فى عمرو وكاهل ابنىْ أسد وذكر الكلبى عن شيوخ كندة أنه جعل يسمل [٧] أعينهم ويحمى الدروع فيلبسهم إياها . وروى أبو سعيد السكرى مثل ذلك وأنه ذبحهم على الجبل ومزج الماء بدمائهم إلى أن يبلغ الحضيض [٨] وأصاب قوماً من جُذام كانوا من بنى أسد . وفى ظفره ببنى أسد يقول :

قولا لدُودانَ عبيد العصا : ما غرَّكم بالأسد الباسل ؟

إلى أن قال :

لا تسقينى الخمرَ إن لم يروا قتلى فِئاماً بأبى الفاضل

حتى أُبيرَ الحىَّ من مالك قتلاً ومن يشرف من كاهل

ومن بنى غنم بن دُودان إذ نقذِفُ أعلاهم على السافل

نعلوهُمُ بالبيض مسنونةً حتى يروا كالخشب الشائل

حات لى الخمرُ وكنت امرءاً عن شربها فى شُغُلٍ شاغلٍ

---

(١) أدركنا أخذنا . ومن لحيان صوابه ملحيين أى من الحيين (٢) قوله : ما المت يجوز أن تكون (ما) صلة ويجوز أن تكون مع الفعل بعده فى تقدير المصدرية ، يريد ، بلاى — أى ببطء — المت حلالا أو المامها حلالا . والالمام : الزيارة الخفيفة وتوسع فيه فاجرى مجرى حصلت (٣) ذؤبان العرب : لصوصها . والصعاليك جمع صعلوك وهو الفقير

(٤) يقال : أنضى الرجل بعيره اذا هزله بالسير فذهب لحمه (٥) حسرت الدابة : اتعبتها .

(٦) أى أهلك (٧) سمل عينه سملا من باب قبل : فقأها بحديدة محماة

(٨) هو القرار فى الارض :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل [١]

قوله قولا لدودان الخ دودان بالضم هو ابن أسد بن خزيمة ، وأراد القبيلة وكان أبو امرىء القيس إذا غضب على أحد منهم ضربه بالعصا فسموا عبيد العصا أى يعطون على الضرب والهوان . وأراد بالأسد الباسل أباه . والفئام بكسر الفاء بعدها همزة ممدودة : الجماعة . وأبير : أفنى . ومالك : هو ابن أسد وأراد بمن يشرف من كاهل علياء بن الحرث من بنى كاهل بن أسد . وقوله : نقذف أى نرمى بعضهم على بعض إذا قتلوا . والمسنونة المحدودة . والشائل الساقط . وقوله : (حلت لى الخمر الخ) قال السعدىّ فى مساوىء الخمر : إنما قال هذا لأنه لم يكن حضر قتل أبيه وكان أبوه أقصاه لأنه كره منه قول الشعر وإنما جاءه الأعور العجلى يخبره وهو يشرب فقال : ضيعنى صغيراً ، وحملنى ثقل الثأر كبيراً ، اليوم خمر ، وغداً أمر [٢] ، لاصحو اليوم ولا سكر غداً ، ثم شرب سبعاً ، ثم لما صحا حلف أن لا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره فذلك قوله : حلت لى الخمر . وهذا معنى مازالت العرب تطرقه . قال إسماعيل بن هبة الله الموصلى فى كتاب الأوائل : أول من اخترع هذا المعنى امرؤ القيس فى هذا الشعر . وقوله فاليوم أشرب الخ المستحقب المكتسب وأصله من

(١) يستشهد النحويون بهذا البيت على تقدير رفع الحرف الصحيح كما فى ـ أشرب ـ فالباء حرف صحيح وظاهر كلام السيوطى فى الهمع أن ذلك لغة وهو الصحيح لثبوت القراآت التى أشارت اليها . وقال سيبويه : انه ضرورة ، وانكر المبرد هذه الرواية وزعم ان الرواية : ـ فاليوم فاشرب ـ وتبعه السيد المرتضى وبعض المعاصرين .. قال ابن جنى : اعتراض أبى العباس المبرد هنا على الكتاب انما هو على العرب لا على صاحب (الكتاب) لانه حكاه كما سمعه ولا يمكن فى الوزن أيضا غيره ، وقول أبى العباس « انما الرواية : فاليوم فاشرب » فكانه قال لسيبويه :كذبت على العرب ولم تسمع ما حكيته عنهم ، واذا بلغ الامر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه . وكذلك انكاره عليه قول الشاعر (وقد بداهنك من المئزر) فقال : انما الرواية (وقد بدا ذاك من المئزر) وما أطيب العروس لولا النفقة » ولو كان الى الناس تخير ما يحتمله الموضع لكان الرجل اقوم من الجماعة به وأوصل الى المراد منه . (٢) قال الميدانى : « أى يشغلنا اليوم خمر وغدا يشغلنا أمر الحرب ومعناه اليوم خفض ودعة وغدا جد واجتهاد وهو يضرب للدول الجالبة للمحبوب والمكروه .

استحقب أى وضع فى الحقيبة وهى خرج يربط بالسرج خلف الراكب . وإثماً مفعول مستحقب كأن شربها بعد وفاء النذر لا إثم فيه بزعمه ، والواغل : الذى يأتى شراب القوم من غير أن يدعى إليه وهو مأخوذ من الوغول وهو الدخول ومعناه أنه وغل فى القوم وليس منهم ، والله أعلم بحقائق الأمور .

ومن مذاهبهم فى الخليع والرجل اللعين

كانت العرب فى الجاهلية إذا قال قائل منهم : هذا ابنى قد خلعته كان لا يؤخذ بجريرته وذنبه . وقال الفاضل الزوزنى فى شرح معلقة امرئ القيس عند الكلام على قوله :

ووادٍ كَجَوْفِ العيرِ قَفْرٍ قطعتُهُ ‌‌ ‌ بِهِ الذئبُ يَعْوِى كالخليع المُعَيَّلِ[1]

الخليع الذى قد خلعه أهله لخبثه ، وكان الرجل منهم يأتى بابنه إلى الموسم ويقول : ألا إنى قد خلعت ابنى هذا فإن جُرَّ لم أضمن وإن جُرَّ عليه لم أطلب فلا يؤخذ بجرائره انتهى . وفى كتاب فتح البارى : الخليع فعيل بمعنى مفعول يقال تخالع القوم إذا نقضوا الحلف فإذا فعلوا ذلك لم يطالبوا بجنايته فكأنهم خلعوا اليمين التى كانوا لبسوها معه ومنه سمى الأمير إذا عزل خليعاً ومخلوعا . وقال أبو موسى فى اللعين خلعه قومه أى حكموا بأنه مفسد فتبرأوا منه ولم يكن ذلك فى الجاهلية يختص بالحليف بل كانوا ربما خلعوا الواحد من القبيلة ولو كان من

---

(١) الجوف : باطن الشيء . والعير : الحمار والقفر : المكان الخالى . والمعيل : الكثير العيال . وقد عيل تعييلا فهو معيل والعواء صوت الذئب وما أشبهه : زعم صنف من الائمة انه شبه الوادى فى خلائه عن الانس ببطن العير وهو الحمار الوحشى اذا خلا من العلف . وقيل : بل شبهه فى قلة الانتفاع به بجوف العير لانه لا يركب ولا يكون له در . وزعم صنف منهم انه أراد كجوف الحمار فغير اللفظ الى ما وافقه فى المعنى لاقامة الوزن . والخيع زعم الائمة انه فى هذا البيت المقامر . والمعنى : ورب واد يشبه وادى الحمار والخلاء من النبات والانس أو يشبه بطن الحمار فيما ذكرنا طويته سيرا وقطعة وكان الذئب يعوى فيه من فرط الجوع كالمقامر الذى كثر عياله ويطالبه عياله بالنفقة وهو يصيح بهم ويخاصمهم اذ لا يجد ما يرضيهم به . انتهى ملخصا من شرح الزوزنى .

صميمها إذا صدرت منه جناية تقتضى ذلك وهذا مما أبطله الإسلام من حكم الجاهلية . وفى البخارى : وقد كانت هذيل خلعوا خليعاً لهم فى الجاهلية فطرق أهل بيت من اليمن بالبطحاء فانتبه له رجل منهم فحذفه بالسيف فقتله فجاءت هذيل فأخذوا اليمانى فرفعوه إلى عمر بالموسم وقالوا : قتل صاحبنا . فقال : إنهم قد خلعوه فقال يقسم خمسون من هذيل ما خلعوا ، قال : فأقسم منهم تسعة وأربعون رجلا وقدم رجل منهم من الشام فسألوه أن يقسم فافتدى يمينه منهم بألف درهم فأدخلوا مكانه رجلا آخر فدفعه إلى أخى المقتول فقرنت يده بيده . قال : قالوا ؛ فانطلقنا والخمسون الذين أقسموا حتى إذا كانوا (بنخلة) أخذتهم السماء فدخلوا فى غار فى الجبل فانهجم الغار على الخمسين الذين أقسموا فماتوا جميعاً وأفلت القرينان واتبعهما حجر فكسر رجل أخى المقتول فعاش حولا ثم مات . وحاصل القصة : أن القاتل ادعى أن المقتول لص وأن قومه خلعوه فأنكروا هم ذلك وحلفوا كاذبين فأهلكهم الله بحنث القسامة وخلص المظلوم وحده . وهذيل : القبيلة المشهورة وهم ينتسبون إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر . ويسمى الخليع الرجل اللعين أيضاً . قال أبو عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى : كان الرجل فى الجاهلية إذا غدر وأخفر الذمة جعل له مثال من طين ونصبه ؟ وقيل ألا إن فلاناً قد غدر فالعنوه كما قال الشاعر :

فلنقتلن بخالد سرواتكم ولنجعلن لظالم تمثالا

فالرجل اللعين هو هذا التمثال . وبعضهم يقول الرجل اللعين هو نفس الخليع . وقد اختلف أهل اللغة فى المراد بقول الشماخ بن ضرار فى مدح عَرَابة بن أوس من قصيدة :

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللجين[1]

---

(١) اللجين : الخبط الملجون . قال الليث هو ورق الشجر يخبط بدقيق أو شعير فيعلف الابل وكل ورق أو نحوه فهو ملجون أو لجين وفى الصحاح : اللجين الخبط وهو ما سقط من الورق عند الخبط .

ذعرت به القطا ونفيت عنه   مقام الذئب كالرجل اللعين

فقالوا : يريد بقوله ذعرت به القطا الخ أنه جاء إلى الماء متنكراً وذعرت خوفت ونفرت ونفيت طردت وخص الذئب والقطا لأن القطا أهدى الطير والذئب أهدى السباع وهما السابقان إلى الماء قال شارح الديوان : أى ذعرت القطا بذلك الماء ونفيت عن ذلك الماء مقام الذئب أى وردت الماء فوجدت الذئب عليه فنحيته عنه أراد مقام الذئب كالرجل اللعين المنفى المتصى انتهى . فاللعين على هذا بمعنى الطريد وهو وصف للرجل . وهو ما ذهب إليه ابن قتيبة فى أبيات المعانى : قال اللعين المطرود وهو الذى خلعه أهله لكثرة جناياته . وقال بعض شراح أبيات المفصل : اللعين المطرود الذى يلعنه كل أحد ولا يؤويه أى هذا الذئب خليع لا مأوى له كالرجل اللعين وقال صاحب الصحاح : الرجل اللعين شىء ينصب فى وسط الزرع يستطرد به الوحوش وأنشد هذا البيت . وقد سبق قول أبى عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى فى ذلك وقد أغرب فإنه لم يظهر للبيت معنى على قوله . وعلى كل حال فهذا المذهب للعرب يدل على أنهم قد بلغوا فى الجاهلية إلى غاية الغايات ، فى ميلهم لمحاسن الأخلاق وجميل الصفات ، حتى أنهم تجاوزوا الحد فى ذلك فبلغوا إلى درجة العقوق ، وعدم المبالاة بما يجب للأقارب والبنين من الحقوق ، حثاً على اجتناب كل ما يشين من الأخلاق الذميمة ، وزجراً عن تعاطى سفاسف الأمور والجرائم العظيمة ، والخلعاء كانوا قد خلعوا عنهم لباس المروءة والإنصاف ، وتردوا بأردية الجور والظلم والاعتساف ، فلذلك عوملوا بهاتيك المعاملة ، ولم تراع فيهم عهود الموافقة والمسالمة ، ولما كان كل أمر تجاوز الحد ، انقلب بما يستنتج من المفاسد إلى الضد ، نهى الشرع عن كل ما يستوجب المفاسد ، وأمر — والحمد لله تعالى — بما يستحق المحامد من المقاصد .

ومن مذاهب العرب : المعاقرة

وهو أن يتبارى الرجلان كل منهما يجادل صاحبه فيعقر هذا عدداً من إبله ويقر صاحبه فأيهما كان أكثر عقراً غلب صاحبه ونفره . وفى شرح سنن أبى داود للخطابىّ عند الكلام على قوله نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب وكره أكل لحومها لئلا يكون مما أهل لغير الله ، ثم قال : وفى معناه مما جرت به عادة الناس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك والرؤساء عند قدومهمْ البلدان وأوان حدوث نعمة تتجدد لهم ونحو ذلك من الأمور انتهى . وقد وقعت معاقرة عظيمة فى صدر الإسلام من غالب أبى الفرزدق الشاعر الشهير وذلك فى خلافة الإمام على كرم الله تعالى وجهه ، وإليها الإشارة بقول جرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق :

تعدون عَقْرَ النيبِ أفضلَ مجدكم بنى ضَوْطَرَى لولا الكمىَّ المقنَّعا[1]

يعنى أنكم تعدون عقر الإبل المسنة التى لا ينتفع بها ولا يرجى نسلها أفضل مجدكم هلا تعدون قتل الشجعان ، ومنازلة الأقران . . وقضية عقر الإبل هذه مشهورة فى التواريخ محصلها : أنه أصاب أهل الكوفة مجاعة فخرج أكثر الناس إلى البوادى وكان غالب أبو الفرزدق رئيس قومه فاجتمعوا فى أطراف السماوة[2] من بلاد كلب على مسيرة يوم من الكوفة فعقر غالب لأهله ناقة صنع منها طعاماً وأهدى إلى قوم من تميم جفاناً وأهدى إلى سحيم جفنة فكفأها وضرب الذى أتى بها وقال أنا مفتقر إلى طعام غالب ! ونحر سحيم لأهله ناقة ، فلما كان من الغد نحر غالب لأهله ناقتين ونحر سحيم ناقتين ، وفى اليوم الثالث نحر غالب

---

(١) معنى تعدون : تجعلون وتحسبون ولهذا عداه الى مفعولين . والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة . وعقر الناقة اذا ضرب قوائمها بالسيف ، وربما قيل عقر الناقة بمعنى نحرها . ويقال للقوم الذين لا يغنون غناء بنو ضوطرى . وقوله : لولا الكمى يريد هلا الكمى — وهو الشجاع أو لابس السلاح . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر . وقد زعم ابن الشجرى ان البيت للاشهب ابن زميلة وليس ذلك بصواب . (٢) يقال لهذا المحل الذى اجتمعوا فيه (صوأر) .

ثلاثا فنحر سحيم ثلاثاً ، فلما كان اليوم الرابع نحر غالب مائة ناقة ولم يكن لسحيم هذا القدر فلم يعقر شيئاً . فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة قال بنو رياح لسحيم : جررتَ علينا عار الدهر ! هلاَّ نحرت مثل مانحر غالب ! وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين ! فاعتذر أن إبله كانت غائبة ونحر نحو ثلثمائة ناقة . وكان فى خلافة على ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فمنع الناس من أكلها . وقال : إنها مما أهل لغير الله به ولم يكن الغرض منه إلا المفاخرة والمباهاة فجمعت لحومها على كناسة الكوفة فأكلها الكلاب والعِقْبان والرخم (١) . وقدأوردالقالىهذه الحكاية فىذيلأماليه (٢) . بأبسط مما ذكرناه وأورد ماقيل فيها منأشعارمامدح به غالب وهجى بهسحيم والله أعلم .

ومن مذاهبهم تفرد العزيز منهم بالحمى (٣)

كان من عوائد العرب فى الجاهلية أن ينفرد العزيز منهم بالحمى لنفسه كالذى كان يفعله كليب بن وائل فإنه كان يوافى بكلب على نشاز من الأرض —

(١) العقبان بكسر العين المهملة جمع عقاب بالضم طائر . والرخم كقصب جمع رخمة كقصبة طائر يأكل العذرة وهو من الخبائث وليس من الصيد .

(٢) ص ٥٣ طبعة بولاق .

(٣) الحمى بالكسر والقصر وأصله فى اللغة الموضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعوه أى يمنعونهم يقال حميت الموضع اذا منعت منه واحميته اذا جعلته حمى لا يقرب . قال الاصمعى : الحمى حميان ، حمى ضرية وحمى الربذة . قال ياقوت الحموى البغدادى (٣–٣٤٦) : ووجدت أنا ، حمى فيد وحمى النير وحمى ذى الشرى وحمى النقيع — فاما حمى ضرية فهو أشهرها وأسيرها ذكرا وهو كان حمى كليب بن وائل فيما زعم لى بعض أهل باديةطيى . قال: ذلك مشهور عندنا بالبادية يرويه كابرنا عن كابر . قال : وفى ناحية منه قبر كليب معروف أيضا الى اليوم وهو سهل الموطىء كثير الخلة وأرضه صلبة ونباته مسمنة وبه كانت ترعى ابل الملوك .. وحمى الربذة أيضا اراده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : لنعم المنزل الحمى لولا كثرة حياته .. وحمى النير بكسر النون . قال ياقوت، وفيه قبر كليب بن وائل على ما خبرنا فاما فى أشعار كلب فهو حمى بلادهم قريب من المدينة بينها وبين عرب .. وحمى النير بكسر النون . قال قوت ، وفيه قبر كليب بن وائل على ما خبرنا بعض طيىء على الجبلين قال وهو قرب ضرية (٨–٣٥٦) .. وحمى الشرى: كانوا قد حموه لذى الشرى وهو صنم كان لدوس (٥–٢٤٦) .. وحمى النقيع: حماه عمر بن الخطاب رضى الله عنه لخيل المسلمين وهو من أودية الحجاز يدفع سيله الى المدينة يسلكه العرب الى مكة منه وهو على عشرين فرسخا أو نحو ذلك من المدينة (٨–٣١٢) والعرب فى الحمى أشعار كثيرا ما يعنون بها حمى ضرية . انتهى ملخصا من معجم البلدان .

وهو المكان المرتفع — ثم يستعويه ويحمى ما انتهى إليه عُواؤه من كل الجهات ويشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله . وفيه يقول العباس بن مرداس من قصيدة :

كما كان يبغيها كُلَيْبٌ بظلمِهِ من العزّ حتى طاحَ وهْوَ قتيلها
على وائل إذ يترك الكلب نابحاً وإذ يمنع الأفناء منها حلولها[1]

« قال الميدانى » فى تفسير المثل الدائر على ألسنة العرب (أعزُّ من كليب وائل) هو كليب بن ربيعة بن الحرث بن زهير وكان سيد ربيعة فى زمانه وقد بلغ من عزه أنه كان يحمى الكَلأَ [2] ، فلا يُقْرَب حماه ويجير الصيد فلا يُهاج وكان إذا مَرّ بروضةٍ أعجبته أو غدير ارتضاه كنع [3] كليباً ثم رمى به هناك فحيث بلغ عُواؤه كان حمى لا يُرعى . وكان اسم كليب بن ربيعة وائلا فلما حمى كليبه المرمى الأكلاء قيل : أعز من كليبِ وائلٍ ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنوه اسمه . وكان من عزه (أنه لا توقد نار مع ناره ولا يستبق أحد إلى الوِرْد إلا بأمره) ولا يتكلم أحد فى مجلسه ولا يحتبى [4] أحد عنده . ولذلك قال أخوه مهلهل بعد موته :

نُبئْتُ أن النارَ بعدك أُوقِدَت واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلِسُ[5]
وتكلموا فى أمرِ كل عظيمةٍ لو كنت شاهِدَهُمْ بها لم يَنبِسُوا[6]

---

(١) طاح : سقط . والافناء من الناس الاخلاط (٢) الكلأ مهموز العشب رطبا كان أو يابسا (٣) أى شد وطرح (٤) احتبى بالثوب : اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها وقد يكون الاحتباء باليدين عوض العمامة أو الثوب . ومنه : الاحتباء حيطان العرب أى ليس فى البرارى حيطان فاذا أراد أن يستند احتبى لان الاحتباء يمنعهم من السقوط ويصير لهم كالجدار « التاج » . (٥) قال التبريزى : كان كليب وائل لا توقد مع ناره للضيفان نار فى احمائه وفيما يقرب من منازلة وأوطانه وكان اذا حضر مجلسه الناس لا يجسر أحد أن يفاخر أو يسابه أعظاما لقدره فلما فقد تجرأوا على الكلام (٦) لم ينبسوا : لم يتكلموا ، وهذا نحو قول صفية ابنة عبد المطلب ويروى لغيرها :

قد كان بعدك انباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

الهنابث : الامور الشداد . راجع شرح ديوان الحماسة لابى زكريا الخطيب التبريزى ج ٢ ص ١٩٧ .

وفيه أيضاً يقول معبد بن سَعْنَة التميمى :[1]

كفعل كليب كنت خبرت أنه　يخطِّطُ أكلاء المياه ويمنع

يجير على أفناء بكر بن وائل　أرانب ضاحٍ والظباء فترتع[2]

وكليب هذا هو الذى قتله جساس بن مرة الشيبانى انتهى . وقال الإمام الخطابى فى شرح سنن أبى داود عند الكلام على قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لا حمى إلا لله ولرسوله : قال ابن شهاب بلغنى أن رسول لله صلى الله تعالى عليه وسلم حمى النقيع · قال الخطابى : قوله لا حمى إلا لله ولرسوله يريد لا حمى إلا على معنى ماأباحه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى الوجه الذى حماه . وفيه إبطال ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من ذلك ، وكان الرجل العزيز منهم اذا انتجع[3] بلداً مخصباً أوفى بكلب على جبل أو على نَشَز[4] من الأرض ثم استعوى الكلب ووقف له من يسمع منتهى صوته بالعُوَاء فحيث انتهى صوته حماه من كل ناحية لنفسه ومنع الناس منه . فأما ما حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمهازيل الصدقة واضعفى الخيل كالنقيع وهو مكان معروف مستنقع المياه ينبت فيه الكلأ . وقد يقال إنه مكان ليس بجد واسع يضيق بمثله على المسلمين المرعى ، فهو مباح . وللأئمة أن يفعلوا ذلك على النظر مالم تضق منه على العامة المراعى والله أعلم ، وهذا الكلام الذى سقته معنى كلام الشافعىّ فى كتبه انتهى كلام الخطابى . وقد علم منه أن الشريعة أبطلت هذا المذهب الذى كان عليه أهل الجاهلية وأن المشروع ما كان على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) فى القاموس وشرحه : ابن سعنة شاعر جاهلى واسمه معبد ضبةانتهى وورد فى « تهذيب الالفاظ — ص ٢١٦ — طبعة المطبعة الكاثوليكية فى بيروت » « معبد بن شعبة » بالشين المعجمة والباء الموحدة وهو تصحيف فاحذره.

(٢) الخط الارض التى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك وقد خطها واختطها أى اتخذها لنفسه واعلم عليها علامة بالخط ليعلم انه قد احتازها ليبنيها دارا. والافناء : مر تفسيره قريبا . وضاح : موضع غربى سلمى فيه ماءة يقال لها مخربة . وقيل رملة . وقيل واد فى ديار كلاب . (٣) انتجع : طلب الكلأ فى موضعه . (٤) النشز : المكان المرتفع .

وفى كتاب (الأحكام السلطانية) للإمام الماوردى أتم تفصيل لهذه المسئلة . فقد قال[1] : قد حمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة وصعد جبلا بالنقيع — قال أبو عبيدة النقيع بالنون وقال هذا حماى وأشار بيده الى القاع وهو قدر ميل فى ستة أميال حماه لخيل المسلمين فأما حمى الأئمة من بعده فإن حموا به جميع الموات أو أكثره لم يجز وإن حموا أقله لخاص من الناس أو لأغنيائهم لم يجز وإن حموه لكافة المسلمين أو للفقراء والمساكين ففى جوازه قولان « أحدهما » لا يجوز ويكون الحمى خاصاً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (الرواية صعب بن جثامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم) حين حمى النقيع قال : لا حمى إلا لله ولرسوله . « والقول الثانى » أن حمى الأئمة بعده جائز كجوازه له صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه كان يفعل ذلك لصلاح المسلمين لا لنفسه فكذلك من قام مقامه فى مصالحهم . قد حمى أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالرَّبَذة لأهل الصدقة واستعمل عليه مولاه أبا سلامة . وحمى عمر رضى الله تعالى عنه من السرف[2] مثل ما حماه أبو بكر من الرَّبَذَة وولى عليه مولى له يقال له هنى . وقال يا هنى : ضم جناحك عن الناس واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مجابةٌ وأدخل ربّ الصُّرَيمة[3] ورب الغُنَيْمة ، وإياك ونعم

---

(١) — ص ١٦٤ . (٢) السرف : بفتح أوله وكسر ثانيه : موضع على عشرة أميال من مكة وقيل أقل أو أكثر قرب التنعيم تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحرث وبنى بها بسرف وكانته وفاتها أيضا بسرف ودفنت هنالك . . قال القاضى عياض : وأما الذى حمى فيه عمر (رض) فجاء فيه أنه « حمى السرف والربذة » كذا عند البخارى بالسين المهملة ؛ وفى موطأ ابن وهب « الشرف » بالشين المعجمة وفتح الراء وكذا رواه بعض رواة البخارى وأصلحه وهذا الصواب وأما سرف فلا يدخله الالف واللام . (انظر معجم البلدان : ج ٥ ص ٧١ ، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٥) . (٣) تصغير الصرمة وهى بالكسر القطعة من الابل واختلف فى تحديدها فقيل هى نحو الثلاثين كما فى الصحاح وقيل هى ما بين العشرين الى الثلاثين أو ما بين الثلاثين الى الخمسين والاربعين فاذا بلغت الستين فهى الصدعة ، أو ما بين العشرة الى الاربعين أو ما بين عشرة الى بضع عشرة كأنها اذا بلغت هذا القدر تستقل بنفسها فيقطعها صاحبها عن معظم ابله .

ابن عفان وابن عوف فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعان إلى نخل وزرع و إن رب الصريمة و رب الغنيمة يأتيانى بعيالها فيقولان . يا أمير المؤمنين أفتاركهم أنا لا أبالك فالكلأ أهون علىّ من الدينار والدرهم ، والذى نفسى بيده لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً . فأما قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا حمى إلا لله ولرسوله : فمعناه لا حمى إلا على مثل ما حماه الله تعالى ورسوله للفقراء والمساكين ، ولمصالح كافة المسلمين ، لا على مثل ما كانوا عليه فى الجاهلية ثم قال : و إذا جرى على الأرض حكم الحمى استبقاء لمواتها سابلا ومنعاً من إحيائها ملكا روعى حكم الحمى فإن كان للكافة تساوى فيه جميعهم من غنى وفقير ومسلم وذمى فى رعى كلئه بخيلهم وما شيتهم . فإن خص به المسلمون اشترك فيه أغنياؤهم وفقراؤهم ومنع منه أهل الذمة ، و إن خص به الفقراء والمساكين منع منه الأغنياء وأهل الذمة ولا يجوز أن يخص به الأغنياء دون الفقراء ولا أهل الذمة دون المسلمين ، و إن خص به نعم الصدقة أو خيل المجاهدين لم يشركهم فيه غيرهم ، ثم يكون الحمى جارياً على ما استقر عليه من عموم وخصوص فلو اتسع الحمى المخصوص لعموم الناس جاز أن يشتركوا فيه لارتفاع الضرر عمن خص به ، ولو ضاق الحمى العام عن جميع الناس لم يجز أن يختص به أغنياؤهم وفى جواز اختصاص فقرائهم به وجهان .
و إذا استقر حكم الحمى على الأرض فأقدم عليها من أحياها ونقض حماها روعى الحمى ، فإن كان مما حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان الحمى ثابتاً والإحياء باطلا والمتعرض لإحيائه مردوعاً مزجوراً لا سيما إذا كان سبب الحمى باقياً لأنه لا يجوز أن يعارض حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنقض ولا إبطال .
و إن كان من حمى الأئمة بعده ففى إقرار إحيائه قولان « أحدهما » لا يقر ويجرى عليه حكم الحمى كالذى حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه حكم نفذ بحق « والقول الثانى » يقر الإحياء ويكون حكمه أثبت من الحمى لتصريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله : « من أحيا أرضاً مواتاً فهى له . ولا يجوز لأحد

من الولاة أن يأخذ من أرباب المواشى عوضاً عن مراعى موات أو حمى لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : المسلمون شركاء فى ثلاث فى الماء والنار والكلأ . انتهى . والمقصود من هذه النقول أن ما كان عليه أعزاء العرب وأقوياؤهم من التفرد بالحمى على الوجه الذى ذكرنا مما أبطله الشرع وهدمه .

مذهب العرب فى البحيرة والسائبة أيام الجاهلية

اعلم أن هذا المذهب من مبتدعات عمرو بن لحى الخزاعى أيضاً ، حمل العرب على التدين به فى جملة ما أحدث من المنكرات التى لم يكونوا يعلمونها من شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقد أبطلته الشريعة الإسلامية . قال تعالى : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُون » أما البحيرة فهى فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق والتاء للنقل إلى الاسمية أو لحذف الموصوف . قال الزجاج : كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها وامتنعوا من نحرها وركوبها ولا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى وهى البحيرة وعن قتادة أنها إذا نتجت خمسة أبطن نظر فى الخامس فإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه وإن كان أنثى شقوا أذنها وتركوها ترعى ولا يستعملها أحد فى حلب وركوب ونحو ذلك . وقيل البحيرة هى الأنثى التى تكون خامس بطن وكانوا لا يحلون لحمها ولبنها للنساء ، فإن ماتت اشترك الرجال والنساء فى أكلها . وعن محمد ابن إسحق ومجاهد أنها بنت السائبة وستأتى إن شاء الله تعالى قريباً وكانت تهمل أيضاً . وقيل هى التى ولدت خمساً أو سبعاً وقيل عشرة أبطن وتترك هملا و إذا ماتت حل لحمها للرجال خاصة . وعن ابن المسيب إنها التى منع لبنها للطواغيت فلا تحلب وقيل هى التى ولدت خمس إناث فشقوا أذنها وتركوها هملا . وجعلها فى القاموس على هذا القول من الشاء خاصة وكما تسمى بالحيرة تسمى بالغزيرة

أيضاً . وقيل هى السقب الذى إذا ولد شقوا أذنه وقالوا : اللهم إن عاش فقىّ و إن مات فذ كىّ فإذا مات أكلوه . وقيل هى التى تترك فى المرعى بلا راع ولما كان مذهب العرب مختلفاً فيها اختلف أئمة اللغة فى تفسيرها . وكل قول يرجع إلى مذهب و بذلك يجمع بين الأقوال .

(وأما السائبة) فهى فاعلة من سيبته أى تركته وأهملته فهو سائب وهى سائبة أو بمعنى مفعول كعيشة راضية . واختلف فيها فقيل هى الناقة تبطن عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تركب ولا يجز و برها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ونسب إلى محمد بن إسحق . وقيل هى التى تسيب للأصنام فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم . وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله تعالى عنهم . وقيل هى البعير يدرك نتاج نتاجه فيترك ولا يركب . وقيل كان الرجل إذا قدم من سفر بعيد أو نجت دابته من مشقة أو حرب قال هى سائبة أو كان ينزع من ظهرها فقارة أوعظماً وكانت لا تمنع عن ماء ولا كلأ ولا تركب وكأنه كان هـذا نذراً من نذورهم إذا قدم الرجل منهم من سفر أو شفى من مرض وهذا الوجه مروى عن أبى عبيدة . وقيل هى ماترك ليحج عليه . وقيل هى التى تركت لآلهتهم فقد كان الرجل يجىء بماشية فيتركها عندها و يسبل لبنها . وقيل هى العبد يعتق على أن لا يكون عليه ولاء ولا عقل[1] ولا ميراث وهو وجه غريب .

(وأما الوصيلة) فهى فعيلة بمعنى فاعلة . وقيل مفعولة . والأول أظهر كما ينبىء عن ذلك بيان المراد بها واختلف فيه فقال الفراء : هى الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين و إذا ولدت فى آخرها عناقا وجدياً قيل وصلت أخاها فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء وتجرى مجرى السائبة . وقال الزجاج : هى الشاة إذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم و إذا ولدت أنثى كانت لهم و إن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وقيل هى الشاة تَلِدُ ذكراً ثم أنثى فتصل أخاها

---

(١) العقل : دية المقتول .

فلا يذبحون أخاها من أجلها و إذا ولدت ذكراً قالوا هـذا قربان لآلهتنا . وعن ابن عباس رضى الله تعـالى عنهما هى الشاة تنتج سبعة أبطن فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشىء إلا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء وكذا إن كان ذكراً وأنثى قالوا وصـلت أخاها فتترك معه ولاينتفع بها إلا الرجال دون النساء فإن ماتت اشتركوا فيها . وقال ابن قتيبة : إن كان السابع ذكراً ذبح وأكلوا منه دون النساء وقالوا خالصة لذكورنا محرمة على أزواجنا و إن كانت أنثى تركت فى الغنم و إن كان ذكراً وأنثى فـكقول ابن عباس رضى الله تعـالى عنه . وقال محمد بن إسحق : هى الشاة تنتج عشر إناث متواليات فى خمسة أبطن فمـا ولدت بعده للذكور دون الإناث فإذا ولدت ذكراً وأنثى معاً قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوه لمـكانها . وقيل هى الشاة تنتج خمسة أبطن أو ثلاثة فإن كان جديا ذبحوه و إن كان أنثى أبقوها و إن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها . وقال بعضهم : الوصيلة من الإبل وهى الناقة تبكر فتلد أنثى ثم تثنى بولادة أنثى أخرى ليس بينهما ذكر فيتركونها لآلهتهم و يقولون قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر . وقيل هى الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن لاذكر بينها .

(وأما الحامى) فهو فاعل من الحمى بمعنى المنع واختلف فيه أيضاً فقال الفراء : هو الفحل إذا لقح ولد ولده فيقولون : قد حمى ظهره فيهمل ولايطرد عن ماء ولا مرعى . وعن ابن عباس رضى الله تعـالى عنه وابن مسعود وهو قول أبى عبيـدة والزجاج : إنه الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون : حمى ظهره فلا يحمل عليه ولايمنع من ماء ومرعى . وعن الشافعىّ إنه الفحل يضرب فى مال صاحبه عشر سنين . وقيل : هو الفحل ينتج له سبع إناث متواليات فيحمى ظهره . والجمع بين الأقوال المتقدمة فى كل من تلك الأنواع بأن العرب كانت تختلف أفعالهم فيها كما سبق (ومعنى الآية السابقة) ما جعل الله من بحيرة الخ ماشرع . ولـكن الذين كفروا يفترون على الله الـكذب حيث يفعلون مايفعلون و يقولون الله

سبحانه وتعالى أمرنا بهـذا و إمامهم عمرو بن لحى فإنه فى المشهور أول من فعل تلك الأفاعيـل الشنيعة . أخرج ابن جرير وغيره عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون : يا أكثم عرضت علىّ النـار فرأيت فيها عمرو بن لحى بن قمعة بن خِنْدِف يجر[1] قصبه فى النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك فقال أكثم أخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وَبَحَّرَ البحيرة وَسَيَّبَ السائبة وحمى الحامى وجاء فى خبر آخر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ووصل الوصيلة . وأخرج عبد الرزاق وغيره عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم إنى لأعرف أول مـن سيب السوائب ونصب النصب وأول من غير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال عمرو بن لحى أخو بنى كعب لقـد رأيته يجر قصبه فى النار يؤذى أهل النار ريح قصبه و إنى لأعرف أول مـن بحر البحائر قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال عليه الصلاة والسلام : رجل من بنى مدلج كانت له ناقتان فجذع أذانهما وحرم ألبانهما وظهورهما وقال هاتان لله ثم احتاج إليهما فشرب ألبانهما وركب ظهورهما فلقد رأيته فى النار وهما تقضمانه بأفواههما : واستدل بالآية على تحريم هذه الأمور وهو ظاهر ، واستنبط منه تحريم جميع تعطيل المنافع . واستدل ابن الماجشون بها على منع أن يقول الرجـل لعبده أنت سائبة وقال لا يعتق بذلك . وجعل بعض العلماء من صور السـائبة إرسال الطير ونحوه وصرح بعض العلماء أنه لا ثواب فى ذلك ولعل الجاعل لا يكتفى بهذا القدر و يدعى الإثم فيه والناس عن ذلك غافلون وأكثرهم لا يعقلون إن ذلك افتراء باطل فما تقدم فعل الرؤساء وهذا شأن الأتباع وهمُ المراد بالأكثر وظاهر سياق النظم الـكريم أنهم المقـلدون لأسلافهم المفترين من معاصرى رسول

---

(١) القصب بالضم : المعى .

الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم . والحاصل أن المراد بالآية رد ما ابتدعه أهل الجاهلية وأبطاله .

مذهبهم فى ٱلفَرَعِ والعتيرة

(أما الفرع) فهو أول النتائج وهو بفتح الفاء والراء بعدها مهملة . وفى المحكم الفرع أول نتاج الإبل والغنم كان أهل الجاهلية يذبحونه لأصنامهم ثم يأكلونه ويلقى جلده على الشجر ويقال إن الفرع ذبح كانوا إذا بلغت الإبل ما تمناه صاحبها ذبحوه وكذلك إذا بلغت مائة يعتر منها بعيراً كل عام ولا يأكل منه هو ولا أهل بيته ويطلق أيضاً على الطعام الذى يصنع لنتاج الإبل كالخرس للولادة . وفى كتاب ضروب الأمثال للميدانى عند الكلام على قولهم (أول الصيد فرع) ما نصه : الفرع أول ولد تنتجه الناقه كانوا يذبحونه لآلهتهم يتبركون بذلك وكان الرجل يقول إذا أتمت إبلى كذا نحرت أول نتيج منهـا وكانوا إذا أرادوا نحره زينوه وألبسوه ولذلك قال أوس يذكر أزمة فى شدة برد :

وشُـبِّهَ الهَيدَبُ العَبَامُ من ال أقوام سَقْباً مجللاً فَرَعا [1]

الهيدب العبام : العى الثقيل . والسقب : الذكر من ولد الناقة . قال أبو عمرو : ويضرب عند أول ما يرى من خير فى زرع أو ضرع وفى جميع المنافع . ويروى أول الصيد فرع ونصاب . وذلك أنهم يرسلون أول شىء يصيدونه يتيمنون به ويروى أول صيد فرَعَه أى أراق دمه يضرب لمن يرى [2] منه خير قبل فعلته هذه انتهى . ولعل هذا الاختلاف مبنى أيضاً على اختلاف مذاهب العرب فيه فإنهم قلما يتوافقون فى العوائد والأعمال .

---

(١) أى مجللا جلد فرع فاختصر الكلام . والبيت من قصيدة يمدح بها فضالة بن كلدة فى حياته ويرثيه بعد وفاته قال الاصمعى : لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية احسن من ابتداء مرثية اوس بن حجر وهو :

(أيتها النفس اجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعـا)

وقد ساق القالى القصيدة فى ذيل النوادر ص ٣٢ فراجعها . (٢) فى فرائد ذيل النوادر ص ٣٢ فراجعها . (٢) فى فرائد اللآل (ج ١ ص ٢٥) يضرب اللآل (ج ١ ص ٢٥) يضرب لمن لم ير منه خير الخ ..

وأما (العتيرة) فهى بفتح المهملة وكسر المثناة بوزن عظيمة ذبيحة كانوا يذبحونها فى الجاهلية فى رجب يتقربون بها لأصنامهم وهى الرجبية قاله أبو عبيد . وقال غيره : العتيرة نذر كانوا ينذرونه من بلغ ماله كذا أن يذبح من كل عشرة منها رأساً فى رجب . وفى الصحاح : العتيرة هى أن الرجل كان يقول فى الجاهلية إن بلغ إبلى مائة عترت منها عتيرة فى رجب . ونقل أبوداود تقييدها بالعشر الأول من رجب .

وروى الحميدى أنها الشاة التى تذبح عن أهل بيت فى رجب وسميت بذلك لذبحها وهو العتر فهى فعيلة بمعنى مفعولة . واعلم أن الشريعة الإسلامية قد أبطلت كلاً من الفرع والعتيرة ، فى الحديث الصحيح : لافرع ولاعتيرة . وهذا النهى محمول على ما إذا كان الذبح لغير الله تعالى كصنيع الجاهلية فإنهم كانوا يذبحونه لطواغيتهم . وأما إذا كان الذبح لله تعالى فهو جائز جمعاً بين هذا الحديث وبين حديث « الفرع حق » روى الحاكم أنه سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الفرع فقال : الفرع حق وإن تتركه حتى يكون بنت مخاض أو ابن لبون[1] فتحمل عليه فى سبيل الله أو تعطيه أرملة خير من أن تذبحه يلصق لحمه بوبره وتوله ناقتك . وفى حديث آخر : نادى رجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنا كنا نعتر عتيرة فى الجاهلية فما تأمرنا ؟ قال : اذبحوا لله فى أى شهر كان . قال : إنا كنا نفرع فى الجاهلية قال : فى كل سائمة فرع تغذوه ماشيتك حتى إذا استجمل ذبحته فتصدقت بلحمه فإن ذلك خير . فى هذا الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يبطل الفرع والعتيرة من أصلهما وإنما أبطل صفة من كل منهما فمن الفرع كونه يذبح أول مايولد . ومن العتيرة خصوص الذبح فى شهر رجب وكون الذبح فى كل منهما لغير الله تعالى .

---

(١) بنت مخاض : الناقة التى دخلت فى السنة الثانية سميت بذلك لأن أمها فى الغالب تصير ذات مخاض أى حامل باخرى . وابن اللبون : ولد الناقة فى السنة الثالثة سمع بذلك لأن امه ولدت غيره فصار لها لبن .

ومن مذاهب العرب في الجاهلية الوأد

يقال وأد الموءودة يئدها دفنها حية والموءودة اسم كان يقع على من كانت العرب تدفنها حية من بناتها وهو وائد وهي وئيد ووئيدة وموءودة . أنشد ابن الأعرابي :

وما لقى الموءود من ظـلم أمِّهِ كما لقيت ذهل جميعاً وعامر

وبعضهم يقول : الموءودة من الوأد وهو الثقل كأنها سميت بذلك لأنها تثقل بالتراب حتى تموت . وقيـل الوأد مقلوب الأود وحكاه المرتضى في درره عن بعض أهل اللغة وهو غير مرضي عند أبي حيان لأنه لم ينقل عن أحد من أئمة اللغة ذكر الهيثم بن عديّ على ما حكاه عنه الميداني أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة فكان يستعمله واحـد ويتركه عشرة فجاء الإسلام . وقد قل ذلك فيها إلا من بني تميم فإنهم تزايد فيهم ذلك قبل الإسلام وكانت مذاهب العرب مختلفة في الوأد وقتل الأولاد (فمنهم) من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن وهم بنو تميم وكندة وقبائل آخرون . قال الميداني : وكان السبب في ذلك أن بني تميم منعوا الملك ضريبة الإتاوة التي كانت عليهم فجرد إليهم النعمان أخاه الريان مع دَوْسر « ودوسر إحدى كتائبه » وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فاستاق نعمهم وسبي ذراريهم . وفي ذلك يقول أبو المُشَمْرَج اليشكري :

لما رأوا رايةَ النعمان مُقْبلة قالوا : ألا ليتَ أدنى دارِنا عَدَنُ

ياليتَ أمَّ تميمٍ لم تـكن عَرَفَتْ مُرًّا وكانت كمن أودى به الزمن

إن تقتلونا فأعيـارٌ مُجَدَّعَةٌ أو تُنعموا فقديماً منـكم المِنَنُ

فوفدت وفود بني تميم على النعمان بن المنـذر وكلموه في الذراري فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه فاختلَفْنَ

فى الخيار وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس ابن عاصم أن يدس كل بنت تولد له فى التراب فوأد بضع عشرة بنتاً . و بصنيع قيس ابن عاصم و إحيائه هـذه السنة نزل القرآن فى ذم وأد البنات . و روى أن أول قبيلة وأدت من العرب ربيعة وذلك أنهم أغير عليهم فنهبت بنت بنت لأمير لهم فاسترداها بعد الصلح فخيرت رضى منه بين أبيها ومن هى عنده فاختارت من هى عنده وآثرته على أبيها فغضب وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ماوقع وشاع فى العرب غيرهم والله تعالى أعلم بصحة ذلك . وغالب قبائل العرب كان غرضهم من الوأد ماذكر .

وكيفية الوأد كما ذكر غير واحد أن الرجل منهم كان إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم فى البادية و إن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها و زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقـد حفر لها بئراً فى الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها أنظرى فيها ثم يدفعها من خلفها و يهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض . و روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه قال : كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة و إذا ولدت ولداً حبسته .

(ومنهم) من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء[1] تشاؤماً منهم بهذه الصفات . ومن هـذا حديث سودة بنت زهرة بن كلاب وذلك أنها لما ولدت على بعض هذه الصفات ورآها أبوها كذلك أمر بوأدها فأرسلها إلى الحَجُون لتدفن هناك فلما حفر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول : لاتئد الصبية . وخلها البرية . فالتفت فلم ير شيئاً فعاد لدفنها فسمع الهاتف يسجع بسجع آخر فى المعنى فرجع إلى أبيها فأخبره بما سمع فقال : إن لها لشأناً

(١) الشيماء : السوداء والبرشاء : من البرش وهو بياض يظهر فى الجسد مثل البرص . والكسحاء : العرجاء .

وتركها فكانت كاهنة قريش فقالت يوماً لبنى زهرة إن فيكم نذيرة أو تلد نذيراً فاعرضوا علىّ بناتكم فعرضن عليها فقالت فى كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين حتى عرض عليها آمنة بنت وهب فقالت هذه النذيرة أو ستلد نذيراً فى خبر طويل ذكره أبو بكر النقاش وفيه ذكر جهنم ولم يكن اسمها مسموعا عندهم يومئذ فقالوا لها : وماجهنم ؟ فقالت : سيخبركم عنها النذير . وفى السيرة الحلبية : الذى دعا عبد المطلب لاختيار آمنة من بنى زهرة لولده عبد الله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهى عمة وهب والد آمنة كان من أمرها أنها لما ولدت رآها أبوها زرقاء شيماء أى سوداء وكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة أى يدفنونها حية و يمسكون من لم تكن على هذه الصفة مع ذل وكآبة ، وذكر الخبر السابق . وهذ المذهب كان عليه قليل من قبائل العرب ولم يأخذ به جمهورهم .

(ومنهم) من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر وهم الفقراء من بعض قبائل العرب وفيهم نزل قوله تعالى (وَلاَ تَقْتُلوُا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً) وظاهر لفظ الآية النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً مخافة الفقر والفاقة . لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن فنهى فى الآية عن ذلك فيكون المراد بالأولاد البنات و بالقتل الوأد والخشية فى الأصل خوف يشو به تعظيم قال الراغب : أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه . والإملاق الفقر كما روى عن ابن عباس وأنشد له قول الشاعر :

وإنى على الإملاق ياقوم ماجدٌ   أعد لأضيافى الشِّوَاء الْمُضَهَّبا[1]

(١) الاملاق : الافتقار وفى حديث فاطمة بنت قيس : أما معاوية فرجل أملق من المال . أى قد نفد ماله . وأصل الاملاق الانفاق . يقال أملق مامعه املاقا وملقه ملقا اذا اخرجه من يده ولم يحبسه والفقر تابع لذلك فاستعملوا لفظ السبب فى موضع المسبب حتى صار به اشهر . والمضهب كمعظم اللحم الذى شوى على حجارة محماة أو الذى شوى ولم يبالغ فى نضجه . قال امرؤ القيس :

نمشى بأعراف الجياد اكفنا   اذا نحن قمنا عن شوآء مضهب

وقوله سبحانه (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم أى نحن نرزقهم لا أنتم فلا تخافوا الفقر بناء على علمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم وقوله سبحانه (إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا) تعليل آخر ببيان أن المنهيّ عنه فى نفسه منكر عظيم لما فيه من قطع التناسل وقطع النوع والخطء كالإثم لفظاً ومعنى . وكان كثير من عقلاء العرب لا يرتضى هذا الفعل ، وكان جمع منهم يفتدون هذا النوع من الموءودة من أهلها . وفى صحيح البخارى أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يحيي الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت[1] قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها والاحياء هنا مجاز والمراد بإحيائها إبقاءها وكان صعصعة بن ناجية يشترى البنت ممن يريد وأدها خشية الإملاق فأحيا ستاً وتسعين موءودة إلى زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وفى ذلك يقول الفرزدق مفتخراً :

ومنا الذى اختير الرجال سماحةً وخِيراً إذا هبّ الرياحُ الزعازع[2]
ومنا الذى قاد الجيادَ على الوَجَى لنجرانَ حتى صبحتها النزائع[3]
ومنا الذى أعطى الرسول عطيةً أسارى تميم والعيون دوامع[4]
ومنا خطيب لا يعاب وحامل أغرّ إذا التفّت عليه المجامع[5]

---

(١) ترعرع الصبى : تحرك ونشأ . (٢) الخير بكسر المعجمة الكرم وروى بدله (وجودا) والزعازع جمع زعزع وهى الريح التى تهب بشدة وعنى بذلك الشتاء وفيه تقل الالبان وتعدم الازواد ويبخل الجواد فيقول هو جواد فى مثل هذا الوقت الذى يقل فيه الجود . (٣) الذى قاد الجياد هو الاقرع بن حابس وعمرو بن كلثوم ، وكلاهما غزوا نجران . والوجى : الحفا أو أشد منه وهو ان يرق القدم والحافر . والنزائع من الخيل التى نزعت الى اعراق من اللحاح وفى الاساس : ومن المجاز خيل نزائع غرائب نزعت عن قوم آخرين وعنده نزيع ونزيعة نجيب ونجيبة من غير بلاده . (٤) قوله ومنا الذى اعطى الرسول الخ هذا يوم بنى عمرو بن جندب حين رد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيهم . وقال ابو عبيدة : كلم الاقرع رسول الله (ص) فى اصحاب الحجرات وهم بنو عمرو بن جندب فرد سبيهم (٥) الخطيب . هو عطارد بن حمل الحمالات يوم المريد يوم قتل مسعود بن عمرو العتكى .

ومنا الذى أحيا الوئيد وغالبٌ وعمروٌ ومنّا حاجِبٌ والأقارع[1]

أولئـك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جَمَعتْنَا يا جرير المجامع

ورأيت فى بعض كتب السير : أن صعصعة بن ناجية بن عقال كان يفدى الموءودة من القتل ولما أتى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم قال : يارسول الله إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية أفينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ فأخبره بخبر طويل فيـه أنه حضر ولادة امرأة من العرب بنتاً فأراد أبوها أن يئدها . قال فقلت له أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العرب أولادها . قال : قلت ؛ إنما أشترى حياتها ولا أشترى رقها فاشتراها منه بناقتين عشراوين وجمل وقد صارت لى سنّة فى العرب على أن أشترى ما يئدونه بذلك فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة وقد أنقذتها ! فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : لا ينفعك ذلك لأنك لم تبتغ به وجه الله و إن تعمل فى إسلامك عمـلا صالحاً تثب عليه . وأخرج الطبرانى عن صعصعة بن ناجية المجاشعى قال : قلت يا رسول الله إنى عملت أعمالا فى الجاهلية فهل فيها من أجر ؟ أحييت ثلثمائة وستين من الموءودة أشترى كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل فهل لى من ذلك من أجر ؟ فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لك أجره إذ منّ الله تعالى عليك بالإسلام وهـذه الرواية أصح من الرواية الأولى وقد ذكر الفرزدق إحياء جـده الموءودة فى كثير من شعره : كما قال :

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يُوأَدِ

« ومنهم » من كان ينذر إذا بلغ بنوه عشرة نحر واحداً منهم كما فعله عبد المطلب فى قصته المشهورة و إليها أشار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (أنا ابن الذبيحين) يعنى أباه عبد الله وجده إسماعيل عليه الصلاة والسلام . قال الإمام

---

(١) الذى احيا الوئيد هو جده صعصعة بن ناجية .

الماوردىّ فى كتاب أعلام النبوة[1] : حكى الزهرى ويزيد بن رومان وصالح ابن كيسان أن عبد المطلب بن هاشم نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكوراً ورآهم بين يديه رجالاً أن ينحر أحدهم للكعبة شكراً لربه حين علم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أمر بذبح ولده تصوراً أنه من أفضل قربة ، فلما استكمل ولده العدد وصاروا له من أظهر العدد قال لهم : يا بنى كنت نذرت نذراً علمتموه قبل اليوم فما تقولون ؟ قالوا : الأمر لك وإليك . ونحن بين يديك . فقال : لينطلق كل واحد منكم إلى قدحه وليكتب عليه اسمه ففعلوا ثم أتوه بالقداح فأخذها وجعل يرتجز ويقول :

عاهدته وأنا موفٍ عهده والله لا يحمد شيء حمده
إذ كان مولاى وكنت عبده نذرت نذراً لا أحب رده
ولا أحب أن أعيش بعده

ثم دعا بالأمين الذى يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم وقال حرك ولا تعجل وكان أحب ولد عبد المطلب إليه عبد الله فضرب صاحب القداح السهم على عبد الله وأخذ عبد المطلب الشفرة وأتى بعبد الله وأضجعه بين أساف ونائلة وأنشأ مرتجزاً يقول :

عاهدته وأنا موف نذره والله لا يقدر شيء قدره
هذا بنىّ قد أريد نحره وإن يؤخره يقبل عذره

وهمّ بذبحه فوثب إليه ابنه أبو طالب وكان أخا عبد الله لأبيه وأمه وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وأنشأ مرتجزاً يقول :

كلا وربّ البيت ذى الأنصاب ما ذبح عبد الله بالتلعاب
يا شيب إن الريح ذو عقاب إن لنا مرة فى الخطاب
أخوال صدق كأسود الغاب

---

(١) — ص ١٢٦

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبى طالب وكانوا أخواله قالوا : صدق ابن أختنا ووثبوا إلى عبد المطلب فقالوا يا أبا الحرث إنا لا نسلم ابن اختنا للذبح فاذبح من شئت من ولدك غيره . فقال : إنى نذرت نذراً وقد خرج القدح ولا بد من ذبحه قالوا : كلا لا يكون ذلك أبداً وفينا ذو روح و إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد وأنشأ المغيرة بن عبد الله ين عمرو بن مخزوم مرتجزاً يقول :

يا عجباً من فعل عبد المطلب   وذبحه ابناً كتمثال الذهب
كلا و بيت الله مستور الحجب   ما ذبح عبد الله فينا باللعب
فدون ما يبغى خطوب تضطرب

ثم وثب السادات من قريش إلى عبد المطلب فقالوا : يا أبا الحرث إن هذا الذى عزمت عليه لعظيم وإنك إن ذبحت ابنك لم تتهنَّ بالعيش من بعده ولكن لا عليك أنت على رأس أمرك تثبت حتى نصير معك إلى كاهنة بنى سعد فما أمرتك من شيء فامتثله . فقال عبد المطلب : لكم ذاك وكانوا يرون الكهانة حقاً . ثم خرج فى جماعة من بنى مخزوم نحو الشام إلى الكاهنة فلما دخلوا عليها أخبرها عبد المطلب بما عزم عليه من ذبح ولده وارتجز يقول :

يارب إنى فاعل لما ترد   إن شِئت ألهمت الصواب والرشد
يا سائق الخير إلى كل بلد   قد زدت فى المال وأكثرت العدد

فقالت الكاهنة : انصرفوا عنى اليوم فانصرفوا . وعادوا من الغد فقالت : كم دية الرجل عندكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل قالت : فارجعوا إلى بلدكم وقدموا هذا الغلام الذى عزمتم على ذبحه وقدموا معه عشرة من الإبل ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القداح فإن خرج القدح على الإبل فانحروها و إن خرج على صاحبكم فزيدوا على الإبل عشرة عشرة حتى يرضى ربكم فانصرف القوم إلى مكة وأقبلوا عليه يقولون يا أبا الحرث إن لك فى إبراهيم أسوةً فقد علمت ما كان من عزمه فى ذبح ابنه إسماعيل وأنت سيد ولد إسماعيل فقدم مالك دون ولدك . ولما أصبح

عبد المطلب غدا بابنه عبد الله إلى الذبح وقرب معه عشرة من الإبل ثم دعا بأمين القداح وجعل لابنه قدحاً وقال اضرب ولا تعجل فخرج القدح على عبد الله فجعلها عشرين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها أربعين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها خمسين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها ستين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها سبعين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها ثمانين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها تسعين فضرب فخرج القدح على عبد الله فجعلها مائة وضرب فخرج القدح على الإبل فكبر عبد المطلب وكبرت قريش وقالت يا أبا الحرث إنه قد أنهى رضاء ربك وقد نجا ابنك من الذبح . فقال : لا والله حتى أضرب عليه ثلاثاً فضرب الثانية فخرج على الإبل فضرب الثالثة فخرج على الإبل فعلم عبد المطلب أنه قد أنهى رضاء ربه فى فداء ابنه فارتجز يقول :

دعوت ربى مخلصاً وجهرا ... يارب لا تنحر بنىّ نحرا

وفاد بالمال تجد لى وفرا ... أعطيك من كل سوام عشرا

عفواً ولا تشمت عيوناً خزرا ... بالواضح الوجه المغشى بدرا

فالحمد لله الأجل شكرا ... فلست والبيت المغطى سترا

مبدلاً نعمةَ ربى كفرا ... ما دمت حياً أو أزور القبرا

ثم قربت الإبل وهى مائة من جلة إبل عبد المطلب فنحرت كلها فداء لعبد الله وتركت فى مواضعها لا يصد عنها أحد ينتابها من دب ودرج فجرت السنة فى الدية بمائة من الإبل إلى يومنا هذا وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحا فكان عبد الله يعرف بالذبيح . ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أنا ابن الذبيحين يعنى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وأباه عبد الله بن عبد المطلب

(ومنهم) من يقول : الملائكة بنات الله سبحانه عما يقولون فألحقوا البنات به تعالى فهو عز وجل أحق بهن وإلى هؤلاء القوم وردهم يشير قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » ولله درّ التنزيل ما أعلى شأنه ، وأظهر برهانه ، فقد أبطل هذا المذهب الفاسد ، والاعتقاد الكاسد ، بلفظ موجز أيّ إيجاز ، ودليل واضح أقعد أهل الإلحاد على الأعجاز ، ففي التفسير[1] « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ » هم خزاعة وكنانة كانوا يقولون الملائكة بنات الله تعالى . وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها و بنوتها . قال الإمام : أظن أنهم أطلقوا عليها البنات لاستتارها عن العيون كالنساء ولهذا لما كان قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ، ونوره القاهر ، أطلقوا عليه لفظ التأنيث . ولا يرد على ذلك أن الجن كذلك لأنه لا يلزم فى مثله الاطراد . وقيل أطلقوا عليها ذلك للاستتار مع كونها فى محل لا تصل إليه الأغيار فهى كبنات الرجل اللاتى يغار عليهن فيسكنهن فى محل أمين ، ومكان مكين ، والجن وإن كانوا مستترين ولكن لا على هذه الصورة ، وهذا أولى مما ذكره الإمام . وأما عدم التوالد فلا يناسب ذلك (سبحانه) تنزيه وتقديس له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك أو تعجب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة وهو فى المعنى الأول حقيقة وفى الثانى مجاز « وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » يعنى البنين ، « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى » أى أخبر بولادتها « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا » من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والفكرة والنفرة التى لحقته بولادة الأنثى . قيل : إذا قوى الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف لا سيما إلى

---

(١) راجع ج٤ ص ٣٩٣ من تفسير روح المعانى للامام الكبير شيخ مشايخنا السيد محمود شهاب الدين الالوسى جد المؤلف .

الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد فيرى الوجه مشرقا متلألئاً وإذا قوى الغم انحصر الروح إلى باطن القلب ولم يبق له أثر قوى فى ظاهر الوجه فيربد ويتغير ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية فمن لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ومن لوازم الغم والحزن إربداده واسوداده فلذلك كنى عن الفرح بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد ولو قيل بالمجاز لم يبعد . (وهو كظيم) أى مملوء غيظا وأصل الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه ومنه كظم الغيظ لإخفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه . والظاهر أن ذلك الغيظ على المرأة حيث ولدت أنثى ولم تلد ذكراً . ويؤيده ما روى الأصمعىّ أن امرأة ولدت بنتاً سمّتها الذلفاء فهجرها زوجها فأنشدت :

ما لأبى الذلفاء لا يأتينا — يَظَلُّ فى البيت الذى يلينا
يحرد أن لا نلد البنينا — وإنما نأخذ ما يعطينا[1]

. (يتوارى من القوم) يستخفى من قومه (من سوء ما بشر به) عرفا وهو الأنثى والتعبير عنها بما لإسقاطها بزعمهم عن درجة العقلاء . ويروى أن بعض الجاهلية يتوارى فى حال الطلق فإن أخبر بذكر ابتهج أو بأنثى حزن وبقى متوارياً أياماً يدبر فيها ما يصنع (أيمسكه) أيتركه ويربيه (على هون) أى ذل (أم يدسه) أى يخفيه (فى التراب) والمراد يئده ويدفنه حيا حتى يموت وإلى هذا ذهب

---

(١) الذلفاء من أسماء نساء العرب . وأهل الذلف محركة صغر الانف واستواء الارنبة ، أو صغره فى دقة أو غلظ واستواء فى طرفه ليس بحد غليظ . وحرد يحرد حرودا اذا تنحى واعتزل عن قومه ونزل منفردا لم يخالطهم ، وحرد : غضب فهو حارد وحرود .. وورد فى البيان والتبيين للجاحظ (ج ١ ص ١٠٤) ما نصه : « ولبغض البنات هجر أبو حمزة الضبى خيمة امرأته ، وكان يقيل ويبيت عند جيران له حين ولدت امرأته بنتا فمر يوما بخبائها واذا هى ترقصها وتقول : —

ما لأبى حمزة لا يأتينا — يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا — تالله ما ذلك فى ايدينا
وانما نأخذ ما أعطينا — ونحن كالارض لزارعينا
نتبت ماقد زرعوه فينا

قال : « فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وابنتها » .

السدىّ وقتادة وابن جريج وغيرهم . وقيل المراد إهلاكه سواء كان بالدفن حياً أم بأمر آخر فقد كان بعضهم يلقى الأنثى من شاهق . روى أن رجلا قال : يا رسولَ الله والذى بعثك بالحق ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت وقد كانت لى فى الجاهلية بنت وأمرت امرأتى أن تزينها وأخرجتها فلما انتهيت إلى وادٍ بعيد القعر ألقيتها فقالت : يا أبتِ قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شىء ! فقال صلى صلى الله تعالى عليه وسلم : ما فى الجاهلية فقد هدمه الإسلام وما فى الإسلام يهدمه الاستغفار . وكان بعضهم يغرقها و بعضهم يذبحها إلى غير ذلك ولما كان الكل إماتة تُفضى إلى الدفن فى التراب قيل أم يدسه فى التراب . وقيل : المراد إخفاؤه عن الناس حتى لا يعرف كالمدسوس فى التراب . (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون لمن تنزه عن الصاحبة والولد ما هذا شأنه عندهم والحال أنهم يتحاشون عنه و يختارون لأنفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله تعالى شأنه مع إبائهم إياه لا جعلهم البنين لأنفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه وجوز أن يكون مداره التعكيس كقوله تعالى (تلكَ إذاً قِسْمةٌ ضِيزَى) وقال ابن عطية : هذا استقباح منه تعالى شأنه لسوء فعلهم وحكمهم فى بناتهم بالإمساك على هون أو الوأد مع أن رزق الجميع على الله تعالى فكأنه قيل ألا ساء ما يحكمون فى بناتهم وهو خلاف الظاهر جداً . وروى الأول عن السدىّ وعليه الجمهور والآية ظاهرة فى ذم من يحزن إذا بشر بالأنثى حيث أخبرت أن ذلك فعل الكفرة . وقد أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال فى قوله سبحانه (وإذا بُشّرَ أحدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وجههُ مُسْوَدًّا وهوَ كَظيم) : هذا صنيع مشركى العرب أخبرهم الله تعالى بخبثه فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله تعالى خير من قضاء المرء لنفسه . ولعمرى ما ندرى أىّ خير ! لربَّ جاريةٍ خيرٌ لأهلها من غلام و إنما أخبركم الله عز وجل بصنيعهم لتجتنبوه ولتنتهوا عنه .

(والحاصل) أن هذا الفعل الشنيع على اختلاف أنواعه قد أبطلته الآيات

القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأبدع النصوص الواردة فى ذلك قوله سبحانه « و إذا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » حيث دل على أن السؤال إنما توجه إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كأنه لا يستحق أن يخاطب و يسأل عن ذلك وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد بصرف الخطاب عنه و إسقاطه عن درجة الاعتبار فإن المجنى عليه إذ سئل بمحضر الجانى ونسبت إليه الجناية دون الجانى كان ذلك بعثاً للجانى على التفكر فى حال نفسه وحال المجنى عليه فيرى براءة ساحته وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض كما فى قوله تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ » وهذه الطريقة أفظع فى ظهور جناية القاتل و إلزام الحجة عليه . وعدّ من الوأد العزل . فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم أنه سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن العزل فقال : ذلك (الوأد الخفى) وفى حديث آخر (تلك الموؤدة الصغرى) وفيه تفصيل محله كتب الفقه والتفسير . ومن الآيات الواردة فى هذا الباب قوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » ومنها قوله عز وجل « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » إلى غير ذلك مما يطول ذكره وهكذا الأحاديث الصحيحة الواردة فى إبطال هذا العمل وشهرتها تغنى عن ذكرها و إيرادها فى هذا المحل .

ومن مذاهب العرب فى الجاهلية الميسر

الميسر القمار وهو مصدر ميمى كالمَوْعد والمرجع من يسر بيسر يقال يسرتهُ إذا قمرتُه . واشتقاقه أما من اليُسْر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب . أو من اليسار لأنه سلب يساره . وعن ابن عباس رضى الله

تعالى عنه كان الرجل فى الجاهلية يخاطر على أهله وماله . قال الشاعر :

أقول لهم بالشعب إذْ ييسرونني ألم تعلموا أنى ابن فارس زَهْدَمِ (١)

أى يفعلون بى ما يفعل الياسرون بالميسور . وقيل منْ يسروا الشئ إذا اقتسموه وسمى المقامر ياسراً لأنه بسبب ذلك الفعل يجزئ لحم الجزور . وقال الواحدى : من يَسَرَ الشيء إذا وجب والياسر الواجب بسبب القِدْح . وكان الميسر من مفاخر العرب لأنهم كانوا يفعلونه فى أيام الشدة وعدم اللبن وأيام الشتاء . قال شاعرهم :

وإذا تعذَّرت السواعد والتوت جال المُفَدَّى وسطها المضبوح

أغلى به رخو الإزار مُعَذّل فغـدا يُمَار له دمٌ مسفوح

السواعد مجارى اللبن فى الضرع يقول إذا تعذر اللبن جال المفدى يعنى القِدْح والمضبوح الذى ضبح وهو أثر النار لأنه يقوّم بالنار . وأغلى به من الغلاء أى أخذ به أى بالقدح سهاما كثيرة لـكثرة فوزه ولذلك سمى المفدى لما يتكرر له من الفوز . ومعذل أى يعذل كثيراً على الإنفاق فغدا يعنى القدح يمار له دم الناقة التى قامر عليها . وقال لبيد بن ربيعة فى معلقته الشهيرة يفتخر بلعب الميسر ونجاحه فيه على غيره وكرمه (٢).

وجزورِ إيسارٍ دعوت لَحتفِهَا بمغالق متشابهٍ أجسامُها

أدعو بهنّ لعاقر أو مُطْفل بُذِلَتْ لجيران الجميع لحامُها

(١) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعى الرياحى. وقيل لابنه جابر بن سحيم. وييسروننى هو من الميسر أى يجزوننى ويقتسموننى ، ويروى يأسروننى من الاسر ، وقوله الم تعلموا يروى بدله : ألم تيأسوا والمعنى واحد . وقوله انى ابن فارس زهدم يروى ، انى ابن قاتل زهدم وهو رجل من عبس — وزهدم اسم فرس بشر بن عمرو أخى عوف بن عمرو وعوف جد سحيم بن وثيل قاله أبو محمد الاعرابى — فعلى رواية انى ابن قاتل زهدم يصح أن يكون الشعر لسحيم . قال الزبيدى : ويروى هذا البيت أيضا فى قصـيدة أخرى على هذا الروى :

اقول لاهل الشعب اذ ييسروننى الم تيأســوا انى ابن فارس لازم

وصاحب أصحاب الكنيف كأنمـا ســقاهم بكفيه ســمام الاراقم

قال : وعلى هذه الرواية أيضا يكون الشعر له دون ولده لعدم ذكر زهدم فى البيت . (٢) راجع الجزء الأول ص ٧١

فالضيفُ والجارُ الجنيب كأنما هبَطَا تبالةَ مُخْصِباً أهضامُها

الأيسار جمع يسر وهو صاحب الميسر والمغالق سهام الميسر سميت بها لأنها بها يغلق الخطر وهو السبق الذى يراهن عليه من قولهم غلق الرهن يغلق غلقاً إذا لم يوجد له تخلص وفكاك . يقول : ورب جزور أصحاب ميسر دعوت ندمائى لنحرها وعقرها بأزلام متشابهة الأجرام وسهام الميسر يشبه بعضها بعضاً حيث جعلت على قدر واحد . وتحرير المعنى : رب جزور أصحاب ميسر كانت تصلح لتقامر الأيسار عليها دعوت ندمائى لهلاكها أى لنحرها بسهام متشابهة . قال الأئمة : يفتخر بنحره إياها من صلب ماله لا من كسب قماره والأبيات التى بعده تدل عليه وانما أراد السهام ليقرع بها بين إبله أيها ينحر لندمائه . ومعنى البيت الثانى : إنه يقول : ادعو بالقداح لنحر ناقة عاقر أو ناقة مطفل تبذل لحومها لجميع الجيران أى إنما أطلب القداح لأنحر مثل هاتين وذكر العاقر لأنها أسمن وذكر المطفل لأنها أنفس . . ومعنى البيت الثالث : أن الأضياف والجيران الغرباء عندى كأنهم نازلون وادى (تبالة) وهو من أخصب أودية اليمن فى حال كثرة أماكنه المطمئنة شبه ضيفه وجاره فى الخِصْب والسعة بنازل هذا الوادى فى أيام الربيع ، وقال عمرو بنُ قَمِيئَةَ صاحب امرئ القيس :

يودل[1] ما قومى على أن تركتهم سليمى إذا هبت شمال وريحُها

اذا النجم أمسى مغرب الشمس رائبا ولم يك برق فى السماء يليحُها

وغاب شعاع الشمس فى غير جلبة ولا هبوة إلا وشيكا مصوحُها

وهاج غَمام مُقْشَعِرٌ كأنه نقيلةُ نعلٍ بان منها سريحُها

إذا عدم المحلوب عادت عليهم قدود كثير فى القدور قديحُها

يثور إليها كل ضيف وجانب كما رد دهداه القلاص نضيحُها

(١) قوله : « يؤول » كذا هو فى الاصل ولعل صوابه « بودك » كما جاء فى بيت المرقش :

بودك ما قومى على أن هجرتهم إذا هب فى المشتاة ريح اطائف

أنظر كتاب الميسر والقداح للامام ابن قتيبة (ص ٥٦) ومعجم البلدان (ج ١ ص٢٨٢)

بأيديهم مقرومة ومَغالق يعود بأرزاق العباد منيحُها

قوله يودل الخ يريد يودل ياسليمى ومازائدة على أنك تركتهم وفارقتهم وسليمى امرأته وكانت أرادت منه فراق قومه ورائباً أى مرتفعاً والنجم الثريا وأشد البرد عند طلوع الثريا أول الليل ويليحها يظهرها ويضيئها والجلبة السحابة وكذلك الجلب والوشيك السريع والمصوح الذهاب والهبوة الغبرة ومقشعر لاماء فيه والنقيلة النعل البالية من النعال التى ينعل بها الإبل إذا حفيت وجمعها نقائل والسريح السيور التى تشد بها النعل الواحد سريحة والقديح ما يبقى فى أسفل القدر فيغرف بجهد والدهداه صغار الإبل سميت بذلك لأن الإبل إذا وردت الماء دهدهتها ودحرجتها والنضيح الحوض والمقرومة يعنى القداح بها علامات وليس المنيح ههنا القدح الذى لا سهم له على ما سيجىء وإنما المنيح ههنا الممنوح منها المعطى وهو القدح الفائز ويجوز أن يعود الهاء فى منيحها على العباد ويكون المنيح بمعنى الفاعل أى تمنحهم هذه القداح ما أصابوه من قمرها . وقال شاعر آخر وهو ابن مقبل[1]:

يا بيت آل هشام هل علمت إذا أمشى المراضيع فى أعناقها خضع

إنى أتمم أيسارى بذى أود من فرع شوحط ضاح ليطه قرع

---

(١) هو تميم بن أبى (بالتصغير والتشديد) بن مقبل بن عوف : شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ، وكان يبكى أهل الجاهلية وبلغ (١٢٠) سنة . وكان يهاجي النجاشي الشاعر فهجاه النجاشي فاستعدى عليه امير المؤمنين عمر (رض) فى قصة ذكرها البغدادى فى الخزانة (ج ١ ص ١١٣) ، والعسقلانى فى الاصابة (ج ١ ص ١٩٥) ويضرب بقدح ابن مقبل المثل فى حسن الاثر . قال الثعالبى فى المضاف والمنسوب (ص ١٧٣) : ويروى أن عبد الملك بن مروان كتب الى الحجاج : ما أعرف أن أرى مثلا الا قدح ابن مقبل . فلم يعرف معناه واغتم لذلك حتى دخل عليه قتيبة بن مسلم — وكان راوية للشعر حافظا عالما به — فسأله عنه . فقال : أبشر أيها الامير فانه قد مدحك أما سمعت قول ابن مقبل وهو يصف قدحا له :

غدا وهو مجدول وراح كأنه من الصك والتقليب بالكف أفطح

خروج من الغمى اذا صك صكة بدا والعيسون المستكفة تلمح

انتهى المراد منه . وقد ورد البيتان مشروحين فى (كنز الحفاظ فى تهذيب الالفاظ) ص ٥١ و ٥٢

يحدو قتائله بيضٌ غطارفة شم الأنوف مغاليق الضحى خلع
أولو الوفاء ولو أدّوا قداحَهُمُ ولا يزال لهم من لحمها قنع

قوله بذى أود يعنى القدح وإذا كان ذا أود كان أسرع لخروجه وشوحط شجر تتخذ منه القسى أو ضرب من النبع وضاح ليطه ظاهر جلده وما ضحى منه للشمس أى برز والقتائل الأشباه وهذا قتل هذا أى شبهه والجمع أقتال . ويقال أيضاً فلان قتل فلان أى عدوه فقول ابن مقبل يحدو قتائله أى قتائل قد حى ومغاليق الضحى أى يغلقون الرهن والخطر وخلع معناه يسلبون الرجال بالقمار ويخلعونها . وأولو الوفاء أى يؤدون ما يلزمهم وفاؤه ولو لم يبق إلا قداحهم لأدوها والقنع الزيادة والكثرة ويقال هو ذو قنع أى كثير المال جواد . وقال آخر وقد مدح قوما بأبيات منها قوله :

أعداء كوم الذرى ترغوا أجنتها عند المجازرِ بين الحى والحجر
لا يفرحون إذا ما فاز فائزهم ولا يضيق عليهم أزبة العسر[1]
هما الخضارم والأيسار إن ندبوا إذ لا تجيل قداحاً راحتا يسر

الكوم جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام وهم أعداؤها لأنهم ينحرونها يعنى إنها تنحر وهى حوامل فيخرج الجنين حياً يرغو . وقوله لا يفرحون الخ . يقول إذا فازوا لم يفرحوا بذلك ولا يبطرهم الفوز ومنه قول الله عز وجل (إن الله لا يحب الفَرِحين) والأزبة الشدة أى لا يبالون بالغرم وإن كانوا معسرين والخضارم الأسخياء والواحد خضرم وأصل الخضرم البحر . وقال الأعشى :

وجزور أيسار دعوت إلى الندى ونياط مقفرة أخاف ضلالها

والشعر الذى فيه تفاخرهم بالميسر وتمدحهم لا يمكن استيعابه فى مثل هذا المقام (وصفة الميسر) أن يجتمع الفتيان منهم وذوو اليسار ويشترون جزوراً بما

---

(١) أورده ابن قتيبة هكذا : (ولا ترد عليهم أربة اليسر) وعزاه الى ابن مقبل راجع ص ١٤٨ و١٤٩

بلغت ويدعون الجزار و يسمونه (القدار) على وزن همام فينحرها و يجعلها عشرة أجزاء فإذا قسمت الجزور على ما تقدم حضر الأيسار (وهم القوم المجتمعون على الميسر وواحدهم يسر) وجيء بالقداح وهى عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول والنبع شجر للقسى وللسهام ينبت فى قلة الجبل والنابت منه فى السفح أى أصل الجبل يقال له الشريان وفى الحضيض أى القرار فى الأرض وهو المطمئن منهـا يقال له الشوحط وقولهم : لو اقتدح بالنبع لأورى ناراً مثل فى جودة الرأى . وكما يقال لها القداح يقال لها الأزلام والأقلام . وهى عشرة : الفـذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسـبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد . وقد نظم أسماءها جمع من أعيان أئمة أهل الأدب منهم الإمام أبو الحسن على بن محمد الهمدانى فقال :

يلى الفذ منها توأم ثم بعده رقيب وحلس بعده ثم نافس
ومسبلها ثم المعـلى فهذه الـ سهام التى دارت عليها المجالس

وقد نظمها الشيخ ابن الحاجب على ترتيب أنصبائها أيضاً فقال :

هى فـذ وتوأم ورقيب ثم حلس ونافس ثم مسبل
والمعـلى والوغـد ثم منيح وسفيح هذى الثلاثة تهمل
ولـكل مما سواها نصيب ضعفه إن عددت أول أول

ونظمها بعضهم أيضاً فقال :

كل سهام الياسرين عشره فأودعوها صحفـاً منتشره
لها فروض ولهـا نصيب الفذ والتوأم والرقيب
والحلس يتلوهن ثم النافس و بعده مسبلهن السادس
ثم المعلى كاسمه المعلى صاحبه فى الياسرين الأعلى
والوغـد والسفيح والمنيح غفل فما فيها[1] يرى ر بيح

(١) فى الاصل « منها »

فللأول وهو الفذ سهم إن فاز وفوزه خروجه وعليه غُرم سهم إن خاب أى لم يخرج وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه إلى المعلى وهو السابع له سبعة وعليه سبعة يفرض فى كل سهم منها بحسب ماله وعليه حز وتكثر هذه السهام بثلاثة أخر أغفال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة وهى المنيح والسفيح والوغد . فإذا حضرت القداح وحضر الأيسار أخذ كل منهم من القداح على قدره وقدرته وطاقته ورياسته فمنهم من لا يبلغ حاله أكثر من الفذ فأخذه له فإن خاب غرم سهماً ورأى ذلك سهلا . وإن فاز أخذ سهماً ورأى ذلك كافياً ، ومنهم من يأخذ المعلى ولا يبالى بالغرم إن خاب وينال النصيب الأوفر إن فاز . ومنهم من يأخذ المعلى وسهماً إن لم يحضر من يتمم السهام فيأخذ ما فضل من القداح ويقول للأيسار قد تممتكم . وفى ذلك يقول متمم ابن نويرة فى أخيه مالك :

إذا ابتدر القوم القِداح وأوقِدَتْ لهم نار أيسارٍ كفى مَنْ تَضَجَّعا

يقول : من تضجع من الفتيان ولم يأخذ ما بقى أخذ هو ما بقى حتى يتممهم والتضجع التكاسل والإعراض عن العمل . وقال الغنوى :

إذا شهد الأيسار أو غاب بعضهم كفى الحىَّ وضاح الجبين أريب

وتسمى القداح مغالق لأنها تغلق الرهن إذا ضربوا بها على ما سبق . (والتجزئة) التى يقسمها القُدار هى أن يجعل الكتفين جزءين كل واحد منهما جزءاً والصدر جزءاً وهو الزور . وقال فى القاموس : الزور وسط الصدر أو ما ارتفع منه إلى الكتفين أو ملتقى أطراف عظام الصدر . والعضدان : جزءان ويقال لهما ابنا ملاط والكاهل جزء وهو ابن مخدش . وفى القاموس : هو كمنبر ومحدث كاهل البعير . والملحاء وهو ما بين السنام إلى العجز جزء والعجز جزء . والفخذان كل واحد منهما جزء ويزاد على الفخذين خرزات العنق والطفاطف وهى جمع طفطفة ويكسر الخاصرة أو أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع أو كل لحم مضطرب أو الرخص من مراق البطن وهو الشىء الناعم . ثم يقسم على الأجزاء العشرة

ما فضل من الجنبين والسنام والكبد ومن قطع اللحم حتى تستوى فإذا استوت الأجزاء العشرة كلها بقى العظم الذى لا يصلح أن يكون على واحد من الأجزاء فإن شاء الجزار أخذه وإلا كان لأهل الفاقة والفقر من العشيرة ولا يأخذ أحد من الأيسار ، لأن ذلك عندهم عيب وعار ، ويسمى ذلك العظم الريم . قال فى الصحاح : الريم عظم يبقى بعد ما يقسم الجزور . وأنشد ابن السكيت .

وكنتم كعظم الريم لم يدر جازر   على أى بدأى مقسم اللحم يوضع[1]

البدء والبدأة النصيب من الجزور والجمع أبداء وبدوء مثل جفن وأجفان وجفون . قال طَرَفَةَ بن العبد :

وهُمُ أيسارُ لُقمانَ إذا   أغْلَتِ الشَّتْوَةُ أبْداءَ الجُزُورِ[2]

وغير يعقوب يروى بدل يوضع يجعل . وقال ابن الأعرابى الريم القبر وقال :

إذا مت فاعتادى القبور وسلمى   على الريم أسقيت الغمام الغواديا[3]

وأبو العلاء أيضاً فسر الريم فى هذا البيت بالقبر . وأظن أنه أراد الشاعر العظم الباقى من الجسد مجازاً ، وبه قال أبو الحسن على بن أحمد السخاوى . ثم يبقى الرأس والقوائم يأخذها الجزار فى أجرته وتسمى الثُنيا وتسمى الجزارة أيضاً ثم اتسعوا فى ذلك فسموا الرأس والقوائم جزارة قال ذو الرُّمَّة من قصيدة تسمى (المذهبة) فى وصف نعامة :

---

١) قوله (وكنتم) يروى بدله (وانت). وقوله (يوضع) قال ابن سيده : المعروف يجعل — وهى رواية اللحيانى — ولم يرد يوضع أحد غير ابن السكيت . . والبيت لشاعر من حضرموت . وقال ابن برى : لأوس بن حجر من قصيدة عينيه وهو للطرماح الآجىء من قصيدة لامية . . وقيل لأبى شمر بن حجر ، قال : وصوابه يجعل وهكذا انشده ابن الاعرابى وغيره. (٢) البيت من قصيدة لطرفه يصف بها أحواله فى أسفاره وتنقله فى البلاد والهوه وقوله « أيسار لقمان » قال الميدانى : هو نعمان بن عاد كان من العمالقة وهو اضرب الناس بالقداح فضرب به المثل فى ذلك وكان له ايسار يضربون معهفى ذلك وهم ثمانية : بيض وحمحمة وطفيل وزفافة ومالك وفرعه وثميل وعمار فضربت العرب بهؤلاء الايسار المثل كما ضربوه بلقمان فيقولون للايسار اذا شرفوهم كايسار لقمان وواحد الايسار يسر . انتهى . (٣) عزاه الجوهرى فى الصحاح والقالى فى الامالى الى مالك بن الريب المازنى .

شخْت الجزَارة مثل البيت سائره   من المسوح خِدَبٌّ شوقبٌ خشِبُ

وقد ذكر كثير من أبيات هذه القصيدة فى كتاب (مناهج الفكر . ومباهج العبر) وهو على أقسام قسم منه فى الطبائع الحيوانية . والأبيات فى مبحث النعامة (أى أن الظليم المذكور هو دقيق القوائم وجسمه كثير الشعر كبيت الأعراب وهو أسود كالمسح وهو البلاس . والخدب . الضخم . والشوقب : الطويل . والخشب : الجافى) فإذا أخذ كل واحد من الأيسار قدحه دفعوا جميعها إلى رجل ويسمونه « الحُرْضة » قال فى الصحاح : وهو الذى يضرب للأيسار بالقداح ولا يكون إلا ساقطاً برماً : وفسر فى القاموس أنه مبين المقامرين ، ومن شأنه المعروف، له أنه لم يأكل لحماً قط بثمن إنما يأكله عند غيره أو يهدى له الأيسار . وكانوا أكثر ما يجتمعون على الميسر بالليل ويوقدون ناراً لذلك ثم يؤخذ ثوب شـديد البياض فَيُلَفُّ على يد الحرضة ويسمى ذلك الثوب « المِجْوَل » وإنمـا يجعل ذلك الثوب على يده ليغشى بصره فلا يعرف قدح زيد دون عمرو هذا بعد أن يلف كفه بقطعة من جراب لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة فإذا أخذ القداح لم ينظر إليها وبعضهم يقول يجعلها فى الربابة وهى خريطة ويجلس خلفه آخر ويسمى الرقيب ويسمى أيضاً رابىء الضرباء يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبى لهم فيما يخرج من القداح فيخبرهم به ويعتمدون على قوله فيه (وهو مأخوذ من ربيئة القوم وهو طليعتهم . والضرباء جمع ضريب ككريم وكرماء وهو الذى يضرب بالقداح وهو الموكل بها ويقال له الضارب أيضاً) ثم يجلس الأيسار حوله دائرين به . ثم يفيض بالقداح فإذا نشز — أى ارتفع — منها قدح استسله الحُرْضة من غير أن ينظر إليه ثم ناوله الرقيب فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه إلى صاحبه فيأخذ من أجزاء الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز . فإن شاء بعد ذلك أمسك . وإن شاء أعاد السهم على خِطار آخر وهو جمع خطر وجمع الجمع خطر

وهو السبق يراهن عليه وهو مايوضع بين أهل السباق جمعه أسباق و إعادة السهم تسمى التثنية وهو مراد النابغة فى قوله :

إنى أتَمِّمُ أيسارى وأمنَحُهم مَثْنَى الأيادى وأكسوا الجفنةَ الأُدُما

قال أبو عبيد : مثنى الأيادى هى الأنصباء التى كانت تفضل من الجزور فى الميسر فكان الرجل الجواد يشتريها فيعطيها . وقال أبو عمرو : مثنى الأيادى أن يأخذ القسم مرة بعد مرة ، وأنشد بيت النابغة وهذا هو المعول عليه . فإن خرج الفذ أخذ صاحبه نصيبه وله جزء واحد كما تقدم ثم ضربوا بالقداح الباقية على التسعة الأجزاء الباقية . و إن خرج التوأم أخذ صاحبه جزءين وقعد إن شاء وضربوا بباقى القداح على السبعة الأجزاء الباقية فإن خرج المعلّى أخذ صاحبه الأجزاء السبعة التى بقيت . ووقع الغرم أعنى ثمن الجزور على من لم يخرج سهمه وهم أربعة أصحاب الرقيب والحلس والنافس والمسبل . والجملة هذه القداح ثمانية عشر سهماً فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً و يلزم كل صاحب قدح من هذه القداح مثل ما كان نصيبه من اللحم لو فاز قدحه ، فإن لم يخرج الفذ ولا التوأم وخرج الرقيب أخذ صاحبه ثلاثة أجزاء ، ثم ضربوا ثانية فخرج المعلى أخذ صاحبه السبعة الأجزاء الباقية وهى تتمة الجزور وكانت الغرامة على من لم يخرج قدحه وهم أصحاب القداح الخمسة التى خابت وهى الفذ والتوأم والحلس والنافس والمسبل ومجموع سهامها ثمانية عشر . فإن خرج المعلى أخذ صاحبه سبعة أجزاء الجزور واحتاجوا إلى نحر جزور أخرى لأن فى القداح التى خيبت المسبل وله ستة أجزاء . ولم يبق من اللحم إلا ثلاثة أجزاء ومن خاب قدحه فى الجزور الأولى لم يأكل منها شيئاً وذلك عندهم قبيح يعاب . فإذا نحروا الجزور الثانية وضربوا عليها بالقداح فخرج المسبل أخذ صاحبه ستة أجزاء منها الثلاثة التى بقيت من الجزور الأولى ولزمه الغرم فى الجزور الأولى ولم يلزمه فى الثانية شىء لأن قدحه قد فاز فيها وصار غرم الجزور الثانية على من لم يخرج قدحه على ما سبق من

الحساب . و بقى من الجزور الثانية سبعة أجزاء يضرب عليها القداح من بقى فإن خرج النافس أخذ صاحبه خمسة أجزاء ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئاً ولزمه الغرم فى الأولى و بقى جزآن من اللحم وقد بقى من القداح الحلس وله أربعة أجزاء فاحتاجوا إلى نحر أخرى لتتمة الأجزاء الأربعة ولايأ كل من خاب فى الجزورالثانية منها شيئاً فإن نحروا الجزور الثالثة وفاز الحلس أخذ صاحبه أربعة أجزاء منها جزآن من الثانية وجزآن من الثالثة ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئاً لأنه قد فاز وكان ثمنها على من خاب قدحه و بقى من الجزور الثالثة ثمانية أجزاء فيضرب عليهابالقداح من بقى حتى تخرج قداحهم موافقة لأجزاء الجزور ، فإن كانت أجزاء اللحم موافقة لأجزاء القداح لم يحتاجوا إلى نحر شىء فإن أعاد من فاز قدحه مرة ثانية فخاب غرم من ثمن الجزور التى خاب قدحه فيها على هذا الحساب ، فإن فضل من أجزاء اللحم شىء وقد خرجت القداح كلها كانت تلك الفاضلة لأهل الوبد من العشيرة ، وهم أهل الضعف وسوء الحال وشدة العيش ، و يقال رجل وبد أى سيىء الحال و يستوى فى الوصف به الواحد والجمع كما تقول رجل عدل و يجمع على أوباد كما يقال عدل وعدول ومنه قول عمرو بن عداء الكلبى :

سعى عقالاً فلم يترك لنا سَبَدا ... فكيف لو قد سعى عمرو عقالَيْن

لأصبحَ الحىُّ أوباداً ولم يَجِدوا ... عند التفرقِ فى الهيْجا جِمالَيْن[1]

أنشدهما أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادىّ فى أمثاله وقال : استعمل معاوية

---

(١) قوله : أودبادا يروى بدله (أوقاصا) وهو جمع وقص وهو ما بين الفريضتين من نصب الزكاة مما لا يجب فيه شىء . والمعنى لاصبح مال الحى أوقاصا لا يجب فيه شىء من الزكاة . وجمالين انما ثناها لا نه جعلها صنفين صنف يحملون عليه أثقالهم وصنف يقاتلون عليه ويوضحه رواية الاغانى . يوم الترحل والهيجا . ويستشهد النحويون بهذا البيت على جواز تثنية الجمع على تأويل فرقتين . ومثله قول شعبة بن قمير شاعر مخضرم :

لنا ابلان فيهما ما علمتم ... فعن أية ما شئتم فتنكبوا

وقول أبى النجم العجلى :

تبقلت من أول التبقل ... بين رماحى مالك ونهشل

وقولهم : لقا حان سوداوان . وفى الحديث الشريف « مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين » الى غير ذلك ، ولكن القياس يا أباه لان الغرض من الجمع

ابن أبي سفيان ابن أخيه عمرو بن عتبة بن أبي سفيان على صدقات كلب فاعتدى عليهم . فقال عمرو بن العداء هذا الشعر . وسعى في الموضعين من سعى الرجل على الصدقة أي الزكاة يسعى سعياً عمل في أربابها . وعقالا وعقالين منصوبان على الظرف أراد مدة عقال ومدة عقالين والعقال صدقة عام . والسبد بفتحتين الشعر والوبر قال ابن السيد في شرح أدب الكاتب : إذا قيل ماله سبد ولا لبد فمعناه ماله ذو سبد وهي الإبل والمعز ولاذو لبد وهي الغنم . ثم كثر ذلك حتى صار مثلا مضروبا للفقر فقيل لكل من لا ماله له أي شيء كان . يقول : تولى هذا الرجل علينا سنة في أخذ الزكاة منا فلم يترك لنا شيئاً لظلمه إيانا فلو تولى سنتين علينا على أي حال كنا نكون . وقوله : لأصبح الحي الخ الحي القبيلة . والأوباد : جمع وَبَدَ بفتحتين ، قال الجوهري : الوبد بالتحريك شدة العيش وسوء الحال مصدر يوصف به فيستوى فيه الواحد والجمع ثم يجمع فيقال أوباد كما يقال عدل وعدول على توهم النعت الصحيح وأنشد البيت . وقال ابن برى . الوجه أن يكون جمع وبد وهو السيء الحال كفخذ وأفخاذ وثنّى الجمال لأنه جعلها صنفين صنفاً لترحلهم يحملون عليها أثقالهم وصنفا لحربهم يركبونه إذا جنبوا خيلهم : وقد أفرد ابن قتيبة (1) للميسر كتاباً بين فيه مذاهب العرب بيانا شافياً

الدلالة على الكثرة والتثنية تدل على القلة فهما معنيان متدافعان ولولا هذا التأويل لم يسغ ذلك بحال . ومعنى بيتي عمرو : ان هذا الرجل سعى في صدقاتنا سنة فلم يترك لنا ذات شعر ولا ذات وبر فكيف لو تولى علينا سنتين اذن لاصبح رجال الحي على أسوأ حال ولم يجدوا من صنفي الجمال شيئا يستعينون به في ارتحالهم وقتالهم .

(1) أقول : وقد صنف كثير من العلماء في الميسر وأحسن ما وقفت عليه كتاب (المسفر عن الميسر) لشيخنا المؤلف . وكتب الامام برهان الدين البقاعي في تفسيره نظم الدرر في تناسب الآي والسور) بحثا ممتعا في الميسر ، والزبيدي شارح القاموس كتاب فيه أيضا اسمه (نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح) وقد ضمنه شرح عبارات البقاعي مع ايضاح ما أغفله ، وكانت هذه الرسالة بخط مؤلفها محفوظة في احدى «مكتبات» برلين ثم طبعت هناك . وصنف فيه بعض الالمانيين أيضا كتابا مستقلا جمع فيه أقوال الائمة . . هذا ما كتبناه هنا منذ ثلاثة أعوام تقريبا ، وقد اطلعنا اليوم على كتاب ابن قتيبة المسمى (الميسر والقداح) مطبوعا أحسن طبع بعناية صديقنا الاديب الجليل الاستاذ محب الدين الخطيب منشيء مجلة الزهراء بمصر ، فراقنا أسلوبه ودقة نظره وحسن استخراجه ولا بدع فان

ولم تكن نسخته عندى وما ذكرته كاف فى المقصود وقد خلا عن مثله كثير من الكتب ولله تعالى الحمد على ذلك (وقد حرمته الشريعة الإسلامية وأبطلته) وفى حكم ذلك جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما حتى أدخلوا فيه لعب الصبيان بالجوز والكعاب والقرعة فى غير القسمة وجميع أنواع المخاطرة والرهان وعن ابن سيرين كل شىء فيه خطر فهو من الميسر . وفى ذلك ورد قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فيهما إثم كَبِير ومَنَافع للنَّاس و إثمهما أكبر من نفعهما) فمنافع الميسر أن أهل الثروة والأجواد من العرب كانوا فى شدة البرد وكلب الزمان ييسرون أى يتقامرون بالقداح فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناس وعاشوا . وكانت العرب تمدح من يأخذ القداح وتعيب من لا ييسر وتسميه البَرَم . قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا:

ولا بَرَماً تهدى النساء لعرسه   إذا القَشْع من برد الشتاء تقعقعا [1]

(وأما مفاسده) فكثيرة منها أن فيه أكل الأموال بالباطل وأنه يدعو كثيراً من المقامرين إلى السرقة وتلف النفس واضاعة العيال وارتكاب الأمور القبيحة والرذائل الشنيعة والعداوة الكامنة والظاهرة وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من أعماه الله تعالى وأصمه . وفى كتاب فتح البارى : والحكمة فى تحريم الميسر ما فيه من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم وغير ذلك من المفاسد التى لا يقابلها ما يترتب على الميسر من المنفعة كمصير الشىء إلى الإنسان من غير تعب ولا كد وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح ، وقد ذكر الله سبحانه فى آية أخرى

الامام ابن قتيبة هو أبو عذرة أماثل هذا البحث العويص واليه المرجع فى معرفة تاريخ اعرب وأطوارهم وعاداتهم . ومن مزايا هذا الكتاب أن مؤلفه رحمه الله نهج فى تأليفه منهجا علميا حيث جمع أبيات شعراء العرب فى الميسر وجعل يتدبرها ويستدل على كيفيته باعتبارها ثم أودع كتابه ما أدى اليه النظر ودل عليه الاستخراج .

(١) راجع الجزء الاول ص ٧١

ما فيه من المفاسد الدنيوية والدينية ، أما الدنيوية فما يوقعه الشيطان فى البين من العداوة والبغضاء فقد يقامر الرجل حتى لا يبقى له شىء وتنتهى به المقامرة إلى أن يقامر بولده وأهله على ما سبق فيؤدى به ذلك إلى أن يصير أعدى الأعداء لمن قمره وغلبه . وأما المفاسد الدينية فهى الصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغير ذلك من أفعال الخير . فإن الميسر إن كان اللاعب به غالباً انشرحت نفسه ومنعه حب الغلب والقهر والكسب عما ذكر ، وإن كان مغلوباً حصل له من الانقباض والقهر ما يحثه على الاحتيال لأن يصير غالبا فلا يكاد يخطر بقلبه غير ذلك ، وقد شاهدنا كثيراً ممن يلعب بالنرد والشطرنج ونحوهما يجرى بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن الله تعالى وغير ذلك من الأمور المنكرة ما يخل بالمروءة ويزرى بذوى العقول السليمة ومن عوفى من ذلك فليحمد مولاه ، ومن ابتلى به فليسأل من الطافه سبحانه أن ينجيه من بلواه .

ومن مذاهبهم المشهورة الاستقسام بالأزلام

كانت العرب فى الجاهلية إذا أرادوا سفراً أو تجارةً أو نكاحا أو اختلفوا فى نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل[٢] أو غير ذلك من الأمور العظيمة جاءوا إلى هُبَل وهو أعظم صنم لقريش بمكة وكان فى الكعبة ومعهم مائة درهم فأعطوها صاحب القداح حتى يجيلَها لهم وكانت أزلامهم سبعة قداح محفوظة عند سادِنِ الكعبة وخادمها وهى مستوية فى المقدار عليها أعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرنى ربى) وعلى واحد منها (نهانى ربى) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غُفْل أى ليس عليه شىء فإذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذى قصدوا له ومعرفة عاقبته أخير هو أم شر استقسم لهم أمين القداح بِقِدْحى الأمر والنهى فإن خرج

---

(١) العقل دية المقتول .

قدح الأمر ائتمروا و باشروا فيما تصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم و إن خرج قدح النهى أخروا ذلك العمل إلى سنة فإذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى . و يروى أن هذين القدحين قد كتب على أحدهما (نعم) وعلى الآخر (لا) فإذا ظهر المجيل قدح (نعم) مضوا فيما قصدوه من العمل و إذا ظهر قدح (لا) توقفوا سنة على ما سبق من البيان ، والمقصود من الروايتين واحد . و إذا وقعت منازعة فى نسب أحد منهم استقسم لهم أمين القداح بالأزلام الموسومة (بمنكم . ومن غيركم . وملصق) فإن ظهر (منكم) أعزوا ذلك الرجل الذى اشتبهوا فى نسبه وتنازعوا فى أمره واحترموه غاية الاحترام و إن ظهر (من غيركم) نفروا عنه وتجنبوه و إن ظهر (ملصق) بقى ذلك الرجل مجهول النسب عندهم على ما كان عليه قبل فما ظهر من هذه الأزلام وجب العمل بموجب ما ظهر فيه واعتمدوا عليه كل الاعتماد . و إذا تنازعوا فى العقل — وهى دية المقتول — بأن اشتبه عليهم القاتل أحضروا من اتُّهِمَ بالقتل بالقدحين الموسومين (بالعقل . والغفل) واستقسم لهم الأمين فمن خرج عليه العقل تحمل الدية و إن خرج الغفل أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه . وحكى أبو الفرج الأصبهانى : إنهم كانوا يستقسمون عند (ذى الخلصة) أيضاً وإن امرأ القيس لما خرج يطلب بثأر أبيه استقسم عنده فخرج له ما يكره فسب الصنم ورماه بالحجارة ، وأنشد :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا لم تنهَ عن قتل العداة زورا [1]

قال : فلم يستقسم عنده أحد بعد حتى جاء الإسلام . والذى تحصل من كلام أهل النقل الثقات أن الأزلام كانت عند العرب على ثلاثة أنحاء : أحدها : قداح الميسر العشرة وقد سبق تفصيلها على الوجه الأكمل . وثانيها : لكل أحد وهى ثلاثة على أحدها مكتوب (افعل) وعلى الثانى (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل) وقال الفراء : كان على أحدها (أمرنى ربى) وعلى الثانى (نهانى ربى) وعلى الثالث .

---

(١) راجع ص ٢٠٧ من الجزء الثانى

(غفل) فإذا أراد أحدهم الأمر جعلها فى خريطة وهى الربابة وأدخل يده فيها وأخرج واحداً فإن طلع الآمر فعل أو الناهى ترك أو الغفل أعاد . وثالثها : للأحكام وهى التى عند الكعبة . ذكر ابن إسحق أن أعظم أصنام قريش كان هبل وكان فى جوف الكعبة يتحاكمون عنده فيما أشكل عليهم فما خرج منها رجعوا إليه ، وكان عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق ومعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون مالم يقسم بالأزلام ، وقد حرمه الله تعالى فى جملة ما حرم فقال عز اسمه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ » واستشكل تحريم ما ذكر بأنه من جملة التفاؤل وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفأل . وأجيب بأنه كان استشارة مع الأصنام واستعانة منهم كما يشير إلى ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنهم إذا أرادوا ذلك أتوا بيت أصنامهم وفعلوا ما فعلوا فلهذا صار حراماً . وبعض العلماء يقول : إن سبب تحريم الاستقسام بالأزلام أنه دخول فى علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه وافتراء على الله تعالى إن أريد (ربى) فى قولهم : (أمرنى ربى) الله وجهالة وشرك إن أريد به الصنم .

قال (الجد) فى تفسيره[1] ناقلا عن كتاب الأحكام للجصاص : إن الآية تدل على بطلان القرعة فى عتق العبيد لأنها فى معنى ذلك بعينه إذ كان فيها إثبات ما أخرجته القرعة من غير استحقاق كما إذا أعتق أحد عبيده عند موته على ما بين فى الفقه ، ولا يرد أن القرعة قد جازت فى قسمة الغنائم مثلا وفى إخراج النساء ؛ لأنا نقول إنها فيما ذكر لتطييب النفوس والبراءة من التهمة فى إيثار البعض ولو اصطلحوا على ذلك جاز من غير قرعة . وأما الحرية الواقعة على واحد من العبيد فيما نحن فيه فغير جائز نقلها عنه إلى غيره وفى استعمال القرعة

---

(١) ج ٢ ص ٢٤٧

النقل وخالف الشافعي في ذلك فجوز القرعة في العتق كما جوزها في غيره وظواهر الأدلة معه وتحقيق ذلك في موضعه . قال : والحق عندي أن الاستقسام الذي كان يفعله أهل الجاهلية حرام بلا شبهة كما هو نص الكتاب وأن حرمته ناشئة من سوء الاعتقاد وأنه لايخلو عن تشاؤم وليس بتفاؤل محض و إن مثل ذلك ليس من الدخول في علم الغيب أصلا بل هو من باب الدخول في الظن . انتهى ما هو المقصود من كلامه . ولابن القيم كتاب سماه (الطرق الحكمية[1]) ذكر فيه القرعة وجعلها أحد طرق الأحكام الشرعية واستدل على ذلك بقوله تعالى : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » قال[2] : روى عن قتادة كانت مريم عليها السلام ابنة إمامهم وسيدهم فتشاحَّ عليها بنو إسرائيل فاقترعوا عليها بسهامهم أيهم يكفلها فقرع زكريا وكان زوج أختها فضمها إليه . وعن ابن عباس : لما وضعت مريم في المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحي فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها . و بقوله تعالى : « وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أي فقارع فكان من المغلوبين . قال : وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم . و بعد أن أورد عدة أحاديث صحيحة قال : فهذه السنة كما ترى قد جاءت بالقرعة كما جاء بها الكتاب وفعلها أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده . قال البخاري في صحيحه : ويذكر أن قوماً اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد . وقد صنف (أبو بكر الخلال) مصنفاً في القرعة وهو في جامعه . قال أحمد في رواية الفضل ابن عبد الصمد : القرعة في كتاب الله والذين يقولون القرعة قمار قوم جهال .

وقد أطال ابن القيم في الاستدلال على كون القرعة من الطرق الحكمية والدلائل الشرعية مما لا يسعه المقام . . ثم بين كيفية القرعة في فصل مستقل فقال :

---

(١) طبع بمطبعة الاداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ (٢) ص ٢٦٥

إنه يجب من القرعة ما نقل عن سعيد بن المسيّب أنه كان يأخذ خواتيمهم فيضعها فى كمه فمن أخرج أولًا فهو القارع . وقال أبو داود : قلت لأبى عبد الله فى القرعة يكتبون رقاعاً ، قال : إن شاءوا رقاعاً و إن شاءوا خواتيمهم . وقال أبو منصور : قلت لأحمد كيف يقرع ؟ قال : بالخاتم و بالشيء . وقال إسحق بن راهو يه : فى القرعة يؤخذ عود شبيه بالقدح فيكتب عليه (عبد) وعلى الآخر (حرّ) . وقال بكير ابن محمد عن أبيه : سألت أبا عبد الله ! كيف تكون القرعة ؟ قال : يلقى خاتم . وعن الأثرم قلت لأبى عبد الله كيف القرعة ؟ فقال سعيد بن جبير يقول بالخواتيم أقرع بين اثنين فى ثوب فأخرج خاتم هذا وخاتم هذا ، قال : ثم يخرجون الخواتيم ثم ترفع إلى رجل فيخرج منها واحداً . قلت لأبى عبد الله : فإن مالكا يقول : تكتب رقاعاً وتجعل فى طين ، قال : وهذا أيضاً . وقيل لأبى عبد الله : إن الناس يقولون القرعة هكذا يضم الرجل أصابعه الثلاث ثم يفتحها فأنكرها وقال : ليست هكذا انتهى . . ومن أحب الوقوف على تفصيل هذا البحث ومعرفة مواضع القرعة فعليه بهذا الكتاب فإن فيه الكفاية . وعند الحكومة اليوم للقرعة طريق آخر فإنهم يستعملونها فى بعض الأمور لا حاجة لنا إلى بيانها ، والله مدبّر الأمور .

ومن مذاهب العرب المشهورة النسيء

اعلم أن سنى العرب كانت موافقة لسنى الفرس فى الدخول والانسلاخ فحدث فى أحوالهم انتقالات فسد عليهم بها الكَبْس[1] إلى أوان السنة السادسة

---

(١) قال الشيخ سحنون الميدوى فى كتابه (مفيد المحتاج فى شرح السراج) للعلامة الاخضرى (ص ١٦) : الكبس فى اللغة هو الطي يقال الكبس فلان أى انطوى واجتمع بعضه ببعض وكبست الخرفة اذا طويتها . وفى الاصطلاح : ضم فضلات السنين بعضها لبعض حتى يجتمع منها يوم كامل أما فى العجمى فيجتمع فى أربع سنين يوم فيزاد فى آخر دجنبر وفى السنة الكبيسة فيكون من اثنين وثلاثين يوما وكذلك كبس العربى . انتهى المقصود منه وفى التاج : . . الكبيس فى حسابهم فى كل أربع سنين يزيدون فى شهر شباط يوما فيجعلونه تسعة وعشرين يوما وفى ثلاث سنين يعدونه ثمانية وعشرين يوما يقيمون بذلك كسور حساب السنة ويسمون العام الذى يزيدون فيه عام الكبيس

من ملك أغسطس[١]، وذلك بعد ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوما فسنوا كبس الربع من اليوم فى كل سنة فصارت سنوهم بعد ذلك الوقت محفوظة المواقيت .
ويقال إن العرب كانت فى جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تكبس سنيها إلى أن جاورتهم اليهود فى يثرب فأراد العرب أن يكون حجهم فى أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد فى التجارة ولا يزول عن مكانه فتعلموا الكبس من اليهود . ويقال : إن عمرو بن لحى الخزاعى أول من نسأ الشهور وبَحَرَ البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى وأول من دعا الناس إلى عبادة الأصنام وقد سبق تفصيل ذلك على أتم وجه . ومعنى النسيء تأخير حرمة شهر إلى آخر . وأصله من نسأت الشيء إذا أخرته فإنهم يعتقدون أن من الدين تعظيم الأشهر الحرم وهى أربعة : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة فكانوا يتحرجون[٢] فيها من القتال ، وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا فى شهر حرام حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل ويقولون نسيء الشهر فيستحلون المحرم ويحرمون صفراً فإن احتاجوا أيضاً أحلوه وحرموا ربيعاً الأول ، وهكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ، وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من

---

(١) فى صبح الاعشى (ج ٢ ص ٣٨٧) : « أغيطش » وفى موضع آخر منه « أغشطش »

(٢) أى يكفون أنفسهم من حرج القتال أى اثمه . وفى الحديث كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة : وهذا مما ورد لفظه مخالفا لمعناه ومنه : تحنث اذا فعل ما يخرج به عن الحنث وتأثم أى جانب الاثم وتحوب أى ألقى الحوب — وهو الاثم — عن نفسه ، وتلوم اذا تربص بالأمر يريد القاء الملامة عن نفسه قال المرقش :

يا صاحبى تلوما لا تعجلا ان النجاح رهين ان لا تعجلا

الى غير ذلك مما يطول ايراده . وقد ألف فى هذا المتقدمون ولكن لم يصلنا — ووا اسفاه — شيء منه .

السنة حراماً أيضاً . ولذلك نص على العدد المعين فى الـكتاب والسنة وكان يختلف وقت حجهم لذلك ، وكان فى السنة التاسعة من الهجرة التى حج بها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالناس فى ذى القعدة ، وفى حجة الوداع فى ذى الحجة وهو الذى كان على عهد إبراهيم عليه السلام ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام ولذا قال صلى الله عليه وسلم : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .. زعم يوسف بن عبد الملك فى كتابه (تفضيل الأزمنة) أن هذه المقالة صدرت من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى شهر مارس وهو آذار وهو برمهات بالقبطية وفيه يستوى الليل والنهار عند حلول الشمس برج الحمل والمراد بالزمان السنة . ومعنى كهيئته أى استدار استدارة مثل حالته الأولى . والمراد باستدارته وقوع تاسع ذى الحجة فى الوقت الذى حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوى الليل والنهار . وأضاف رجب إلى مضر لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه بخلاف غيرهم فيقال إن ربيعة كانوا يجعلون بدله رمضان وكان من العرب من يجعل فى رجب وشعبان ماذكر فى المحرم وصفر فيحلون رجباً ويحرمون شعبان ، ووصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيداً . وفى رواية أنهم كانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين وفى المحرم عامين وهكذا . ووافقت حجة الصديق فى ذى القعدة من سنتهم الثانية ، وكانت حجة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الوقت الذى كان من قبل ولذا قال ما قال .

وحكى ابن إسحق صاحب السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام أن أول من نسأ الشهور على العرب وأحل منها ما أحل وحرم ما حرم القَلَمَّسُ وهو حذيفه بن فقيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام على ذلك بعده ولده عباد ثم قام بعد عباد ابنه قلع ثم قام بعد قلع ابنه أمية ثم قام بعد أمية

ابنه عوف ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت عليه بمنى فقام فيها على جبل عند جَمْرَةِ العَقَبَةِ، وقال بأعلى صوته: اللهم لا أعابُ ولا أخابُ [1] ولا مرد لما قضيت اللهم إنى أحللت شهر كذا و يذكر شهراً من الأشهر الحرم وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه وأنسأته إلى العام القابل أى أخرت تحريمه وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى فكانوا يحلون ما أحل و يحرمون ما حرم . وفى رواية عن الكلبى : أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان إذا همّ الناس بالصدور من الموسم يقوم فيخطب و يقول لا مرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أخاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهراً يغزون فيه فيقول إن صفر العام حرام فإذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة [2] وإن قال حلال عقدوا الأوتار وركبوا الأزجة وأغاروا . وعن الضحاك أنه جنادة بن عوف الكنانىّ وكان مطاعاً فى الجاهلية وكان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه . ثم يقوم فى العام القابل فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كانت النسأة حياً من بنى مالك بن كنانة وكان آخرهم رجلا يقال له القَلَمَّس وهو الذى أنسأ المحرم وكان ملكا فى قومه . وأنشد شاعرهم (ومنا ناسيءُ الشهر القَلَمَّس) وقال عمير بن قيس أحد بنى فراس ابن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب . و يروى إن القائل الكميت :

لقد علمت معدٌّ أن قومى　　كرام الناس إن لهم كراما

---

(١) كذا بالخاء المعجمة) هنا وفى كل موضع وردت فى هذا الكتاب . وفى القاموس (مادة القلمس) أجاب بالجيم ومثله فى شرحه تاج العروس وعليهما اعتمدنا فى تصحيح هذه الكلمة فى (ج ١ ص ٣٣٥) وقد تبين لنا الآن أن صوابها (أحاب) بالحاء المهملة من الحوب وهو الاثم فمعنى لا أحاب : لا أتهم باثم . فتدبر ! (٢) الازجة جمع زج وهو الحديدة التى تركب فى أسفل الرمح وانكر الجوهرى ورود هذا الجمع . راجع التاج ج ٢ ص ٥١

فأىّ الناس فأتونا بوتر   وأىّ الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معدّ   شهور الحل نجعلها حراماً ؟

(وقال آخر)

أتزعم أنى من فقيم بن مالك   لعمرى لقد غيرت ما كنت أعلم
لهم ناسىء يمشون تحت لوائه   يحلّ إذا شاء الشهورَ ويحرم

وفى القاموس : إن الناسىء كان يقول اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أخاب اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر وكذلك فى الرجبين يعنى رجب وشعبان انفروا على اسم الله . وذلك قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر) وحكى السهيلى فى الروض الأنف أن نسىء العرب كان على ضربين . أحدهما : تأخير شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات وطلب الثارات والثانى. تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور فيه إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة حج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فوافق حجه فى ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل فوافق عود الحج إلى وقته فى ذى الحجة كما وضع أولا فلما قضى حجه خطب فكان مما قال فى خطبته : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض الحديث . يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة . وقال العسقلانى فى فتح البارى : كانت العرب فى الجاهلية على أنحاء : منهم من يسمى المحرم صفراً فيحل فيه القتال ويحرم القتال فى صفر ويسميه المحرم . ومنهم من كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا . ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا . ومنهم من يؤخر صفر إلى ربيع الأول وربيعا إلى ما يليه . وهكذا إلى أن يصير شوال ذا القعدة وذو القعدة ذا الحجة . ثم يعود فيعيد العدد على الأصل انتهى . وقد استنبط بعض العلماء دليلا على أن

مواقيت الحج لا يجرى على حساب السنة الشمسية الذى كانت الجاهلية تعتمده من قوله سبحانه (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) فإنه جل شأنه خص الحج بالذكر دون غيره من العبادات المؤقتة بالأوقات تأكيداً لاعتباره بالأهلة. وما أحسن ما فصل أبو إسحق الصابى بين السنة الشمسية والقمرية بما يختص به كل واحدة منهما دون الأخرى . فقال : وأما العرب فإن الله تعالى فضلها على الأمم الماضية ، وورثها ثمرات مساعيها المتعبة . وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها ، وزكاة أهل ملتها ، وجزية أهل ذمتها ، على السنة الهلالية وتعبدها فيها برؤية الهلال إرادة منه أن تكون مناهجها واضحة ، وأعلامها لائحة فيتكافأ فى معرفة الفرض ودخول الوقت الخاص والعام ، والناقص الفطنة والتام ، والذكر والأنثى وذو الصغر والكبر ، فحينئذ يجبون فى سنى الشمس حاصل الغلات المقسومة وخراج الأراضى الممسوحة ويحسبون فى سنة الهلال الجوالى [(١)] والصدقات ، والأرحاء والمقاطعات ، وسائر ما يجرى على المشاهرات انتهى

ومن النصوص الواردة فى إبطال النسيء قوله عز اسمه (إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حُرُم ذلك الدينُ القيم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتّقين ، إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) وما سبق من الكلام يوضح معنى الآية والدين القيم المستقيم . هو دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم حتى

---

(١) قال الخفاجى فى شفاء الغليل : قال فى الزاهر ، الجوالى هم أهل الذمة وانما قيل لهم جوالى لانهم جلوا عن مواضعهم . أ هـ . والناس الآن يتجوزون به عن الخراج وعن الوظائف المرتبة منه وهو ليس بعربى .

إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه ويسمون رجب الأصم ومنصل الأسنة حتى أحدثوا النسيء فغيروا . والمراد بظلم الأنفس فيهن هتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن . ومعنى كون النسيء زيادة فى الكفر الذى هم عليه لأنه تحريم ما أحل الله تعالى وقد استحلوه واتخذوه شريعة وذلك كفر ضموه إلى كفرهم . وقيل لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه . وقيل إنه معصية ضمت إلى الكفر وكما يزداد الإيمان بالطاعة يزداد الكفر بالمعصية . ومعنى ليواطئوا عدة ما حرم الله ليوافقوا عدة ما حرم الله من الأشهر الأربعة أى فعلوا ما فعلوا لأجل موافقة ذلك فيحلوا ما حرم الله بخصوصه من الأشهر المعينة . والحاصل أنه كان الواجب عليهم العدة والتخصيص فحيث تركوا التخصيص فقد استحلوا ما حرم الله كل ذلك اتباعاً لشهوات أنفسهم ، وطلباً لمزيد راحتهم وأنسهم .

الشهور العربية ومآخذ أسمائها

الشهور العربية قسمان : قسم غير مستعمل وهو الذى وضعته العرب العاربة . وقسم مستعمل وهو الذى وضعته العرب منها بالاسم الذى وضع له عند استهلال هلاله . فأما القسم الغير المستعمل فأسماء شهور كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها [١] وهى : مؤتمر وناجِر وحوّان (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) وصوان ويقال فيه وَبْصان ورُبّى وأيِّدة والأصم وعادل وناطل وواغل وَوَرنة وبُرَكُ . وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة . فإن منهم من يقول هى ناتق ونقيل وطليق وأسنح وأنخ وحلك وكسح وزاهر ونوط وحرف ويغش . فناتق هو المحرم ونقيل هو صفر وهكذا ما بعده على سرد الشهور . وكانت ثمود تسميها موجب وموجز ومور [٢] وملزم ومصدر وهوبر وهوبل وموها وذيمر [٣] ودابر وحيقل ومسيل

---

(١) اعتمدت فى تصحيح هذه الاسماء على صبح الاعشى (ج ٢ ص ٣٦٨) والقاموس وتاج العروس ، ولقطة العجلان . وقد رأيت الأستاذ نقل هذا البحث عن اللقطة بالحرف الواحد تقريبا ...

(٢) فى لقطة العجلان « مورد » . (٣) كذا بالذال المعجمة وستأتى قريبا بالمهملة وفى اللقطة : دمير وديمر أيضا .

فرجب هو المحرم وموجر صفر إلا أنهم كانوا يبدأون بالشهور من دير وهو شهر رمضان فيكون أول شهور السنة عندهم . وبعض أولئك العرب يسميها بالأسماء الأول مع مغايرة يسيرة . ويقول هي : مؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنتم وزبا[1] والأصم وعادل ونافق[2] وواغل وهواع وبرك . . ومعنى المؤتمر أنه يأتمر بكل شيء مما تأتي به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر وهو شدة الحر . . وخوان على وزن فعال من الخيانة . وصوان بكسر الصاد وضمها فعال من الصيانة والزبا الداهية العظيمة المتكاثفة سمي بذلك لكثرة القتال فيه . ومنهم من يقول بعد صوان الزبا وبعد الزبا بائدة وبعد بائدة الأصم ثم واغل وناطل وعادل ووَرْنة وبُرَك . فالبائد من القتال إذا كان يبيد فيه كثير من الناس . وجرى المثل بذلك فقالوا « العجب كل العجب بين جمادى ورجب » وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ الثأر والغارات قبل رجب فإنه شهر حرام . ويقولون له الأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شرب ولم يدعوه . وذلك لأنه يهجم على شهر رمضان وكان يكثر في شهر رمضان شربهم الخمر لأن الذي يتلوه هي شهور الحج . وناطل هو مكيال الخمر سمي به لإفراطهم فيه بالشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال . وأما العادل[3] فهو من العدل لأنه من أشهر الحج وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل . وأما الزبا فلأن الأنعام كانت تزب فيه لقرب النحر . وأما برك فهو لبروك الإبل إذا حضرت المنحر . وقد روى أنهم كانوا يسمون المحرم مؤتمر وصفر ناجر وربيع الأول وبصان[4] وربيع الآخر خوان وجمادى الأولى حنتن وجمادى الأخرى ورنة[5] ورجب الأصم وهو شهر مضر وكانت العرب تصومه في الجاهلية وكانت تمتار فيه وتمير أهلها وكان يأمن بعضهم بعضاً فيه ويخرجون إلى الأسفار ولا يخافون وشعبان عادل

---

(١) كذا والمشهور (ربى) كما صححناها في أول البحث من التاج والصبح (٢) في الاصل «بايق»
(٣) في القاموس وشرحه : « العاذل » بالذال المعجمة (٤) في الاصل « نصار » (٥) في الاصل :« الرنة » .

ورمضان ناتق وشوال واغل وذو القعدة هواع وذو الحجة برك ويقال فيه أيضاً أبروك وكانوا يسمونه الميمون .

(وأما القسم المستعمل) فالمحرم وصفر وربيعان وجماديان ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه الأسماء وضعت على هذه الشهور باتفاق حال وقعت فى كل شهر منها فسمى ذلك الشهر بها عند ابتداء الوضع فسموا المحرم محرما لأنهم كانوا يغيرون فاتفق أن أغاروا فى هذا الشهر فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه فسموه محرماً وسموا صفراً لصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات . وقيل لأنهم كانوا يغيرون الصفرية وهى بلاد . وشهرا ربيع لأنهم كانوا يخصبون فيها بما أصابوا فى صفر والربيع الخِصْبُ ، وقيل غير ذلك والذى ذكر أليق بالتعليل حكاه ابن النحاس فى كتاب (صناعة الكتاب) وجماديان من جمد الماء لأن الوقت الذى سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً . ورجب لتعظيمهم له والترجيب التعظيم وقيل رجب لأنه وسط السنة مشتق من الرواجب وهى أناميل الإصبع الوسطى ، وقيل إن العود رجب النبات فيه أى أخرجه فسمى بذلك ، وكذلك تشعب العود فى الشهر الذى يليه فسمى شعبان ، وقيل سمى بذلك لتشعبهم فيه للغارات ، وسمى رمضان أى شهر الحرّ مشتق من الرمضاء وقد صادف ذلك وقت التسمية ، وشوال من شالت الإبل أذنابها إذا حالت أو من شال يشول إذا ارتفع وذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمى به .

ويقال أن أول من سماها بهذه الأسماء كلاب بن مرة ، ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم : ثلاثة سرد وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب مضر على الإضافة لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وهذا الترتيب رواه الأصمعى عن العرب ، واختار غيره أن يبدأ فى العدد بالمحرم ثم رجب وذى القعدة وذى الحجة لتكون الأربع كلها معدودة فى سنة واحدة . وروى عن ابن عباس

رضى الله تعالى عنه ، وأبدى بعضهم لترتيب الأشهر الحرم على هذا الوجه مناسبة لطيفة حاصلها أن للأشهر الحرم مزية على ما عداها فناسب أن يبدأ بها العام وأن تتوسطه وأن تختم به ، وإنما كان الختم بشهرين لوقوع الحج ختام الأركان الأربعة لأنها تشتمل على عمل مال محض وهو الزكاة وعمل بدن محض وذلك تارة يكون بالجوارح وهو الصلاة . وتارة بالقلب وهو الصوم لأنه كف عن المفطرات ، وتارة عمل مركب من مال وبدن، وهو الحج فلما جمعهما ناسب أن يكون له ضعف ما لواحدٍ منها فكان له من الأربعة الحرم شهران . وكانوا يعظمون هذه الأشهر ويحرمون القتال فيها حتى إن الرجل منهم لو لقى قاتل أبيه أو قاتل أخيه لم يكلمه وهم يعظمون أول يوم من رجب أوفر تعظيم حسبما يخطر بالبال ، ومن سنتهم فيه أن يصالح بين من كان بينه وبين غيره موجدة . . ومن هذه الأشهر أربعة لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة وهى شهرا ربيع وشهر رجب وشهر رمضان والأشهر المتفقة أوائلها[1] المحرم مثله شوال . صفر مثل رجب . ربيع الأول مثله

(١) ههنا ضابط لا ينجلى معنى هذا الكلام الا بايراده . وهو : انهم وضعوا لكل شهر من شهور السنة حرفا وذلك لمن يريد أن يعرف اليوم الذى يدخل به الشهرالعربى فى عامه ويجمع تلك الحروف قوله (أجد وزب جهر أبد) فللمحرم الالف واصفر الجيم وهكذا . . . وكيفيتها : معرفة أول أى شهر أردت انك تأخذ حرف شهرك المجهولة رؤيته وتبدأ بالعدد من اليوم الذى دخل به عامك العربى وهو المحرم فحيث انتهى لك العدد فذلك اليوم الذى يدخل به شهرك المطلوب .

مثال ذلك : ان أول المحرم من هذا العام — ١٣٤٠ — كان (الاحد) فاذا أردت أن تعرف اليوم الذى يبتدىء به ذو القعدة مثلا فخذ حرفه وهو (الباء) وعدده بحساب الجمل (اثنان) فتقول : الاحد الاثنين فتقف على الاثنين فانه أول ذى القعدة وهلم جرا . . فاذا عرفت هذا الضابط الذى هو مناط الثريا على كثير من الناس تبين لك معنى قوله : والاشهر المتفقة أوائلها المحرم مثله شوال الخ . . واعلم انك اذا ضل عنك الشهر العربى ولم تعلم فى أى شهر أنت فيه من شهور العام تعد من يناير الى الشهر العجمى الذى أنت فيه واحمل على العدد سبعة أبدا فما اجتمع بدأت به من جمادى الأولى متماديا على الشهور فعلى أى شهر وقف حسابك ففيه أنت ان شاء الله . وأيضا اذا لم تعلم بأى يوم دخل فانظر بأى يوم أهل الهلال فى الشهر الذى أنت فيه ثم خذ علامة ذلك الشهر وعدها الى وراء من اليوم الذى هل به الشهر الذى أنت فيه فحيثما انتهى حسابك فيما قبل فهو اليوم الذى يدخل به المحرم . وهناك ضوابط كثيرة مهمة من هذا القبيل تجدها فى كتب الفلك والله ولى التوفيق

ذو الحجة . ربيع الآخر مثله رمضان ، جمادى الآخرة مثله ذو القعدة ، والشهور الغير المتفقة جمادى الأولى وشعبان . والله ولى التوفيق وهو المستعان ، وقد أوردنا من أفعالهم وأعمالهم التى جبّها الإسلام وأبطلها الشرع المحمدى ما فيه الكفاية فى هذا المقام ، وأما استيعابها فيحتاج إلى كتب مفصلة ويكفى من القلادة ما أحاط بالجيد ، ومن تتبع كتب المتقدمين ، وشروح دواوين الجاهليين ، أمكنه أن يقف على أكثر مما ذكرنا .

ذكر ما كان للعرب فى الجاهلية من العلوم والمعارف

قد أسلفنا فى أوائل الكتاب أن العرب كانوا على أقسام مختلفة ، وأصناف متغايرة ، وأن البائدة منهم كعاد وثمود وطسم وجديس إلى غير ذلك من الأمم قد انقرضوا وانقطعت عنا أخبارهم وتفاصيل أحوالهم . وأن غير البائدة (وهم موضوع الكتاب) قد تفرعوا من عدنان وقحطان : أما قحطان وهم عرب اليمن فقد كانوا على أحسن ما يكون من التمدن والغالب منهم سكن البلاد المعمورة ، و بنوا القصور المشهورة ، وشيدوا الحصون المذكورة . وكانت لهم مدن عظيمة قد شرح حالها أهل الأخبار على أتم وجه . هذه (سبأ) قد ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم فقال عَزَّ اسمه (لَقَدْ كانَ لِسَبَأٍ فى مسكنهم آيةٌ جنّتانِ عن يمينٍ وشمال كُلُوا من رِزْقِ ربّكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وَرَبٌّ غَفُور) وكان لهم ملوك وأقيال دوّخوا البلاد واستولوا على كثير من أقطار الأرض ؛ كل ذلك يدل على كمال وقوفهم على العلوم التى لا بدّ منها فى حفظ النظام وعليها مدارُ المعاش والانتعاش وسياسة المدن وتدبير المنزل والجيوش وتأسيس المدن و إجراء المياه وغير ذلك مما لا يمكن وجوده مع الجهل وعدم المعرفة وكانت لهم أديان مختلفة وقد أرسل الله تعالى لهم من بلغهم ما أراد من الأوامر

والأحكام فآمن مَنْ آمن وكذب من كذب كحال غيرهم من الأمم وكانت لهم اليد الطولى فى كثير من الصناعات وكانت للتبابعة والجبابرة منهم مذاهب فى أحكام النجوم وغيرها : كل ذلك من المسلمات التى لا يمكن لأحد التوقف فى قبولها ولا التردد فى الإذعان لها وقد نطق متواتر الأخبار الصحيحة بها . . وأما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن بعد أن فرقتهم حادثة سيل العَرِمِ ، فكانوا على شريعة موروثة وعلم منزل من السماء وهو ما جاء به إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام إلى أن اختلّ أمرهم ، وتغير حالهم ، بمرور العصور ، وتطاول الدهور ، فأهملوا ما كانوا عليه من الدين ، وتركوا سديد القوانين ، ودانوا بما وضع لهم الخزاعى [1] وابتدعه لإغوائهم من الأحكام الباطلة واقتدوا بأقواله وأفعاله ، فمن ذلك اليوم فشا الجهل بينهم وقلّ العلم فيهم وأضاعوا صنائعهم وتشتتوا فى الأطراف والأكناف ، ووقع التنازع والتشاجر بين القبائل وتكاثرت البغضاء بينهم ، فلم يبق عندهم علم منزل ولا شريعة موروثة من نبى ولا هم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطبّ والحساب ونحوهما إنما علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم أو ما احتاجوا إليه فى دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحروب ونحو ذلك . وكانوا يقال لهم الأمة الأمية . قال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يَتْلُو عليهم آياتِهِ ويزكّيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مُبين) فإن المراد من الأميين العرب والأمى منسوب إلى أمة العرب ولما كانت علومهم الفطرية ومعارفهم الطبيعية مما تدل على حدة أذهانهم ، وقوة فطنتهم ، وكمال استعدادهم وأنها تدل على أنهم فاقوا على [2] غيرهم ، أحببت

---

(١) هو عمرو بن لحى (٢) الصواب : فاقوا غيرهم لأن فاق يتعدى بنفسه . قال المجد : فاق اصحابه فوقا وفواقا علاهم بالشرف . انتهى . وفى الحديث : حببالى الجمال حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل . وقال الشاعر : —

فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

أن أذكر نبذة منها مع تعريفها وتوضيحها و بيان ما يناسب من الأخبار التى صحت بها الرواية ، وثبت عن الثقات من أهل الدراية . فمن علومهم :

علم الشعر والقريض

اعلم أن الشعرَ أكثر علم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شهادته ، وتمتثل إرادته ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من الشعر لحكمة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، و يستعطف بها اللئيم ؛ مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأبية ، وعزّ الأنفة ، وسلطان القدرة . وفى عمدة ابن رشيق [1] : العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم كفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ، إذ خروج الحكمة عن الذات ، بمشاركة الآلات ، فإنه لا بد للإنسان من أن يتولى ذلك بنفسه ، أو يحتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه ، وكلام العرب نوعان : منظوم ، ومنثور ولكل نوع منهما ثلاث طبقات : جيدة ، ومتوسطة ، ورديئة ، فإذا اتفق الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة ولم يكن لأحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً فى التسمية لأن كلّ منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة . ألا ترى أن الدرّ وهو أخو اللفظ ونسيبه و إليه يقاس و به يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى له كسب ، ومن أجله انتخب ، و إنْ كان أعلى قدراً ، وأعلى ثمناً ، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الأسماء ، وتدحرج عن الطباع ، ولم يستقر منه إلا المفرطة فى اللفظ و إن كانت أجمله ،

---

(١) ص ٤

والواحدة من الألف وعسى أن لا تكون أفضله ، فإن كانت هى اليتيمة [١] المعروفة والفريدة الموصوفة ، فكم فى سفط الشعر من أمثالها ونظائرها لا يعبأ به ولا ينظر إليه ، فإذا أخذ سلك الوزن وعقدة القافية تألفت أشتاته ، وازدوجت فرائده وبناته ، واتخذه اللابس جمالاً ، والمدخر مالاً فصار قرطة [٢] الآذان ، وقلائد الأعناق ، وأما فى النفوس ، وأكاليل الرؤوس ، يقلب بالألسن ، ويخبأ فى القلوب مصوناً باللب ، ممنوعاً من السرقة والغصب ، وقد اجتمع الناس على أن المنثور فى كلامهم أكثر وأقل جيداً محفوظاً ، وأن الشعر أقل وأكثر جيداً محفوظاً لأن فى أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب جيد المنثور . وكان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم قد شعروا به أى فطنوا . وزعم [٣] الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً وأنه إنما قصد على عهد هاشم ابن عبد مناف . وكان أول من قصده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجئ الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة ذكر ذلك الجمحى وغيره . . وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلى شيئاً يسيراً وكان على عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتى العجاج فافتنّ فيه فالأغلب العجلىّ والعجاج فى الرجز كامرىء القيس ومهلهل فى القصيد . . وسئل أبو عمرو بن العلاء [٤] : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها . قيل : هل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . ويستحب عندهم الإطالة عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والإصلاح بين القبائل كما فعل زهير والحرث بن حِلزة ومن شابههما ، وإلا فالقطع أطير فى بعض المواضع والطوال للمواقف المشهورة .

---

(١) أى الدرة التى لانظير لها . (٢) قرطة : على وزن عنبة جمع قرط وهو ما يعلق فى شحمة الاذن (٣) العمدة : ج ١ ص ١٢٦ (٤) العمدة : ج ١ ص ١٢٤ .

اهتمام القبائل بشعرائها

ومن مذاهب العرب أن القبيلة منهم كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن بالأعراس، وتباشروا به لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يُولَد أو فرس تُنْتَج أو شاعر ينبغ فيهم. فممن حمى قبيلته زياد الأعجم: وذلك أن الفرزدق همّ بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً — وهو منهم — فبعث إليه: لا تعجل فإنى مهدٍ إليك هديةً فانتظر الفرزدق الهدية فجاءه من عقده هجو وهو هذا:

وماتركَ الهاجون لى إن هجوته مصحاً أراه فى أديم الفرزدقِ
ولا تركوا عظما يرى تحت لحمه لكاسره أبقوه المتعرق
سأكسر ما أبقوا له من عظامه وأنكت مخّ الساق منه وأنتقى
فأنا وما تهدى لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

فلما بلغته الأبيات كف عما أراد، وقال: لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش (العبد) هذا فيهم. وهجا (عبد الله) بن الزبعرى السهمى بنى قصىّ فدفعوه برمته إلى عتبة بن ربيعة خوفاً من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعراً مُفْلقاً شديد المعارضة قذع الهجاء، فلما وصل عبد الله بن الزبعرى إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه. فقال عبد الله:

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتى وإن صالحتْ إخوانَها لا ألومُها

---

(١) جمع مزهر كمنبر وهو العود يضرب به. (٢) عرق العظم وتعرقه: أكل ماعليه من اللحم نهشا باسنانه (٣) نكت العظم: أخرج مخه. ونقوت العظم وانتقيته: استخرجت مخه. قال الشاعر:

ولا يسرق الكلب السروق نعالنا ولا ننتقى المخ الذى فى الجماجم

وفى حديث عمرو بن العاص يصف سيدنا عمر (رض): ونقت له محنتها، يعنى الدنيا يصف مافتح له منها.

فود جُناة الشر أنّ سيوفَنَا   بأيمانِنا مسلولةٌ لانشيمُها(١)
فإنّ قُصَيًّا أهل عزٍّ ونجدةٍ   وأهل فَعال لايُرام قَديمها
هُم منعوا يَوْمَيْ عُكاظ نساءنا   كما منع الشولَ الهجانَ قرومُها(٢)

وكان الزبير غائباً فى الطائف فلما وصل إلى مكة و بلغه الخبر قال :

فلولا نحن لم يلبس رجالٌ   ثيابَ أعزةٍ حتى يموتوا
ثيابهمُ سِمالٌ أو طمارٌ   بها دسم كما دسم الحَميتُ(٣)
ولكنا خلقنا إذْ خلقنا   لنا الحبرات والمسكُ الفَتيتُ(٤)

والأخبار فى هذا الباب ، لايحيط بها الاستقصاء والحساب ، وقد عمل بهذا المذهب إلى صدر الإسلام ، ولولا خوف التطويل لأوردنا شيئاً من ذلك فى هذا المقام .

تنقل الشعر فى القبائل

ذكر أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحىّ فى كتاب الطبقات وغيره من المؤلفين أن الشعر كان فى الجاهلية فى ربيعة . وكان منهم مهلهل بن ربيعة واسمه عدىّ . وقيل امرؤ القيس وسمى مهلهلاً لهلهلة شعره أى رقته وخفته ، وقيل لاختلافه ، وقيل بل سمى بذلك لقوله :

---

(١) شام سيفه يشيمه : غمده واستله ضد . (٢) يوما عكاظ : هما من ايام العرب الشهيرة ، وعكاظ سوق بصحراء بين نخلة والطائف . راجع الجزء الأول (ص ٢٦٧) ، والشول جمع شائلة على غير قياس والشائلة من الابل ماأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، والشائل بغير هاء التى تشول — ترفع — بذنبها اللقاح ولا لبن لها أصلا والجمع شول كركع جمع راكع . والهجان : من الابل الخالصة اللون والعتق وهى أكرم الابل ، والقروم : جمع القرم — بالفتح — وهو الفحل (٣) قوله : سمال . يقال سمل الثوب سمولا وسمولة ، أخلق كأسمل وسمل ككرم فهو ثوب أسمال كما يقال رمح أقصاد وبرمة أعشار ، والطمار : الثياب البالية . والدسم : الودك من لحم وشحم . والحميت : وعاء السمن كالعكة ، وقيل وعاء السمن الذى متن بالرب ، وقيل الزق الصغير أو الزق بلا شعر . (٤) الحبرة وزان عنبة ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط يقال برد حبرة على الوصف وبرد حبرة على الاضافة والجمع حبر وحبرات مثل عنب وعنبات . قال الازهرى أ ليس حبرة موضعا أو شيئا معلوما انما هووشى معلوم أضيف الثوب اليه كماقيل ثوب قرمز بالاضافة والقرمز صبغه فأضيف الثوب الى الوشى والصبغ للتوضيح (المصباح) .

لما توقل فى الكراع شريدهم هلهلت أثأر جابراً أو صِنْبلا[1]

ويروى (لما توعر[2] فى الكلاب هجينهم) قال أبوسعيد الحسن بن الحسين السكرى : يعنى بقوله امرأ القيس بن حمام الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره حيث يقول :

عُوجا على الطَّلَلِ المُحِيل لأننا نبكى الديارَ كما بكى ابنُ حُمامِ[3]

---

(١) صنبل : قال المجد « صنبل كخندف علم رجل من تغلب » والهجين : قال الزبيدى « هو امرؤ القيس بن الحمام ، وجابر وصنبل من بنى تغلب » . وروى الجوهرى «مالكا» بدل «جابرا» وهو غير صواب (٢) أى أخذ فى مكان وعر . (٣) البيت هو من قصيدة لامرىء القيس استشهد به صاحب الكشاف عند قوله تعالى (وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون) بفتح الهمزة فى قراءة أهل المدينة بمعنى (لعل) كما أن (لأننا) فى البيت بمعنى (لعلنا) . قال ابن رشيق فى العمدة (ج ١ ص ٥٤) : (يروى فى البيت ـ لأننا بمعنى لعلناوهى لغة امرىء القيس فيما زعم بعض المؤلفين والذى كنت أعرف (لعننا) (بالعين ونونين) والمحيل : الذى أتى عليه الحول . وعوجا : أمر من عجت البعير أعوجه عوجاومعاجا اذاعطفت رأسه بالزمام . وابن حمام : شاعر قديم ، وليس هو ابن حذيم الطبيب المشهور الذى يضرب به المثل فى الطب فيقال (أطب بالكى من ابن حذيم) كما وهم ابن الأثير فى المرصع . قال العلامة الشيخ عبد القادر البغدادى فى خزانة الأدب (ج ٢ ص ٢٣٤) : (جميع من ذكر ابن حذام الشاعر لم يقل انه هو ابن حذيم الطبيب ، وقد اختلف فى ضبط اسمه فالذى رواه الآمدى ـ ابن خذام ـ بمعجمتين . قال : من يقال له ابن خذام منهم ابن خذام الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره وهو أحد من بكى الديار قبل امرىء القيس ودرس شعره قال امرؤ القيس :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

قوله (لأننا) يريد (لعلنا) ذكر ذلك أبو عبيدة وقال : قال لنا أبو الوثيق ممن ابن خذام ؟ فقلنا مانعرفه . فقال : رجوت أن يكون علمه بالأمصار . فقلنا: ماسمعنا به . فقال : بلى قد ذكره امرؤ القيس وبكى على الديار قبله فقال (كأنى غداة البين يوم تحملوا) البيت انتهى . وقال ابن رشيق فى العمدة : الذى أعرف أن (ابن حذام) بذال معجمة وحاء غير معجمة كما روى الجاحظ وغيره . انتهى . وضبطه بعضهم (ابن حمام) بحاء مهملة مضمومة بعدها ميم غير مشددة واسمه امرؤ القيس. قال الآمدى عند ذكر المسمين بامرىء القيس: ومنهم امرؤ القيس بن حمام . ثم ذكر نسبه ، ، وقال : والذى أدركه الرواة من شعره قليل جدا وكان امرؤ القيس هاربا فقال مهلهل :

لما توغل فى الكراع هجينهم هلهلت أثأر جابرا أو صنبلا

فى قصة مذكورة فى أخبار زهير بن جناب وبهذا البيت قيل لمهلهل (مهلهل) وبعض الرواة يروى بيت امرىء القيس بن حجر :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حمام

وكان مهلهل تبعه يوم الـكلاب ففاته ابن الحمام بعد أن تناوله بالرمح وقد كان ابن الحمام أغار على بنى تغلب مع زهير بن جَناب فقتل جابراً وصنبلا . وروى لأننا بمعنى لعلنا وهى لغة فيما زعم بعض المؤلفين ، وكان مهلهل أول من قصد القصائد . قال الفرزدق (ومهلهل الشعراء ذاك الأول) وهو خال امرئ القيس ابن حجر وجدّ عمرو بن كلثوم لأمه . ومنهم المرقشان والأكبر منهما عم الأصغر والأصغر عم طَرَفة ابن العبد واسم الأكبر عوف بن سعد وعمرو ابن قَميئَةَ ابن أخته[1] ، ويقال إنه أخوه ، واسم الأصغر حرملة ، وقيل ربيعة ابن سفيان وهذا أعرف . . ومنهم سعد ابن مالك الذى يقول :

يا بؤسَ للحربِ التى وضعتْ أراهِطَ فاستراحُوا[2]

يعنى امرأ القيس هذا ويروى ابن خذام . انتهى . ومثله للعسكرى فى كتاب التصحيف قال : ومنهم امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل ابن أخى زهير بن جناب بن هبل ويزعم بعضهم أنه الذى عنى امرؤ القيس بقوله (نبكى الديار كما بكى ابن خذام) وكان يغزو مع مهلهل واياه أراد مهلهل بقوله (لما توغل فى الكلاب هجينهم) البيت فالهجين هو امرؤ القيس ابن حمام وجابر وصنبل رجلان من بنى تغلب . انتهى ...) .

(١) فى العمدة : (ابن أخيه) فليحقق ، (٢) هذا البيت من قصيدة له قالها فى حرب البسوس حين هاجت بين بكر وتغلب لقتل كليب ، واعتزل الحرث بن عباد وقال هــذا أمر لاناقة لى فيه ولاجمل فعرض سعد فى هــذا الشعر بقعوده وقد أوردنا القصيدة فى الجزء الثانى (ص ١٤٩) فلتراجع . وقوله يابؤس للحرب اللام فيه لتأكيد الاضافة وهى اضافة لاتخصص ولا تعرف وهذه اللام على هذا الحد لاتجيء الا فى بابين احدهما فى باب النفى بلا وذلك نحــو لاغلامى لك ولا أبالك وما أشبههما ، والثانى فى باب النداء فى مثل قوله يابؤس للحرب وانما المعنى يابؤس الحرب ألا ترى أنه لو لم يرد الاضافة لنون يابؤس فى النصب لكونه نكرة أو كان يجعله معرفة فيبنيه على الضم وقد أتى الشاعر به فى باب النفى على أصله فى الاضافة فقال :

أبا لموت الــذى لا بد انى مــلاقى لا أباك تخــوفينى

والذى يدل على أن هذه الاضافة لاتخصص أن (لا) قد عمل معها وهو انما تعمل فى النكرات . وأراهط جمع أرهط جمع رهط وهو النفر من ثلاثة الى عشرة ، فاذا نصبت أراهط جعلت الحرب الفاعلة ، وليس الوضع ههنا ضد الرفع وانما المراد انها تركتهم فلم تكفلهم القتال وانما يعنى الحرث ابن عباد ومن كان مثله فى اعتزال الحرب ، ومن رفع أراهط فالمعنى يابؤس الحرب التى وضعها أراهط وهذا اللفظ هو الأصل لأن قولك ترك بنو فلان الحرب هو واجب الكلام ، وقولك تركت الحرب بنى فلان مجاز واتساع . انتهى بتصرف من شرح ديوان الحماسة .

وطَرَفة بن العبد بن سفيان وعمرو بن قَميئَةَ والحرث بن حِلِّزة والمتلمس وهو خال طَرَفة ، واسمه جرير بن عبد المسيح . والأعشى واسمه ميمون بن قيس ابن جندل . وخاله المسيب بن عَلَس واسم المسيب زهير . . ثم تحول الشعر فى قيس فمنهم النابغتان ، وزهير بن أبى سُلمى ، وابنه كعب لأنهم ينسبون فى بنى عبد الله ابن غَطَفان ، واسم أبى سُلْمى : ربيعة ، ولَبيد ، والحطيئة ، والشماخ واسمه معقل ابن ضرار ، وأخوه مزرد واسمه جزء بن ضرار . وقيل يزيد وجزء (أخوهما) وكان مزرد[1] شريراً يهجو ضيوفه وهجا قومه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال :

تعلم رسولَ اللهِ أنا كأنما أفأنا بأنمار ثعالب ذى ضحل

تعلم رسول الله لم أر مثلهم أجرّ على الأدنى وأحرم للفضل

الضحل : الماء القليل فى الأرض لا عمق له جمعه أضحال . ومنهم خداش ابن زهير وكان له السبق فى الشعر فى وقته . ثم استقر الشعر فى تميم ومنهم أوس ابن حَجَر شاعر مُضَر فى الجاهلية ولم يتقدمه أحد منهم حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وبقى شاعر تميم فى الجاهلية غير مدافع . وكان الأصمعى يقول : أوس أشعر من زهير ولـكن النابغة طأطأ منه وكان زهير راوية أوس ، وكان أوس زوج أمّ زهير وسئل حسان بن ثابت : من أشعر الناس ؟ فقال : أرجلا أم حياً ؟ قال : حياً فقال : أشعر الناس حياً هذيل . وقال ابن سلام الجمحىّ : وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع . وقال الأصمعى : قال أبو عمرو بن العلاء ؛ أفصح الناس لساناً وأعربهم[2] أهل السروات وهن ثلاث وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن فأولها هذيل وهى تلى السهل من تهامة ثم بَجيلة السراة الوسطى . وقد شركتهم ثقيف فى ناحية أُخرى منها ثم سراة الأزد أزد شنوءة وهم بنو الحرث بن كعب بن الحرث ابن نصر بن الأزد وقال أبو عمرو : أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس . وقال أبو زهد : أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة يعنى عجز هوازن . قال ولست أقول ؛

---

(١) ترجمته فى الاصابة للعسقلانى ج٥ ص٨٥ . (٢) فى العمدة (وأعذبهم)

قالت العرب إلا ماسمعت منهم ، و إلا لم أقل قالت العرب . . وأهل العالية أهل المدينة ومَنْ حولها ومن يليها ومن دنا منهم ولغتهم ليست بتلك عندهم[١] . وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن فى الجاهلية بامرئ القيس وفى الإسلام بحسان بن ثابت ، وفى المولدين بأبى نواس وأصحابه مسلم بن الوليد وأبى الشيص ودعبل كلهم من اليمن . وفى الطبقة التى تليهم بالطائيين أبو تمام والبحترى ويختمون الشعر بأبى الطيب وهو خاتم الشعراء لا محالة . وكان ينتسب[٢] فى كندة وهى رواية ضعيفة و إنما ولد فى كندة بالكوفة فيما حكاه ابن جنى . وإلا فكان غامض النسب فيقولون بدئ الشعر بكندة يعنون امْرَأ القيس — وختم بكندة — يعنون أباالطيب وزعم بعض المتأخرين أنه جعفى ، وقوم منهم الصاحب بن عباد يقولون : بدئ الشعر بملك وختم بملك . يعنون امْرَأ القيس وأبا فراس الحرث بن سعيد بن حمدان . وقال آخرون : بل رجع الشعر إلى ربيعة فختم بها كما بدئ بها يريدون مهلهلاً وأبا فراس وأشعر أهل المدر بإجماع من الناس واتفاق حسان بن ثابت . وقال أبوعمرو بن العلاء : ختم الشعر بذى الرُّمَّة والرجز برؤبة بن العجاج . وزعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد . قال : وإنما هو كلام وأجودهم كلاماً أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شئ يستطيع أحد أن يقول : لو كان مكانه غيره كان أجود ، وذكر أنه صنع أرجوزته (قد جبر الدين الإله فجبر[٣]) فيها نحو مائتى بيت وهى موقوفة مقيدة . قال: ولوأطلقت

---

(١) فى — ع — (عنده) (٢) فى — ع — (ينسب (٣) هذا الشطر مطلع أرجوزة طويلة له ، وهى — كما قال — نحو مائتى بيت مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر ،وكان عبد الملك بن مروان قد وجهه لقتال أبى فديك الحرورى فأوقع به وبأصحابه . . وبعده :

وعور الرحمن من ولى العور

فالحمد لله الذى أعطى الشبر   موالى الحق ان المولى شكر

الى أن قال :—

واختار فى الدين الحرورى البطر   فى بئر لا حور سرى وما شعر

والقصة فى نهاية الأرب للنويرى، وخزانة الأدب الشيخ عبد القادر البغدادى (ج ٢ ص ٩٧)

فيها وتباعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها . وقال أبو عبيدة : إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله ، وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف مافيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعل الشعراء بالقصيد ، فكان في الرجّاز كامرئ القيس في الشعراء . وقال غيره : أول من طول الرجز الأغلب العجلي وهو قديم . وزعم الجمحي وغيره أنه أول من رجز ، وما أظن ذلك صحيحاً إلا أنه إنما كان على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح الشعر بامرئ القيس وختم بابن هرمة ولم أر أنقد من الذى قال : أشعر الناس من أنت فى شعره .

أنفة شعراء العرب من التكسب بالشعر

كانت العرب لاتتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم مايصنع فكاهة أومكافأة عن يد لايستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها . قال امرؤ القيس بن حُجْر يمدح بنى تيم رهط المعلى :

أقرَّ حشى امْرِئ القيس بن حُجْرٍ (١) بَنُو تَيمٍ مَصابيحُ الظّلام

لأن المعلى أجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء فقيل لبنى تيم مصابيح الظلام ببيت امرئ القيس . وقال أيضاً لسعد بن الضباب :

سأَجْزِيك الذى دافعت عنّى وما يَجْزِيك عنّى غير شكرى

فأخبره أن شكره هو الغاية فى مجازاته ، حتى نشأ النابغة الذُبْيانى فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته

---

(١) أى سكن روعه .

وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة وأوانيهما من عطايا الملوك . وتكسب زهير بن أبى سُلْمى يسيراً مع هَرِم بن سنان ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابَهُ ، وأجزل عطيته ، لعلمه بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له بل استخف به واستهجنه لكنه حَذَا حَذْوَ ملوك العرب ، . وأكثر العلماء يقولون إنه أول من سألَ بشعره وقد علمنا أن النابغة أسنّ منه وأقدم شعراً وقد ذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر مع ما فيه قبح من مجاعلة[1] الحاجب ، ودسّ الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك . وذكر أن أبا عمرو بن العلاء سئل : لم خضع للنعمان النابغةُ ؟ قال : رغب فى عطاياه وعصافيره وأما زهير بن أبى سُلمى فما بلغ الطائى قطّ معرفة باجتداء من يمدحه ويدلك على ذلك ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لابنة زهير حين سألها : ما فعلت حلل هرم بن سنان التى كساها أباك ؟ قالت : أبلاها الدهر . قال : لكن ما كسا أبوك هرماً لم يبله الدهر . وقال لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدنى ما قال فيكم زهير فأنشده . فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن . قال : ياأمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل . قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . . ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه حتى مقت وذل أهله ، وهلم جرا إلى أن حرم السائل وعدم المسئول . وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر وقلة التعرض به لما فى أيدى الناس إلا فيما لا يزرى بقدر ولا مروءة مثل الفلتة النادرة ، والمهمة العظيمة ، ولهذا قال عمر رضى الله تعالى عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته . ألا ترى أن لبيد بن ربيعة لما

---

(١) جاعله مجاعلة وجعالا : رشاه . وفى الأساس هو يجاعله أى يصانعه برشـــوة .

(٢) راجع صفحة ٢٢ من هذا الجزء

بعث إليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها لعادته عند هبوب الصّبا وقد أسنّ وأقلّ ، وكان يطعم الناس ما هبت الصبا ، قال لبنته : اشكرى هذا الرجل فإنى لا أجِد نفسى تجيبنى ولقد أرانى لا أعيا بجواب شاعر فقالت :

إذا هبّتْ رياحُ أبى عقيل دَعَوْنا عند هبتها الوَليدَا[1]
أغرّ الوجهِ أبيضَ عَبْشمِيًّا أعان على مروءته لَبيدا[2]
بأمثالِ الهضابِ كأنّ ركباً عليها من بنى حامٍ قعُودا[3]
أبا وهْبٍ جزاكَ اللهُ خيراً نحرناها وأطْعَمْنا الثّريدا
فَعُدْ إن الكريمَ لهُ مَعَادٌ وظَنّى بابنِ أرْوَى أن يَعُودا

وعرضتها عليه فقال : أجدت لولا أنك استعدْتِ ! كراهيةً فى قولها (فعد إن الكريم له معاد) ويروى : لولا أنك استزدْتِ . . وقالوا : كان الشاعر فى مبتدأ الامر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر ، وشدة المعارضة ، وحماية العشيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته ، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمةً وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه ، وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة وتتطعموا أموالَ الناس وجشعوا فخشعوا واطمأنّت بهم دار الذلة إلا من وقر نفسه وقارها ، وعرف لها مقدارها ، حتى قبض نقىّ العرض مصون الوجه مالم يكن به اضطرار يحل الميتة . فأما من وجد الكفاف والبُلْغة فلا وجه لسؤاله بالشعر

---

(١) هبوب الصبا : كناية عن القحط (٢) عبشميا : منسوبا الى بنى عبد شمس . ويروى أشم الأنف أروع عبشميا (٣) بأمثال : منعلق بأعان . والهضاب جمع هضبة وهى ما ارتفع من الارض أو هى كل جبل منبسط . والمعنى : أعان بجمال ضخام أمثال الهضاب لضخامتها . وقد شبهت أسنمتها بقوم سود قاعدين عليها ، وضربت لسواد أسنمتها مثلا وهم بنو حام أى السودان .

ذكر نبذة من مآثر شعراء العرب وغُرَر شعرهم

قد كتبت فى هذا المقام عند تأليف هذا الكتاب من أخبار شعراء الجاهلية وأحوالهم ، ما كفانا عنه كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة وغيره من الكتب المؤلفة فى هذا الشأن فأسقطته عند الطبع ، وتعوضت عنه بذكر ما انتقاه بعض الأئمة من عيون الأشعار ، وأحاسنها ، وفصوصها ، وفرائدها ، والمختص من الأمثال السائرة ، والمعانى النادرة ، والألفاظ الفاخرة ، فى الفنون المتغايرة ، لسحرة الشعراء وأمراء الكلام الحرّ ، مِنْ لدن امرئ القيس ، ومَنْ يليه مِنْ فحول الجاهليين ، ومَنْ يتلوهم مِنْ مُفْلقى المخَضْرَمين وهلم جرّا إلى أعيان الإسلاميين ، وما أورده لكل من المذكورين ، على اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم من أمير شعره ، وواسطة عقده ، ودرة تاجه ، وغرة كلامه ، وبيت قصيده ، وفريدة قلادته ، ليعلم الناظر فى كتابنا هذا ما كان عليه القوم من المنزلة الرفيعة فيما امتاز به النوع الإنسانى عن غيره ، وما أوتوه من الحكمة وفصل الخطاب ، وما توفيقى إلا بالله .

امرؤ القيس بن حجر الكندى

هو أمير الشعراء ، بشهادة خير الأنبياء ، وسيد الفصحاء ، صلوات الله وسلامه عليه . وذلك أنه ذكر عنده يوما فقال صلى الله تعالى عليه وسلم (ذلك رجلٌ مذكورٌ فى الدنيا منسىّ فى الآخرة يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار) فيروى أن كلاً من لبيد وحسان بن ثابت قال : ليت هذه المقالة فى وأنا المدهدى فيها فيقال إن أمير شعر أمير الشعراء قوله من قصيدة :

البرّ أنجح ما طلبت به   والبرُّ خيرُ حقيبة الرجل

ومن أمثاله السائرة قوله فى القناعة والرضى باليسير عند تعذر الكثير :

إذا ما لم تـكن إبلٌ فَمِعْزَى كأنّ قُرون جِلّتِها العِصِيُّ (١)
فتملأُ بيتنـا أقِطًا وَسَمْنًا وحسبكَ من غِنى شِبَعٌ وريُّ (٢)

ومما يضاد هذه الحالة من بعد الهمة والسموّ إلى معالى الأمور قوله :

فلو أنّ ما أسعى لأدنى مَعيشةٍ كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المال (٣)
ولـكنّما أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى (٤)

ومن أمثاله السائرة

وقاهم جَدُّهم ببنى أبيهم وبالأشقَيْن ما حلّ العِقابُ (٥)

وقـوله

أراهنَّ لا يحببن مَنْ قلَّ مالُه ولا مَنْ رَأَيْنَ الشيبَ فيه وقوّسا
ألا إنَّ بعد العُدْمِ للمرءِ قِنْوةً وبعد المشيب طول عمْرٍ ومَلْبَسَا (٦)

---

(١) المعزى : ذوات الشعور من الغنم : قال الامام سيبويه : معزى منون مصروف لأن الالف للالحاق لا للتأنيث وهو ملحق بدرهم على فعلل لأن الالف الملحقة تجرى مجرى ما هو من نفس الكلم ، يدل على ذلك قولهم معيز وأريط فى تصغر معزى وأرطى فى قول من نون فكسروا مابعد ياء التصغير كما قالوا دريهم ولو كانت للتأنيث لم يقلبوا الالف ياء كما لم يقلبوها فى تصغير حبلى وأخرى . وقال الفراء : المعزى مؤنثة وبعضهم ذكرها . وقال ابن الاعرابى : معزى يصرف اذا شبهت بمفعل وهى فعلى ولا تصرف اذا حملت على فعلى . وهو الوجه عنده . . و « جلتها » بكسر الجيم وتشديد اللام جمع جليل أى عظيم وهو فى الأصل المسن من الابل فاستعمله الشاعر فى المسن من الغنم مجازا . ويورد العروضيون البيت (شاهدا فى البحر الوافر) بهذا اللفظ : لنا غنم نسوقها غزار . كأن . . . الخ (راجع المختصر الشافى ص ١٧ من طبعة المطبعة الازهرية والحاشية الكبرى للدمنهورى ص ٤٦) . (٢) قوله « فتملأ بيتنا » فى رواية أخرى « فتوسع أهلها » . والأقط : بفتح الهمزة وكسر القاف شىء يتخذ من المخيض الغنمى (٣) اختلف النحويون فى هذا البيت فمنهم من جعله من باب التنازع ومنهم من لم يجعله ولهم فى توجيهه كلام طويل . وفى كتاب سيبويه : ولا يكون الفعل بغير فاعل وأما قول أمرىء القيس : فلو أن ماأسعى الخ فانما رفع لأنه لم يجعل القليل مطلوبا وانما كان المطلوب عنده الملك وجعل القليل كافيا ولو لم يرد ذلك ونصب فسد المعنى . قال الأعلم : أراد كفانى قليل من المال ولم أطلب الملك وعليه معنى الشعر ولو أعمل الثانى ونصب به القليل فسد المعنى . وصف بعد همته ، يقـول : لو كان سعيى فى الدنيا لادنى حـظ منها كفتنى البلغـة من العيش ولم أتجشم ما أتجشم . انتهى (٤) المؤثل : المؤصل . (٥) يروى (كان) بدل (حل) ، (وما) مقحمة (٦) القنوة : بالكسر والضم : الكسبة .

وقـوله

وقد طَوَّفتُ فى الآفاق حتَّى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإياب

وقـوله

إذا المرء لم يخزُنْ عليه لسانَهُ فليس على شىء سواه بخزَّانِ (١)

وقـوله

فإنك لم يفخَرْ عليك كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مُغَلَّبِ

وقوله (جُرْحُ اللسان كجرح اليَدِ) وقوله : إن الشقاء على الأشقين مصبوب)

ومن قلائده الفاخرة قوله فى وصف الفرس ولم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه :

مِـكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ (٢)

له أيْطَلا ظَبْىٍ وساقا نَعــامَةٍ وإرخاء سِرحانٍ وتَقْرِيبُ تَتفُــلِ (٣)

وقوله فى طول الليل واستعارة أوصافه من الجمل الناهض بالحمل الثقيل :

ولَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أرخَى سُدُولَهُ عَلَىَّ بأنواعِ الُهمُومِ لِيَبْتَـلِى (٤)

---

(١) يقول : اذا لم يخزن المرء لسانه على نفسه ولم يحفه مما يعود ضرره اليه فلا يخزنه على غيره ولا يحفظه مما لاضرر له فيه (٢) قال أبو عبدالله الزوزنى :الكر العطف يقال كر فرسه على عدوه أى عطفه عليه والكر والكرور جميعا الرجوع يقال كر على قرنه يكر كرا وكرورا والمكر مفعل من كر يكر ومفعل يتضمن مبالغة كقولهم فلان مسعر حرب وفلان مقول ومصقع وانما جعلوه متضمنا مبالغة لأن مفعلا قد يكون من أسماء الادوات نحو المعـول والمكتـل والمخرز فجعل كأنه أداة للكرور وآلة لسـعر الحرب وغير ذلك . ومفـر : مفعل من فر يفر فرارا والكلام فيه نحو الكلام فى مكر . والجلمود : الصخـر العظيم . والحط : القاء الشىء من علو الى سفل . ومن عل : من فوق ، وفيه سبع لغات . وقوله : كجلمود صخر من اضافة بعض الشىء الى كله مثل باب حديد وجبة خز ، أى كجلمود من صخر . انتهى باختصار . (٣) الأيطل : الخاصرة . والارخاء : ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب . والسرحان : الذئب . والتقريب : وضع الرجلين موضع اليدين فى العدو . والتتفل : ولد الثعلب . . شبه خاصرتى هذا الفرس بخاصرتى الظبى فى الضمر ، وساقيه بساقى النعامة فى الانتصاب والطول ، وعدوه بارخاء الذئب ، وتقريبه بتقريب ولد الثعلب فجمع أربعة تشبيهات فى هذا البيت .

(٤) شبه ظـلام الليل فى هـوله وصعوبته ونكاره أمره بأمواج البحـر . والسدول : الستو ر الواحد منها سدل ، والارخاء : ارسال الستر وغيره . والابتلاء : الاختبار . والباء فى قوله « بأنواع » بمعنى مع .

فقلت له لمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأردفَ أعْجازاً وناء بِكَلْكلِ (١)

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي بصبح وما الإصْباحُ منكَ بأمْثَلِ (٢)

أفاطِمَ مَهْلاً بعضَ هذا التَّدَلُّلِ وإنْ كُنتِ قدأزْمَعْتِ صَرْمي فأجملي (٣)

وإن كُنتُ قد ساءَتكِ مني خليقةٌ فسلِّي ثيابي من ثيـابك تنسُلِ (٤)

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلّا لتضربي بسهميكِ في أعشار قلبٍ مقَتَّلِ (٥)

لو قاله محدث في الزمان الرقيق لاستظرف ذلك منه فكيف في مثل

---

(١) تمطي : تمدد . والارداف : الاتباع . والاعجاز : المآخير . وناء : مقلوب نأى بمعنى بعد ، كما قالوا : راء بمعنى رأى ، وشاء بمعنى شأى . والكلكل : الصدر .. استعار لليل صلبا ، واستعار لطوله لفظ التمطي ليلائم الصلب ، واستعار لأوائله لفظ الكلكل ولمآخيره لفظ الاعجاز . (٢) الانجلاء : الانكشاف ، يقال : جلوته فانجلى أي كشفته فانكشف ، والأمثل : الأفضل . ومنك : متعلق بأمثل والأصل « بأمثل منك » . وروى : (وما الا صباح فيك) وعليها اقتصر الأعلم . وبعد هذا البيت قوله :

فيا لك من ليـل كأن نجـومه بكل مغار الفتل شـدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصـابها بأمراس كتان الى صم جندل ..

(٣) هذا البيت لا مناسبة له بما قبله . بل قد ذكر هو وما بعده في المعلقة قبل نحو (٢٥) بيتا ! .. ومعنى مهلا : رفقـا . والادلال والتدلل : أن يثق الانسان بحب غيره اياه فيؤذيه على حسب ثقته به . وأزمعت الأمر وأزمعت عليه : وطنت نفسي عليه . والصرم : يقال صرمت الرجـل أصرمه صرما اذا قطعت كلامه والصرم الاسم . (٤) الخليقة : الطبيعة . والثياب : من النـاس من جعلها في هذا البيت بمعنى القلب كما حملت الثياب على القلب في قوله عنترة:

فشككت بالرمح الاصم ثيـابه ليس الكريم على القنـا بمحرم

فالمعنى على هذا القول : ان ساءك خلق من أخلاقي وكرهت خصـلة من خصـالي فردي على قلبي أفارقك . ومن النـاس من حملها على الثيـاب الملبوسة وقال : كنى بتباين الثياب وتباعدها عن تباعدهما ... والنسول : سقوط الريش والوبر ، والصوف والشعر ، يقال : نسل ريش الطائر ينسل وينسل نسولا واسم ماسقط النسيل والنسال ومنهم من رواه تنسلي وجعل الانسلاء بمعنى التسلي . والرواية الاولى أولاهما بالصواب — كمـا في شرح المعلقات للزوزني ، وبعد البيت : ومنهم من يرويه قبله

أغرك مني أن حبـك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعل

(٥) ذرفت : دمعت وروى « لتقدحي » موضع « لتضربي » وهو بمعناه . وسهميك : تثنيه سهم والمراد بهما عينـاها . ومعنى في أعشـار قلب : أي لتجعليه عشر قطع كما تخرق أعشـار البرمة الا أن القلب لا ينجبر والبرمة تنجبر . وقيل المراد بسهميها المعلى والرقيب وهما من سهام الميسر فالرقيب له ثلاثة أنصباء والمعلى له سبعة لتستولي على قلبي كله . والمقتل : المذلل غاية التذليل .

ذلك الزمان ؟ وهو أول من شبه شيئين بشيئين فى بيت واحـد حيث قال فى وصف العقاب :

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابِساً لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى (١)

و يستجاد من تشبيهه قوله :

كأنَّ عيُونَ الوَحش حَوْلَ خبائِنـا وَأَرْحلنا الجَزْعُ الذى لم يُثقَّبِ (٢)

وقد سبق إلى أشـياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ .

زهير بن أبى سلمى (٣)

هو أحد الأربعة الذين وقع عليهم الاتفاق على أنهم أشعر العرب . وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى . فأما الاختلاف فى تفضيل بعضهم

---

(١) البيت من شواهد التلخيص ؛ والشاهد فيه التشبيه المكفوف ــ وهو أن يؤتى على طريق العطف أو غيره بالمشبهات أولا ثم بالمشبهة بها ــ فهنا شبه الرطب الطرى من قلوب الطير بالعناب ، واليابس العتيق منها بالحشف البالى (وهـو أردأ التمر والضعيف الذى لا نوى له) اذ ليس لاجتماعهما هيئة مخصوصة يعتد بها ويقصد تشبيهها ولذا قال الشيخ الامام عبد القاهرة : انه انما يتضمن الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه لا أن للجمع فائدة فى عين التشبيه . (٢) قال الأصمعى : الظبى والبقرة اذا كانا حيين فعيونهما كلها سود فاذا ماتا بدا بياضهما وانما شبههما بالجزع وفيه سواد وبياض بعد ما موتت والمراد كثرة الصيد يعنى مما أكلناه كثرت العيون عندنا . وبه يتبين بطـلان ما قيـل ان المراد انها قـد أطالت مسايرتهم حتى ألفت الوحوش رحالهم وأخبيتهم . والجزع : بفتح الجيم الخرز اليمانى الصينى فيه سواد وبياض تشبه به عيون الوحش لكنه أتى بقوله « لم يثقب » ايغالا وتحقيقا للتشبيه ، لأن الجزع اذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون . والبيت من قصيدته المشهورة التى عارض بها قصيدة علقمـــة الفحــل . ومطلعها :

خليلى مرابى على أم جنـدب نقضى لبانات الفؤاد المعـذب

ومطالع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ولم يك حقـا كل هذا التجنب

وتحكيمهما لأم جندب امرأة امرىء القيس وحكمها لعلقمة وطلاق امرىء القيس اياها ، وتزويج علقمة اها كله مشهور فلا نطيل به . ومن ارادة فليرجع الى الأغانى (ج ٧ ص ١٢١)

(٣) سلمى بضم السين وتسكين اللام وليس فى العرب سلمى بالضم غيره

على بعض فقائم على ساق . وكان يقل : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب . والأعشى إذا طرِبَ . وكان زهير أجمع الناس للكثير من المعانى فى القليل من الألفاظ ، وأحسنهم تصرفاً فى المدح والحكمة .

و يقال إن أبياته فى آخر قصيدته التى أولها :

أمِنْ أمّ أو فَى دِمْنَةٌ لم تَكَلّمِ بحَوْمانةِ الدَّرّاجِ فالمتثلَّمِ (١)

تُشبهُ كلام الأنبياء وهى أحكم حكم العرب . وهى :

وَمَنْ لم يُصانِعْ فى أمور كثيرةٍ يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بِمَنْسِمِ (٢)
وَمَنْ يجْعَلِ المعروفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ ومن لا يَتقِ الشتمَ يُشتَمِ (٣)
وَمَنْ لم يذُد عن حَوْضِهِ بسِلاحِهِ يُهدَّمْ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ (٤)
ومن يغترِبْ يَحْسِبْ عدوّاً صديقَهُ ومن لا يُكرِّمْ نَفْسَهُ لا يُكرَّمِ
ومن يكُ ذا فَضْلٍ فيبخلْ بفضله على قَومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ (٥)
ومهما تَكُنْ عندامرِئٍ من خليقةٍ وإنْ خالها تخفى على الناس تُعلَمِ (٦)

ومن أمثاله السائرة

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلاّ وشيجُهُ وتُغْرَس إلاّ فى مَنَابِتِها النَّخْلُ (٧)

---

(١) أم أوفى : اسم عشيقته . والدمنة : ماسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما . وحومانة الدراج والمتثلم : موضعان (٢) المصانعة : الترفق والمداراة . والضرس : العض على الشيء بالضرس والتضريس مبالغة والمنسم : خف البعير . (٣) وفرت الشيء أفره وفرا كثرته

(٤) الذود : المنع . وأراد بالحوض الحريم . (٥) يقول : من كان صاحب فضل ومال فيبخل به ويحرص عليه استغنى عنه وذم ، فاظهر التضعيف على لغة أهل الحجاز لأن لغتهم اظهار التضعيف فى محل الجزم ، والبناء على الوقف . (٦) الخليقة الطبيعة . يقول : ومهما كان للانسان خلق وظن أنه يخفى على الناس علم ولم يخف ، يعنى أن الأخلاق لا تخفى ، والتخلق لا يبقى . . قيل : أنشد سيدنا عثمان رضى الله عنه هذا البيت فقال : أحسن زهير وصدق فلو أن الرجل دخل بيتا فى جوف بيت لتحدث به الناس (٧) الخطى : الرمح نسبة الى الخط وهى جزيرة فى البحرين ترفأ اليها السفن . والوشيج شجر الرماح وأحدته وشيجة . أى لا تنبت القناة الا القناة ، ولا تغرس النخل الا بحيث تنبت وتصلح ، والمراد انه لا يلد الكرام الا الكرام .

وقوله :

والسِّتْر دونَ الفاحشاتِ ولا يَلْقاكَ دونَ الخير من سِتْرِ

وماوقع الاتفاق على أنه أمدح بيت للجاهلية قوله :

تراه إذا ما جئتَهُ مُتهَلِّلاً كأنك تُعْطيه الذى أنت سائلُهْ(١)

قال ثعلب وهو ممن قدم زهيراً : كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدّهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم أمثالاً فى شعره . وقال ابن الأعرابى : لزهير فى الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وأخته الخنساء شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين وابن ابنه المضرب بن كعب شاعراً . وهو الذى يقول :

إنى لأحبسُ نَفسى وَهْىَ صَابِرَةٌ (٢) عن مُصْعبٍ ولقد بانَتْ لىَ الطرُقُ

رعوا عليه كما أرعى على هَرِمٍ جدى زهير وفينا ذلك الخُلقُ

مدح الملوكِ وسعى فى مسرتهم ثم الغنى ويد المَمْدُوح تَنْطَلِقُ

وكعب هو ناظم قصيدة (بانت سعاد) فى مدح الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . قال ابن قتيبة : وكان زهير يتألّه ويتعفف فى شعره ، ويدل على إيمانه بالبعث ، وذلك قوله :

يُؤَخَّرْ فَيُودَعْ فى كتابٍ فَيُدَّخَرْ ليوم الحساب أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ (٣)

وقد شبه زهير امرأة بثلاثة أوصاف فى بيت واحد فقال :

---

(١) المتهلل : الطلق الوجه المستبشر . يقول : هو مسرور بمن يسأله مستبشر به كما يستبشر الانسان بأن يوصل ويعطى . ولم يرد أنه حريص على الأخذ مستبشر به ولكنه قال هذا على ما جرت به العادة من محبة النفس للأخذ وكراهيتها للاعطاء .

(١) فى الأغانى ج ٩ ص ١٥١ : « صادية » . (٣) جميع الافعال بالبناء للمفعول ما عدا الأخير . يقال : نقم منه (من باب ضرب) بمعنى عاقبه وانتقم منه . وقد أخطأ من بناه للمفعول . ويؤخر بدل من (يعلم) فى البيت قبله :

فلا تكتمن الله ما فى صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وقيل جزم فى جواب النهى . وهو الصواب .

تنازَعَها المَهَا شَبَهاً ودُرُّ الـ ـنُحور وشاكَهَت فيها الظباء(١)

ففسر ثم قال :

فأمّا ما فُوَيْقَ العِقْدِ منها فمن أدماء مرتَعُها الخلاء(٢)

وأما المقْلَتَانِ فمن مَهَاةٍ وللدُّرِّ الملاحَةُ والصَّفاء(٣)

وقال بعض الرُّواة : لو أن زهيراً نظر إلى رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنهما مازاد على ما قال :

فإنّ الحقّ مقطعُهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاء(٤)

يعنى يميناً ، أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء . وهو بيان وبرهان — يجلو به الحق وتتضح الدعوى — وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال لابن زهير(٥) : مافعلت الحلل التى كساها هَرِم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر ! قال : لكن الحلل التى كساها أبوك هَرِماً لم يبلها الدهر ! ويستجاد قوله فى هرم :

قد جَعَلَ المبتغونَ الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلونَ إلى أبوابِهِ طرُقا(٦)

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاّتِهِ هَرِماً يَلْقَ السماحَةَ منه والنَّدَى خُلُقا(٧)

---

(١) المها : بقر الوحش . وشاكهت : شاكلت وشابهت . ومعنى : تنازعها المها شبها أى فيها من المها شبه وهو حسن العينين ، وفيها من الدر شبه وذلك صفاؤه وملاحته ، وأشبهتها الظباء فى طول العنق . وأصل المنازعه مجاذبة الداو فضربت مثلا لكل ما أخذ فيه وتشبث به ، ومنه التنازع فى الحديث . وخص در النحور لأنه أملح ما يكون اذا قلت ، ويروى در البحور بالباء . (٢) قوله : فأما ما فويق العقد منها ، يعنى عنقها لأن موضع العقد النحر وفوقه العنق وصغر فوق لتقارب ما بين العنق والعقد . والأدماء : الظبية البيضاء ، والخلاء الموضع الخالى ، وانما خص الظبية لأنه أراد أنها اذا نفرت تجزع فتتشوف وتمد عنقها وذلك أحسن لها . (٣) المقلتان : العينان ، شبه عينيها بعينى المهاة فى شدة أبيضاض بياضهما وأسوداد سوادهما . وشبه ملاحتها وصفاءها بملاحة الدرة وصفائها . (٤) كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعجب من حسن تقسيم هذا البيت ويردد انشاده من التعجب . ورووا عنه أنه قال : لو أدركته اوليته القضاء لمعرفته بما تثبت به الحقوق . أنظر شرح بانت سعاد ص ١٦ والعمدة ١ : ٣٠ والصناعتين ٢٦٨ والبيان والتبيين ١ : ١٣٥ وغيرها . (٥) راجع الجزء الاول ص ٨٦ .

(٦) المبتغون : الطالبون . وقوله (فى هرم) أى عند هرم أو من هرم . وترجمة هرم فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٨٤ . (٧) قوله (على علاته) يقول : ان تلقه على قلة مال أو عدم تجده سمحا كريما فكيف به وهو على غير تلك الحال ؟ وورد فى الجزء الأول ص ٨٥ هذا البيت :

وروى أن زهيراً كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة ، وكانت تسمى قصائده (حوليات زهير) وقد أشار إلى هذا البها زهير فى قوله من قصيدة :

هذا زهيرُكَ لا زهير مزينةٍ   وافاكَ لا هَرِماً على عِلاَّتهِ
دَعْهُ وحولياتِهِ ثم استمعْ   لزهيرِ عَصْرِكَ حسنَ ليليَّاتِهِ

وكان رأى زهـير فى منامه فى أواخر عمره أن آتياً أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يَمَسُّها بيده ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلمـا احتضر قصّ رؤياه على ولده كعب . ثم قال : إنى لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدى فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه . ثم توفى قبل المبعث بسنة . فلما بعث صلى الله تعالى عليه وسلم خرج إليه ولده كعب[1] بقصيدة (بانت سعاد) وأسلم . وروى أيضاً أن زهيراً رأى فى منامه أن سبباً تدلى من السماء إلى الأرض كأن الناس يمسكونه وكلما أراد أن يمسكه تقلص عنه فأوله بنبىّ آخر الزمان فإنه واسطة بين الله تعالى وبين الناس وأن مدته لاتصل إلى زمن مبعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره .

النابغة الذبيانى

واسمه زياد بن معاوية : اتفقت الآراء على أنه أحسن الشعراء ديباجة شعر ، وأكثر رونق كلام ، وكان كلامه كلام الـكتاب ليس فيه تـكلّف ولاتعسف . ويقال إن أجود شعره ما اعتذر به إلى النعمان بن المنذر . وأمير ذلك قوله :

فإنَّكَ كَالليل الذى هُوَ مُدْرِكى   وإنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأى عنك واسِعُ[2]

متى تلاق على علاته هـرما   تلق السماحة فى خلق وفى خلق
ولعله من قصيدة له أخرى فليحقق .

(١) الذى خرج الى النبى وآمن به هو بجير أخو كعب وأما كعب فقد أهدر النبى دمه عام الفتح ثم قدم الى النبى تائبا وأسلم ومدحه بقصيدة (بانت سعاد) وخلع النبى عليه بردته .

(٢) المنتأى : اسم موضع من انتأى عنه اى بعد .. وشبهه بالليل لأنه وصفه فى حال سخطه وهوله . والمعنى أنه لا يفوت الممدوح وأن أبعد فى الهرب وصـار الى أقصى الارض ، لسعة ملكه ، وطول يده ، ولأن له فى جميع الآفاق مطيعا لأوامره يرد الهارب اليه . قال أبو بكر : اعترض على هذا البيت فقيل لا معنى لتخصيص الليـل لأن النهار يدركه كما يدركه الليل . قال أبو جعفر : الليل يغشى كل شىء بظلمته

ومن أمثاله المشهورة قوله :

نُبِّئْتُ أنَّ أبا قابُوسَ أوْعَدَني ولامقامَ على زَأْرٍ من الأسَدِ[(١)]

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال يوماً لجلسائه من القائل ؟

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مَذْهَبُ[(٢)]

لئن كُنْتَ قد بُلِّغْتَ عنى جناية لَمُبْلِغُكَ الواشى أغَشُّ وأكْذَبُ[(٣)]

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين ! قال : فهذا أشعر شعرائكم . وفى هذه القصيدة بيته السائر :

فلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تلُمُّهُ على شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المهذَّبِ[(٤)]

و بيته الفاخر :

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ[(٥)]

فيصير له كالغشاء والوعاء فيمنع التصرف لسرعة انطباقه على الأرض فى الأرض القريبة من خط الاستواء والنهار وأن ألبس كل شىء فانه لا يمنع من التصرف والانتشار ، وأيضا فان الليل يهاب لظلمته والنهار ليس كذلك . وقال بعض النحاة : انما قدم الليل لأنه أول ولأن أكثر أعمالهم كانت فيه لشدة حر بلدهم فصار عندهم ذلك متعارفا .. وفى معنى هذا البيت قول على بن جبلة :

وما لامرىء حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع
بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولاضوء من الصبح ساطع

وأكثر الأدباء يرجحه على بيت النابغة ، وقد تناول الشعراء هذا المعنى وأكثروا من الأتيان به فى قصائد المديح انظر معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسى (ج ١ ص ١١٢) .

(١) أبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وأوعدنى : هددنى . وزار الأسد وزئيره واحد وهو صوته . أى لايستقر أحد بلغه أن النعمان أوعده كما لا يستقر من يسمع زئير الأسد .

(٢) الريبة : الشك . يقول حلفت بالله وليس بعد اليمين بالله يمين ولا مذهب فى يمين أخرى فينبغى أن تصدقنى ولا تذهب الى ما كنت تذهب اليه من ظنك بعدأن حلفت لك بالله تعالى (٣) الواشى : الذى يزين الكذب ، ويروى (خيانة) موضع (جناية)

(٤) استبقيت فلانا فى معنى أن تعفو عن زاله فتستبقى مودته. والشعث : التفرق والفساد . وتلمه : تجمعه وتصلحه . والمعنى لا تقدر على استبقاء مودة أخ حال كونك ممن لا تلمه ولا تصلحه على تفرق وذميم خصال ثم فسر فقال أى الرجال المهذب ! أى انك لاتجدمهذبا لا عيب فيه! (٥) قال الوزير أبو بكر : وهذا مثل أى اذا ظهرت غمرت الملوك كمايغمر ضوء الشمس النجوم

« ومن قلائده قوله »

فإنْ يَكُ عامرٌ قد قالَ جَهْلاً ... فإنَّ مظِنَّةَ الجهل الشبابُ(١)

وله فى الهجاء

وكنتَ أمينَهُ لو لم تَخُنْهُ ... ولكن لا أمانة لليمانى(٢)

ومن أمثاله السائرة قوله

الرفْقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ ... فاستأنِ فى أمرٍ تلاقِ نجاحاً(٣)

واليأس عمّا فاتَ يعقبُ راحةً ... ولَرُبَّ مَطْمَعَةٍ تعودُ ذُباحاً(٤)

فاستبق وُدَّكَ للصديق ولا تكنْ ... قَتَباً يعضُّ بِغارِبٍ مِلْحاحَا(٥)

وسمى النابغة لقوله (فقد نبغت لنا منهم شؤون) وقيل لأنه لم يقل الشعر حتى صار رجلا . وقيل هو مشتق من نبغت الحمامة إذا تغنت . وحكى (ابن ولّاد) أنه يقال نبغ الماء ونبغ بالشعر فكأنه أراد أن له مادةً من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ .

---

(١) المظنة : الموضع الذى لا تكاد تطلب الشىء الا وجدته فيه . ويروى : مطية الجهل الشباب . يقول : ان كان عامر قد قال جهلا فهو أهل أن يقول الجهل وأن ينطق به لأنه شاب والغرارة والجهل مقترنان بالشباب. قال الوزير أبو بكر : ومن رواه بالطاء (أى مطية) أراد أن الجهل يمتطى الشباب أى يركبه ويصرفه حيث يشاء. (٢) البيت فى هجاء يزيد بن عمرو. وقوله : ولكن .. الخ قال أبو الحسن : انما قال ذلك لأن منازل بعض بنى عامر مما يلى اليمن وكل ما كان يلى اليمن فهو يمانى . ويقال أن يزيد بن عمرو هذا المهجو كان هو وقومه منازلهم قريب من محال بنى الحرث بن كعب وهم من اليمن ، فلما سمع هذا البيت قال لقومه : أجيبوه فأجابه يزيد بأبيات لا محل لذكرها .

(٣) الرفق : خلاف العنف . واليمن : البركة والأناة كقناة الحلم والوقار.

(٤) قوله (عما) فى رواية (مما) و (مطمعة) فى رواية (مطعمة) والذباح كغراب نبت من السموم يقتل آكله ، كذا فى أساس البلاغة والقاموس وشرحه التاج . (٥) القتب : الا كاف على قدر سنام البعير ، والغارب : الكاهل أو مابين السنام والعنق ويقولون للملح : هو قتب يعض بالغارب ، يعنى اذا يعلق بخصم لا ينفصل منه حتى يؤثر كما يؤثر القتب بظهر الدابة ، وقتب ملحاح يلزق بظهر البعير فيعقره وكذلك هو من الرحال والسروج وهو مجاز .

أوس بن حجر[1] الأسدى

قال أبو عمرو بن العلاء : كان أوس فحلَ مُضَرَ حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وكان زهير راوية أوس . ومن إحسان أوس المشهور قوله فى المرثية التى أولها :

أيتها النفسُ أجمِلى جزَعاً إن الذى تحذَرينَ قد وَقَعا

وليس للعرب مطلع قصيدة فى المرثيـة أحسن من هذا البيت . و بيت القصيدة قوله :

الألمعىُّ الذى يَظُنُّ بكَ الظَنَّ كأنْ قدْ رَأى وقد سَمِعا[2]

ومن أمثاله السائرة قوله

فإنـكما يا ابنَىْ جناب وجدْتمـا كمن دَبَّ يَسْتَخْفى وفى الحلْق جلْجلُ

وقوله

ولست بخابىء لِغَدٍ طَعاما حِذَارَ غدٍ لـكلِّ غَدٍ طعامُ

بشر بن أبى خازم الأسدى[3]

من أمثاله السائرة قوله .

ألم ترَ أنَّ طولَ العهد يُسلى وينسى مثلما نسيت جُذَام[4]

---

(١) حجر بفتحتين ، وليس فى أسماء الأشخاص على هذا البناء غير هذا .

(٢) الالمعى واليلمعى : الذكى المتوقد الذكاء . وقد تداول الشعراء معنى هذا البيت كثيرا قال أبو تمام :

ولذاك قيل من الظنـون جبلة علم وفى بعض القلوب عيـون

وقال المتنبى :

يرى قلبه فى يومه ما يرى غدا ذكى تظنيـه طليعـة عينـه

(٣) خازم : بالخاء المعجمة والزاى . وكان الأصل (هنا وفى غير ما موضع) بالحاء المهملة فصححناه (٤) يروى « طول الدهر » موضع « طول العهـد » وجذام : كغراب قبيلة بجبال حسمى من معد . قال أبو عمرو بن العـلاء . فحلان من فحول الجاهلية كانا يقويان : بشر بن أبى خازم . والنابغة الذبيانى . فأما النابغة فدخل يثرب فغنى بشعره فلم يعد . وأما بشر فقال له أخوه سوادة انك لتقوى . قال : وما الاقواء ؟ قال قولك :

وقوله

يكن لك فى قومى يد يشكرونها وأيدى النَّدَى فى الصالحين فروضُ

ومنه أخذ الناس قولهم « الأيادى فروض » وقوله عند موته من أبيات :

تُسائِلُ عن أبيها كلَّ ركبٍ ولم تَعلَمْ بأنّ السهمَ صابا

فَرَجِّى الخيرَ وانتظرِى إيابى إذا ما القارظُ العَنَزِىُّ آبا(١)

وقضية القارظان مشهورة .

الأفوه الأودى(٢)

كان أحد الحكماء فى الجاهلية . ومن أمثاله السائرة قوله :

إنما نعمةُ قَوْمٍ متعة وحياةُ المرء ثوبٌ مستعار(٣)

ألم ترأن طول الدهر يسلى وينسى مثلما نسيت جذام

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم الى البلد الشآم

فلم يعد للاقواء . انتهى .

(١) قوله . « القارظ العنزى » قيل هما قارظان من عنزة أكبرهما يذكر بن عنزة لصلبه وأصغرهما رهم بن عامر وقيل هو عامر بن رهم ، يقال انهما خرجا فى طلب القرظ يجتنيانه فلم يرجعا فضرب بهما المثل فقالوا « لا آتيك أو يؤوب القارظان » يضرب فى انقطاع الغيبة . واياهما أراد أبو ذؤيب بقوله :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما وينشر فى القتلى كليب ووائل

والقرظ : محركة ورق السلم يدبغ به كما فى الصحاح .. وأورد الزبيدى البيت الأول هكذا :

وان الوائلى أصاب قلبى بسهم لم يكن نكسا لغابا

(٢) الأفوه لقب واسمه صلاءة (لا صلاة كما وهم صاحب مجموعة شعراء النصرانية ج ١ ص ٧٠) ابن عمرو بن مالك بن عوف بن الحرث بن منبه (أو ضبة) بن أود بن صعب ابن سعد العشيرة . كان من كبار الشعراء القدماء فى الجاهلية وكان سيد قومه وقائدهم فى حروبهم ، وكانوا يصدرون عن رأيه والعرب تعده من حكمائها . وانما قيل له الأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان (٣) هذه الابيات من قصيدته التى أولها :

أن ترى رأسى فيه نزع وشواتى خلة فيها دوار

وهذه القصيدة من جيد شعر العرب ، وهى التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن انشادها لما فيها من ذكر اسماعيل عليه السلام ، واياه عنى بقوله:

ريشت جرهم نبلا فرمى جرهما منهن فوق وغرار

وليالِيــه إلالٌ للقوى ومدى قد تجتليها وشِفار(١)
وصروفُ الدهرِ فى أطباقهِ خلفةٌ فيها ارتفاع وانحدار
بَيْنما الناسُ على علْيائِها إذْ هو وافى هُوَّةٍ منها فغاروا(٢)

« وقوله وفيه حكمة بالغة »

والبيتُ لا يُبتَنى إلا على عَمَدٍ ولا عِمَادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ(٣)
فانْ تجَمَّعَ أوتادٌ وأعمِدَةٌ وساكنٌ بلغوا الأمرَ الذى كادوا(٤)
لا يصلحُ الناسُ فَوْضى لا سَرَاة لهم ولا سَرَاة إذا جُهَّالهم سادوا(٥)
إذا تولّى سَرَاة الناسِ أمرَهمُ نمَا على ذاك أمرُ القومِ فازدادوا(٦)
تُهْدَى الأمورُ بأهل الرأى ماصلُحَتْ فان تولّتْ فبالأشرار تنقادُ
أمارة الغَىِّ أن تَلْقى الجميعَ لدى الـــإبرامِ للأمر والأذناب أكتاد(٧)
كيف الرشادُ إذا ما كنت فى نفَر لهم عن الرّشــد أغلالٌ وأقيادُ
أعطوا غُواتهم جهلاً مقادتهم فكلهم فى حبالِ الغىّ مُنْقادُ
وهذه من أبلغ الأبيات :

---

(١) الالال : جمع آلة مثل جفان وجفنة وهى الحربة العريضــة النصل وفرق بعضهم بين الآلة والحربة فقال الآلة كلها حديدة والحربة بعضها خشب وبعضها حديد . والمدى : جمع مدية مثلثة وهى السكين . والشفار بالكسر جع شفرة بفتح فسكون وهى السكين العظيم وما عرض من الحديد وحدد
(٢) الهوة كقوة ما انهبط من الارض أو الوهدة الغامضة منها .
(٣) العمد بفتحتين جمع عماد وهو ما يسند به والاوتاد جمع وتد بكسر التاء فى لغــة الحجاز وهى الفصحى : وهــو مازر فى الأرض أو الحائط من خشب . ورسا الشىء ثبت .
(٤) معنى كادوا : أرادوا . (٥) يقال قوم فوضى اذا كانوا متساوين لارئيس لهم . والسراة بالفتح جمع سرى وهو الرئيس وهذا الجمع عزيز لا يكاد يوجد له نظير لأنه لا يجمع فعيل على فعلة وجمع السراة سروات . كذا فى المصباح
(٦) معنى نما : زاد (٧) الأمارة : العلامةوزنا ومعنى ، والابرام أحكام العقد. والأكتاد جمع كتد وهو مجتمع الكتفين وبعضهم يقول ما بين الكاهل الى الظهر وقيل مغرز العنق فى الكاهل عند الحارك . ويروى « أقتاد » جمع قتد وهو خشب الرحل وقيل جميع أداته . والمعنى ظاهر

عبيد بن الأبرص (١)

هو جاهلى قديم ، وكان من فحول العرب وشعرائها المفلقين . ومن أمثاله السائرة قولهُ :

مَن يَسألِ الناسَ يَحرموهُ وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ(٢)
وكلُّ ذى غَيبة يؤوب وغائبُ المَوْتِ لا يؤوبُ(٣)

وقوله

الخيرُ يبقى وإن طالَ الزمانُ بهِ والشرُّ أخبثُ ما أوعيت من زاد

وقوله

الخيرُ لا يأتى على عجلٍ والشر يسبق سيله مطره

المرقش (٤)

كان من مُفلقى شعراء الجاهلية . ومن أمثاله السائرة قوله (٥) :

ومَنْ يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ الناسُ أمْرَهُ ومنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائما

---

(١) عبيد بفتح العين وكسر الموحدة لا بالتصغير كما وهم فى ضبطه لويس شيخوا صاحب مجموعة شعراء النصرانية فى كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت ص ٢٥٨ و ٢٧٨ و٤٥٧ ، وقد ذكر العلامة احمد تيمور باشا المصرى الأدلة على ذلك وفصل الكلام فيه فيما كتبه على مادة (ق رح) من رسالته (تصحيح لسان العرب) بالقسم الأول منها ، فارجع اليها . وعبيد من فحول شعراء الجاهلية وقد عده ابن سلام فى الطبقة الرابعة وقرنه بطرفة وعلقمة بن عبيد وعدى بن زيد العبادى . قال وعبيد بن الأبرص قديم عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا اعرف له الا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

قال : ولا أدرى ما بعد ذلك . وقال الجاحظ : ان عبيدا وطرفة دون ما يقال عنهما أن كان شعرهما ما فى أيدى الناس فقط » وقد أشار أبو العلاء المعرى الى اختلال بائيته بقوله :

وقد يخطىء الرأى امرؤ وهو حازم كما اختلَّ فى نظم القريض عبيد

(٢) قال ابن الأعرابى : هذا البيت ليزيد بن ضبة الثقفى (٣) يؤوب : يرجع

(٤) هو المرقش الأصغر. واسمه عمرو بن حرملة وقيل ربيعة بن سفيان. والمرقش الأكبر عمه وهو (أى الأصغر) عم طرفة بن العبد ، قال أبو عمرو : والمرقش الأصغر أشعر المرقشين وأطولهما عمرا (٥) هذه الأبيات من قصيدة يقولها فى قصة جرت له مع معشوقته فاطمة بنت المنذر ووليدتها بيت العجلان . ومطلعها :

أخوكَ الذى إنْ أحرجَتْكَ مُلِمَّةٌ   من الدَّهْر لم يَبْرحْ لها الدهر واجما(١)
وليسَ أخوكَ بالذى إنْ تَشَعَّبَتْ   عليك أمور ظَلَّ يلحاكَ دائما(٢)

مهلهل واسمه ربيعة (٣)

وهو أول من رقق الشعر فسمى مهلهلا . ومن أمثاله السائرة قوله . وقد خطبت إليه بنته وهى فى دار غربة :

لو بأبَانَينِ جاء يخطبها   ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بِدَم(٤)

ألا يا اسلمى لاصبر لى عنك فاطما   ولا أبدا ما دام وصلك دائما

وقد ساق أبو الفرج الأصبهانى القصيدة فى أغانيه بيد أنه لم يذكر البيتين الأخيرين

(١) الملمة : النازلة ، وأحرجتك : أوقعتك فى الحرج . ويروى «أجرضتك» والواجم : العابس المطرق لشدة الحزن أو الساكت على غيظ (٢) يلحاك : يلومك (٣) اسمه — على ما هو المشهور فى كتب الأدب — عدى بن ربيعة التغلبى ولكن ورد فى القاموس ما نصه «ومهلل الشاعر واسمه عدى أو ربيعة» لقب لأنه أول من أرق الشعر أو بقوله :

«لما توغل فى الكراع هجينهم   هلهلت أثأر مالكا وصنبلا» فتدبر!

(٤) قوله (بأبانين) أبان جبل وهما أبانان أبان الأسود وأبان الأبيض . وضرج : لطخ . يعنى رد عنها . وزيدت (ما) بين الفعل ومرفوعه للضرورة .. والبيت من أبيات له سببها أنه نزل فى آخر حرب البسوس فى جنب بن عمرو بن جلد بن مالك وهو مذ حج وجنب حى من أحيائهم وضيع فخطبوا بنته ومهرت أدما فلم يقدر على الامتناع فزوجها فقال :

أنكحها فقدها الأراقم فى   جنب وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها   ضرج ما أنف خاطب بدم
أصبحت لا منفسا أصبت ولا   أبت كريما حرا من الندم
هان على تغلب الذى لقيت   أخت بنى المالكين من جشم
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا   يغنون من عيلة ولا عدم

وقد أشار أبو نواس الى هذه القصة فى قصيدته التى هجا بها بنى نزار فقال :

وتغلب تندب الطلول ولم   تثأر قتيلا على ذنائبها
نيكت بأدنى المهور أختهم   قسرا ولم تدم أنف خاطبها

وقوله

قَرِّبا مَرْبطَ النّعامةِ مِنّى لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ
لم أكنْ من جُناتها شَهِدَ اللهُ وإنى بحَرْبها اليومَ صالى

وقوله فى مرثية أخيه كليب بن وائل :

نُبِّئْتُ أنَّ النارَ بعدكَ أوقِدَتْ واستَبَّ بعدكَ يا كلَيْبُ المجلسُ
وتكلمُوا فى أمر كلِّ عظيمةٍ لو كنتَ شاهدهم بها لم ينبِسُوا

الأسود بن يعفر

غرة شعره قصيدته التى أولها :

نامَ الخلىُّ وما أُحِسُّ رقادى والهمُّ مُحْتضِرٌ لدىَّ وسادى

وفيها أبيات سائرة يتمثل بها فى فناء السادة ومساكنهم الخاوية بعدهم (وهى :)

ماذا أُؤَمِّلُ بعد آل مُحَرِّقٍ تركوا منازلهمْ وبَعْدَ إيادِ
أهل الخَوَرْنَق والسَّدِير وبارق والقصر ذى الشُرُفات من سِنْدَادِ

(١) النعامة : اسم فرس . ولقحت : حملت . والحيال أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل وهذا مثل ضربه لأن الناقة اذا حالت وضربها الفحل كان أسرع القاحها وانما يعرض أمر الحرب لما تولد منه من الأمور التى لم تكن تحتسب . . وقد تقدم هذا البيت فى الجزء الثانى (ص ١١٨) منسوبا الى الحرث بن عباد فتدبر ! (٢) راجع ص ١٤٩ من الجزء الثانى .

(٣) محرق : لقب امرىء القيس بن عمرو بن عدى اللخمى وهو المحرق الأكبر وهو المراد هنا لاغيره . واياد حى من معد . قال الزبيدى : وهم اليوم باليمن . وقال ابن دريد : هما ايادان : اياد بن نزار واياد بن سود بن الحجر بن عمار بن عمرو . (٤) الخورنق كفدوكس قصر بالعراق للنعمان بن المنذر . والسدير كأمير نهر بناحية الحيرة وقيل قصر قريب من الخورنق. وبارق : ماء بالعراق بين البصرة والقادسية . وسنداد ، بالكسر على الأصل والفتح فتكون النون حينئذ زائدة اذ ليس فى كلام العرب فعلال بالفتح نهر معروف . وفى سفر السعادة : أنه موضع وقيل اسم قصر بالعذيب وبه صدر فى المراصد . وقيل هى منازل لاياد أسفل سواد الكوفة وكان عليه قصر تحج العرب اليه .

نزلوا بأنقِرَةٍ يَسيلُ عليهم ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أطْوادِ[١]
أرضٌ تخيَّرها لطيبِ مَقيلها كعبُ بنُ مامةَ وابنُ أمِّ دؤادِ[٢]
جَرَتِ الرياحُ على محلِّ ديارهمْ فكأنهمْ كانوا على ميعادِ[٣]
ولقد غنوا فيها بأنعمِ عيشةٍ في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ
فإذا النعيمُ وكلُّ ما يُلْهَى بهِ يوما يصيرُ إلى بِلىً ونَفادِ[٤]

طرفة بن العبد

هو أجود الشعراء قصيدة وله بعد المعلقة شعر حسن وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل[٥] . وقتل وهو ابن ست وعشرين سنة . وقاتله عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة وقد ذكر القصة ابن قتيبة في كتاب (الشعر والشعراء) وذكرها يعقوب بن السكيت في شرح ديوانه بأبسط من ذلك . ويقال إن أول شعر قاله طَرَفة أنه خرج مع عمه في سفر فنصب فخاً فلما أراد الرحيل قال :

يالكِ من قُبَّرَةٍ بمَعْمَرِ[٦] خلالكِ الجوُّ[٧] فبيضي واصفري !

---

(١) أنقرة : بالفتح ثم السكون وكسر القاف ، موضع بنواحي الحيرة وقيل : بل المراد هنا أنقرة التي ببلاد الروم نزلتها اياد لما نفاهم كسرى عن بلاده ، وحسنه الحموي والله أعلم . والفرات نهر مشهور . والأطواد : الجبال

(٢) أراد كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة بن سلولة بن شبابة الايادي الذي يضرب المثل بجوده . وكان أبوه مامة ملك اياد . وابن أم دؤاد : هو أبو دؤاد الايادي الشاعر المشهور . وهذا دليل على أن سنداد كانت منازل اياد (٣) قوله « محل » يروى بدله « عراص » ويروى أيضا « مكان » والمعنى : كأنهم كانوا من الفناء على وعد محقق وأجل مصدق فلما دعوا أجابوا ولما روسلوا استجابوا . (٤) النفاد : الفناء

(٥) جمعت أشعار طرفة في ديوان طبع بشالون بفرنسا سنة ١٩٠٠ م بعناية سلكسن .

(٦) معمر : موضع بعينه . وقيل المعمر المنزل الذي يقال فيه . قال ساجعهم (يبغيك في الأرض معمرا) . (٧) قال أبو عمرو : هذا مثل والجو هنا ما اتسع من الأودية ويروى عن ابن عباس قال لابن الزبير حين خرج الحسين الى العراق خلالك الجو فبيضي واصفري .

ونقّرى ما شئتِ أن تنقّرى[١] قد رُفِع الفخ فماذا تحذرى ؟[٢]

لا بدَّ يوماً أن تُصادِى فاصبرى[٣]

ومن أمثال السائرة على الدهر :

ستُبْدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار مَنْ لم تُزوِّدِ[٤]

ومن أمثاله فى ذم الأخلاَّء :

كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُهُ لاترَكَ اللهُ له واضحَهْ[٥]

كلهمُ أروغُ من ثعلبٍ ما أشبه الليلةَ بالبارحَهْ[٦]

ومن أمثاله السائرة لعمرو بن هند :

أبا مُنْذرٍ أفنَيْتَ فاستَبْقِ بعضَنا حنَانَيكَ بعْضُ الشر أهون من بعض[٧]

وقوله :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظـل له الدماء تصبب

---

(١) التنقير : البحث والطلب ، وقيل التنقير تسوية الطائر لعشه .

(٢) الفخ : المصيدة . وقوله فماذا تحذرى أى فماذا تحذرين فحذف النون للضرورة. ويروى « فلا تحذرى وماتحذرى » . (٣) فى بعض الكتب (لابد من أخذك يوما فاحــذرى) . وقد روى أن هذا الرجــز لكليب وائل (راجع الاقتضاب ص ٣٨٢) لعل طرفة استشهد به (٤) يقول : ستطلعك الأيام على ما تغفل عنه . وسينقل اليك الأخبار من لم تزوده أى الذى لم تعطه متاع سفره (٥) الخليل : الصديق : وخاللته : صادقته وعاشرته . والواضحة : الأسنان التى تبدو عند الضحك (٦) الثعلب : حيوان معروف . وراغ الثعلب روغا : ذهب يمنة ويسرة فى سرعة خديعة فهو لا يستقر فى جهة . وقوله ما أشبه الليلة بالبارحة أى ما أشبه بعض القوم ببعض وهو مثل يضرب فى تساوى الناس فى الشر والخديعة

(٧) أبو منذر : كنية عمرو بن هند الملك . ونصب حنانيك على المصدر الموضوع موضع الفعل والتقدير : تحنن عليه تحننا وثنى مبالغة وتكثيرا أى تحنن تحننا بعد تحنن ولم يقصــد بهذا مقصد التثنية خاصة وانما يراد به التكثير فجعلت التثنية علما لذلك لأنهــا أول تضعيف وتكثير . وكذلك ما جاء من نحوه فى البــاب . والبيت من قصيدة لطرفة خاطب بها عمرو بن هند حين أمر بقتله وذكر قتله لمن قتل من قومه تحريضا لهم على طلب ثأره ، وقصته معه ومع المتلمس مشهورة

وقوله

وأعلمُ علماً ليس بالظنّ أنه ... إذا ذَلّ مولى المرء فَهْوَ ذليل [١]

وإن لسانَ المرء ما لم تكن لهُ ... حَصَاةٌ على عَوْراته لَدليلُ [٢]

جرير بن عبد المسيح الشهير بالمتلمس

هو شاعر مشهور و بليغ مذكور ومن أمثاله السائرة قوله فى الاحتياط :

قليل المال تصلحهُ فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفساد

وحِفظ المال خيرٌ من بغاهُ [٣] ... وجولٍ [٤] فى البلاد بغير زادِ

وقوله فى الإغضاء عن ذنوب الأقرباء :

ولو غيرُ أخوالى أرادوا نَقيصتى ... جعلت لهم فَوق العَرانين ميسَما [٥]

وما كنتُ إلا مثلَ قاطعِ كفِّهِ ... بكفٍّ له أخرى فأصْبحَ أجذَمَا [٦]

وقوله فى الامتناع عن الذل :

ولا يُقيمُ على ذلٍّ يُرادُ بِهِ ... إلا الأذلاّنِ :عَيْرُ الحيِّ ، والوتدِ [٧]

---

(١) لفظة العلم قد تطلق على الظن الغالب لقيامه مقام ما هـو علم فى الحقيقة وأكد قوله (واعلم علما) بقوله (ليس بالظن) وليس بالظن صفة العلم، لأنه لا يكون العلم على التحقيق الا علم اليقين . وسمى علم الظن علما على المجاز . والضمير من قوله (أنه) للأمر والشان .

(٢) الحصاة : العقل ويقال الرجل ذى العقل انه لذو حصاة وأصاة وهو ذو حصـاة اذا كان يكتم على نفسه ويحفظ سره . والمعنى ظاهر .

(٣) ويروى : بغاة وفناه

(٤) وفى رواية : وضرب . (٥) العرانين : جع عرنين وهـو من كل شىء أوله ، ومنه عرنين الأنف وهو ما تحت مجتمع الحاجبين وهو موضع الشمم وقد يطلق العرنين على الأنف . يقول : أهجوهم هجاء يلزمهم لزوم الميسم فى الأنف (٦) الأجذم : المقطوع اليد . يقول او هجوت قومى كنت كمن قطع يده بيـده الأخـرى (٧) قوله « ذل » يروى مكانه (خسف) والخسف النقيصة . والعير : بفتح المهملة الحمار وغلب على الوحشى والمناسب هنـا الأهلى . والاستثناء فى (الا الاذلان) استثناء مفرغ وقد أسند اليه فعـل الاقامة فى الظاهر وان كان مسندا فى الحقيقة الى العام المحذوف .

هذا على الخسف مربوطٌ برُمّتِهِ   وذا يُشَجُّ فلا يَرْثِى له أَحدُ [١]

علقمة بن عبدة [٢]

من غرر شعره قوله :

فإنْ تسألونى بالنّساء فإنّنى   بصيرٌ بأدواء النّساء طَبيبُ [٣]

إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُهُ   فليْسَ له فى وُدِّهِنَّ نَصيبُ

يُرِدْنَ ثَرَاءَ المال حيْثُ عَلِمْنَهُ   وشَرْخُ الشّباب عندهنَّ عجيبُ [٤]

وقوله من قصيدة أخرى :

وكلُّ حصْنٍ وإنْ دامَتْ سلامَتُهُ   على دَعَائِمِهِ لا بُدَّ مَهْدُومُ [٥]

ومن تَعرَّضَ للغربانِ يَزْجُرُها   على سَلامتِهِ لا بُدَّ مَشْؤُومُ [٦]

ومُطْعَمُ الغُنْم يوم الغُنْم مُطعمُهُ   أنَّى تَوَجَّهَ والمحرومُ محْرُومُ

وكلُّ قومٍ وإنْ عَزُّوا وإنْ كَثُرُوا   عَرِيفُهُم بأثافِيِّ الشرِّ مَرْجُومُ [٧]

---

(١) الرمة : القطعة من الحبل البالى . والضمير يعود الى العير . ويشج : يدق رأسه بالفهر

(٢) عبدة مفتوح الباء . قال ابن السيد فى الاقتضاب : ومن سكنها فقد أخطأ هـذا بقوله :

أعتقت عبدى فى القريض معـا   عبدة والفحل من بنى عبـده

قال : وأما عبدة بن الطبيب فساكن الباء وقد قيد ابن الرومى هذا أيضا بقوله :

يتباشرون بأن عبـدة مقبـل   كلا وما جمع الحجيج الى منى

(٣) البصير : العالم . والطبيب : الحاذق . والأدواء : جمع داء

(٤) شرخ الشباب أوله

(٥) الحصن : المكان الذى لايقدرعليه لارتفاعه . والدعائم جمع دعامة بالكسر وهى مايستند به الحائط اذا مال يمنعه السقوط (٦) قال الضبى : هـذا يمانه بالطيرة . يقول من يزجر الطير وان سلم فلا بد ان يصيبه شؤم وأنشـد :

امام كان لقمـان بن عـاد   أشـار له بحكمته مشـير

تعـلم انـه لا طـير الا   على متطير وهـو الثبـور

بلى شىء يوافـق بعـض شىء   احايينـا وباطـله كثـير

قال الرستمى : يقول ، الغـربان يتشاءم بها فمن تعـرض لها يزجرها ويطردها خوفا أن يصيبه الشؤم فلا بد ان يقع بما خاف ويحذر

(٧) العريف كامير : من يعرف أصحابه ، والعريف رئيس القوم سمى به لانه عرف بذلك ، أو النقيب وهو دون الرئيس . والأثافى : جمع أثفية بالضم ويكسر الحجر الذى يوضع عليه القدر

أبو دؤاد الإيادى

قيل للحطيئة : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

لا أعدّ الإقتار عدماً ولكنْ ... فقدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإعدام [(١)]

من رجالٍ من الأقاربِ بادُوا ... من حذاقٍ هم الرؤوس الكرام [(٢)]

فعلى إثرهمْ تُساقِط نفسى ... حسرات وذكرهم لى سقَامُ

ومن وسائط قلائده

إذا كنْتَ مرتادَ الرجال لنفعهم ... فَرِشْ واصطنِعْ عندالذين بهم ترمى [(٣)]

لقيط بن معبد الإيادى

أمير شعرهِ قصيدته التى كتبها إلى قومه يحذرهم جند كِسْرى ويحرضهم على الجد الممانعة والمقارعة . فمنها قوله :

قُومُوا قياماً على أمْشاطِ أرجلكم ... ثم افزَعُوا قد ينال الأمْرَ من فزِعا [(٤)]

هيهاتَ ما زالت الأموالُ مُذْ أبد ... لأهلها إنْ أصِيبُوا مرةً تبعا

ومنها فى اختيار الرئيس المضطلع بقيادة الجيش وتدبير الحرب وهو أحسن ما قيل فى معناه :

وقَلِّدُوا أمرَكم لله درُّكُمُ ... رَحْبَ الذراع بأمرالحرب مُضْطَلِعا [(٥)]

لا مُتْرَفًا إنْ رَخاء العيشِ ساعَدَهُ ... ولا إذا عَضَّ مكروهٌ به جَزِعا [(٦)]

---

(١) الاقتار : الضيق فى النفقة . ورزئته : أصبت به وفقدته (٢) بادوا : هلكوا . وحذاق : يؤخذ من كلام الزبيدى فى التاج أنه حذاقة جد لأبى دؤاد أبو بطن من اياد حذف أبو دؤاد منه الهاء . وبه يتبين فساد قول من قال (الشعر والشعراء ص ٣٨) : ان « حذاقا ــ هنا ــ جمع حذاقى الفصيح اللسان البين اللهجة » (٣) راش الصديق بريشه ريشا اطعمه وسقاه وكساه . والاصطناع : المبالغة فى اصلاح الشيء (٤) الأمشاط جمع مشط وهو سلاميات ظهر القدم وهى العظام الرقاق المفترشة على القدم دون الأصابع . يقال انكسر مشط قدمه وقاموا على أمشاط أرجلهم وهو مجاز

(٥) مضطلع : مفتعل من الضليع وهو الشديد يريد أنه قوى على أمر الحرب مستقل بها . ورحب الذراع : واسع القوة عند الشدائد

(٦) المترف كمكرم : المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه والمتنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها لا يمنع من تنعمه ، والجبار . وقوله : اذا عض مكروه كناية عن نزول المكروه واشتداده

مازال يحلُبُ هذا الدهر أشْطُره يكون مُتَّبِعا طَوْراً ومُتَّبَعا(١)

حتى استمرت على شَزْرٍ مَرِيرته مُستحكِمَ السنّ قَحْماً ولا ضَرَعا(٢)

أى لا شيخاً خرِفاً ولا شاباً حدثاً

حاتم الطائى

قد سبق له ذكرى فى الأجواد(٣) واقتضى المقام إعادة ذكره فمن أمثاله السائرة قوله :

إذا لزِم الناسُ البيوتَ رأيتَهُمْ عماةً من الأخبار خرق المكاسبِ

وقوله يخاطب امرأته ماوية

أماوىّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

وقد علِمَ الأقوام لو أنّ حاتماً أراد ثَرَاء المال كان له وَفْرُ

وقوله أيضاً

وأنتَ إذا أعطَيْتَ بطنَكَ سؤلَهُ وفرجَكَ نالامنتهى الذمّ أجمعا(٤)

وقوله أيضاً

أماوىّ مايُغْنِى الثراء عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصدْرُ(٥)

عمرو بن كلثوم

هو من شعراء الجاهلية وقد حاز قصب السبق فى شعره وتقدمت له ترجمة مفصلة فى فرسان العرب(٦) فإنه كما كان متقدماً فى الشعر كان من أشجع الفرسان

---

(١) حلب الدهر أشطره : اختبر خير الدهر وشره . وقوله : يكون متبعا الخ أى قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع ما يصلح الرئيس كما قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : قد ألنا وايل علينا اى قد أصلحنا أمور الناس وأصلحت أمورنا (٢) قوله على شزر مريرته : مثل . يقال شزرت الحبل اذا كررت فتله بعد استحكامه راجعا عليه. والمريرة : الحبل. والضرع: الصغير الضعيف . والقحم آخر سن الشيخ (٣) ج ١ ص ٧٢ الى ٨١

(٤) السؤل : المسؤول وأراد به ما يشتهيه. والمعنى ان الشخص اذا اعطى بطنه وفرجه ما يشتهى واتبع هواه بقضاء ما تزينه له نفسه من شهواتها أصابه من الناس منتهى الذم والشتم (٥) ج ١ ص ٧٨ .

(٦) ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٣ .

وأجرأهم وهو قاتل عمرو بن هند الملك بسبب ما كان منه من الفخر والتطاول على العرب وتقدمت القصة فى ترجمته . وبالجملة أنه كان من الطراز الأول من فحول الشعراء ، ولم يخالف فى ذلك أحد من الأدباء ، وهو صاحب المعلقة المشهورة :

ومن أمثاله السائرة قوله

وإنَّ غداً وإنَّ اليومَ رَهْنٌ وبعْدَ غدٍ بما لا تَعلَمينا[١]

وفى هذه القصيدة بيتان ينسبان إليه . ويقال إنهما لعمرو بن عدى كما ذكره الإمام الثعالبى فى كتابة (لباب الأدب) وهما :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عَمْروٍ وكان الكأسُ مجراها اليمينا[٢]

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمْروٍ بِصاحبك الذى لا تَصبحينا[٣]

ويروى أن عاملاً للإمام علىّ كرم الله تعالى وجهه ورضى عنه قدم من عمله فأهدى إلى الحسنين الأحسنين رضى الله تعالى عنهما ولم يهد شيئاً إلى محمد ابن الحنفية فضرب على كتفه وتمثل بقول عمرو :

وما شرّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

فأهدى من الغد إلى ابن الحنفية كما أهدى إلى أخويه صلوات الله وسلامه على جدهم وعليهم .

عنترة بن شداد العبسى

كان من مشاهير شعراء الجاهلية كما كان من الفرسان المذكورين وله وقائع كثيرة وتقدمت نبذة من أخباره فى الكلام على الفرسان[٤]. وحذاق الشعراء يرجحون شعر عمرو بن كلثوم على شعره على منزلته الرفيعة فى البلاغة . وقد أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياته التى يقول فيها :

---

(١) أى بما لا تعلمين من الحوادث . يقول فان الايام رهن بما لا يحيط علمك به أى ملازمة له . (٢) يروى « صبنت » موضع «صددت» أى صرفت

(٣) يقول : ليس بصاحبك الذى لا تسقينه الصبوح شر هؤلاء الثلاثة الذين تسقينهم أى لست شر أصحابى فكيف أخرتنى وتركت سقيى الصبوح؟

(٤) ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧

بَكَرَتْ تُخَوِّفنى المَنُونَ كأننى أصبحتُ عن غرض المَنُونِ بِمَعْزِلِ (١)

فأجَبْتُها : إنَّ المنيــةَ مَنْهَلٌ لا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بكأس المنهل

فاقْنَى حَياءكِ (لا أبالَكِ) واعْلَمى أنى امْرُؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقْتَلِ (٢)

ولما أنشـــد قوله

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظَلُّهُ حتى أنالَ بهِ كريم المأكلِ (٣)

قال صلى الله تعالى عليه وسلم : ما وصف لى أعرابىٌّ قطُّ فأحببت أن أراه إلاَّ عنترة .

ومن أمثاله السائرة قـوله

نُبِّئْتُ عمْرًا غيرَ شاكرِ نعمتى والـكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنفْسِ المُنْعمِ (٤)

وبيته الذى ينسب إليـــه

إن العدُوَّ على العدوِّ لَقائِلٌ ما كانَ لى علمٌ وما لم يعلم

طفيل الغنوى

كان يقال له فى الجاهلية المحبَّر أى المحسن لحسن شعره . ويروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه قال يوماً للأنصار : زادكم الله عنا يامعشر الأنصار خيراً فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوى :

جَزَى الله عنّا جعْفَرًا حين أزْلَقَتْ بِنا نعلُنا فى الواطئين فَزَلّتِ

أبوْا أن يملُّونا ولو أنَّ أمّنا تلاقى الذى يلقونَ منا لَمَلّتِ

---

(١) بكرت : أسرعت ولم يرد بكور الغدو . والمنون : الموت . والمنهل بفتح الميم والهاء المورد (٢) تقنى الحياء : لزمه وحفظه . وقنانى الحياء أن أفعل كذا : ردنى ووعظنى وهو يقنينى . قال الشاعر :

وانى ليقنينى حياؤك كلما لقيتك يوما ان ابثك ما بيا

(٣) الطوى : الجوع . ويروى « كريم المطعم » موضع « كريم المأكل »

(٤) التنبئة والتنبى مثل الانباء وهذه من سبعة أفعال تتعدى الى ثلاثة مفاعيل . والكفر : تغطية نعم المنعم بالجحود .

ومن غرر شعره قوله

إنَّ النساء كأشجارٍ نَبتْنَ لنَا ... منهنّ مرٌّ وبعضُ المرّ مأكولُ
إنَّ النساء متى ينهَيْنَ عن خُلُقٍ ... فإنهُ واجبٌ لا بُدَّ مفعُولُ

الاضبط بن قريع السعدى

روى ابن الأنبارى بإسناده قال : عاش الأضبط بن قريع مائة وخمسين سنة ثم مات فى آخر الزمان وأمير شعره قوله :

لِكلِّ همٍّ من الهُموم سَعَهْ ... والصُّبحُ وَالمُسْى لاَ بقاءَ مَعَهْ[(١)]
قد يَجْمَعُ المالَ غيرُ آكلهِ ... ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
لا تحقرن الفقيرَ عَلَّكَ أَنْ ... تركعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ[(٢)]
وصِلْ حبالَ البعيد إنْ وَصَلَ الْـ ... ـحَبْلَ وأقصِ القريبَ إن قَطَعَهْ[(٣)]
واقبلْ من الدهر ما أتاك به ... مَنْ قَرَّ عيناً بعيشه نَفَعَهْ
ما بالُ مَنْ سَرَّهُ مصابُكَ لا ... يملك شيئاً من أمره وَزَعَهْ[(٤)]
أذُودُ عن حوضه ويدفعنى ... ياقوم مَنْ عاذرى من الخُدَعَهْ[(٥)]

---

(١) ويروى « والمسى والصبح لا فلاح معه » . والمسى يضم الميم وكسرها وسكون السين اسم من الامساء . والصبح : اسم من الاصباح . والفلاح : البقاء

(٢) قوله « لا تحقرن الفقير » هو رواية الجاحظ فى البيان والتبيين ، ورواه غيره « ولا تعاد الفقير » والرواية المشهورة عند النحاة « لا تهين الفقير » وهم يوردون البيت شاهدا على حذف نون التوكيد الخفيفة من « تهين » لالتقاء الساكنين والأصل « لا تهينن الفقير » فحذف النون وبقيت الفتحة دليلا عليها . وله نظائر كثيرة فى كلام العرب . وعل : لغة فى لعل . والركوع الانحناء والميل وأراد به الانحطاط من المرتبة والسقوط من المنزلة . (تنبيه) زعم العينى وتبعه أناس أن هذا البيت من الخفيف وهو وهم كبير والصواب أنه من المنسرح — ويدل له القصيدة — لكن دخل فى أوله الخرم (بالراء) بعد خبنه فصار على وزن فاعلن وهذا جائز عند بعضهم وممتنع عند الخليل . انتهى باختصار من شرحنا لكتاب الضرائر تأليف الاستاذ الالوسى المؤلف ص ٩٩ و ١٠٠ من طبعة المطبعة السلفية بمصر (٣) يعنى : تقرب الى البعيد من النسب اذا طلب قربك واهجر القريب من نسبك اذا هجرك .

(٤) المصاب بالضم : المصيبة . وروى « ما بال من غيه مصيبك » . ووزعه يزعه وزعا : كفه ومنعه . وكان فى الأصل « ودعه » بالدال . يقول : ما بال من تتألم لمصيبته وفقره اذا وجد شيئا من الخير كفه عنك .

(٥) قوله « أذود عن حوضه » هذا مثل للحماية ودفع المكروه عنه .

حتى إذا ما انجلت عمايته أقبلَ يَلحَى وغيَّه فَجَعَه[1]

عدى بن زيد العبادى

لا يخرج من شعر شاعر من الجاهلية من محكم الشعر وحكمه وما يصلح للمثل به من حسن الديباجة وصفاء الزجاجة ما يخرج من شعر عدى ، وكان يسكن الحيرة ويجاور الريف فرقّ شعره وعذب منطقه ، وكان يونس النحوى إذا أنشد قوله فى الاعتبار بذهاب القرون وذهاب الملوك يقول : لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلّا هذا :

أيُّها الشـامتُ المعيِّر بالدهر م أأنتَ المـبرَّأ الموفورُ ؟[2]

أمْ لديك العهدُ الوثيقُ من الأ يَّام ؟ بل أنتَ جاهلٌ مغرور !

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أمْ أينَ قبـلهُ سابور ؟[3]

وأخو (الحضْر) إذْ بناه وإذْ دجـلة تجبى إليه و (الخابور)[4]

شادَهُ مَرْمَرًا وجلّله كلْـ ساً فللطير فى ذُراه وُكور[5]

وبنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الـروم لم يَبْقَ منهم مذكور[6]

و « الخدعة » بضم الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة بطن من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم وهم قومه . قاله صاحب الأغانى وغيره . وقال بعضهم : الخدعة فى هذا البيت اسم الدهر لتلونه ويقال دهر خادع وخدعة وهو مجاز

(١) العماية بفتح العين المهملة : الشدة التى تلتبس منها الامور . يقال : عمي عليه الامر اذا التبس. وأقبل : شرع . ويلحى : يلوم . والغى: الضلال. وفجعه : أصابه بمكروه (٢) شمت العدو : كفرح وزنا ومعنى (٣) كسرى أنوشروان : ملك الفرس . وسابور : ذو الاكتاف ملك العجم معرب شاه بور، معناه : ابن السلطان (٤) أخو الحضر وهو بالفتح ثم السكون اسم مدينة بازاء تكريت فى البرية بينها وبين الموصل والفرات . بناها الساطرون بن اسطيرون الجرمقى .. ودجلة : اسم للنهر الذى يمر ببغداد ولا تنصرف ولا يدخلها الالف واللام . وغلط صاحب (المنجد ــ المعجم المدرسى) فأدخلهما عليها كما غلط فى مسائل كثيرة فيه فليحذر منه ! وتجبى : تجمع . والخابور: نهر بين رأس العين والفرات مشهور . وآخر شرقى دجلة الموصل بينه وبين الرقة عليه قرى كثيرة وبليدات (٥) شاذه : بناه . والمرمر : وزان جعفر نوع من الرخام الا أنه أصلب وأشد صفاء . وجلله : غطاه . والكلس: بالكسر الصاروج وهو النورة . وذرى الشيء : أعلاه (٦) بنو الاصفر : الروم وقيل ملوك الروم أولاد الأصفر بن روم بن عيصو بن اسحق . وقيل الأصفر لقب روم لا ابنه. وقال ابن الأثير : انما سموا بذلك لأن أباهم الأول كان أصفر اللون وهو روم ابن يعصو ويقال عيصون . أو لغير ذلك .

وتفكر ربّ (الخوَرنَق) إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير (١)

سرَّهُ ملكه وكثرة ما يحـ ـويه والبحر معرضاً و (السدير)

فارعوى قلبُهُ فقال وما غبطة حىّ إلى الممات يصير؟ (٢)

ثم أضحَوْا كأنهم وَرَق جَفّ فألوت به الصَّبا والدَّبُور (٣)

ثم بعد الفلاح والملك والإمَّـ ـةِ وارتهمُ هُناكَ القبور (٤)

ومن أمثاله السائرة

كفى واعظاً للمرء أيامُ دهرِهِ تروحُ له بالواعظات وتَغْتدى (٥)

عن المرْء لا تسأل وسَلْ عن قرينِهِ فإنّ القرين بالمقارنِ مقتدى

وظلم ذَوى القُربى أشدُّ مضاضةً على الحرّ من وقع الحُسامِ المهنّدِ (٦)

وقوله فى حبس النعمان بن المنذر

أبلغ النعمان عنى مأْلُكاً أنّه قد طال حبسى وانتظارى (٧)

لو بغير الماء حلقى شَرِقٌ كنت كالغَصَّان بالماء اعتصارى (٨)

وقوله

فهل من خالدٍ إما هلكنا وهل بالموت يا للناس عارُ

---

(١) الخورنق والسدير : مر ذكرهما فى ص ١٠٩ من هذا الجزء .

(٢) ارعوى : ارتدع . والغبطة : حسن الحال وهى اسم من غبطته غبطا اذا تمنيت مثل ما ناله من غير أن تريد زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك وهذا جائز فانه ليس بحسد فان تمنيت زواله فهو الحسد

(٣) ألوت به : ذهبت به . والصبا : كعصى الريح التى تهب من مطلع الشمس . والدبور : كرسول الريح التى تهب من جهة المشرق تقابل الصبا . ويقال تقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحو المشرق . كذا فى المصباح

(٤) الامة بالكسر النعمة . قال الاعشى :

ولقد جررت الى الغنى ذا فاقة وأصاب غزوك امة فأزالها

(٥) الرواح يكون بمعنى الغدو وبمعنى الرجوع وقد طابق بينهما فى قوله تعالى « غدوها شهر ورواحها شهر » اى ذهابها ورجوعها .

(٦) المضاضة : الالم . والحسام : السيف . والمهند : المطبوع من حديد الهند . ويقال سيف مهند وهندى وهندوانى اذا عمل ببلاد الهند .

(٧) المالك : بضم اللام الرسالة . (٨) قوله : قوله :« شرق » من شرق الماء اذاغص . والغصان : الغاص بالطعام أو بالماء . والاعتصار : الملجأ . قال أبو عبيدة : المعنى لو شرقت بغير الماء أسغت شرقى بالماء فاذا غصصت بالماء فبما أسيغه . والبيت من شواهد النحويين .

الحرث بن حلزة اليشكرى

قال أبو عبيدة : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم . والحرث بن حلزة . وطرفة بن العبد . وزعم الأصمعى أن الحرث قال قصيدته المعلقة وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة ارتجالاً متوكأً على قوسه فزعموا أنه اقتطم كفه (١) وهو لا يشعر من الغضب . وقال ابن السيد فى أدب الكاتب كان متكئاً على عنزة (٢) فارتزت (٣) فى جسده وهو لا يشعر . قال الصولى : ما يوصف تأهب القوم للسفر وإقبالهم على جمع الآلات الارتحال بأحسن من قول الحرث :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء (٤)
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل خلال ذلك رغاء (٥)

أمية بن أبى الصلت

له فى التوحيد والحكمة شعر كثير . وفيه يقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : آمن شعره وكفر قلبه . ويقال أنه أول من تلطف للسؤال فى قوله لعبد الله ابن جدعان (٦) :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء (٧)
وعلمك بالحقوق (٨) وأنت قرم ... لك الحسب المهذب والسناء (٩)

---

(١) اقتطم الشيء : عضه أو تناوله بأطراف أسنانه وذاقه
(٢) هى رميح بين العصا والرمح فى طرفه سنان مثل سنان الرمح .
(٣) أى انغرزت . (٤) الضوضاء : الجلبة وهى اختلاط الأصوات . واجماع الأمر : عقد القلب وتوطين النفس عليه (٥) التصهال : كالصهيل . والرغاء : بالضم صوت البعير . يقول : اختلطت أصوات الداعين والمجيبين والخيل والابل . يريد بذلك تجمعهم وتأهبهم (٦) ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٨٧ (٧) الشيمة : الخلق والطبع .. يعنى أن حياءك يكفى فى قضاء حاجتى (٨) أى ويكفينى معرفتك بما يجب .
(٩) القرم : السيد المعظم ، ويروى « وأنت فرع » أى شريف قوم . والحسب المهذب : المنقى المخلص . والسناء : الرفعة .

كريمٌ لا يغيرُهُ صَبَاحٌ عن الْخُلُقِ الجميل ولا مَساءْ (١)
إذا أثنى عليكَ المرْءُ يَوْماً كفاهُ من تعرّضِهِ الثناءْ (٢)

ومن غرر شعره قوله

عطاؤك زينٌ لامْرئٍ إنْ حَبَوْتَهُ بخيرٍ وما كل العطاء يَزِينُ (٣)
وليس بِشَيْنٍ لامرىء بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وقد سبق له ذكر فيمن كان على دين أيام الجاهلية .

قس بن ساعدة الإيادي

كان له باع طويل فى الشعر ، والخطب ، وسائر فنون الكلام ، مع اشتماله على الحكم البالغة ، والفوائد البديعة ، فمن غرر شعره :

فى الذاهبينَ الأوّلين من القُرون لنا بصائرْ (٤)
لما رأيتُ مواردًا للموت ليسَ لها مَصادِرْ (٥)
ورأيتُ قومى نحوَها تمضى الأصاغرُ والأكابرْ
لا يَرْجِعُ الماضى إلىَّ ولا من الباقينَ غابِرْ (٦)
أيقَنْتُ أنّى لا مَحَا لَةَ حَيْثُ صارَ القَوْمُ صائِرْ (٧)

وأُنْشِدَ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الأبيات فلما سمعها قال إنه يبعث أمة على حدة .

---

(١) يروى « خليل » موضع « كريم » والمعنى ظاهر . ويروى بعده هذا البيت :

وأرضك كل مكرمة بنتها بنو تيم وأنت لها سماء

(٢) يعنى أن المدح يكفى فى نيل الحاجة منك بدون التعرض لمطالبتك .

(٣) حبوته : أعطيته (٤) القرون : جمع قرن وهو أصل كل مدة فيها نبى أو طبقة من أهل العلم والفضل سواء قلت السنون أو كثرت . كذا قالوا.

(٥) الموارد : جمع مورد ، وهو محل الورود أى الاتيان . والمصادر : جمع مصدر ، وهو موضع الصدور أى الانصراف والرجوع (٦) غابر : اسم فاعل من غبر بمعنى مكث وبقى وبمعنى مضى أيضا فهو ضد (٧) أى أيقنت أنى منتقل حيث انتقل القوم ، فصائر خبر ان . وصار بمعنى انتقل . والقوم فاعله . ولا محالة : بفتح الميم — لا تغيير ولا تبديل . وأيقنت جواب لما فى البيت الثانى .

عائذ بن محصن الشهير بالمثقب العبدى

ولقب بذلك لقوله فى قصيدة أولها :

أفاطمَ قَبْلَ بينك متّعينى ومنعكِ ماسألتُ كأنْ تبينى[١]

ومنها (وثقّبْنَ الوصاوصَ للعيون[٢]) وأمير شعره قوله فى هذه القصيدة :

فلا تَعِدِى مواعِدَ كاذبات تمرُّ بها رياحُ الصَّيْف دُونى
فلو أنّى تُعاندنى شمالى لما أتبعتها أبداً يمينى
إذاً لقطعْتُها ولقلتُ بِينى كذلك أجْتَوى مَنْ يجْتوينى[٣]
فإمَّا أنْ تكونَ أخى بحقّ فأعرفَ منك غثّى من سمينى[٤]
وإلا فاطَّرِحْنى واتخِذْنى عدوًّا أتّقيكَ وتتقينى[٥]
وما أدرى إذا يمّمْتُ أرضاً أريدُ الخيرَ أيُّهما يلينى[٦]
أ الخير الذى أنا أبتغيه أم الشَّرُّ الذى هو يبتغينى ؟[٧]

ومن أمثاله أيضاً قوله

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرِدْ أنْ تُتمَّ الوعدَ فى شىء « نَعَم »
حَسَنٌ قبل « نعم » قولك « لا » وقبيحُ القول « لا » بعد « نَعَمْ »
إنَّ « لا » بعد « نعم » فاحشة (فَبِلا) فابدأ إذا خفْتَ النَّدَمْ

(١) أى منعك ما سألتك كبينك عندى . والبين : الفراق . ويروى «ومنعك ما سألتك أن تبينى» والمعنى منعك ما سألتك لبينك ومن أجل بينك
(٢) قبله «ظهرن بكلة وسدلن أخرى» هكذا أورده الزبيدى. وفى الصحاح والاساس « ارين محاسنا وكنن أخرى » وفى خزانة الادب للبغدادى « رددن تحية وكنن أخرى » والوصاوص جمع وصواص وهو البرقع الصغير .
(٣) البين : الفرقة . واجتوى : ابغض (٤) قوله « فأعرف » بالنصب معطوف على تكون . والغث: من غث اللحم يغث غثاية وغثوثه فهو غث وغثيث اذا كان مهزولا . وكذلك غث حديث القوم وأغثه أى ردؤ وفسد . والمعنى هنا : اعرف منك ما يفسد عما يصلح . وقال الدمامينى : الغث الردىء ، والسمين : الجيد ، أى أعرف منك مساوئى من محاسنى فان المؤمن مرآة اخيه أو اعرف ما يضرنى منك مما ينفعنى واميز بينهما
(٥) اطرحنى : اتركنى ، وهو بتشديد الطاء افتعال من الطرح
(٦) يممت : قصدت (٧) ويروى « ام الشر الذى لا يأتلينى » أى لا يألو فى طلبى .

واعْلَمْ بأنَّ الذمَّ نقصٌ للفتى ... ومتى لا تتقى الذمَّ تذم
أكْرِم الجارَ وراعِ حقّهُ ... إن عرفانَ الفتى الحق كرم
لا تَرانى رَاتِعاً فى مجلس ... فى لحوم الناس كالسَّبْعِ الضَرِمِ[1]
إنَّ شرَّ النَّاسِ من يكشرُ لى ... حينَ يلقانى وإنْ غِبْتُ شتم
وكلام سيىء قد وُقِرَتْ ... عنه أذناىَ وما بى من صمم[2]
فتعديتُ خَشاة أن يرى ... جاهلٌ أنى كما كَانَ زعم
ولبعضُ الصفح والإعراض عن ... ذى الخَنَى أبقى وإنْ كَان ظلم[3]

الممزق العبدى

واسمه شاس بن نهار بن أسود بن حريك[4] بن حى بن غشاش[5] وكان ابن أخت المثقب . وإنما لقب بالممزق لبيت قاله لبعض الملوك وكان أسيراً عنده :

أحقاً (أبَيْتَ اللعنَ) إنّ ابن فرتنى ... على غير أجرامٍ بريقى مشرقى[6]
فإن كنت مأكولاً فكُنْ خيْرَآكلٍ ... وإلّا فأدْرِكْنِى ولما أُمَزَّقِ

قال أحمد بن عبيد : إنما هو ممزق بكسر الزاى . ولقب ببيته هذا :

فمن مبلغ النعمان أنَّ ابن أختهِ ... على العين يعتاد الصفا ويمزّق[7]

---

(١) أكل لحم أخيه : اغتابه . والضرم : الشديد النهم أخذا من ضرم النار وهو التهابها . والسبع بضم الموحدة لكن سكنه للضرورة . (٢) وقرت أذنه بالبناء للمفعول توقر وقرا فهى موقرة من الصمم . (٣) ذو الخنى : ذو الفحش

(٤) فى الاصل «جريك» بالجيم والتصحيح من التاج (٥) لم يذكر الزبيدى هذا الاسم فى نسب الممزق الذى أورده فى مادة (مزق) من التاج .

(٦) أبيت اللعن : تحية ملوك العرب فى الجاهلية — راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٩٢ والفرتنى : المرأة الزانية والأمة . وابن الفرتنى هو ابن الأمة البغى . قال الشاعر :

مهلا بعيث فان أمك فرتنى ... حمراء أثخنت العلوج رداما

وشرق بريقه : غصّ .

(٧) معنى يمزق يغنى . قال المفضل : وهذا يقوى قول الجوهرى فى كسر الزاى فى « الممزق » الا أن المعروف فى هذا البيت « يمرق » بالراء والتمريق بالراء الغناء فلا حجة فيه على هذا لأن الزاى فيه تصحيف .. وقال الآمدى فى الموازنة : الممزق بالفتح هو شاس بن نهار العبدى سمى لقوله : فان كنت مأكولا البيت .

(والتمزيق وعين محلم موضع بالبحرين[١]) وروى له أبو عبيدة قوله :

هل للفتى من بناتِ الدهر من واق أم هَلْ له من حمام الموت من واق[٢] ؟

ومنها قوله الذى سار مثلاً

هوِّنْ عليك ولا تولع بإشفاق فإنما مالنا للوارث الباقى

ومن غرره قوله

لن يجمعوا أَوَدى ومعرفتى أو يجمع السيفانِ فى غمد[٣]

عبد قيس بن خفاف

كان من البراجم[٤] . ومن غرر مواعظه ووصاياه لابنه قوله :

فالله فاتقهِ وأوفِ بنذره واذا حَلَفْتَ ممارياً فتحلل[٥]

واعلم بأنَّ الضيفَ مكرم أهله بمبيت ليلته وإن لم يسأل

والضيف أكرمْهُ فإن مبيته حقٌ ولا تكُ لعنةً للنزل

وصِلِ المواصلَ ما صفا لكَ وُدُّهُ واحززْ حبالَ الخائن المتبدّل[٦]

واترك محلَّ السوء لا تحلل به واذا نَبا بك منزل فتحوّل[٧]

دار الهوان لمنْ رآها داره أفراحلٌ عنها كمنْ لم يرحل ؟

واذا همَمْتَ بأمرِ شرٍّ فاتئِدْ واذا هممتَ بأمر خير فاعجل[٨]

واذا أتتك من العَدُوِّ قوارضٌ فاقرصْ هُناك ولا تقل لم أفعل[٩]

---

(١) لينظر ما وجه ايراد هذه الجملة ههنا (٢) بنات الدهر : حوادثه ومصائبه . والواقى الحافظ . وحمام الموت بالكسر قضاؤه وقدره .

(٣) الأود : الاعوجاج . والغمد : قراب السيف (٤) البراجم قوم من أولاد حنظلة بن مالك . (٥) نذر على نفسه ينذر نذرا ونذورا : أوجبه . ونذر لله سبحانه كذا . أو النذر ما كان وعدا على شرط فعلى ان شفى الله مريضى كذا نذر وعلى ان أتصدق بدينار ليس بنذر . وقوله (مماريا) أى شاكا ومجادلا . وتحلل فى يمينه اذا حلف ثم استثنى استثناء متصلا .

(٦) احزز : اقطع . (٧) نبابه المنزل : لم يوافقه . (٨) اتأد وتوأد : تأنى فى الأمر . (٩) القوارص من الكلام هى التى تنغصك وتؤلمك كالقرص فى الجسد . ولا تزال تقرصنى من فلان قارصة أى كلمة مؤذية .

الشنفرى

تقدم له ذكر أيضاً وأمير شعره قصيدته التى أولها :

إلا أمّ عمرٍ وأجمعت فاستقلّت ... وماودعت جيرانها إذ تولت

و بيت القصيدة قوله فى وصف امرأة

فدقّتْ وجلّتْ واسبكرّتْ وأظلمت ... فلو جنّ إنسانٌ من الحسن جنّتِ

أى دقت خاصرتها وجلت(١) عجيزتها وامتد قوامها واسودّ شعرها فلو كان إنسان يجن من فرط الحسن لجنت هذه .

عروة بن الورد

أمير شعره وغرة كلامه فى الخطاب بالنفس اطلب المال قولهُ :

فمن يَكُ مثلى ذا عيـالٍ ومقتر ... من المال يطرحْ نفسَهُ كلّ مطرحِ (٢)

ليبلغ عـذراً أو ينالَ رغيبـةً ... ومبلغ نَفْسٍ عذرها مثل منجحِ (٣)

وقوله أيضاً

إذا آدا آداك مالك فامْتَهِنْهُ ... لجاديه وإنْ قَرِعَ المُرَاحُ (٤)

أى إذا أعانك مالك فابذله لمن سألك إياه و إن بقيت صفراً منه .

أفنون التغلبى

كان بعض الكهان أنذره بهلاكه من لدغة تصيبه ، وكان يتحرز منها بجهده ولا ينام إلا على ظهر راحلته . فبينما هو ذات ليلة على ناقة له ، وهى ترعى ، إذ التوتْ حيةٌ على مِشفَرِها(٥) فاضطربت فرمت بها إليه فلدغته ، فقال فى وقته :

---

(١) أى عظمت (٢) أى من يك مثلى معيلا مقترا (أى صاحب عيال فقيرا) يطرح نفسه فى كل بلاء ومشقة (٣) يصيب رغيبة : ينال مالا . والمنجح : الغاتم . وفى الأغانى (ج ٢ ص ١٨٩) : م(نك) بدل (مثل) . (٤) نسبة الزبيرى فى مادة (قرع) لابن أذينة . وآداه ماله : كثر عليه فغلبه . والمراح بالضم المأوى ، وقرع مأوى المال ومراحه فى المال قرعا فهو قرع : هلكت ماشيته . ويروى « صفر المراح » بدل « قرع المراح » . والجادى : السائل .
(٥) المشفر للبعير كالشفة للانسان .

لَعَمْرُكَ ما يَدْرى الفتى كيفَ يتَّقى إذا هوَ لم يجعلْ له الله واقياً

ثم خرَّ ميتاً لساعته .

قيس بن الخطيم

أمير شعره قصيدته التى أولها :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب(١) لعمرةَ وحْشا غير موقف راكب ؟

و بيت القصيدة قوله فى وصف امرأة

تراءتْ لنا كالشَّمْس بين غمامةٍ بدا حاجِبٌ منها و بانت بحاجب

ولما رأيت الحرْبَ قد جد جدها لبست مع البردين ثوبَ المحارب

يقول قد جمعت بين ثوب الصلح وثوب المحارب لأكون على بصيرة من أمرى فى الحالين . وفيها :

إذا قصرَتْ أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا بالتقارب

وفيها

لو أنّك تلقى حنظلا فوقَ بيضنا تدحرج عن ذى سامة المتقارب

أحيحة بن الجلاح

غرة شعره الذى يتمثل به قوله :

إسْتَغْنِ أوْمُتْ ولا يغررك ذو نَشَبٍ من ابن عمٍ ولا عم ولا خال(٢)

إنى مُقيمٌ على الزوراء أعمُرُها إنَّ الحبيبَ إلى الإخوان ذو المال

وقوله

وما يدرى الفقيرُ متى غناهُ ولا يدرى الغنىُّ متى يعيلُ(٣)

---

(١) أى كتتابع المذاهب وهى جلود مذهبة بخطوط يرى بعضها فى أثر بعض
(٢) النشب بفتحتين المال والعقار (٣) يعيل : يفتقر .

عامر بن الطفيل

هو من الشعراء المجيدين . ومن غرر شعره السائر سير الأمثال قوله :

إنى وإنْ كنتُ ابنَ سيّدِ عامرٍ   وفارسها المشهور فى كلّ مَوْكب (١)

فما سَوَّدتنى عامرٌ عن وراثة (٢)   أبى اللهُ أنْ أسْمُو بِأمّ ولا أبِ (٣)

ولكننى أحمى حماها وأتقى   أذاها وأرمى مَنْ رماها بمنكبى

ويقع قوله هذا فى كل اختيار لاشتمال الحسن والجودة على لفظه ومعناه .

أبو الطمحان القينى

واسمه الشرقى بن حنظلة (٤). قال دعبل : إن أمدحَ بيتٍ قالته العرب فى الجاهلية قول أبى الطَّمَحان :

وإنَّ بنى أوس بن لأم أرومة   علتْ فوْقَ صَعْب لا ترام مَرَاقبُهْ

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوههم   دُجى الليل حتى نظَّمَ الْجَزع ثاقبُهْ (٥)

وكان أبو بكر الخوارزمىّ يقول ربما أردت البكاء فى بعض مواطنه فيمتنع علىَّ فما هو إلَّا أن أنشد أبيات أبى الطمَحان القينى فيما بينى وبين نفسى حتى ينحل عقد الدمع . وهى هذه :

ألا عللانى قبلَ صدْحِ النوَائح   وقبل ارتقاء النفس فوقَ الجوانح (٦)

وقبل غدٍ يا لهفَ نفسى على غدٍ   إذا راح أصحابى ولست برائح

إذا راح أصحابى تفيضُ دموعُهم   وغُودرْتُ فى اللحْدِ علىَّ صفائحى (٧)

---

(١) الموكب : كمجلس اسم للجماعة من الناس ركبانا أو مشاة ، أو ركاب الابل للزينة والتنزه (٢) أى ما جعلتنى سيد قبيلة بنى عامر بالارث عن آبائهم بل سدتهم بأفعالى (٣) قوله أبى الله الخ له معنيان أحدهما بمعنى كره وهو المراد هنا . والثانى بمعنى امتنع و (أن أسمو) مفعوله والسمو . العلو ،واستشهد النحاة بهذا البيت على أن النصب على الواو يقدر كثيرا لاجل الضرورة (٤) الصواب « حنظلة بن الشرقى » كما تقدم فى الجزءالأول ص ٥٥ (٥) راجع الجزء الأول ص ٥٥ و ٥٦ (٦) التعليل : تطييبالنفس بذكر ما تحب . والجوانح : ضلوع الصدور . وارتقاء النفس : بلوغها التراقى (٧) غودرت : تركت . والصفائح : الحجارة العريضة الرقيقة .

يقولون : هل أصلحتم لأخيكم ؟ وماالاحد فى الأرض الفضاء بصالح

والشيء بالشيء يذكر . وذلك أن بعض الأدباء قال : إذا استجلبت ماء العين أيضاً فى وقته فأبى أنشدت قول بعض المحدثين فيما بينى وبين نفسى فما هو إلا أن أمره ببالى وقد جاءت العبرات وهو هذا : —

ولتطلعنَّ الشمسُ بعد فراقنا بيضاء لم تأسَفْ على فقداننا

كم من غداةٍ يُستطاب نسيمُها ويدُ البِلى تقضى على أبداننا

الأعشى

واسمه ميمون بن قيس . وكان يقال له (صَنَّاجة العَرَب) لكثرة ما تفنن فى شعره وهو أحد الأربعة الذين وقع الاتفاق على أنهم أشعر العرب ، وقد تقدم ذكرهم (١) . وهو على ساقة الجاهليين ، ومقدمة المخضرمين ، وكان قد أدرك المبعث ومدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير أنه لم يتوفق للإسلام . فمن أمثاله السائرة قوله فى الخمر :

وكأس شَرِبْتُ على لذّةٍ وأخرى تداويتُ منها بِها

لكى يعلم أنّى امرؤٌ أتيت المروءةَ مِنْ بابِها

وله البيت الذى وقع الاتفاق على أنه أهجى بيت فى الجاهلية . وهو قوله فى علقمة بن علاثة :

تَبِيتُونَ فى المَشْتَى مِلاء بُطُونُكُمْ وجَارَاتكمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصَا (٢)

ويروى أن علقمة لما قرع سمعه هذا البيت بكى ، وقال : اللهم اخزه واجزه عنى إن كان كاذباً ! ومن غرر شعر الأعشى وأبيات قصائده وواسطة قلائده قوله

---

(١) فى ترجمة زهير بن أبى سلمى ج ٣ ص ٩٧ (٢) غرثى : جائعة والرجل غرثان . والخمائص : الضامرات البطون ومفردها خميصة .. وقد كذب الأعشى فى هجوه لعلقمة ، فانه كان من اجواد العرب . وقد أسلم وحسن اسلامه

وإن القريبَ مَنْ يقرب نفسه   لَعَمْرُ أبيكَ الخير لا من تنسَّبَا
ومَنْ يغترب عن قومه لا يزلْ يرى   مَصَارِعَ مظلوم مجرًّا ومسحباً
وتدفن منه الصالحات وإنْ يسيء   يكن ماأساءالنار فى رأس كَبْكَبَا(١)

ومن أمثاله السائرة قوله

ألستَ منتهياً عن نَحْتِ أثلتنا   ولستَ ضَائِرَهَا ما أطَّتِ الإبلُ(٢)
كناطح صخرةً يوماً ليفلقَهَا   فلم يَضِرْهَا ، وأوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ(٣)

وقوله

عَوَّدْت كِنْدةَ عادة فاصبرْ لهَـا   اغفِرْ لجاهلها ورَوِّ سجالها
أو كُنْ لهـا جَملاً ذَلُولاً ظهره   واحمل فأنت معوّد تحمالها

ومن أمثال السائرة قوله .

إذا أنتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ من التقى   ولاقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْت مَنْ قد تزَوَّدا
نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثله   فترْصِدَ للأمر الذى كان أرصدا(٤)

لبيد بن ربيعة العامرى الأنصارى

وهو من الشعراء المخضْرَمين عاش فى الجاهلية ستين سنة ، وفى الإسلام مثلها . وكان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام . وفى الخبر « أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد .

(١) كبكب كجعفر اسم جبل بمكة ولم يقيده فى الصحاح بمكان وقيده غيره بانه جبل بعرفات خلف ظهر الامام اذا وقف وقيل هى ثنيــة . قال الزبيدى : وقد صرفه امرؤ القيس ، والاعشى ترك صرفه (٢) قوله « عن نحت أثلتنا » أى عن ذمنا والطعن فى حسبنا . والاثلة هى الاصل وواحدة الاثل وهى شجرة الطرفاء ، ونحت الاثلة كناية عما تقدم . وضائرها : ضارا بها . يقال ضاره الأمر يضيره بمعنى أضربه . واطت : حنت . يريد انك لا تضرنا أبدا مهما تنقصتنا لان الناس يعرفون حقيقتنا فلا يأبهون لذمك .

(٣) قوله « كناطح صخرة » يعنى أنك بعملك هذا كوعل ينطح صخـــرة ليقلعها وفى رواية « ليوهنها » اى يضعفها . والوعل : حيوان شبيه بالغزال ويقال هو تيس الجبل (٤) ترصد : أى تترصد وتترقب .

ألا كلُّ شيء ماخلا اللهَ باطلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ[١]
سوى جنةِ الفردَوْس إنَّ نَعيمَهاَ ... يَدُومَ و إن الموتَ لابدَّ نازِلُ

وسئل لبيد عن أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضِّليل يعنى امْرأ القيس ، قيل : ثم مَنْ ؟ قال : الغلام القتِيل ، يعنى طَرَفة . قيل : ثم مَنْ ؟ قال : صاحب العكاز يعنى الشيخ أبا عقيل ، وهو نفسه .. وسمعَ الفرزدقُ رجلا ينشد قول لبيد :

وجَلاَ السُّيولُ عن الطّلولِ كأنها ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونهاَ أقلامُها[٢]

فسجد ! فقيل : ماهذا يا أبا فراس ؟ فقال : أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر ! و روى أنه لما أنشد قصيدته هذه فى الجاهلية و بلغ قوله :

يعلو طريقةَ مَتْنها مُتَوَاتِرٌ ... فى ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غمامُها[٣]

سجد له شعراء زمانه ! وقيل لبشار بن برد : أخبرنا عن أجود بيت قالته العرب . فقال : إن تفضيل بيت واحد على الشعر كله اشدِيدٌ ، ولكن قد أحسن كل الإحسان لَبِيد فى قوله :

وأكْذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَهَا ... إنَّ صدقَ النفس يُزْرِى بالأمَلْ[٤]
وإذا رُمْتَ رحيلاً فارتحلْ ... واعْصِ ما يأمر توصيم الكسل[٥]

ومن أمثاله السائرة من قصيدة :

وما المالُ والأهلُونَ إلاَّ ودائعٌ ... ولا بدَّ يَوْماً أنْ تُرَدَّ الودائعُ
وما المَرْء إلا كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ ... يَحورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَ ساطعُ[٦]

---

(١) قوله « لا محالة » بفتح الميم أى لا تغيير ولا تبديل . والباطل : هو فى الاصل ضد الحق ، وأراد به هنا الهالك (٢) جلا : كشف . والطلول جمع طلل وهو الشاخص من آثار الديار . والزبر : جمع زبور وهو الكتاب . وتجد متونها : تجددها . والمتون جمع متن وهو فى الاصل الظهر والمراد بها هنا الكتابة التى تكون فى الزبور . ومفعول جلا محذوف والتقدير : جلت السيول التراب عن الطلول . (٣) طريقة المتن : خط من ذنبها الى عنقها والكفر : التغطية والستر . يقول : يعلو صلبها قطر متواتر فى ليلة ستر غمامها نجومها

(٤) يزرى يقصر (٥) التوصيم : الكسل والفترة (٦) يحور يرجع . وساطع مرتفع .

ومنها

أليس ورائى — إن تراخت منيَّتى ... لزومُ العصا تحْنَى عليها الأصابعُ

أخبر أخبار القرون التى مضت ... أدِبُّ كأنى كلما قمتُ راكعُ

لعمرُكَ ما يدرى المسافر هل له ... نجاحٌ ولا يدرى متى هو راجع

أتجزَعُ مما أحدثَ الدهرُ بالفتى ... وأىُّ كريمٍ لم تُصِبْهُ القوارعُ

ومن أمثاله السائرة قوله

ذهبَ الذين يُعاشُ فى أكنافهم ... وبقيت فى خَلْف كجِلد الأجربِ (١)

وقوله

فقوما وقولا بالذى قد علمتُما ... ولا تخمِشا خدًّا ولا تحلقا شعَرْ

إلى الحوْلِ، ثم اسمُ السلام عليكما ... ومَنْ يبكِ حولًا كاملاً فقد اعتذرْ

وحكى (٢) أنه لم يقل فى الإسلام غير بيت واحد وهو قوله :

الحمدُ للهِ إذ لم يأتنى أجَلى ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالا (٣)

وحكى ابن دريد : أن لبيداً عاش مائة وخمساً وأربعين سنة : خمساً وخمسين فى الإسلام، وتسعين فى الجاهلية . وقد كان معاوية همّ بأن ينقص عطاءه فأرسل إليه : « إنما أنا هامة اليوم أو غد (٤) فأعرنى اسمها فلعلى أن لا أقبضها » فمات قبل أن يقبضها . وكانت ابنتاه تأتيان مجلس أبى جعفر فتؤبناه (٥) فلا تألوان فبقيتا على ذلك حولاً كاملاً ثم كفتا . وله أخبار طيبة ذكرها ابن قتيبة فى كتاب

---

(١) يقال فلان فى كنف فلان أى فى ناحيته وخيره . يقول ذهب الكرام الذين ينتفع بهم وبقيت فى قوم لا خير فيهم كجلد الاجرب وجلد الاجرب من الجمال لا ينتفع به (٢) هذه الحكاية التى تناقلها المؤلفون خلفا عن سلف لا تصح بحال . كيف وقد خاطب لبيد حين حضرته الوفاة ابنتيه بأبياته الشهيرة التى أورد منها المؤلف ههنا بيتين وهما قوله فقوما وقولا بالذى تعرفانه الخ ..؟ (٣) السربال : مايلبس من قميص أو درع وقد عزا المحققون هذا البيت الى رجل سلولى من المعمر بن . (٤) يقولون هو هامة اليوم أوالغد أى يموت اليوم أو غدا (٥) التأبين : الثناء على الشخص بعد موته .

الشعر والشعراء وابن عبد البر فى الاستيعاب وأبو حاتم السجستانى فى كتاب المعمرين .

كعب بن زهير بن أبى سلمى

هو من المُخَضْرَمين . وكان له عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذنب وحين أوعده عليه السلام فقدم عليه وأنشده قصيدته التى يقول فيها .

نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدنى　　والعفو عند رسول الله مأمولُ

إن الرَّسُولَ لَنُورٌ يُستضاء به　　وصارمٌ من سُيوف الله مسلول

رضىَ عنه وكساه بردته التى اشتراها (معاوية) من ورثته بستمائة دينار ، وهى البردة التى كانت عند الخلفاء يلبسونها فى العيدين . ويقال إن أمير شعره وغرة كلامه قوله ، ويقال إنه لأبيه :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى[1]　　أصبتَ لئيماً أو أصابكَ جاهل

العلاء بن الحضرمى

وفد العلاء على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده : (وهو الذى أخرج من الحبلى نَسَمة تسعى بين شراسيف وحشى[2]) فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : كُفَّ فإن السورة كافية : ثم قال : أتقولُ شيئاً من الشعر ؟ فأنشده :

وحىٍّ ذوى الأضغان تسبِ قلوبهم　　تحيتك الأدْنى فقد يدبغ النعـل[3]

---

(١) الخنى : الفحش (٢) النسمة : بفتحتين نفس الريح ثم سميت بها النفس بالسكون . والشراسيف : جمع شرسوف وهو غضروف معلق بكل ضلع او مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن . (٣) حى : أمر من حياه تحية واصله الدعاء بالبقاء والحياة ومنه التحيات لله أى البقاء وقيل الملك ، ثم كثر حتى استعمل فى مطلق الدعاء ثم استعمله الشرع فى دعاء مخصوص وهـو سلام عليك . وحى على الصلاة ونحوها دعاء . والاضغان : الاحقاد .

فإن دحسوا بالـكره فاعفُ تـكرماً ... وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل[1]

فإن الذى يؤذيك منه استماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكما » .

النمر بن تولب العكلى[2]

عمر فى الجاهلية وأدرك الإسلام وقد خرف ، وكان شاعراً فصيحاً شجاعاً جواداً كريماً . وكان هِجيِّرَاه[3] فى خرفه أصبحوا الضيف أغبقوا الضيف[4] كعاداته التى كان عليها . وكانت امرأة فى زمانه خرفت أيضاً فكان دأبها أن تقول : خضبونى كحلونى زوّجونى رجلونى . وبلغ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ذلك ، فقال : لما لهج به أخو عكل أكرم مما لهجت به خرفة بنى فلان . ومن أمثاله قوله :

يوَد الفتى طول السـلامة جاهداً ... وكيف يرى طول السلامة يَفْعلُ

وقوله

خاطِرْ بنفسك كى تَنالَ رغيبةً ... إنّ القعودَ مَعَ العيال قبيحُ[5]

إنّ المخاطِرَ مالكٌ أو هالكٌ ... والجدّ يُجدِى مرةً فيريحُ

---

(١) دحسوا بالكره : دسوا بالشر . وأخنسوا : سكتوا وانقبضوا .

(٢) قال المبرد فى الكامل (ج ١ ص ١٠٣ — طبعة التقدم العلمية) : « كل نمر فى العرب كالنمر بن قاسط وغيره مكسور النون مجزوم الميم الا النمر بن تولب عن ابن دريد . قال أبو حاتم يقال النمر بفتح النون وسكون الميم ولا يقال النمر » . وفى الاقتضاب (ص ٣٠٣) « كان أبو حاتم يقول النمر بسكون الميم ويزعم أن العرب لا تقوله الا هكذا وهذا الذى ذكره غير معروف »

(٣) أى دأبه وشأنه (٤) صبحه : سقاه صبوحا وهو ما أكل أو شرب غدوة . وغبقه سقاه غبوقا وهوما يشرب بالعشى .. (٥) الرغيبة : الامر المرغوب فيه والعطاء الكثير .

وقوله :

ومتى تُصِبْكَ خصاصةٌ فارْجُ الغنى   وإلى الذى يَهَبُ الرغائبَ فارغبِ (١)

لاتغضبَنَّ على امرىء فى مالهِ   وعلى كرائم أصل مالك فاغضب

حسان بن ثابت

كان شاعِرَ النبيّ (صلى الله تعالى عليه وسلم) والمناضلَ عنه ، وله قال (أهج مشركى قريش ومعك روح القدس والله إنّ كلامك لأشَدُّ عليهم من وقع السهام فى غَلَس الظلام) . ومن غرر شعره قصيدته التى يقول فيها :

إذا ما الأشْرِباتُ ذُكِرْنَ يوماً   فَهُنَّ لطيِّبِ الرّاح الفِدَاء (٢)

ونَشْرَبُهَا فتتْرُكنا ملوكاً   وأُسْداً ما ينهْنِهُهَا اللقاء (٣)

ولما أنشدها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانتهى إلى قوله :

هجوتَ (محمداً) فأجبتُ عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء (٤)

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (جزاؤك على الله الجنة) فلما انتهى إلى قوله :

فإن أبى ووالدَهُ وعرضى   لِعِرْض (محمّدٍ) منكم وقاء (٥)

قال عليه الصلاة والسلام (وقاك الله هول المطلع) فلما انتهى إلى قوله :

---

(١) الخصاصة : الفقر والحاجة . والرغائب جمع رغيبة وهى العطاء الكثير

(٢) الاشربات جمع اشربة وهو جمع شراب وهو ما يشرب من أى نوع كان وعلى أى حال كان . والراح الخمر وكان حسان (رض) قد ابتدأ هذه القصيدة فى الجاهلية ثم أكملها فى الاسلام من قوله «عدمنا خيلنا ان لم تروها» فلا اعتراض عليه من أنه كيف يذكر فى شعره الخمر ويمدحها . فافهم !

(٣) ينهنهها : يكفها ويزجرها . وهذا البيت آخر ما قاله رضى الله عنه من هذه القصيدة فى الجاهلية وقد عابه عليه بعض الادباء فزعم أنه فيه قصر فى الفخر فانهم اذا كانت الخمر تجعلهم ملوكا وأسدا فليس فى ذاتهم سيادة وشجاعة وانما استفادوا ذلك من الشرب ! والجواب : أن المقام مقام صفة الخمر لامقام الفخر فالمطلوب هنا انما هو توفيتها حقها واستيفاء صفتها وتعديد ما يأتى له مدحها به ولكل مقام مقال ، وكما قيل ان الخمرة تظهر الشجاعة فى الشجاع ولا تحدثها فى الجبان . كذا قالوا . (٤) يخاطب به ابا سفيان بن الحارث فانه كان قبل اسلامه يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والجزاء المكافأة على الشىء بالخير أو الشر . قال الله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٥) الوقاء : بالفتح والكسر ما وقيت به الشىء .

أَتَهْجُوهُ ولَسْتَ له بِنِدٍّ فَشَرُّ كما لخيرِ كما الفداء (١)

قال من حضر : هذا واللهِ أنصف بيت قالته العرب . وكان فى الجاهلية مداحاً لبنى جَفْنَةَ ملوكِ غسان . ويقال إن من غرر شعره قوله فيهم :

أولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قبر أبيهم قبرِ ابن مارية الكريم المُفضِل (٢)

بيض الوجوه نقية أحسابهم شمّ الأنوف من الطّراز الأوّل (٣)

يُغشَوْنَ حتّى ما تهرُّ كلابُهم لا يسألونَ عن السّوادِ المُقبِل (٤)

---

(١) الند : بالكسر المثل ولا يكون الند مخالفا . والاستفهام للانكار أى ماكان ينبغى لك أن تهجوه ولست من أكفائه ونظرائه فلم تنصفه . وقوله فشر كما لخير كما الفداء مع علمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير منه بلا ريب جار على أسلوب الكلام المنصف وهو أن ينصف المتكلم من نفسه أو ممن يتكلم من جهته فيضطر السامع الى الاذعان له ولا يجد سبيلا لانكاره والمنازعة فيه نحو « وأنا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » فان من المعلوم أن المتكلم ومن معه على هدى وأن المخاطبين فى ضلال . وانما أبهم الامر بين الفريقين ليكون أدعى للمخاطب الى الاذعان للحق وترك العناد حيث يرى المتكلم ساوى بينه وبين نفسه وأنصفه . (٢) جفنة أبو ملوك الشام وهو جفنة بن عمرو مزيقياء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة . وأراد بأولاد جفنة أولاد الحرث الاعرج بن مارية ، وهم النعمان بن المنذر والمنذر وجبلة ، وأبو شمر ، وهؤلاء كلهم ملوك وهم أعمام جبلة بن الأيهم ، ومارية هى بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة . هذا قول أبى عبيدة وقال ابن الكلبى مثل قوله ثم قال وقالت كندة جمعاء هى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية بن ثور بن كندة وقال القعنبى بنت ظالم بن وهب بن الحرث . وقال ابن السكيت هى مارية بنت أرقم بن ثعلبة . وأراد بقوله حول قبر ابيهم انهم فى مساكن آبائهم ورباعهم التى كانوا ورثوها عنهم .

(٣) الشمم ارتفاع أرنبة الانف وورودها يقال رجل أشم وامرأة شماء وقوم شم والشمم الارتفاع فى كل شيء فيحتمل أن يكون أراد بشم الأنوف ما ذكرناه من ورود الارنبة لأن ذلك دليل العتق والنجابة عندهم . ويجوز أن يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الامور ورذائلها وخص الانوف بذلك لان الحمية والغضب والانفة تكون فيها ولم يرد طول أنفهم وهذا أشبه أن يكون مراده لانه قال بيض الوجوه ولم يرد بياض اللون فى الحقيقة ، وانما كنى بذلك عن نقاء أعراضهم . وجميل أخلاقهم وفعالهم ، كما يقول القائل جاءنى فلان بوجه أبيض وقد بيض فلان وجهه بكذا وكذا وانما يعنى ما ذكرناه كما قال ذلك المرتضى . وقوله من الطراز الاول أى أفعال آبائهم وسلفهم وانهم لم يحدثوا أخلاقا مذمومة لا تشبه نجادهم وأصولهم

(٤) يغشون بالبناء للمفعول أى يتردد اليهم من غشيه اذا جاءه . وهر الكلب اذا صوت وهو دون النباح يعنى أن منازلهم لا تخلو من الاضياف والفقراء فكلابهم لا تهر على من يقصد منازلهم لاعتيادها بكثرة التردد اليها من الاضياف وغيرهم وقوله لا يسألون أى هم فى سعة لا يسألون كم نزل بهم من الناس ولا يهولهم الجمع الكثير (وهو السواد) اذا قصدوا نحوهم .

ومن أمثاله السائرة قوله :

رُبَّ علمٍ أضاعَهُ عَدَمُ الما ل وجهلٍ غَطَّى عليه النَّعيمُ

ومنها :

ما أبالى أنَبَّ بالحزْنِ تَيْسٌ أمْ لحانى بظَهْرِ غَيْبٍ لئيمُ[1]

و واسطة قلادة شعره قوله :

و إنَّ امْرَأً يُمْسى و يُصْبِحُ سالماً من الناس إلا ماجَنَى لَسَعِيدُ

فأجازه ابنه (عبد الرحمن) بقوله :

وإن امْرَأً نال الغنى ثم لم يَنل صديقاً ولا ذا حاجةٍ لزَهِيدُ

ثم أجازها (سعيد بن عبد الرحمن) بقوله :

و إنَّ امْرَأً قد عاشَ سبعينَ حجةً ولم يرض فيها رَبَّهُ لَطَريدُ

ثم أجازها (أبو الحسن الحسنى) بقوله :

و إن امرأً عادى أناساً على الغنى ولم يَسْأل الله الغِنَى لَحَسُودُ

النابغة الجعدى

اختلف فى اسمه على أقوال أصحها أن اسمه قيس بن عبد الله بن وحوح بن عدس ابن ربيعة بن جعدة . و إنما لقب بالنابغة لأنه قال الشعر فى الجاهلية ، ثم أقام نحو ثلاثين سنة لايقول الشعر ثم نبغ فيه فقاله فسمى النابغة وهو أسن من النابغة الذبيانى لأن الذبيانىّ كان مع النعمان بن المنذر . وكان النعمان بن المنذر بعد المنذر بن محرِّق وقد أدرك النابغة الجعدى المنذر بن محرق ونادمه . ذكر عمر و بن شبة أنه عمر مائة وثمانين سنة ، وأنه أنشد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه :

لَبِستُ أناساً فأفنيتُهُمْ وأفنيت بعد أناسٍ أناساً

ثلاثة أهلين أفنيتهم وكانَ الإلهُ هوَ المسْتآسا[2]

---

(١) يقول : قد استوى عندى نبيب التيس بالحزن ونيل اللئيم من عرضى بظهر الغيب ونبيب التيس صوته عند هبابه للسفاد . والحزن ما غلظ من الأرض وخصه لأن الجبال ثم أخصب للمعز من السهول (٢) المستآس : المستعاض

فقال له عمر : كم لبثت مع كل أهل ؟ قال : ستين سنة ! وقال ابن قتيبة : عمر الجعدىّ مائتين وعشرين سنة . ومات بأصبهان . ولايدفع هذا مامر فإنه أفنى ثلاثة قرون فى مائة وثمانين سنة . ثم عمر إلى زمن ابن الزبير و بعده . قال الثعالبى فى كتابه لباب الأدب : قيس بن عبد الله من المخضرمين المعمرين . وأمير شعره قصيدته التى يقول فيها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

أتيتِ رسولَ اللهِ إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيّرا (١)

بلغنا السماءَ مَجْدنا وجدودنا وإنّا لنرجو فَوْقَ ذلك مظهَرَا

ولا خَيْرَ فى حــلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا (٢)

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إلى أين يا أباليلى ؟ فقال : إلى الجنة فقال عليه الصلاة والسلام : إنْ شاء الله ! و يروى أنه عليه الصلاة والسلام لما أنشده البيتين قال : « لافضّ الله فاك » فعمر وهو أحسن الناس ثغراً على كبره ولم تفض له سن . ومن غرر شعره قوله فى مرثية صديق له :

فتى كانَ فيه ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ على أنّ فيه ما يَسُوء الأعاديا (٣)

فتى كملت أخلاقهُ غَيْرَ أنه جوادٌ فما يُبقى من المـال باقيا (٤)

الحطيئة

واسمه جَرْوَل بن مالك . كان راويةً لزهير فنجم مقبول الكلام شَرُود القافية خبيث اللسان حتى كان لسانه مقراض الأعراض حتى إنه هجا أباه وأمه وزوجه ونفسه . فمن قوله لأبيه :

---

(١) النير المضيء. والمجرة البياض المعترض فىالسماء والنسران من جانبيها
(٢) البوادر : جمع بادرة وهى ما يبدر من حدتك فى الغضب من قول أو فعل وبدأت منه بوادر غضب أى خطأ وسقطات عندما احتد .
(٣) فتى منصوب على الاختصاص ولما كان قوله « فيه ما يسر صديقه » يعلم منه أن فى الناس من يجمع الخير دون الشر وخشى أنه اذا سكت على هذه الجملة ظن به القصور من التمام فلا تكون فيه النكاية فى الاعداء والاساءة اليهم فتمم وصفه بأن قال على أن فيه ما يسوء الاعاديا (٤) المعنى : واذكر فتى جمع الأخلاق الفاضلة وكملها فما كان يعاب بشيء سوى أنه لم يستبق من ماله شيئا لما فيه من كثرة الجود وهو كمال على كماله الأول .

لحاكَ اللهُ ثم لحاكَ حقاً أباً ولحاكَ من عمٍّ وخالِ (١)
فنِعْمَ الشيخُ أنت لدى المخازى وبِئْسَ الشيخُ أنت لدى المعالى
جمعت اللــؤمَ لا حيَّاكَ ربِّى بأنواع السَّفاهة والضَّلال

وقوله لأمه

فهاهنَ اقعُدى منا بعيداً (٢) أراحَ اللهُ منكِ العالَمينا
أغِرْبالاً إذا استودِعْتَ سراً وكانوناً على المتحدِّثينا (٣)

ومن قوله لامرأته

أطوِّفُ ما أطــوف ثم آتى إلى بيتٍ قعيدتُهُ لَــكاعِ (٤)

ومن قوله لنفسه

أبَتْ شفَتاىَ اليومَ إلا تَــكلُّماً بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائِلُهْ
أرى لىَ وَجْهــاً شوهَ اللهُ خلقَهُ فقُبِّحَ من وَجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهُ

وصب الله به سوط عذاب على الزبرقان بن بدر فإنه أمضه بهجائه إياه وأبكاه وأقلقه وأحرقه وسير فيه قصيدته السائرة الطيارة التى يقول فيها :

وقد مَرَيْتُــكُمُ لَوْ أنَّ دِرَّتَــكُمْ يوماً يجىءُ بها مَسْحى وإبساسى (٥)
أزْمَعْتُ يأساً مُبيناً من نَوالِــكم ولن ترَى طارِداً للحرِّ كالياسِ (٦)

---

(١) لحاه الله : لعنه (٢) ويروى «تنحى فاجلسي منى بعيدا» . (٣) الغربال : بالكسر ما ينخل به ، يريد أنها نمامة قتاتة . والكانون : قيل هـو الثقيل : وقيل الذى اذا دخل على القوم كنوا حديثهم منه وقيل هو المصطلى وقيل انه هو كانون النار لانه يؤذى ويحرق . (٤) أطوف : أكثر الطواف أى الدوران . وآوى مضارع آوى الى منزله اذا أقام به وانضم ولجأ . وقعيدة الرجل : امرأته وهى فعيل بمعنى فاعل . ولكاع : خبيثة أو سيئة الخلق أو وسخه وهذا بيت مفرد . والمصراع الأول من قول قيس بن زهير ابن جذيمة :

أطــوف ما أطوف ثم آوى الى جار كجار أبى دؤاد

(٥) مريتكم : طلبت ما عندكم . وأصله من مريت الناقة وهو أن يمسح ضرعها لتدر . والدرة بالكسر اللبن . والابساس : صوت تسكن به الناقة عند الحلب . يقال بس بس .

(٦) الازماع : تصميم العزم . والبيت من شواهد « مغنى اللبيب » أورده على أن بعضهم قال (من) متعلقــة بقوله (يأسا) والصــواب تعلقها بيئست محذوفة لأن المصدر لايوصف قبل أن يأتى معموله .

من يفعل الخيرَ لا يعدَمْ جَوَازِيَهُ   لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ الله والناس (١)

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبغيتها   واقعُد فأنت لعمرى طاعمٌ كاسى (٢)

ومن غرره فى المدح قوله

أقِلُّوا عليهم (لا أبا لأبيكُمُ)   من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسَنُوا البنا   وإن عاهدوا أَوْفَوْا و إن عقدوا شَدُّوا (٣)

أبو ذؤيب الهذلى

كان يقال هذيل أشعر القبائل وأبو ذؤيب أشعرها . وأمير شعره قصيدته فى المرثية التى أولها :

أمن المَنُونِ وريبِهِ تتوجَّعُ   والدهْرُ ليس بمعتب مَنْ يجزعُ ؟ (٤)

وتَجَلُّدِى للشامتينَ أريهم   أنى لِرَيْبِ الدهْر لا أتضعضعُ ! (٥)

وبيت القصيدة (وكان الأصمعىّ يقول : هو أبرع بيتٍ قالته العرب) :

والنفس راغبة إذا رغبتها   و إذا تردّ إلى قليل تقنعُ

ومن غرر هذه القصيدة قوله

و إذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارها   ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَع

أبو خراش الهذلى

هو من الشعراء المفلقين . وكان له أخ يسمى عروة فقال أبو خراش يَحْمَدُ الله على تخلص ابنه من الأسر وهو أحسن ما قيل فى التسلّى :

---

(١) الجوازى : جمع جازية أو جاز أو جزاء وبكل فسر قول الحطيئة كذا قال الزبيدى فى التاج

(٢) أورده الفراء فى معانى القرآن فى سورة هودعلى أن الكاسى بمعنى المكسو كما أن العاصم فى قوله تعالى « لا عاصم اليوم » بمعنى المعصوم . قال ولا تنكرن أن يخرج المفعول على فاعل ألا ترى أن قوله « من ماء دافق » بمعنى مدفوق و « عيشة راضية » بمعنى مرضية ، ويستدل على ذلك بأنك تقول رضيت هذه المعيشة ودفق الماء وكسى العريان بالبناء للمفعول ولا تقول ذلك بالبناء الفاعل والرواية المشهورة فى الشطر الثانى « واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى »

(٣) شدوا : وثقوا (٤) المنون : المنية . وجزع ضعفت منته عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرا

(٥) الشامت : الذى يفرح ببلية العدو . وتضعضع : خضع وذل وافتقر

حَمِدْتُ إلهى بعد عُرْوَةَ إذ نَجَا　　خِرَاشٌ وبَعْضُ الشرِّ أَهْوَنُ مِنْ بعض (١)
فوالله لاأنسى قتيلاً رُزِئْتُهُ　　بجانبِ قَوْسى ما مَشَيْتُ على الأرض (٢)
على أنها(٣) تعفو الـكلوم وإنما　　نُوكَّلُ بالأدنى وإن جلّ ما يَمْضى (٤)
ولم أدْرِ مَنْ ألقَى عليه رداءَهُ　　على أنه قد سُلّ عن ماجدٍ مَحْض (٥)
ولم يَكُ مثلوجَ الفؤاد مُهَبَّجاً　　أضاع الشبابَ فى الرَّبِيلة والخفضِ (٦)
ولـكنّهُ قد نازَعَتْهُ مجاوعٌ　　على أنَّهُ ذو مِرَّةٍ صادقُ النَّهضِ (٧)

وتزعم الرواة أنها لا تَعْرِف رجلاً مدح من لا يعرف غير أبى خراش وشرح هذه الأبيات مفصل فى شرح ديوان الحماسه ، وكذا فى الجزء الثانى من كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب .

المتنخل الهذلى

أمير شعره قوله :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقرَهُ　　على نفسه ومُشيعٌ غِنَاهُ (٨)

---

(١) عروة أخو الشاعر . وخراش : ابنه ، والمعنى : اشكر الله بعد ما أفق من قتل عروة على نجاة خراش وبعض الشر أخف من بعض وكنت اعتقد قتلهما معا (٢) رزئته : فجعت به . وقوسى : اسم مكان بالسراة وبه قتل عروة عروة أخوه . (٣) هذا الكلام يجرى مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله « لا أنسى قتيلا رزئته مدة حياتى » والضمير فى (انها) للقصة وخبر أن الجملة بعدها . (٤) العفاء : الدروس والذهاب ، والكلوم : جمع كلم وهو الجرح وجل : عظم : ، وموضع « على أنها » نصب على الحال . وأراد بهذا تقادم العهد وتطاول الزمن . (٥) من استفهامية وعلى انه فى موضع الحال . والمعنى — لم أتحقق الذى اهتدى لهذه المكرمة فنزع رداءه والقاه على اخى مع كونه مسلولا عن كريم خالص النسب (٦) مثلوج الفؤاد : بارده . والمهبج : الذى استرخى لحمه وتغير اونه . والربيلة : السمن يقول : انه كان ذكى الفؤاد شهما لم يكن ممن ضيع شبابه فى الخفض والدعة وصلاح بدنه . (٧) المجاوع : جمع مجاعة وهى السنة التى يكون فيها الجوع . وارا د منها هنا المخامص جمع مخمصة وهى خلو البطن من الطعام جوعا . وانما اثرت فيه المجاوع لأنه اذا سافر آثر صحبه على نفسه بزاده فيجوع ويشبعهم . والمرة : القوة . وقوله صادق النهض يريد النهوض الى المكارم والمعالى لا يكذب فيها اذا نهض اليها (٨) أبو مالك : هو أبو الشاعر واسمه عويمر لأن المتنخل اسمه مالك بن عويمر والمتنخل لقبه ، ولم يصب

إذا سَدْتَهُ سُدْتَ مِطْواعةً ومهما وكلْتَ إليه كفاه(١)

أبو صخر الهذلى

يقال إن أغزل شعر العرب قوله :

أما والذى أبكى وأضحكَ والذى أمات وأحيا والذى أمرُهُ الأمرُ(٢)

لقد تركتنى أحسدُ الوحشَ أن أرى أليفينِ منها لا يَرُوعُهُما الذُّعْرُ

فيا حبَّها زدْنى جوًى كلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيام موعِدُكِ الحشرُ(٣)

عَجِبْتُ لِسَعْىِ الدَّهْرِ بينى وبينَها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ(٤)

ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) فى زعمه أنه يرثى أخاه أبا مالك عويمر . وقاصر من القصر وهو الحبس . ومشيع من الاشاعة وهى الاذاعة — يريد أنه اذا افتقر أخفى فقره واذا أثرى أذاع غناه ليقصد من جهة وهذا من شرف النفس .

(١) معنى سدته من المساودة التى هى المساررة والسواد هو السرار أيضا كأنه قال اذا ساررته طاوعك وساعدك ويروى سسته موضع سدته من سست الرعية سياسة . قال المرتضى : ولم أجد ذلك فى رواية ! قلت هذه الرواية أثبتها أبو تمام صاحب الحماسة فى مختار أشعار القبائل . والمطواع : الكثير الطوع أى الانقياد والتاء لتأكيد المبالغة . وقد روى هذا البيت فى مختار أشعار القبائل لذى الأصبع العدوانى » مع بيتين آخرين وهما :

وما أن أسيد أبو مالك بوان ولا بضعيف قواه

ولكنه هين لين كعالية الرماح عررنساه

فان سسته سست مطواعة ومهما وكلت اليه كفاه

وأسيد بفتح الهمزة وكسر السين المهملة . والعرر الشديد . والنسا : مقصور عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر فاذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان واذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان ، وماجت الربلتان ، وخفى النسا . واذا قالوا انه لشديد النسا فانما يراد به النسا نفسه . وقال السكرى أراد غليظ موضع النسا . (٢) تكرار القسم للتفخيم ولذلك كان الجواب واحدا وقوله لقد تركتنى هو الجواب . والضمير لحبيبته . وراعه أفزعه والذعر الخوف . (٣) حرقة البعد

(٤) عجبت لسعى الدهر : يجوز أنه يريد به سرعة تقضى الأوقات مدة الوصال بينهما فيكون المعنى انى متعجب من الدهر حيث أسرع بتقضى الأوقات مدة الوصال بيننا فلما انقضى الوصل عاد الى حالته فى السكون والبطء وهذه عادتهم فى استقصار أيام الوصل واستطالة أيام الفراق ويجوز أنه يريد بسعى الدهر سعاية أهل الدهر بالنمائم والوشايات وانه لما ارتفع مرادهم فيما طلبوه من الفساد بينهما سكنوا وكما أراد على هذا بسعى الدهر أهله كذلك بسكون الدهر . وقد روى بعد هذه الأبيات بيت وهو :

وما هو الا أن أراها فجاءة فأبهت لاعرف لدى و لانكر

تميم بن مقبل (١)

هو مُخَضْرَمٌ معدود فى الفحول . ومن غرر شعره ما أنشد له دعبل :

فأخلِفْ وأتلِفْ إنما المال عارةٌ ... وكلْهُ مع الدهر الذى هو آكلُهْ

وأيْسَرُ مفقودٍ وأهونُ هالكٍ ... على الحى مَن لا يبلغُ الحىَّ نائلُهْ

وقوله

خليلىَّ لا تستعجلا وانظُرا غداً ... عَسَى أن يكون الرِّفْقُ فى الأمر أرشدا

عبدة بن الطبيب

من مُفْلِقى المخضرمين . وأمير شعره لاميته التى أولها :

هَلْ حبلُ خولةَ بعد الهجر موصولُ ... أمْ أنت عنها بَعيدُ الدار مشغولُ ؟

والمرْءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْرِكُهُ ... والعيش شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

وكان عمر رضى الله تعالى عنه يتعجب من جودة هذا البيت وحسن تقسيمه .

ومن أمثاله السائرة قوله فى مرثية قيس بن عاصم :

وما كانَ قيْسٌ هُلْكهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنَّهُ بنيانُ قومٍ تهدَّما (٢)

حميد بن ثور

كان من فحول المخضرمين والمعمَّرين وأمير شعره قوله :

أرى بَصَرى قد رابنى بعد صحةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتسلما

ولن يَلْبَثَ العصرانِ يوماً وليلة ... إذا طلبا أنْ يُدْرِكا ما تيمَّما (٣)

وما هاجَ هذا الشَّوْقَ إلاَّ حمامةٌ ... دَعَتْ ساقَ حُرٍّ ترحةً وترنما (٤)

---

(١) فى كتاب الشعر والشعراء تميم بن أبى مقبل ، وهو من بنى العجلان الذين هجاهم النجاشى وكان جاهليا اسلاميا . (٢) الهلك : الموت . (٣) أى ما قصدا .

(٤) ساق حر ذكر القمارى سمى لحكاية صوته فانه يقول ساق حر ساق حر وقد وهم من قال انه الهديل — راجع الجزء الثانى ص ٤٠٤

ومنها فى وصف القمرية :

عَجِبْتُ لها أنَّى يكونُ غناؤها فَصِيحاً ولم تَفْغَرْ بمَنطِقِها فما(١)

ومن نـكت شعره قوله فى وصف الذئب

ينامُ بإحدى مقلتَيْهِ ويتقى الـ أعادى بأخرى فَهوَ يقظانُ هاجِعُ (٢)

متمم بن نويرة

غرة شعره قصيدته التى يرثى بها أخاه مالـكا . وغرتها قوله :

وقالوا أتبكى كلَّ قبر رأيتَهُ لِقَبرٍ ثوَى بين اللِوى فالدكادكِ (٣)

فقلت لهم إن الأسى يبعَثُ الأسى ذَرُونى فهذا كلُّهُ قبرُ مالِكِ (٤)

وقوله فى قصيدته التى يرثى بها مالـكاً أيضاً :

وكنّا كندْمانىْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً من الدهر حتى قيلَ لَنْ يتصدَّعا

فلما تفرقْنا كأنى ومالـكاً لطول اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معَا(٥)

دريد بن الصمة

أمير شعره قوله :

أمرتُهمُ أمرى بِمنعَرَجِ اللوى فلم يَستبينوا الرشد إلا ضُحَى الغَدِ(٦)

وهلْ أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوت غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غزيةُ أرشدِ (٧)

---

(١) فغر فاه كمنع ونصر فغرا وفغورا : فتحه . ويعنى بالمنطق بكاءها .

(٢) أى هو حذر أو هاجع بين اليقظة والهجوع. وروى «يقظان نائم» ولكنه يخالف أبيات القصيدة

(٣) ثوى بالمكان : أقام به . واللوى والدكادك : اسما موضعين (٤) الاسى : الحزن (٥) ندمانا جذيمة هما مالك وعقيل . ويقال انهما نادماه أربعين سنة ولهما حديث مشهور وفيهما يقول أبو خراش :

ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا خليـلا صفاء مالك وعقيـل

والحقبة المدة من الزمان . (٦) المنعرج : المنعطف واللوى ما التوى واسترق من الرمل يقول أبديت لهم رأيى بمنعرج اللوى ليكونوا على حذر فلم يظهر لهم رشد قولى الا حين أن دهمهم العدو فى الضحى . (٧) هل للنفى وغزية قومه، والمعنى ما أنا الا من غزية فى حالتى الغى والرشاد فغوايتى ورشادى متعلق بغوايتهم ورشادهم .

قال يونس النحوى : هذا أحزم بيت قالته العرب . وقوله :

ما إنْ رأيتُ ولا سَمِعْتُ به كاليوم هانئَ أينقٍ جربِ

متبذلا تبــدو محاسنه يَضَعُ الهِناءَ مواضع النقب (١)

سويد بن أبي كاهل

غرة كلامه وشعره قوله (٢) :

رُبَّ مَنْ أنضجت غيظاً قلبه قد تمنى لىَ موتاً لم يُطَعْ (٣)

ويرانى كالشَّجا فى حَلْقِه عسراً مخرجه ما ينتزعْ (٤)

مُزْبد يخطر ما لم يَرَنى فإذا أسْمعته صوتى انقمَعْ (٥)

قد كفانى اللهُ ما فى نفسه ومتى ما يكف شيئاً لم يضع

---

(١) هانىء اسم فاعل من هنأ الابل يهناها ويهنئها ويهنؤها هنأ وهناء بكسر الهاء أى طلاها بالهناء وهو ضرب من القطر أن . وأينق جمع ناقة وجــرب جمــع أجرب المذكر وجرباء للانثى والاجــرب من به جرب وهو بثور تعلو ابدان الناس والابل . والمعنى ما رأيت هانىء أينق جرب كالذى رأيته اليوم ولا سمعت به . وكان رأى الخنساء أخت صخر تهنأ ابلالها فقال فيها ذلك ، ثم خطبها من أبيها فعرض عليها ذلك فقالت ماكنت تاركة بنى عمى كأنهم عوالى الرماح ومرتثة شيخ بنى جشم هامة اليــوم أو غد . (٢) هذه الأبيــات من قصيدة طويلة عدتها مائة بيت وثمانية أبيات له مسطورة فى المفضليات ويقال لها (اليتيمة) مطلعها : ــ

بسطت رابعة الحبــل لنــا فوصلنا الحبــل منها ما اتسع

(٣) انضاج اللحم : جعله بالطبخ مستويا يمكن أكله ويحسن وهو هنا كناية عن نهــاية الكمد الحاصل القلب ، أو استعارة شبه تحســير القلب واكماده بانضاج اللحم الذى يؤكل . وغيظا : مصدر غاظه اذا أغضبه .. والنحويون يوردون هذا البيت شاهدا على أن جملة « أنضجت » فى موضع جر على أنها صفة لمن لأنها نكرة بمعنى انسان بدليل دخول (رب) عليهــا . وروى البيت أيضــــا : ــ

ربما أنضجت غيظــا قلب من قد تمنى لى موتا لم يطع

فلا شاهد فيه . وما حينئذ كافة مهيئة لدخول رب على الجملة ومجرور رب هنا فى محل رفع على الابتداء والخبر أما جملة قد تمنى ولم يطع خبر بعد خبر واما لم يطع وجملة قد تمنى صفة ثانية

(٤) الشجا : الغصص ونحوه مقصور يكتب بالألف . (٥) مزبد : من أزبد . وأصل الخطر فى الناس تحريك اليدين فى المشى والاختيال بهما . وانقمع : دخل بعضه فى بعض .

لم يضرنى غير أن يحسُدَنى فهو يَزْقو مثل ما يزقو الضُّوعْ[١]
ويحيينى إذا لاقيتُه وإذا يخلو له لحمى رتعْ[٢]
كيف يرجون سقاطى بعد ما جلّلَ الرأسَ مشيبٌ وصلَعْ[٣]

النجاشى الحرثى

هو شاعر أمير المؤمنين علىّ رضى الله تعالى عنه . وأمير شعره قوله :

إنى امرؤٌ قلّما أثنى على أحدٍ حتى أرى بعضَ ما يأتى وما يَذَرُ
لا تمدحَنّ امْرَأً حتى تجرِّبَهُ ولا تذمَّنّ من لم يبله الخبرُ

وهذا من أحسن الإحسان .

الشماخ بن ضرار

هو من فحول المخضْرَمين . ومن أمثاله السائرة قوله :

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعفّ من القنوع

وغرة شعره قوله فى عرابة الأوسى :

رأيتُ عَرَابةَ الأوسىّ يسمو إلى الخيرات منقطع القرينِ
إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ تلقّاها عَرَابةُ باليمين

عمرو بن معد يكرب

من أمثاله السائرة قوله :

إذا لم تستطعْ أمراً فدَعْهُ وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ[٤]

وقوله

ليس الجمالُ بمئزرٍ فاعلم وإن ردّيتَ بُرْدا

---

(١) الضوع : طائر من طيور الليل كالبومة اذا أحس بالصباح صدح . قال الأعشى يصف فلاة :

لا يسمع المرء فيها ما يؤنسه بالليل الا نئيم البوم والضوعا

ويزقو ـ يصيح . (٢) رتع : أكل . (٣) السقاط : الفترة . يقول على طريق التعجب كيف يؤملون فترتى وسقطى وقد بلغت هذه السن ! (٤) راجع الجزء الاول ص ١٦٧ :

إن الجمـــالَ مآثرٌ ومناقبٌ أورثْنَ مَجْدا[١]

وقوله

ظَلِلْتُ كأنى للرماح دَرِيَّةٌ أُقاتلُ عن أبناء جَرْمٍ وفَرَّتِ[٢]

فلو أنّ قومى أنطَقَتْنِى رماحُهمْ نَطقتُ ولـكنّ الرِّماحَ أجَرَّتِ[٣]

عمرو بن الاهتم

أمير شعره ، وغرة كلامه ، قوله :

لَعَمْرُكَ ما ضاقتْ بلادٌ بأهلها ولـكنّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

سحيم عبد بنى الحسحاس[٤]

أحسن شعره قصيدتُهُ التى أولها :

عميرة ودِّعْ إنْ ترحَّلتَ غادِيا كفى الشَّيْبُ والإسلامُ للمرْء ناهيا

وقوله

أشعار عبد بنى الحَسْحاس قُمْنَ له يوم الفَخار مقامَ الأصل والورقِ[٥]

إن كنت عبداً فنفسى حرة كرماً أو أسودَ الخلقِ إنى أبيض الخُلقِ

أبو محجن الثقفى

ليس له أحسن وأفخر من قوله :

لا تسألى الناسَ عن مالى وكثرتهِ وسائلى الناس عن بأسى وعن خُلُقى

هل أطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتمُ السرَّ فيه ضربة العُنُقِ[٦]

---

(١) يقول ــ ليس الجمال فيما تلبسه من الثياب بل أن جمال الانسان فى أصوله الزكية ، وأفعاله الكريمة ، التى تورث الشرف والمجد . (٢) دريئة : عرضة . وفرت : هربت وجرم : بالفتح قبيلة . (٣) أجرت من الاجرار وهو أن يشق لسان الفصيل ويجعل فيه عود لئلا يرضع أمه . يقول ــ لو أنهم أبلوا فى الحرب بلاء حسنا لمدحتهم وذكرت بلاءهم ، ولكنهم قصروا فأجروا لسانى فما أنطق بمدحهم والافتخار بهم . (٤) راجع الجزء الثانى ص ٣٢٢

(٥) الورق عند العرب المال من الابل والغنم ، والورق الفضة . (٦) النجلاء : الواسعة الجرح .

كعب بن سعد

أحسن شعره قوله :

وما أنا للشئ الذى ليس نافعى ويغضبُ منه صاحبى بِقَؤُول
ولست بمبدٍ لِلرجال سَرِيرَتى(١) ولا أنا عن أسرارهم بِسَؤُول

معن بن أوس

كان من الإسلاميين وأمير شعره قوله :

وفى الناس إن رَثَّتْ حبالُكَ واصلٌ وفى الأرض عن دار القِلى مُتَحَوَّلُ
إذا انصرفَتْ نفسى عن الشئ لم تكد إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقْبِلُ(٢)

ومن أمثاله السائرة قوله

أعَلّمهُ الرمايةَ كلّ يوم فلما اشتدّ ساعِدُهُ رمانى(٣)
أعلمه الرواية كلّ يوم فلما قال قافيةً هجانى

كعب بن جعيل

من الإسلاميين المفلقين كان شاعر معاوية ، ومن غرر شعره قوله :

نَدِمْتُ على شتمى العشيرةَ بعدما مضى واستتبّتْ للرواة مذاهبُهْ
فأصبحتُ لا أسطيعُ ردّاً لما مضى كما لا يرد الدَّرّ فى الضرع حالِبُهْ(٤)

---

(١) السريرة : كالسر . (٢) رثت : ضعفت والقلى : البغض ، والمعنى واضح . والبيتان من قصيدة له قالها يستعطف بها صديقا له آلى أن لا يكلمه أبدا وكان معن قد تزوج بأخته فاتفق أنه طلقها ! (٣) قوله « اشتد » بالشين المعجمة ليس بشيء والرواية المشهورة « استد » بالسين المهملة أى استقام . قال ابن برى : هذا البيت ينسب الى معن بن أوس قاله فى ابن أخت له . وقال ابن دريد : هو لمالك بن فهم الازدى وكان اسم ابنه سليمة رماه بسهم فقتله فقال البيت . قال ابن برى : ورأيته فى شعر عقيل بن علفة يقوله فى ابنه عميس حين رماه بسهم وبعده :

فلا ظفرت يمينك حين ترمى وشلت منك حاملة البنان

(قلت) — والمشهور انه لمعن كما عزاه اليه كثير من الأئمة منهم الجاحظ فى البيان والتبيين (ج ٣ ص ١١٨ — طبعة الفتوح الأدبية بمصر) . (٤) البيتان — على ما فى كتاب الشعر والشعراء — لأخيه عمير لا له وذلك أنه هجا قومه بشعر ثم ندم فقال : ندمت على شتمى العشيرة ... الخ ..

زياد بن زيد العذرى

أمير شعره قوله :

ولستُ بمفراحٍ إذا الدهر سرّنى ولا جازع من صرْفه المتقلّبِ
ولا أَتمنىَّ الشرّ والشرُّ تاركى ولكن متى أحمل على الشر أرْكبِ !

وقوله

هل الدهرُ والأيامُ إلا كما ترَى رزية مالٍ أو فراق حبيب !

أبو الأسود الدؤلى

يعدّ فى التابعين والشيعة والفصحاء وأصحاب النحو وفى البخلاء وفى المفاليج ومن غرر شعره فى عبيد الله بن زياد وقد كساه جبة خز :

كسانى ولم أستكسه فحمِدتُهُ أخٌ لىَ يُعطينى الجزيلَ وناصرُ
وإن أحق الناس إنْ كنتَ مادحاً بمدحك من أعطاك والوجهُ وافر

ومن أمثاله السائرة قوله

لا تهنى بعد إذ أكرمتنى فشديد حالة منتزعَهْ
لا يكنْ برقُكَ برقاً خُلَّباً إنَّ خيرَ البرق ما الغيث مَعَهْ (١)

زفر بن الحرث

غرة شعره قوله فى انهزامه يوم مرج راهط :

أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأته بصالح أيامى وحسن بلائيا
ولم يرَ منى زلة قبل هذه فرارى وتركى صاحبى من ورائيا
وقد ينبت المرعى على دِمَنِ الثرى وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هيا(٢)

---

(١) الخلب : المطمع المخلف . (٢) الدمن . ما تلبد من السرجين وفى الحديث « اياكم وخضراء الدمن » يريد المرأة الحسناء فى منبت السوء أى لا تتزوجوها . والثرى : التراب الندى . وحزازات النفوس غيظها

عبد الله بن قيس الرقيات

أمير شعره قوله فى مصعب بن الزبير :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله تجلَّت عن وجهه الظلماء

يتقِى الله فى الأمور وقد أفلح من كانَ همَّه الإتقاء

ملكه ملك رأفةٍ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياء

المتوكل الليثى

غُرَّةُ شعره الذى يتمثل بِهِ قولُهُ :

إبْدَأْ بِنفسِكَ فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنتَ حكيمُ

فهناك تعذر إن وعظت و يقتدا بالقوْلِ منك ويَنْفعُ التعليمُ

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتىَ مثلَهُ عارٌ عليك إذا فَعلتَ عظيمُ (١)

وقوله أيضاً

لسنا و إنْ أحسابُنا كَرُمتْ يوماً على الأحسابِ نَتَّكلُ

نبنى كما كانت أوائلنا تَبنى ونَفْعلُ مثل ما فَعلوا

هذا آخر ما أحببت ذكره ، من مشاهير الشعراء ، ودرر قلائدهم ، وواسطة عقد منظومهم ، معرضاً عن استيفائهم ، واستقصاء أحوالهم وذكر قصائدهم المنتخبة ، وأسماء مقاطيعهم المعجبة ، حيث قد قضى الأئمة منه الوطر ، واستوعبوا التقاط هاتيك الدرر ، مثنياً عنانَ القلم إلى ذكر ما لهم من العوائدِ فى الخطب والوصايا ، وما لهم من البيان الفصيح لدى الخطوب والرزايا ، فقدكان ذلك عندهم من أهم العلوم ، وأعظم ما يتنافس به المتنافسون بعد الشعر المنظوم ، فإن فيه

(١) هذا المعنى من قوله تعالى «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟» . والبيت وجد فى قصيدة للأخطل ، وفى أخرى لابى الاسود الدؤلى . ونسبه الحاتمى لسابق البربرى ، ونقل السيوطى عن تاريخ ابن عساكر انه للطرماح . قال اللخمى فى شرح أبيات الجمل : الصحيح أنه لأبى الأسود ، فان صح ماذكر عن المتوكل فانما أخذه من شعر أبى الأسود والشعراء كثيرا ما تفعل ذلك ..

دقائقَ أنظارهم ، ونتائج أفكارهم ، ومنه تعلم منزلة القوم فى غَوْرِ عقولهم ، وعلوّ درجتهم فى سَعة أذهانهم ، ومن الله (عز اسمه) استمد التوفيقَ .

الخطب والوصايا

وما كان من عوائد العرب فيها

من المعلوم ما كان عليه العرب أيام جاهليتهم من الأنفة ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ، والمحافظة على شرفهم ، وعلوّ مجدهم وسؤددهم ، حتى حدث ما حدث بينهم من الوقائع والأيام ، والخطوب والمهام ، ولا شك أن كل قوم يتفق لهم مثل ذلك هم أحوج الناس إلى ما يستنهض هممهم ، ويوقظ أعينهم ، ويقيم قاعدهم ، ويشجع جبانهم ، ويشدّ جَنانهم ، ويُثير أشجانهم ، ويستوقد نيرانهم ؛ صيانةً لعزهم أن يستهان ، ولشوكتهم أن تستلان ؛ وتشفياً بأخذ الثار ؛ وتحرزاً من عار الغلبة وذلّ الدمار : وكل ذلك من مقاصد الخطب والوصايا ، فكانوا أحوج إليها بعد الشعر لتخليد مآثرهم ، وتأييد مفاخرهم ، وهم أقوم الناس قيلا ، وأقواهم قبيلا ، وأفصحهم لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأهداهم سبيلا ، وأسطعهم برهاناً ودليلا ؛ كما أنهم أعلاهم قدراً ، وأغلاهم درا ، وأسماهم مبنى ، وأسناهم معنى ، وأدقهم فكرا ، وأرقهم سرّا ، وأعرقهم نسبا ، وأعرفهم أبا ، ولذلك كثر فيهم الخطب والخطباء حتى كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب ، كما كان لكل قبيلة شاعر على ما ذكره الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . ولهم خطب يضيق عنها نطاق الحصر ؛ وقد ألف فيها كتب كثيرة : منها كتاب (غاية الأدب[١] فى كلام حكماء العرب) وهو ثلاثة مجلدات ، وكتب أخرى لا يحصرها العد ، وذكر الجاحظ فى البيان نبذةً من خطب الجاهلية والاسلام ، وذكر أن العرب من خطبهم (العجوز) وهى خطبة لآل رقبة ، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من

---

(١) لعله « الارب » .

بعضها ، و (العـذراء) وهى خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عذرها [١] ؛ و (الشوهاء) وهى خطبة سحبان وائل ، وقيل ذلك لها من حسنها ؛ وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ، ولم يخطب خطيب ! والخطب والوصايا متقاربان فى المفهوم بَيْدَ أن الخطب إنما يقصد بها قوم لا على سبيل التعيين والتخصيص بخلاف الوصايا ، وإن الخطب إنما تـكون فى المشاهد ، والمجامع ، والأيام ، والمواسم والتفاخر ، والتشاجر ، ولدى الـكبراء والأمراء ، ومن الوفود فى أمر مهم ، وخطب ملم ؛ والوصايا بخلافها فى كل ما ذكر فلا تـكون إلا لقوم مخصوصين فى زمن مخصوص ، على شيء منصوص ؛ وكثيراً ما كانت تصدر من شخص لعائلته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض مخاطر ، أو محاولة نقله ، أو شابه ذلك .

وكان للعرب اعتناء بالخطب فى جاهليتهم أكثر من اعتنائها بها فى إسلامهم ، وكانت لهم فيها عوائد غريبة ، وشئون عجيبة ؛ فمن عوائدهم فيها أنهم كانوا يتخيرون لها أجزل المعانى ، وينتخبون لها أحسن الألفاظ ؛ تحصيلاً لغرضهم ، ونيلاً لمقصدهم ، فإن الألفاظ الرائقة ، والمعانى الجزلةَ ، أوقع فى النفوس ، وأشـد تأثيراً فى القلوب ، وأيقظ للهمم ؛ ولذلك ورد « إن من البيان لَسِحْراً » على ما سبق . والأذن للـكلام البليغ أصغى وأوعى ، والطبـع السليم إلى كل مستحسن أميل ، والترغيب فى العاجل ، والترهيب فى الآجـل ، اللذان هما من أهم مقاصد الخَطَابة ومطالبها العالية إذا لم يكونا بعبارات تخلب القلوب ، وتأخذ بمجامعها ، فلا تأثير فيها ولا فائدة منها .

ومن عوائدهم فيها أن الخطيب منهم إذا خطب فى تفاخر وتنافر وتشاجر ، رفـع يده ووضعها ، وأدّى كثيراً من مقاصده بحركات يده ، فذاك أعون له على غرضه ، وأرهب للسـامعين له ، وأوجب لتيقظهم ، وهو المتشذر المذكور فى قول لبيد :

---

(١) أى أول من افتضها ، وهو مجاز .

غُلْبٍ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كأنها جِنُّ البَدِيِّ رواسِياً أقدامُها

التشذر رفع اليد ووضعها كما سبق . والذحول جمع ذَحْل بفتح الذال المعجمة وسكون الحاء المهملة وهو الحقد . يقول : هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود ، أى خلقوا خلقة الأسود يهدد بعضهم بعضاً بسبب الأحقاد التى بينهم . ثم سبههم بجن ذلك الموضع فى ثباتهم فى الخصام والجدال : يمدح خصومه وكلما كان الخصم أقوى وأشد ، كان قاهره وغالبه أقوى وأشد .

ومن عوائدهم فيها أخذ المِخْصَرَةِ بأيديهم ، وهى ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه أو ما يأخذ الملك يشير به إذا خاطب ، والخطيب إذا خطب ، فلا يخطبون إلا بالمخاصر ؛ وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسىّ ، ويشيرون بالعصا والقنا ؛ ومنهم من كان يأخذ المخصرة فى خطب السلم ، والقسىّ فى الخطب عند الخطوب والحروب . واستشهد الجاحظ فى كتاب البيان ما ذكرناه بكثير من شعرهم .

واستحسن العرب فى الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ولذلك مدحوا سعة الفم ، وذمّوا صغره ، حتى قيل لأعرابىّ : ما الجمال ؟ قال : طول القامة ، وضخم الهامة (١) ، ورحب الشدق (٢) ، وبعد الصوت . وسئل أبو المخشن عن ابنه المخشن (٣) وكان جزع عليه جزعاً شديداً فقال : كان أشدق خُرْطُمانياً (٤) سائلاً لعابه كأنما ينظر من قلبين . كأن ترقوته بوان أو خالفة (٥) كأن منكبه كركرة جمل ثقال (٦) ، فقأ الله عينى إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله . وقيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال غؤور العينين ، وإشراف الحاجبين ، ورحب الشدقين . وقال الشاعر فى عمرو بن سعيد الأشدق :

تَشَادَقَ حتى مال بالقول شِدقهُ وكلُّ خطيبٍ (لاأبالك) أشدق

---

(١) الرأس (٢) جانب الفم — بالفتح والكسر (٣) فى نسخة أبو المخش عن ابنه المخش

(٤) كبير الأنف (٥) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق . والبوان : عمود الخيمة . والخالفة : عمود من أعمدة البيت فى مؤخره .

(٦) المنكب : مجتمع رأس الكتف والعضد . والكركرة : رحى زور البعير . وجمل ثقال : بطىء لعله لضخم جسمه .

وأنشد أبو عبيدة :

وصُلْع الرؤوس عِظامُ البُطُونِ رِحابُ الشِّدَاقِ طِوَالِ القَصَرْ[١]

وقال العجير السلوليّ فى شدة الصوت :

ومنهنّ قَرْعى كلِّ بابٍ كأنما به القوم يَرْجُون الأَذِينَ نشورُ[٢]

لجئتُ وخَصْمى يَصْرِفُونَ نيوبَهُمْ كما قُصِبَتْ بين الشِّفارِ جَزُورُ[٣]

لدى كلِّ موثوقٍ به عند مثلها له قَدَمٌ فى الناطقين خَطِيرُ

جَهِيرٌ وممتدُّ العِنَانِ مُناقلٌ بَصيرٌ بعورات الكلام خَبيرُ

فظلّ رداء العَصْبِ ملقى كأنّهُ سَلَى فرسٍ تحت الرجال عَقِيرُ[٤]

ولو أن الصخور الصُّمّ يسمعن صَلْقَنَا لرُحْنَ وفى أعراضِهنّ فُطُورُ[٥]

وقال مهلهل :

ولولا الريح أُسْمِع أهلَ نجدٍ صليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذكورِ[٦]

وكان شبيب يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد وقال الشاعر فيه :

إنْ صاحَ يوماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْحدراً والريحَ عاصفةً والمَوْجَ يَلْتَطِمُ

والشعر فى ذلك كثير . والمقصود أن جهارة الصوت مما يمدح به الخطيب وتكون من محاسنه .

---

(١) صلع : جمع أصلع وهو الذى انحسر شعر رأسه عن مقدمه ، والقصر : الأعناق .

(٢) يقال اذن له فى الشيء أذنا وأذينا أى أباحه له — يقول : كأنما القوم نشور يرجون الاذن .

(٣) النيوب : الأسنان خلف الرباعية واحدها ناب ، والصريف : صوت احتكاكها . وقصبت : قطعت . والجزور : الناقة التى تنحر . والشفار بالكسر جمع شفرة بالفتح وهى المدية .

(٤) العصب برد يصبغ ثم ينسج . والسلى : الجلدة التى يكون فيها الولد من الناس والمواشى وان انقطع فى البطن هلكت الأم وهلك الولد . (٥) الصلق : شدة الصوت . والفطور : الشقوق .

(٦) قوله « أهل نجد » يروى موضعه « أهل حجر » حجر قصبة اليمامة . والصليل : الصوت . والذكور : السيوف التى عملت من حديد غير أنيث . ويروى « نقاف البيض يقرع بالذكور » : ويقال : أول كذب سمع فى الشعر هذا والبيت : من قصيدة للمهلهل أوردناها فى الجزء الثانى ص ١٥٤ و ١٥٥

ومن عوائدهم فى الخطابة أن يكون الخطيب على زى مخصوص فى العمامة واللباس تنويهاً بشأنه وأدخل فى تحصيل الغرض والمقصود . وقد أطنب الجاحظ القول فى كتاب البيان على خطب العرب ، وبيان عوائدهم فيها ، وما أورده من الشعر شاهداً على دعواه مما يغنى عن ذكره فى هذا المقام .

ذكر نبذة من خطباء العرب فى الجاهلية

خطباء العرب أيام الجاهلية كثيرون كثرة شعرائهم ؛ غير أن البعض منهم كان يغلب عليه قول الشعر فيعد فى الشعراء ، وينتظم فى سلكهم ، وآخرين يغلب عليهم منثور الكلام ، وفصيح البيان ، فيعد من رجال الخطابة شأن كل من غلب عليه معرفة فن من الفنون . فمن نظم الشعر لا يعجزه إنشاء الخطب ، وكذلك كثير من الخطباء يعدون من مُفلقى الشعراء . ولما كان أولئك الخطباء لا يحيط بهم نطاق العد والإحصاء ؛ ذكرت بعض أفراد منهم هم كالأنموذج لمن سواهم مع ذكر شىء من مستحسن كلامهم . فمنهم :

قس بن ساعدة الأيادى

هو من أشهر الخطباء ذكراً ، وأرفعهم قدراً قدراً ، حيث روى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلامه ، وموقفه على جملة الأورق[1] ، وموعظته . وعجب من حسن كلامه وكفى بذلك فخراً له ولقومه على مدى الأيام : فإن هذا شرف تنحط دونه رؤوس الأعلام . وفى الحديث : « يرحم الله قساً ! إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده » . وبذلك يعلم أنه لم يكن على دين من الأديان المشهورة ومن نسبه إلى يهودية أو نصرانية فقد لحن فى مقاله ، وانحرف عن جادة الصواب وقد سبق له ذكر فيمن كان على التوحيد من العرب ، ونقل شىء من كلامه ، وكذلك مع الشعراء ومنهم .

---

(١) الذى لونه كلون الرماد .

سحبان وائل الباهلى

هو سحبان بن زُفَر بن إياس الوائلى : وائل باهلة خطيب يضرب به المثل فى البيان ، فكانوا إذا أرادوا مدح إنسان بذلك قالوا « هو أخطب من سَحْبان وائل » أدرك الجاهلية ، وأسلم ، ومات سنة أربع وخمسين ، وحكى الأصمعى قال كان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ . وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم سعيد بن عثمان فطلب سحبان فأتى به ، فقال : تكلم ! فقال : انظروا لى عصاً تقوِّم من أودى[1]! فقالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه فى يده ! فضحك معاوية ، قال : هاتوا عصاه ! فأخذها ، ثم قام فتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقَّف ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه ، وقد بقى عليه شىء فما زالت تلك حالته حتى أشار معاوية بيده فأشار إليه سحبان : أنْ لا تقطع علىّ كلامى ! فقال معاوية : الصلاة ! فقال : هى أمامك ، ونحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ! فقال سحبان : والعجم والإنس والجن ! ومما روى من خطبه البليغة : إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار ممركم ، لدار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا[2] إلى الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم ، إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ قال حمزة الأصبهانى فى أمثاله فى قولهم « هو أبلغ من سَحْبان وائل » : كان من خطباء العرب وبلغائها ، وفى نفسه يقول :

لقد علم الحىُّ اليمانونَ أننى ... إذا قلتُ أما بعد أنى خطيبها[3]

---

(١) اعوجاجى (٢) قوله : وأخرجوا الى الدنيا قلوبكم . هكذا فى الأصل ولعل صحة العبارة : وأخرجوا حب الدنيا من قلوبكم . وذلك ليستقيم المعنى ا هـ مصححه (٣) وروى صدره « وقد علمت قيس بن عيلان اننى » وقيس : قبيلة كبيرة ولهذا أنث «علمت» له ، وهو فى الأصل أبو قبائل شتى وهو لقب واسمه (الناس) بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . . وقد

وهو الذى قال لطلحة الطلحات(١) الخزاعى :

يا طلح أكرم مَنْ بها   حَسَبا وأعطاهم لتالدْ (٢)
منك العطاء فأعْطنى   وعلىَّ مدحُك فى المشاهدْ

فقال له طلحة : احتكمْ ! فقـال : برذونَك الوَرد(٣) ، وغلامَكَ الخباز ، وقَصْرَكَ بِزَرَنْج (وهى مدينة بسجستان) وعشرة آلاف درهم ! فقال طلحة : أُفٍّ لك ! لم تسألنى على قدرى و إنما سألتنى على قدرك ، وقدر باهلة(٤) ، ولو سألتنى كل قصر لى ، وعبد ، ودابة لأعطيتك ! ثم أمر له بما سأل ، ولم يزده عليه شيئاً وقال : تالله ما رأيت مسألة محكم ألأم من هذا ! ومنهم :

دويد بن زيد

ابن نهد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميرى

كان من الفصحاء ، ومشاهير الخطباء ، وأوصى بنيه وخطبهم فقال : (أوصيكم بالناس شراً لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تُقيلوا لهم عثرة (٥) ، قصروا الأعنَّة ، وأطيلوا الأسِنَّة ، واطعنوا شزراً (٦) ، واضربوا هبراً (٧) ، و إذا أردتم المحاجزة ، فقبل المناجزة(٨) ، والمرء يعجز لامحالة بالجـد لا بالـكد (٩) ، التجلد ولا التبلد (١٠)

اختلف العلماء فى أول من نطق بأما بعد اختـلافا طـويلا لا أرى له محلا من الأعراب ! ومن أراده فليطلبه من الشروح والحواشى القديمة !

(١) هو أحد الأجواد المشهورين فى الاسلام ، واسمه طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى ، وأضيف الى الطلحات لأنه فاق فى الجود خمسة أجواد اسم كلّ واحد منهم طلحة ، وهم : طلحة الخير وطلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الدراهم ، وطلحة الندى . وقيل : كان فى أجـداده جماعة اسم كل طلحة . كـذا قال ابن الحاجب فى شرح المفصل . والتفصيل فى « خـزانة » الامام البغدادى ، وغرر الخصائص . (٢) التالد : كل مال قديم . (٣) البرذون : التركى من الخيل ، والورد : بين الكميت والأشقر . (٤) قبيلة من اخس قبائل العرب ـ راجع الجزء الثانى ص ١٠٩ (٥) يقال : اقال الله عثرته ، اذا رفعه من سقوطه . (٦) معنى الشزر أن يطعنه من احدى ناحيتيه قال الأصمعى : نظر الى شزرا اذا نظر من عن يمينه وشماله وطعنه شزرا كذلك .

(٧) قال ابن دريد يقال هبرت اللحم أهبره هبرا اذا قطعته قطعا كبارا .

(٨) المناجزة فى الحرب المبارزة . (٩) أى يدرك الرجل حاجتـه وطلبته بالجد وهو الحظ

(١٠) أى تجلدوا ولا تبلدوا .

والمنية ولا الدنية[(١)] ، ولا تأسوا على فائت و إن عز فقده ، ولا تحنوا إلى ظاعن و إن ألف قر به ، ولا تطمعوا فتطبعوا[(٢)] ، ولا تهنوا فتخرعوا[(٣)] ، ولا يكونن لكم المثل عسوء « إن الموصَّيْنَ بنو سَهْوَان[(٤)] » إذا مت فارحبوا خط مضجعى[(٥)] ولا تضنُّوا[(٦)] اللىَّ برحب الأرض ، وما ذلك بمؤد إلىَّ روحاً[(٧)] ، ولكن حاجة نفس خامرها الإشفاق[(٨)] ، ثم مات . قال أبو بكر بن دريد فى حديث آخر إنه قال :

اليوم يُبنَى لِدُوَيْدٍ بيتهُ[(٩)] ... يارُبَّ نَهْبٍ صالحٍ حَوَيْتهُ

ورُبَّ قِرْنٍ بطلٍ أرديتهُ ... وربَّ غَيلٍ حسَنٍ لَوَيْتهُ[(١٠)]

ومِعْصَمٍ[(١١)] مُخضَّبٍ ثَنَيْتهُ ... لو كان للدهر بِلًى أبليتهُ

أو كان قِرْنى واحداً كفيتهُ

ومن قوله :

ألقى علىَّ الدهرُ رِجلاً ويداً ... والدهر ما أصلح يوماً أفسدا

يُصْلِحُ ما أفْسَدَهُ اليَوْمَ غَدَا

قال أبو حاتم السجستانى . عاش دويد بن زيد أربعمائة سنة وستاً وخمسين سنة وقال ابن دريد : إن دويد بن زيد كان من المعمَّرين . قال : ولا نعد العرب معمراً إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً . ومنهم :

---

(١) أى اختار الموت على العار . وهومثل — قاله أوس بن حارثة — يضرب لمن يختار التلف على قبح الأحدوثة . (٢) الطبع : الدنس . (٣) الوهن الضعف . والخراع والخراعة : اللين ، ومنه سميت الشجرة الخروع للينها .
(٤) صوب الميدانى فى معنى هذا المثل أن يقال : ان الذين يوصون بالشىء يستولى عليهم السهو حتى كانه موكل بهم ، وهو يضرب لمن يسهو عن طلب شىءأمر به . والسهوان : السهو ، ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف أى رجل سهوان وهو آدم عليه السلام حين عهد اليه فسها ونسى . والمعنى أن الذين يوصون لا بدع أن يسهوا لأنهم بنو آدم عليه السلام . وكذا قالوا واكل وجهة (٥) أرحبوا وسعوا . وخط المضجع : القبر . (٦) أى لا تبخلوا .
(٧) راحة (٨) أى خالطتها المحاذرة والخوف . (٩) المراد بالبيت القبر
(١٠) القرن : من يقاومك فى علم أو قتال أو غير ذلك . والغيل : بالفتح الساعد الريان الممتلىء (١١) المعصم : موضع السوار من اليد .

زهير بن جناب بن هبل الحميرى

كان سيداً مُطاعاً شريفاً فى قومه عاش مائتى سنة وعشرين سنة ، وأوقع مائتى وقعة . و يقال كانت فيه عشرُ خصالٍ لم يجتمعن فى غيره من أهل زمانه : كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم إلى الملوك ، وطبيبهم (والطب فى ذلك الزمان شرف) وحازى[1] قومه (والحزاة الكهان) وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم . وأوصى إلى بنيه وخطبهم فقال : يابنىّ إنى قد كبرت سنِّى وبلغت حَرْساً[2] من دهرى فأحكمتنى التجارب والأمور تجربة واختيار ، فاحْفَظُوا عنى ما أقول وعوه : إياكم والخور[3] عند المصائب ، والتوكل عند النوائب[4] ، فإن ذلك داعيةٌ للغم ، وشماتةٌ للعدوّ[5] ، وسوء ظن بالرب ، و إياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سخر قوم قط إلاَّ ابتلوا ولكن توقعوها . فإن الإنسان فى الدنيا غرضٌ[6] تعاوره[7] الرماة فمقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابدّ أن يصيبه .

وكان زهير بن جناب على عهد كليب بن وائل ؛ ولم يكن فى العرب أنطق من زهير ولا أوجه عند الملوك منه ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهناً ، ولم تجتمع

---

(١) فى الصحاح : الحازى الذى ينظر فى الاعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن انتهى . وقال ابن شميل الحازى أقل علما من الطارق والطارق يكاد يكون كاهنا والعائف العالم بالأمور والعراف الذى يسم الأرض فيعرف مواقع المياه ويعرف بأى بلد هو . وقال الليث : الحازى الكاهن حزا يحزو يحزى وتحزى وأنشد :

ومن تحزى عاطسا أو طرقا

(٢) قال الزبيدى : الحرس بالفتح الدهر وقيل وقت الدهر دون الحقب وهو مجاز . قال الراجز : « فى نعمة عشنا بذاك حرسا » والجمع أحرس بضم الراء انتهى . وقال السيد المرتضى فى أماليه (ج ١ ص ١٧٣) : قوله ، حرسا من دهرى — يريد طويلا منه والحرس من الدهر الطويل . قال الراجز « فى سنيه عشنا بذاك حرسا » والسنية المدة من الدهر

(٣) الخور : الجبن والضعف .

(٤) التواكل : أن يكل القوم أمرهم الى غيرهم من قولهم رجل وكل اذا كان لايكفى نفسه ويكل أمره الى غيره ويقال رجل وكلة تكلة . والنوائب : المصائب .

(٥) الشماتة : اسم من شمت به كفرح يشمت : اذا فرح بمصيبة نزلت به .

(٦) الغرض كل مانصبته للرمى . (٧) أى تداوله .

قضاعةُ إلا عليه وعلى رزاح بن ربيعة . وسمع زهير بعض نسائه تتكلم بما لا ينبغي لامرأة أن تتكلَّمَ عند زوجها به فنهاها ، فقالت له : اسكت عني وإلاَّ ضربتك بهذا العمود : فوالله ما كنت أراك تسمع شيئاً ولا تعقله ! فقال عند ذلك :

ألا يالقَوْمي لا أرى النجمَ طالعاً ... ولا الشمسَ إلا حاجتي بيميني

مُعَزِّبتي عند القفَا بعمودِها ... تكون نكيري أن أقولَ ذَرِيني (١)

أميناً على سرِّ النساء وربما ... أكونُ على الأسرار غيرَ أمين

فَلَلْمَوتُ خَيْرٌ من حِداجٍ مُوَطَّإٍ ... مع الظن لا يأتي المحلَّ لحين (٢)

وهو القائل

أبنيَّ إنْ أهلِكْ فقد ... أورثتكُمْ مجْداً بَنِيَّهْ

وتركتكم أبناءَ سا ... داتٍ زنادُكُمْ ورِيَّهْ (٣)

منْ كلِّ ما نالَ الفتى ... قد نِلتُهُ إلا التحيَّهْ (٤)

ولقد رَحَلْتُ البازلَ الـ ... ـكَوْماءَ ليس لها وَلِيَّهْ (٥)

وخطبتُ خطبةَ حازمٍ ... غيرِ الضعيفِ ولا العَيِيَّهْ

---

(١) قوله : معزبتي — يعني امرأته . يقال معزبة الرجل وحليلته وزوجته : كل ذلك امرأته . والسر : خلاف العلانية ، والسر أيضا النكاح . قال الحطيئة:

ويحرم سر جارتهم عليهم ... ويأكل جارهم انف القصاع

وقال امرؤ القيس :

الا زعمت بسباسة اليوم انني ... كبرت وألا يحسن السر امثالي

وكلام زهير يحتمل الوجهين جميعا لأنه اذا كبر وهرم لاتتهيبه النساء أن تتحدث بحضرته بأسرارهن تهاونا به وتعويلا على ثقل سمعه وكذلك هرمه وكبره يوجبان كونه أمينا على نكاح النساء لعجزه عنه . (٢) الحداج : مركب من مراكب النساء . والظعن والاظعان : الهوادج ، والظعينة : المرأة في الهودج ولا تكون ظعينة حتى تكون في هودج والجمع ظعائن . وانما خبر عن هرمه وأن موته خير من كونه مع الظعن في جملة النساء . (٣) يروى بدل ابناء (ارباب) والزناد جمع زند وزندة وهما عودان يقدح بهما النار (راجع ص ١٦٧ من الجزء الثاني) وكنى بزنادكم ورية عن بلوغهم مآربهم . تقول العرب : وريت بكم زنادي أي بلغت بكم ماأحب من النجح والنجاة . ويقال للرجل الكريم واري الزناد . (٤) التحية : الملك فكانه قال : من كل مانال الفتى قد نلته الا الملك ؛ وقيل التحية ههنا الخلود والبقاء (٥) البازل الناقة التي بلغت تسع سنين فهي أشد ما تكون ولفظ البازل في الناقة والجمل سواء . والكوماء : العظيمة السنام . والولية : برذعة تطرح على ظهر البعير تلي جلده .

فالموتُ خيرٌ للفتى فليهلِكَنْ وبه بقيَّهْ
من أنْ يرى الشيخ البَجَا لَ وقد يُهادَى بالعَشِيَّهْ (١)

وهو القائل :

ليتَ شعرى والدهرُ ذو حَدَثانٍ أىُّ حينٍ مَنِيَّتى تَلْقانى
أسُباتٌ على الفراش خفاتٌ أم بكَفَّىْ مفجَّعٍ حرَّان (٢)

وقال حين مضت له مائتا سنة من عمره :

لقد عُمِّرْتُ حتى لا أبالى أَحتفى فى صباحى أم مسائى (٣)
وحقٌّ لمنْ أتت مائتان عاماً عليهِ أن يَملَّ من الثَّوَاءِ (٤)

ومنهم :

مرثد الخير الحميرى

وهو مرثد الخير بن يَنْكف بن نوف بن مَعْدِيكَرِب بن مُضْحِى . وكان قَيْلاً حَدِباً على عشيرته ، مُحِبًّا لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء ، وأخطب الخطباء . قال أبو بكر بن دريد : وكان سُبَيْع بن الحرث أخو عَلَس وعَلَس هو ذو جَدَن ، وميثم بن مثوب بن ذى رُعَيْن تنازعا الشرف حتى تشاحنا(٥) وخيف أن يقع بين حَيَّيْهما شرٌّ فيتفانى جِذْماهما(٦) فبعث إليهما مَرْثد. فأحضرهما ليُصلح بينهما ! فقال لهما : إنَّ التخبُّطَ (٧) وامتطاء الهجاج(٨) ، واستِحْقاب اللجاج(٩) ،

---

(١) البجال : كسحاب ، المبجل أو هو الشيخ الكبير السيد العظيم مع جمال ونبل . ويهادى . بماشيه الرجال فيستدونه لضعفه والتهادى المشى الضعيف . (٢) السبات : سكون الحركة . والخفات : الضعيف أيضا يقال : خفت الرجل اذا اصابه ضعف من مرض أو جوع . والحران : العطشان المتهب وهو ههنا المحزون على قتلاه . (٣) الحتف : الهلاك . (٤) الاقامة . (٥) من التشاحن وهى العداوة . (٦) الجذم : الأصل . (٧) قال أبوبكر: التخبط ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة . (٨) قال المجد : ركب هجاج كقطام ويفتح آخره ــ ركب رأسه . (٩) الاستحقاب : استفعال من الحقيبة أو من الحقاب فأما الحقيبة فما يجعل فيه الرجل متاعه من خرج أو غيره وحقيبة الجمل التى تكون وراء الرجل تحشى تبنا أو حشيشا . وهذا مثل اما أن يكون أراد انه احتزم باللجاج ، أو جعله فى وعائه .

سَيِّئَفْكُمَا على شَفَا هُوَّةٍ . فى تَوَرُّدِها بَوَارُ الأُصِيلَةِ[١] ، وانقطاعُ الوَسِيلةِ . فتَلَافَيَا أمركما قبل انتكاث العَهْد[٢] وانحلال العَقْد ، وتَشَتُّتِ الألفة ، وتباين السُّهْمَة[٣] ، وأنتما فى فُسْحَةٍ رافهة[٤] ، وقدم واطدة[٥] ، والمودة مُثْرِية[٦] . والبُقْيا مُعْرِضة[٧] ، فقد عَرَفتم أنباء مَنْ كان قبلكم من العرب ممن عَصَى النَّصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطُع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صَيُّورُ[٨] أمورهم فتلافَوُا القَرْحة قبل تَفاقُمِ النَّأى[٩] ، واستفحال الداء[١٠] ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سُفِكَت الدماء ، استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت الشحناء ، تَقَضَّبَتْ عرى الإبقاء[١١] ، وشمل[١٢] البلاء فقال سبَيْع : أيها الملك ! إن عداوة بنى العَلَّات[١٣] ، لا تُبْرِئها الأساة[١٤] ، ولا تَشْفيها الرُّقاة ؛ ولا تَسْتَقِلُّ بها الكُفاة ، والحسد الكامن ، هو الداء الباطن ، وقد عَلِمَ بَنُو أبينا هؤلاء أنَّا لهم رِدْءٌ[١٥] إذا رَهِبُوا ، وغيث إذا أَجْدَبُوا ، وعَضُدٌ إذا حاربوا ، ومَفْزَع إذا نُكِبُوا وإنا وإياهم كما قال الأول وهو أوس بن حَجَر :

إذا ما عَلَوْا قالوا أبونا وأمنا وليس لهم عالينَ أمٌّ ولا أبُ

فقال ميثم : أيها الملك ! إن من نَفِس على ابن أبيه الزَّعامة ، وجَدَبَهُ فى المَقَامة[١٦] واستكثر له قليل الكرامة ، كان قَرِفاً[١٧] بالملامة ، ومُؤَنَّباً على ترك الاستقامة ، وإنَّا والله ما نعتدُّ لهم بيدٍ إلا وقد نالهم منَّا كفاؤها ، ولا نذكُرُ لهم حسنة إلا وقد تَطَلَّع منا إليهم جزاؤها ولا يَتفيَّأ لهم علينا ظلُّ نعمةٍ إلا وقد قوبلوا

---

(١) شفا البئر والوادي والقبر وما أشبهها : حافته ، والهوة ما انهبط من الأرض أو الوهدة الغامضة منها . والبوار الهلاك . والأصيلة والأصل واحد.
(٢) الانتكاث : الانتقاض . (٣) القرابة . (٤) أى ناعمة من الرفاهية .
(٥) ثابتة (٦) أى متصلة مأخوذة من الثرى وهو التراب الندى ، يقال : تريت بك : أى كثرت بك (٧) أى ممكنة قد أمكنت من عرضها أى جنبها وناحيتها (٨) الصيور : الامر الذى يرجع اليه (٩) القرحة : الجرح . ويقال تفاقم الثأى بينهم اذا وقعت بينهم جراحات وقتل (١٠) اشتداد الداء .
(١١) تقضبت : تقطعت (١٢) عم (١٣) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد لأن التى تزوجها على أولى قد كانت قبلها ناهل ثم عل من هذه
(١٤) الأطباء واحدهم آس . (١٥) عون (١٦) جدبه : عابه ، والمقامة : المجلس والمجلس : الناس . ١٧) خليقا .

بِشَرْواها[١] ، ونحن بنو فحل مقْرَم[٢] لم تقعُدْ بنا الأمهات ولا بهم ، ولا تنزِعْنا أعراق السُّوء ولا إياهم ، فعلامَ مطُّ الخدود ، وخَزَرُ العيون[٣] ، والجخيف والتّصعُّر[٤] . والبأوُ والتكبر ؟ ألكثرة عَدَد ، أم لفضل جَلَد . أم لطول مقتعد ؟ وإنّا وإياهم لكما قال الأول (وهو ذو الأصبع العَدْوانيّ) :

لاهِ ابنُ عمِّكَ لا أفضَلْتَ فى حَسَبٍ عَنِّى ولا أنتَ دَيَّانى فتَخزونى[٥]

ومقاطِعُ الأمور ثلاثة : حربٌ مبيرة ، أو سلمٌ قَرِيرة ، أو مُداجاةٌ وغَفيرة[٦] ، فقال الملك : لا تُنْشِطوا[٧] عُقُلَ الشّوارد ، ولا تُلقحوا العُونَ القواعد[٨] ، ولا تُؤَرِّثوا[٩] نيران الأحقاد ، ففيها المَتْلَفَةُ المستأصِلَةُ ، والجائحة والأليلة[١٠] وَعَفُّوا بالحِلْم ، أبلاد[١١] الكَلْم ، وأنيبوا إلى السبيل الأرشد ، والمَنْهَج الأقصد ، فإن الحرب تُقبِلُ بِزِبْرِج الغُرُور[١٢] وتُدْبِر بالويل والثبور ، ثم قال الملك :

ألا هل أتى الأقوام بَذْلى نصيحةً حَبَوْتُ بها منى سُبَيْعاً وميثما[١٣]
وقلت اعْلَما أن التّدابُرَ غادَرَتْ عواقِبُهُ للذُّلِّ والقُلِّ جُرْهُما[١٤]
فلا تَقْدَحا زند العُقوق وأبقيا على العِزةِ القعساء أن تتهدما[١٥]
ولا تجنيا حرباً تجُرُّ عليكما عواقبها يوماً من الشر أشأما

---

(١) بمثلها (٢) أى سيد شريف والمقرم فى الاصل البعير الذى لا يحمل عليه ولا يذلل وانما هو للفحلة (٣) الخزر : أن ينظر الرجل الى أحد عرضيه يقال انه ليتخازر لى اذا نظر اليه بمؤخر عينه ولم يستقبله بنظره .
(٤) الجخيف : التكبر ومثله البأو ، والتصعر : هو أن يعرض المرء بوجهه عن الناس فى ناحية من الكبر (٥) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣٣٨
(٦) المداجاة : المساترة ، والغفيرة الغفران والعرب تقول ليست فيهم غفيرة أى لا يغفرون (٧) لا تحلوا (٨) هذا مثل وأصله فى الابل يقال لقحت الناقة اذا حملت والقحها الفحه ثم ضرب ذلك مثلا للحرب اذا ابتدأت، والعون: جمع عوان وهى الثيب ويقال الحرب عوان اذا كان قد قوتل فيها مرة بعد مرة
(٩) أى لا تذكوا (١٠) الجائحة : الاستئصال . والأليلة : الثكل .
(١١) الابلاد : الآثار وأحدها بلد ، والكلم : الجرح (١٢) الزبرج بالكسر الزينة من وشى أو جوهر (١٣) حبوت : أعطيت (١٤) الذل : الذلة ، والقل : القلة (١٥) القعساء : الثابتة .

فان جُناة الحرب للحَيْن عُرْضةٌ   تفوّقهم منها الذُّعافَ المقشّما(١)
حَذَارِ فلا تَسْتَنْبِثُوها فإنها   تغادرُ ذا الأنفِ الأشمّ مكشّما(٢)

وقالا : لا أيها الملك ! بل نَقْبَلُ نُصْحَك ، ونطيع أمرك ، ونُطفى الثائرة(٣) ونحُلُّ الضّغائن . ونثوبُ إلى السلم . ومنهم :

الحرث بن كعب المذحجى

كان الحرث هذا من أفصح خطباء زمانه ، قد سلم له طول باعه فى البلاغة وعلو شأنه . قال أبو حاتم السجستانى : جمع الحرث بن كعب بنيه لما حضرته الوفاة فقال « يا بنى قد أتت علىّ ستون ومائة سنة ما صافحت بيمينى يمين غادر ولا قنعت نفسى بحلة فاجر ، ولا صبوت بابنة عم ولا كَنّة(٤) ولا طرحت عندى مُومسة قناعها(٥) ، ولا أبحت لصديق بسر ، وإنّى لعلى دين شعيب النبى (عليه السلام) وما عليه أحد من العرب غيرى وغير أسد بن خزيمة وتميم بن مر ، فاحفظوا وصيتى ، وموتوا على شريعتى . . . إلهكم فاتقوه يكفيكم المهم من أموركم ، ويصلح لكم أعمالكم . وإياكم ومعصيته لا يحل بكم الدّمار(٦) ، ويوحش منكم الديار . . . يا بنىّ كونوا جميعاً ولا تفرقوا فتكونوا شيعاً ، وبزُّوا قبل أن تُبَزّوا ، وإن موتاً فى عزّ ، خير من حياةٍ فى ذل وعجز ، وكل ماهو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ؛ والدهر ضربان : فضرب رخاء ، وضرب بلاء ، واليوم يومان : فيوم حبرة(٧) ويوم عبرة ، والناس رجلان : فرجل معك ورجل عليك . . وزوجوا الأكفاء ، وليستعملن فى طيبهن الماء ، وإياكم والورهاء(٨) فإنها أدوأ الداء ،

---

(١) تفوقهم : تسقيم الفواق وهو ما بين الحلبتين كأنه يحلب حلبة ثم يسكت ثم يحلب أخرى ، والذعاف بالضم السم ، والمقشم : المخلوط ، والحين : الهلاك (٢) قوله ولا تستنبثوها ، مثل ، أى لا تخرجوا نبيثها وهو ما يخرج من البئر اذا حفرت . يريد لا تثيروا الحرب ، والمكشم : المقطوع . (٣) الهائجة (٤) الصبوة : رقة القلب ، والكنة : امرأة أخى الرجل وامرأة ابن أخيه (٥) المومسة : الفاجرة البغى وأراد أنه لم تبتذل عنده وتنبسط كما تفعل مع من يريد الفجور بها (٦) مثل الهلاك وزنا ومعنى. (٧) فرح وسرور (٨) الحمقاء .

وتجنبوا الحمقاء ، فإن ولدها إلى أفن يكون[١] إلا إنه لا راحة لقاطع القرابة ، و إذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم منهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة يقى السيئة والمكافأة بالسيئة دخول فيها . وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم ، تورث الهم ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يُعقب النكد ، و يَمْحَقُ العدد ، و يخرب البلد ، والنصيحة تجر الفضيحة ، والفضيحة[٢] والحقد يمنع الرفد[٣] ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الرعة[٤] ، يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ، يا بنى إنى قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وغبرت ، وكأنى بهم قد لحقت » . ثم أنشأ يقول :

« أكلت شبابى فأفنيتــهُ وأنضيت من بعد دهرى دهورا[٥]
ثلاثة أهلــيْنَ صاحبتهُمْ فبادوا وأصبحتُ شيخاً كبيرا[٦]
قليلَ الطعام عسيرَ القيامِ قد ترك الدهرُ خَطوِى قصيرا
أبيتُ أراعى نجــومَ السماءِ أقلّبُ أمرى بُطوناً ظهُورا »

ومنهم :

قيس بن زهير العبسى

كان هذا أيضاً من ذوى الفصاحة والبيان ، وعذوبة المنطق وذرب اللسان[٧] ومن أخباره ومستحسن كلامه ، مارواه ابنُ الكلبىّ ، قال : لما كان بعد يوم الهباءة جاور قيس بن زهير العبسى النمر بن قاسط ، فقال لهم « إنى جاورتكم ، واخترتكم ، فزوجونى امرأةً قد أدبها الغنى . وأذلّها الفقر ، فى حسب وجمال ، فزوجوه (ظبية) ابنة (الكيس النمّرى)[٨] وقال لهم « إن فىّ خلالاً ثلاثاً :

(١) الافن : الحمق (٢) هذا يشبه أن يكون معناه ان النصيح اذا نصح لمن لا يقبل نصيحته ، ولا يصغى الى موعظته ، فقد افتضح عنده لأنه أفضى اليه بسره ، وأباح بمكنون صدره (٣) العطاء (٤) يقال فلان حسن الرعة والتورع أى حسن الطريقة (٥) انضيت ابليت (٦) بادوا: ذهبوا وانقطعوا (٧) أى فصاحة اللسان (٨) يأتى ذكره فى النسابين قريبا .

إنى غيور ، وإنى فخور ، وانى آنف . ولست أفخر حتى أبدأ ، ولا أغار حتى أرى ولا آنف حتى أظلم » فرضوا أخلاقه . فأقام فيهم حتى ولد له . فلما أراد الرحيل عنهم قال: « إنى موصيكم بخصال وناهيكم عن خصال : عليكم بالأناة فإن بها تدرك الحاجة وتنال الفرصة ، وتسويد من لا تعابون بتسويده ، وعليكم بالوفاء فإن به يعيش الناس وبإعطاء من تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنع من تريدون منعه قبل الإلحاح وإجارة الجار على الدهر ، وتنفيس المنازل عن بيوت اليتامى ، وخلط الضيف بالعيال ، وأنهاكم عن الغدر ، فإنه عار الدهر ، وعن الرهان فإنى به ثكلت مالكاً أخى ، وعن البغى فإنه قتل زهيراً أبى ، وعن الإعطاء فى الفضول فتعجزوا عن الحقوق ، وعن السرف فى الدماء فإن يوم الهباءة ألزمنى العار ، ومنع الحرم إلا من الأكفاء ، فإن لم تصيبوا لهن الأكفاء فإن خير منا كحهن القبور أو خير منازلها ؛ واعلموا أنى كنت ظالماً مظلوماً : ظلمنى بنو بدر بقتلهم مالكاً أخى وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له »

ثم رحل عنهم إلى غمار فتنصر بها وعف عن المآكل حتى أكل الحنظل إلى أن مات . ومنهم :

الربيع بن ضبيع [1] الفزارى

كان من الخطباء الجاهليين ، وقد أدرك زمن الإسلام لأنه كان من المعمرين . ويقال إنه بقى إلى أيام بنى أمية . وروى أنه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له : يا ربيع ! أخبرنى عما أدركت من العمر والمدى ورأيت من الخطوب الماضية . فقال أنا الذى أقول :

ها أنا ذا آمُلُ الخلودَ وقَدْ أدْرَكَ عقلى ومولدى حُجُرا [2]

فقال : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبىّ ! قال : وأنا القائل :

---

(١) كذا ، وفى الاصابة « طبعة السعادة » ضبح ، وفى الاقتضاب ص ٣٦٩ وأمالى المرتضى ج ١ ص ١٨٣ والدرر اللوامع ج ١ ص ٢١٠ : (ضبع) .

(٢) يريد بحجر أبا امرىء القيس .

إذا عاش الفَتى مائتين عاماً ۝ فقد ذَهَبَ اللذاذةُ والفتاءُ[1]

قال : قد رويت هذا من شعرك وأنا غلام ! وأبيك يا ربيع لقد طلبك جد غير عاثر ، ففصل لى عمرك ! قال : عشت مائتى سنة فى فترة عيسى عليه السلام ، وعشرين ومائة فى الجاهلية ، وستين فى الإسلام ! قال : أخبرنى عن فتيةفى قريش متواطئى الأسماء ! قال : سل عن أيهم شئت ! قال : أخبرنى عن عبد الله بن عباس . قال : فهم وعلم ، وعطاء جذم[2] ، ومقرى ضخم[3] قال : فأخبرنى عن عبد الله بن عمر . قال : حلم وعلم ، وطول كظم ، وبعد من الظلم قال فأخبرنى عبد الله بن جعفر . قال : ريحانة طيب ريحها ، لينٌ مسها ، قليل على المسلمين ضرها . قال : فأخبرنى عن عبد الله بن الزبير . قال جبل وعر ، ينحدر منه الصخر ، قال : لله درك يا ربيع ما أعرفَكَ بهم ! قال : قرب جوارى ، وكثرة استخبارى . . قال السيد المرتضى فى كتابه غرر الفوائد : إن كان هذا الخبر صحيحاً فيشبه أن يكون سؤال عبد الملك له إنما كان فى أيام معاوية لا فى ولايته ، لأن الربيع يقول فى الخبر عشت فى الإسلام ستين سنة وعبد الملك ولى فى سنة خمس وستين من الهجرة فإن كان صحيحاً فلا بد مما ذكرناه ، فقد روى أن الربيع أدرك أيام معاوية . ويقال إن الربيع لما بلغ مائتى سنة قال :

ألا أبلغْ بنىَّ بنى رَبيعٍ ۝ فأشرارُ البنينَ لكم فِداءُ
بأنى قد كَبِرتُ ودقَّ عَظمى ۝ فلا تشغَلكمُ عنى النساءُ
فإنَّ كَنائنى لنساء صدقٍ ۝ وما آلى[4] بَنِىَّ ولا أساؤا
إذا كانَ الشتاء فأدفئونى ۝ فإنَّ الشيخَ يَهْدِمُهُ الشِتاءُ[5]

---

(١) قوله « مائتين عاما » الوجه حذف النون وخفض عام الا انها شبهت للضرورة بالعشرين ونحوها مما يثبتنونه وينصب ما بعده ، وروى أيضا « تسعين عاما » ولا ضرورة فيه على هذا ، ولكنها رواية لا تصح . .

(٢) سريع ، وكل شىء تسرعت فيه فقد جذمته (٣) المقرى : الاناء الذى يقرى فيه (٤) ما قصر (٥) يستشهد النحاة بهذا البيت على مجىء (كان) فى حال تمامها بمعنى حدث . ويهدمه من هدمت البناء ويروى يهرمه أى يضعفه

وأمَّا حينَ يذهبُ كلُّ قُرٍّ ... فَسِرْبَالٌ خَفيفٌ أو رِداءُ[١]

إذا عاشَ الفتى مائتين عاماً ... فقد ذَهَبَ اللذاذةُ والفتاءُ

وقال حين بلغ مائتين وأربعين سنة :

أصبح مِنِّى الشبابُ قد حَسِرَا ... إن كان ولَّى فقد ثوَى عُصُرا

ودَّعَنَا قبلَ أنْ نُوَدِّعَهُ ... لما قضَى من جماعنا وطَرَا

ها أنا ذا آمُلُ الخلودَ وقد ... أدرك عقلى ومولدى حُجُرا

أبا امرىء القيس هل سمعت بِهِ ... هيهاتَ هيهات ! طالَ ذا عُمُرا[٢]

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا ... أملِكُ رأسَ البعير إن نفَرَا

والذئبُ أخشاه إن مَرَرْتُ به ... وحدى وأخشَى الرياحَ والمَطَرا

من بعد ما قُوَّةٍ أُسَرُّ بها ... أصبحت شيخاً أعالج الكِبَرا

قوله عطاء جذم : أى سريع وكل شىء أسرعت فيه فقد جذمته ، وفى الحديث : إذا أذنت فترسل وإذا أقمت فأجذم . والمقرى الإناء الذى يقرى فيه . وقوله : ما آلى بنىّ ولا أساءوا ، أى لم يقصروا والآلى المقصر . ومنهم :

أبو الطمحان القينى

واسمه حنظلة بن الشرقى من بنى كنانة بن القين . قال أبو حاتم : عاش أبو الطمحان القينى مائتىْ سنة فقال فى ذلك :

حَنَتْنى حانيات الدهر حتى ... كأنى خاتلٌ أدنو لِصَيْدِ

قريبُ الخطْوِ يحسِبُ من رآنى ... ولستُ مُقَيَّدًا — أنى بقيدِ

قال أبو حاتم السجستانى : وحدثنى عدة من أصحابنا أنهم سمعوا يونس بن حبيب ينشد هذين البيتين ، وينشد أيضاً :

تقارَبَ خطوُ رِجلِك يا دريد[٣] ... وقيَّدَكَ الزمانُ بشرِّ قيدِ

---

(١) القر : البرد . والسربال بالكسر ما يلبس من قميص أو درع

(٢) أى ما أطول هذا العمر (٣) فى أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٨٦) : «ياسويد»

« وهو القائل »

وإنّى من القومِ الذينَ هُمُ هُمُ   إذا ماتَ منهم سيّدٌ قام صاحِبُهْ
نجومُ سماء كلّما غابَ كوكبٌ   بَدَا كوكبٌ تأوى إليه كواكبُهْ[1]
أضاءتْ لهم أحسابُهم ووُجوهُهم   دُجَى الليل حتى نظّمَ الجزْعَ ثاقبُهْ[2]
ومازال مِنهم حيث كان مُسَوَّدا   تَسيرُ المَنَايا حَيْثُ سارَتْ كتائِبُهْ

ومعنى البيتين الأولين يُشبِه قول أوس بن حَجَر[3] :

إذا مُقْرَمٌ منّا ذَرَا حدّ نابه   تخمّطَ فينا ناب آخر مُقْرَم[4]

ولطفيل الغنوى مثل هذا المعنى وهو قوله :

كواكبُ دَجْنٍ كلما انقَضَّ كوكبٌ   بدا وانجلَتْ عنه الدُجُنَّةُ كَوْكَبُ[5]

وقد أخذ هذا المعنى الخزيمى فقال :

إذا قمرٌ مِنّا تغورَ أو خَبَا   بدا قمر فى جانب الأفق يَلْمَعُ

ومثل ذلك

خِلافةُ أهلِ الأرض فينا ورِاثةٌ   إذا ماتَ منا سيدٌ قام صاحبُه

ومثله

إذا سَيِّدٌ منا مَضَى لسبيلِهِ   أقام عَمُودِ الملكِ[6] آخَرُ سيِّدُ

ومنهم :

ذو الاصبع العدوانى

قد ذكرنا نبذةً من أحواله فى الكلام على حكام العرب[7] ، وكما كان من

---

(١) راجع ص ١٢٨ من هذا الجزء (٢) راجع الجزء الأول ص ٥٦
(٣) بفتحتين وليس فى اسماء الاشخاص على هذا البناء غير هذا
(٤) المقرم : الرجل الشريف ، والتخمط : الاخذ والقهر بغلبة كذا فى التاج، وفى الاساس : تخمط ناب البعير ظهر وارتفع . وأنشد البيت
(٥) الدجن والدجنة : الظلمة . وانقض : سقط .
(٦) فى نسخة « الدين » (٧) ج ١ ص ٣٣٥

حكمائهم فهو من أفصح خطبائهم ؛ فلذلك اقتضى المقام إيراد شيء من مستحسن كلامه . قال أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانىّ : ولما احتضر ذو الأصبع دعا ابنه أسيد فقال له : « يا بنىّ إن أباك قد فنى وهو حىّ ، وعاش حتى سَئِمَ العيش ؛ وإنى مُوصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحْفِظْ عنى ؛ أَلِنْ جانبك لقومك يُحِبُّوكَ ، وتواضَع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وَجْهَك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعِنْ من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلاً لا يعدوك . وَصُنْ وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً فبذلك يتم سؤددك »

ثم أنشأ يقول

أأسيدُ إنْ مالاً ملكْـ ... تَ فَسِرْ بِهِ سَيْراً جميلا

آخ الكرامَ إن ستطعتَ م ... إلى إخائِهم سبيلا

واشْرَبْ بِكأسِهِم وإنْ ... شربوا به السُّمَّ الثميلا[1]

أهِنِ اللئامَ ولا تَكُنْ ... لإخائِهم جَمَلاً ذَلُولا

إنَّ الكرامَ إذا تؤا ... خيهم وَجَدْتَ لهم قبولا

وَدَعِ الذى يَعِدُ العشير ... ة أنْ يسيلَ ولن يسيلا

أبنىَّ إنَّ المالَ لا ... يبكى إذا فقد البخيلا !

ومنهم :

الأوس بن حارثة

قال أبو بكر بن دريد : حدثنى عمى عن أبيه عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن عبد الرحمن بن أبى عَبْس الأنصارىّ قال . عاش الأوس بن حارثة دَهْراً وليس له ولد إلا مالك وكان لأخيه الخزرج خمسةُ أولاد : عمرو . وعَوْف

(١) المنقع

وجشم . والحرث . وكعب . فلما حضره الموت قال له قومه : قد كنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فلم تتزوج حتى حضرك الموت ! فقال الأوس : لم يهلك هالك ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فلعلَّ الذى استخرج العذق من الجريمة [١] ، والنار من الوَثِيمة أن [٢] يجعل لمالك نسلا ، ورجالاً بُسْلا [٣] يا مالك ! المنية ولا الدنية [٤] والعِتاب قَبْلَ العقاب [٥] ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القَبْر ، خيرٌ من الفقر ، وشرٌّ شاربٍ المشْتَفُّ [٦] وأقبح طاعمٍ المقتف [٧] وذهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم ، الدفاعُ عن الحريم ، ومن قل ذل : ومن أمِر فل [٨] ؛ وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة . والدهر يومان : فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر ، فإنما تعز من ترى ويعزك من لا ترى ولو كان الموت يشترى لسلم منه أهل الدنيا ، ولكن الناس فيه مستوون : الشريف الأبلج . واللئيم المُعَلْهَجُ [٩] ، والموت المفيت ، خير من أن يقال لك : هبيت [١٠] وكيف بالسلامة ، لمن ليست له إقامة ، وشر من المصيبة سوء الخلف ، وكل مجموع إلى تَلَف ، وحياك إلهك » : فنشر الله من مالك بعدد بنى الخزرج أو نحوهم .

ومنهم :

---

(١) العذق : النخلة نفسها بلغة أهل الحجاز ، والجريمة النواة .
(٢) قال أبو على القالى : هى الموثومة المربوطة يريد به قدح حوافر الخيل النار من الحجارة . والعرب تقسم بهذا الكلام فتقول : لا والذى أخرج العذق من الجريمة والنار من الوثيمة لا فعلت كذا وكذا انتهى ، وللعرب فى الجاهلية أيمان كثيرة ألف فيها النجيرمى رسالة ، نشرت مؤخرا فى المجلد الأول من مجلة (الزهراء) فى القاهرة (٣) البسل : الشجعان (٤) راجع ص ١٥٢ من هذا الجزء (٥) مثل يضرب فى النهى عن التسرع الى الشر . (٦) المستقصى
(٧) الآخذ بعجلة . (٨) يعنى : من قل أنصاره غلب ، ومن كثر أقرباؤه فل اعداءه . . يقال أمر القوم اذا كثر عددهم (٩) هو المتناهى فى الدناءة واللؤم .
(١٠) الهبيت : الأحمق الضعيف .

أكثم بن صيفى التميمى

قد ذكرت نبذة لطيفة من ملحه ، وفصيح كلامه ، عنـد الكلام على حكام العرب . وقد اقتضى المقام إيراد شيء من كلامه ، المزرى بعقد الدرّ ونظامه فمن ذلك قوله يخطب قومه بنى تميم ويوصيهم : يا بنى تميم لايفوتنكم وعظى إن فاتكم الدهر بنفسى ، إن بين حَيْزُومى (١) وصدرى لكلاماً لا أجِدُ له مواقع إلا أسماعكم ولا مقارّ إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ، تحمدوا مغبته (٢) الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفس مُهملة والروية مقيدة ، ومن جهة التوانى وترك الروية يتلف الحزم ؛ ولن يعدم المشاور مرشداً ؛ والمستبدُّ برأيه موقوف على مداحص الزلل ، ومن سمع سمع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ؛ ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سَلَكَ الجَدَدَ أمِنَ العِثار (٣) ولن يعدَم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ، ويورث غيظه ، ولا تجاوز مضرته نفسه ، يا بنى تميم ! الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف (٤) للذم ؛ وَكَلْمُ اللسان أنكى من كَلْم السّنان (٥) ؛ والكلمة مرهونة ما لم تنجم (٦) من الفم ، فإذا نجمت فهى أسد مِحْرَب (٧) ، أو نار تلهب ؛ ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز ، ونفاذ الرأى فى الحرب ، أجدى من الطعن والضرب .

وكان (يزيد بن المهلب) يسلك طريقة الأكثم بن صيفى فى خطبه ووصاياه وحكمه ونصائحه فإنها أحسن مسالك البلغاء ، وأرشق أساليب الفصحاء ، فمن ذلك

---

(١) الحيزوم : الصدر أو وسطه (٢) أى عاقبته (٣) مثل يضرب فى طلب العافية والجدد : الأرض المستوية (٤) أى انتصب كالغرض يرمى بالاقاويل (٥) أنكى : أشد نكاية أى جرحا واثخانا ، وكلم السنان : جرحه وهو نصل الرمح (٦) تنجم : تخرج (٧) بكسر الميم شديد الحرب .

ما أوصى به ابنه مخلداً حين استخلفه على جرجان[1] ، وهو قوله : يا بنى إنى قد استخلفتك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحى من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر :

إذا كنتَ مرتادَ الرجالِ لنفعهم   فَرِش واصطنع عند الذين بهم ترمى[2]

وانظر هذا الحى من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر هذا الحى من تميم فأمطرهم ولا تزه لهم ، ولا تدنهم فيطمعوا ، ولا تُقْصهم فيقطعوا وانظر هذا الحى من قيس فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ، ومناصفوهم المنابر فى الإسلام ، ورضاهم منك البشر . يا بنى ! إن لأبيك صنائعَ فلا تفسدها فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يَهْدِم ما بنى أبوه ! وإياك والدماء فإنها لا بُقْيَة معها ، وإياك وشتم الأعراض فإن الحرَّ لا يرضيه عن عرضه عوض ، وإياك وضرب الأبشار فإنه عارٌ باقٍ ووتر مطلوب ؛ واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه العشائر ، احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم ، وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بينى وبينك من يفقه عنى وعنك ، فإن كتاب الرجل موضع عقله ، ورسوله موضع سره ، وأستودعك الله فلا بد للمودع أن يسكت ، وللمشيع أن يرجعَ ، وماعف من المنطق وقلّ من الخطيئة ، أحبّ إلى أبيك ! وكذلك سلك هذا المسلك المحمود . ومنهم :

قيس بن عاصم المنقرى

فمن خطبه الرشيقة ، ووصاياه الأنيقة ، قوله يوصى بنيه : يا بنىّ خذوا عنى فلا أحد أنصح لكم منى ؛ إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم فسوّدوا أكبركم فإن القوم إذا سوَّدوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سودوا أصغرهم ازدرى ذلك بهم

---

(١) مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان .

(٢) راجع ص ١١٤ من هذا الجزء .

فى أكفائهم ؛ و إياك ومعصية الله وقطيعة الرحم ؛ وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضع ؛ وعليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه منبهة للكريم ، وجُنَّةٌ لعرض اللئيم[1] ، و إياكم والمسألة فإنها آخر كسبِ الرجل وأن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب . و إياكم والنِّياحة فإنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينهى عنها ؛ وادفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفنى ؛ فقد كانت بينى و بينهم مُشاحنات فى الجاهلية والإسلام ، وأخاف أن يدخلوا عليكم بى عاراً ، وخذوا عنى ثلاثَ خصال : إياكم وكلَّ عرق لئيم أنْ تلابسوه فإنه إن يسرركم اليوم يسؤكم غداً ، واكظموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم ! ثم قال :

أحْيا الضغائنَ آباءٌ لنا سلفوا فلن تَبِيــد وللآباء أبْناءُ[2]

قال ابن الكلبى : فيحكى الناس هذا البيت سابقاً للزبيرى وما هو إلا لقيس ابن عاصم . ومنهم :

عمرو بن كلثوم التغلبى

فإنه كما كان يعد من فحول الشعراء ، كذلك كان من مصاقع الخطباء ؛ وله فى هذا الباب كلام حسن ، على أسلوب مستحسن ، من ذلك قوله يخاطب بنيه : يا بنىَّ إنى قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحد من آبائى وأجدادى . ولا بد من أمر مقتبل ، وأن ينزل بى ما نزل بالآباء والأجداد ، والأمهات والأولاد فاحفظوا عنى ما أوصيكم به : إنى والله ما عيرت رجلا قطُّ أمراً إلا عير بى مثله ؛ إن حقاً فحقاً و إن باطلا فباطلا ، ومن سَبَّ سُبَّ ؛ فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لأعراضكم وصلوا أرحامكم تعمر داركم وأكرموا جاركم يحسن ثناؤكم ، وزوجوا بنات العم بنى العم ، فإن تعديتم بهن إلى الغرباء ، فلا تألوا بهن الأكفاء ؛ وأبعدوا بيوت

---

(١) الجنة : كل ماوقى . (٢) الضغائن : الاحقاد . وتبيد : تنقطع .

النساء من بيوت الرجال فانه أغضّ للبصر ، وأعف للذكر ، ومتى كانت المعاينة واللقاء ، ففي ذلك داء من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغار لنفسه ، وقلّ من انتهك حرمةً لغيره إلا انتهكت حرمته ، وامنعوا القريب ، من ظلم الغريب ، فإنك تذل على قريبك ، ولا يحمل بك ذل غريبك ، وإذا تنازعتم فى الدماء ، فلا يكن حقكم للقاء ، فرب رجل خير من ألف ، وود خير من حلف ، وإذا حُدِّثتم فَعُوا . وإذا حَدَّثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار ؛ يكون الإهذار ، وموت عاجل ، خير من ضنًى آجل ، وما بكيت من زمان ، إلا دهانى بعده زمان ، وربما شجانى ، من لم يكن أمره عنانى ، وما عجبت من أحدوثة ، إلا رأيت بعدها أعجوبة . واعلموا أن أشجع القوم العطوف ، وخير الموت تحت ظلال السيوف ، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب ، ولا فيمن إذا عوتب لا يعتب ، ومن لا يرجى خيره ، ولا يخاف شره . فبكؤه خير من دَرِّه [1] ، وعقوقه خير من مره ، ولا تبرحوا فى حبكم فإنه من أبرح فى حب آل ذلك إلى قبيح بغض . وكم زارنى إنسان وزرته ، فانقلب الدهر بنا فبرته . واعلموا أن الحليم سليم ، وأن السيف كليم ، إنى لم أمُتْ ولكن هَرِمْت ، ودخلتنى ذلة فسكت ، وضعف قلبي فاهترت [2] ، سلمكم ربكم وحياكم !

وقد ذكرت نبذة من غرر شمائل عمرو المذكور عند ذكر شعراء العرب

ومنهم : نعيم [3] بن ثعلبة الكنانى

كان يخطب العرب فى الموسم ، وينقادون لأوامره ويمتثلونها وينتهون عما نهى عنه . وهو أول من نسأ الشهور . قال أبو بكر الأنبارى : كانوا إذا صدروا من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة . فقال : أنا الذى لا أعاب

(١) يقال : بكأت الناقة بكأ وبكاءة وبكوا وبكاء اذا قل لبنها . والدر: اللبن .
(٢) اهتر : خرف وذهب عقله من كبر أو مرض أو حزن .
(٣) لم أقف فيما بين يدى بين الامهات والاصول على ما يؤيد صحة هذا الاسم الا فى أمالى القالى . وورد فى بعضها فقيم بالفاء فليحقق .

ولا يرد لى قضاء ! فيقولون : أنسئنا شهراً أى أخّر عنا حرمة المحرم فاجعلها فى صفر . وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفراً ، فإذا كان فى السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحلّ لهم صفراً . فقال الله عز وجل « إنّما النسيءُ زيادةٌ فى الكُفْرِ »

وقال الشاعر :

أَلَسْنَا الناسِئِينَ على معدّ　　شهور الحلّ نَجْعلها حراما ؟

وقال آخر

وكُنّا الناسئِينَ على معدٍّ　　شُهُورَهُمُ الحرامَ إلى الحَلِيلِ

وقال آخر

نسأوا الشهورَ بها وكانوا أهْلَها　　من قبلكم والعِزُّ لم يَتَحَوَّلِ

وقد استوعبنا الكلام على النسيء فى الأعمال التى أبطلها الإسلام ، والمقام اقتضى إيراد شيء منه . ومنهم :

أبو سيارة العدوانى

وهو رجل من بنى عدوان اسمه عميلة بن خالد الأعزل . وكان أحد خطباء العرب المذكورين وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة إلى منى أربعين سنة . وكان يقول : [1] أشرقْ ثبير ، كيما نغير [2] ويقول : لاهمّ إنى بائع بياعه ، إن كان إثم فعلى قضاعه . لاهم مالى فى الحمار الأسود . أصبحت بين العالمين أحسد . هلا يكاد ذو البعير الجلعد [3] فق أبا سيارة المحسد من شر كل حاسد إذا حسد . ومن أداة النافثات فى العقد . اللهم حبب بين نسائنا . و بغض بين رعائنا . واجعل المال فى سمحائنا . وفيه يقول الشاعر :

---

(١) راجع الجزء الأول ص ٢٤٨ .

(٢) أى نسرع الى النحر . (٣) الصلب الشديد .

خلوا الطريقَ عن أبى سيّارَهْ   وعن مواليه بنى فزارَهْ
حتى يجيز سالما حماره   مستقبل القبلة يدعو جارَهْ
فقد أجار الله من أجاره

وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشىّ يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين ويجعلان أبا سيارة لهما قدوة . ومنهم :

الحرث بن ذبيان بن لجا بن منهب اليمانى

كان من مشاهير خطباء العرب وفصحائهم فى عصره ؛ وله كلام مستحسن تكلم به فى المجامع والمشاهد العظيمة ، والخطوب الصعبة . روى أبو بكر بن دريد بسنده إلى ابن الكلبى عن أبيه قال : اجتمع طَريف بن العاصى الدوسى وهو جدّ طفيل ذى النورين بن عمرو بن طريف والحرث بن ذُبيان بن لجا بن منهب وهو أحد المعمّرين عند بعض مَقَاول[1] حِمْير فتفاخرا فقال الملك للحَرث يا حارث ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنَّمر بن عثمان ؟ فقال : أخبرك أيها الملك ! خرج هَجِينان منّا يرْعَيان غنماً لهما فتشاوَلا[2] بسيفيهما ، فأصاب صاحبهم عَقِبَ صاحبنا فعاث[3] فيه السيف فنزُفَ[4] فمات ، فسألونا أخذ دية صاحبنا دية الهَجين[5] وهى نصف دية الصَّريح[6] ، فأبى قومى وكان لنا رِباء[7] عليهم فأبينا إلا دية الصريح وأبوا إلّا دية الهجين . وكان اسم هجيننا ذهين بن زَبْراء واسم صاحبهم عَنْقَش بن مُهَيْرة ، وهى سوداء أيضاً[8] فتفاقم[9] الأمر بين الحيّين فقال رجل منا :

---

(١) المقاول والاقيال هم الذين دون الملك الاعظم (٢) تضاربا
(٣) أى أفسد والعيث الفساد (٤) سال دمه حتى ضعف
(٥) الذى أبوه عربى وأمه ليست عربية (٦) الخالص .
(٧) الرباء : الزيادة يقال أربى فلان على فلان فى السباب يربى ارباء اذا زاد عليه (٨) كذا فى الأصل ولم يتقدم الحكم على شيء بالسواد فلعله سقط من قلم الناسخ عند قوله: زبراء «وهى سوداء» أنظر أمالى القالى ج ١ ص٧٣
(٩) اشتد .

حُلومَكُمُ (يا قوم) لا تُعزِبُنَّها ولا تَقْطَعوا أرحامَكم بالتَّدَابُرِ [١]

وأدُّوا إلى الأقوام عَقْلَ ابن عمهم ولا تُرْهِقوهم سُبَّةً فى العشائر [٢]

فإن ابن زَبْراءَ الذى فادَ لم يكن بدون خُلَيفٍ أو أسيد بن جابر [٣]

فإن لم تُعاطوا الحقّ فالسيفُ بيننا وبينكم والسيفُ أجْوَرُ جائر

فتَضافروا علينا حسداً فأجمع ذَوُو الحجا منا أن نَلْحق بأمنع بطن من الأزد فلحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله مافتّ [٤] فى أعضادنا نأينا منهم [٥] ، ولقد أثأرْنا [٦] بصاحبنا وهم راغمون . فوثب طريف بن العاصى من مجلسه فجلس بإزاء الحرث ، ثم قال : تالله ما سَمِعْتُ كاليوم قولا أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل [٧] ولا أجاب لقَذَع [٨] من قول هـذا ، والله أيها الملك ، ماقتلوا بهجينهم بذَجا [٩] ، ولارقوا به درجا ، ولا أنطوا [١٠] به عقلا ، ولا اجتفأوا به خَشْلا [١١] ، ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم ، وأجلاهم عن محالهم ، حتى استلانوا خشونة الإزعاج ، ولجأوا إلى أضيق الولاج ، قُلاًّ وذُلاًّ [١٢] ! فقال الحرث : أتسمع ياطريف ؟ إنى والله ما إخالك كافاًّ غرْبَ [١٣] لسانك ، ولامُنَهْنهاً شِرّةَ نَزَوانك [١٤] حتى أسطوَ بك سطوةً تكفُّ طِماحك [١٥] ، وتردُّ جماحك ، وتكبتُ تَتَرُّعك [١٦] ، وتقمعُ تسرُّعك ! فقال طريف : مهلا ياجابر لا تعرضْ لطَخْمة [١٧] استنانى ، وذَرَب لسانى [١٨] ، وغرْب شباتى ، وميسم سنانى ، فتكون كالأظل [١٩] الموطوء ، والعَجَب الموجوء [٢٠] ! فقال

---

(١) عزب عنه حلمه وأعزب حلمه كقولك أضل بعيره ، وتدابر القوم : اختلفوا وتعادوا (٢) العقل : الدية ، وأرهقت الرجل عسرا : كلفته ذلك .
(٣) فاد يفود : مات ، وفاد يفيد : تبختر (٤) أوهن وأضعف
(٥) وفى بعض النسخ « فأبنا عنهم » (٦) افتعلنا من الثأر
(٧) خطأ (٨) الكلام القبيح (٩) خروفا وهو فارسى معرب وكذلك البرق فارسى معرب وهو الحمل (١٠) لغـة فى أعطوا (١١) اجتفأوا : صرعوا ، والخشل شجر المقل — وهذه أمثال كلها يريد أنهم لم ينالوا ثأره .
(١٢) القل : القلة ، والذل : الذلة (١٣) قال الفيومى : الغرب الحدة من كل شىء نحو الفأس والسكين حتى قيل اقطع غرب لسانه أى حدته .
(١٤) منهنها : كافا . والنزوان : الوثوب . وشرته : حدته ونشاطه .
(١٥) بالكسر النشوز والجماح (١٦) تسرعك الى الشر (١٧) طحمته السيل بالضم والفتح دفعته (١٨) الذرب : الحدة (١٩) أسفل خف البعير .
(٢٠) العجب : أصل الذنب ، والموجوء : المقطوع .

الحرث إيایَ تخاطب بمثل هذا القول ! والله لو وَطِئْتك لأَسَخْتُكَ ، ولو وَهَصْتك لأَوْهَطْتُكَ(١) ، ولو نَفَحْتُكَ لأفدتك ! فقال طريف . متمثلا :

وإنّ كلام المرء فى غير كُنهِهِ(٢) لَكالنَّبْلِ تَهْوى ليس فيها نِصالها(٣)

أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة ! لئن لم تَرْبَعْ على ظَلْعِكَ(٤) ، وتقِفْ عند قدرك ، لأَدَعَنّ حزْنَكَ(٥) سَهْلاً وغمْرَكَ ضَحْلاً(٦) ، وَصفاكَ(٧) وَحْلا ! فقال الحرث : أما والله لو رُمْتُ ذلك لرَغْتَ بالَحْضيض(٨) وأُغْصِصْتَ بالجريض(٩) وضاقت عليك الرحاب(١٠) وتقطعت بك الأسباب(١١) ، ولألْفِيتَ لقى تهاداه الرّوامس(١٢) ، بالسَّهْبِ الطامس(١٣) فقال طريف : دون ما ناجتك به نَفسُكَ مُقارَعَة أبطال ، وحياض أهوال . وحفْزة إعجال(١٤) يُمْنَعُ معه تطامن الإمهال ، فقال الملك : إيهاً عنكما(١٥) فما رأيتُ كاليوم مقال رجلين لم يَقصِبا(١٦) ولم يَثْلِبا(١٧) ولم يَلْصُوَا ولم يَقْفُوَا(١٨) ! وشرح هـذه الألفاظ يطول ، ومن أراد ذلك فليراجع كتب اللغة .

وأما خطب أهل الصدر الأول من الإسلام

فهى الغاية فى الفصاحـة ، والمنتهى فى البراعة والبلاغة ؛ وفى كتب الأدب الدائرة فى الأيدى شىء كثير من خطب الخلفاء الراشدين وغـيرهم مما تتحير

---

(١) وهصتك : كسرتك ، وأوهطتك : اهلكتك وقيل صرعتك .
(٢) أى فى غير وقته (٣) جمع نصل وهو حديدة السهم .
(٤) لم تربع : لم تكف وترفق . والظالع : الغمز (٥) الحزن : ما غلظ من الأرض بخلاف السهل (٦) الغمر : الماء الكثير ، والضحل الماء القليل .
(٧) جمع صفاة وهى الصخرة (٨) القرارمن الأرض اذا اتصل بالجبل وفى الحديث : ان العدو بعر عرة الجبـل ونحن بحضيضه فالعرعرة أعـلاه والحضيض أسفله (٩) الريق : وفى المثل « حال الجريض ، دون القريض » وهو يضرب لامر يعوق دونه عائق (١٠) الاراضى الواسعة (١١) أى الوصلات، الواحد سبب ووصلته وأصـل السبب الحبـل يشد بالشىء فيجـذب به ثم جعل كل ما جر شيئا سببا (١٢) الرياح التى ترمس أى تدفن
(١٣) السهب : المستوى من الأرض والطامس : الدارس
(١٤) الحفز : الدفع (١٥) قال أبو زيد « ايها » نهى ، و « ايه » أمر
(١٦) أى لم يشتما ، يقال قصبه يقصبه اذا وقع فيه واصل القصب القطع
(١٧) أى لم يعيبا ويتنقصا (١٨) لصاه : قذفه ، وقفاه يقفوه : قذفـه بأمر عظيم .

منه أولو الألباب ، وتقضى منه العجب العجاب ؛ قد اشتملت على الحكم والأسرار وما يستوجب خيرى الدنيا والآخرة دار القرار ، وما يقرب إلى مرضاة الله تعالى ويباعد عن دار البوار . هذا كتاب نهج البلاغة [١] قد استودع من خطب الإمام على بن أبى طالب سلام الله عليه ماهو قبس من نور الكلام الالهى ، وشمس تضئ بفصاحة المنطق النبوى ، وكذلك أهل القرن الثانى فليسوا بأقلّ فصاحة من العرب العرباء . ولامن أولئك الخطباء . روى أبو بكر بسنده إلى ابن الكلبى عن أبيه قال : لما قَتَلَ عبد الملك مُصْعَبَ بن الزبير دخل الكوفة فَصَعِدَ المنبر فحمِدَ الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال [٢] : أيها الناس إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السِّلْمَ أَمْنٌ ومسَرّة ، وقد زَبَنَتْنَا الحرب وَزَبَنَّاها [٣] فعرفناها وألفناها ، فنحن بَنُوها وهى أمنا . أيها الناس ! فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودعوا الأهواء المرْدِيَة ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمالَ المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً وان نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة ؛ فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فَلْيَعُدْ ، وإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

مَنْ يَصْلَ نارى بلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ ... يَصْلَ بنارِ كريمٍ غير غدّارِ [٤]

أنا النذير لكم منى مُجاهرةً ... كَىْ لا ألامَ على نهيى وإنذارى

---

(١) كان ابن سيرين يرى عامة مايروون عن على رضى الله عنه كذبا لا أصل له ولا سند . قال الشيخ العلامة المقبلى فى «العلم الشامخ» : وصدق ابن سيرين رحمه الله فان كل قلب سليم ، وعقل غير زائغ عن الطريق القويم ، ولب تدرب فى مقاصد سالكى الصراط المستقيم ، يشهد بكذب كثير مما فى (نهج البلاغة) الذى صار عند الشيعة عديل كتاب الله بمجرد الهوى الذى أصاب كل عرق منهم ومفصل ، وليتهم سلكوا مسلك جلاميد الناس ، واوصلوا ذلك الى على برواية تسوغ عند الناس ، وجادلوا عن رواتها ولكن لم يبلغوا بها مصنفها . . الخ (٢) أوردها القلقشندى فى صبح الاعشى (ج ١ ص ٢١٥) ببعض اختلاف ، وعزاها لمعاوية رضى الله عنه (٣) أى دفعتنا ودفعناها . (٤) صلى بالنار وصليها صلى من باب تعب : وجد حرها ، والترة : الظلم .

فإن عصيتم مقالى اليومَ فاعترفوا ... أنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزياً ظاهر العارِ (١)
لِتَرْجِعُنَّ أحاديثاً مُلَعَّنَةً ... لَهْوَ الْمُقِيمُ ولهو المُدْلِجِ السارى (٢)
من كان فى نفسه حَوْجاء يطلبها ... عندى فإنى له رَهْنٌ بإصحار (٣)
أُقِيمُ عَوْجَتَهُ إن كان ذا عِوَجٍ ... كما يُقَوِّمُ قِدْحَ النَّبعة البارى
وصاحبُ الوِتْرِ ليس الدهر مُدْرِكَهُ ... عنـدى وإنى لَدَرَّاكٌ لأوتارِى (٤)

وروى أبو بكر أيضاً . قال : ولَّى جعفر بن سليمان أعرابياً بعض مياههم فخطبهم يوم الجمعة فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ فإن الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقركم من ممرِّكم ، ولا تَهْتِـكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منهـا أبدانـكم ، ففيها حَيِيتم ، ولغيرها خُلقتم ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ، وقالت الملائـكة : ما قدّم ، فلله آباؤكم . قدِّموا بعضاً ، يكن لـكم قَرْضاً ، ولا تُخلِّفوا كُلاًّ ، يكن عليكم كَـلاًّ ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولـكم . وروى أبو بكر قال حدثنا أبو عثمان عن التوزى عن أبى عبيدة قال : قعد المأمون الحارثي فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم فـكر طويلاً ثم قال : أرْعونى أسماعكم ، وأصغوا إلىَّ قلوبكم ، يَبلغ الوعظ منها حيث أريد . طَمَحَ بالأهواء الأشر (٥) ، وران (٦) على قلوبكم الـكَدَرَ ، وطَخْطَخَ (٧) الجهلُ النظر ، إن فيما يرى لمُعْتَبِرًا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلعُ وتغرُب ، ونجوم تسرى فتَعْزُبُ وقمر تُطلعه النّحور ، وتمحقه أدبار الشهور ، وعاجز مثر (٨) ، وقول مكدر ، وشاب محتضر ، ويفَن قد غَبَرَ (٩) وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون (١٠)

---

(١) الخزى : الهوان (٢) المدلج : الذى يسير من أول الليل . والسارى: الذى يسير بالليل (٣) الحوجاء : الحاجة . وقوله « فانى له رهن باصحار » أى بالبروز الى الصحراء فلا استتر عنه ولا امتنع فى الاماكن الحصينة .
(٤) الوتر : الذحل والثار (٥) طمح : ارتفع وعلا (٦) غلب (٧) أظلم
(٨) فى بعض النسخ : « وعاجز مثر ، وحول مكد ، وشـاب مختضر » والمختضر الذى يموت حدثا مأخوذ من الخضرة كانه حصد أخضر .
(٩) اليفن : الشيخ الكبير ، وغبر : مضى (١٠) اى لا يقدمون .

ومطر يُرْسَلُ بقدر ، فيحيي البشر ، ويورق الشجر ، و يُطلع الثمر ، ويُنبت الزَّهر . وماء يتفجر من الصخر الأيَرّ[١] ، فيصدع المدَر ، عن أفنان الخُضَر ، فيُحيي الأنام ، و يُشبع السَّوَام[٢] ، ويُنمى الأنعام ، إنّ فى ذلك لأوضحَ الدلائل على المدبر المقدّر ، البارىء المصوّر ، يا أيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة[٣] أنى تؤفكون ، وعن أىّ سبيل تعمهون[٤] وفى أى حيْرة تهيمون ، و إلى أىّ غاية تُوفِضُون[٥] ؟ لو كُشِفَتِ الأغطية عن القلوب ، وتجلّت الغِشاوة عن العيون ، لَصَرَّحَ الشك عن اليقين ، وأفاق من نَشْوة الجهالة[٦] ، من استولت عليه الضلالة.

وما ذكرناه من بديع الخطب ، ومستحسن كلام العرب ، و إنْ كان قطرة من مستعذب بحر ، ودرة فريدة من عقد نَحْر ، فهو كافٍ فى هذا المقام ، وكافل بأداء المقصود والمرام . ومن علومهم :

علم الانساب

وهو علم يتعرف به أنساب الناس . والعرب فى الجاهلية كان لهم مزيد اعتناء بضبطه ومعرفته فإنه أحد أسباب الألفة والتناصر . وهم كانوا أحوج شىء إلى ذلك حيث كانوا قبائل متفرقين ، وأحزاباً مختلفين ؛ لم تزل نيران الحروب متسعرة بينهم ، والغارات ثائرة فيهم ، فإنّهم امتنعوا عن سلطان يقهرهم ، ويكف الأذى عنهم ؛ فحفظوا أنسابهم ليكونوا متظافرين به على خصومهم ، ومتناصرين على من شاققهم وعاداهم ، لأن تعاطف الأرحام ، وحمية الأقارب ، يبعثان على التناصر والألفة و يمنعان من التخاذل والفرقة ، أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب ، وتوقياً من تسلط الغرباء الأجانب ؛ وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « إنّ الرَّحِمَ إذا تماست تعاطفت » وقد بلغت العرب بألفة الانساب

---

(١) على مثال الاصم الصلب (٢) بالفتح الابل الراعية (٣) يقلل نأرت نائرة أى هاجت هائجة . (٤) تؤفكون : تصرفون عن الخير . وتعمهون : تتحيرون (٥) تسرعون (٦) أى سكرة الجهالة .

تناصرها على القوى ، وتأيدت به ، واستحكمت به ركن مجدها العلى ، وقد أعذر نبى الله لوط عليه السلام نفسه حين عـدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث إليهم « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » يعنى عشيرة مانعة . وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما بعث الله تعالى من بعده نبياً إلا فى ثروة من قومه » وقال وهب « لقد وردت الرسل على لوط وقالوا إن ركنك لَشَديدٌ » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك المرء مفرجاً حتى يضمه إلى قبيلة يكون منها . وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « من كثر سواد قوم فهو منهم » وإذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها ، وتبعث على الفرقة المنافية لها ، فلزم أن نصف حال الأنساب ، وما يعرض لها من الأسباب فجملة الأنساب أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم والدون ، وقسم مولودون ، وقسم مناسبون ، ولـكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة ، فأما الوالدون فهم الآباء والأمهات والأجداد والجدات ، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم بالطبع . والثانى حادث باكتساب ، فأما ما كان لازماً بالطبع فهو الحذر والإشفاق ، وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال ؛ وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنّه قال » الولد مبْخلة مجهلة مجبنة محزنة[1] فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الأوصاف ، ويحدث هذه الأخلاق ، وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهـذه الحالة التى لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعاً ، وحدوثها حتماً ؛ وقيل ليحيى بن زكريا (عليهما السلام) ما بالك تـكره الولد ؟ فقال مالى وللولد ! إن عاش كدنى وإن مات هدنى ! وقيل

(١) قال المناوى : هذا الحديث متواتر فقد جاء عن بضـعه وعشرين من الصحابة ورووه هكذا : « الولد ثمرة القلب وانه محبنة مبخلة محزنة » قوله : « ثمرة القلب » أى لأن الثمرة تنتجها الشجرة والولد نتيجة الأب . وقوله « مجبنة » أى يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، وقوله « مبخلة » أى يمتنع أبوه من الانفاق فى الطاعة خوف فقره ، وقوله « محزنة » أى يحزن أبوه لمرضه خوف موته .

لعيسى بن مريم عليه السلام : ألا تتزوج ؟ فقال : إنما يحب التكاثر في دار البقاء ! وأما ما كان حادثاً بالاكتساب فهو المحبة التي تنمى مع الأوقات ، وتتغير مع تغير الحالات وروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « الولد أنوط » يعنى أن حبه يلتصق بنياط القلب[1] وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد » فإن انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت عن عقوق ، أو تقصير مع بقاء الحذر والإشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه ، فقد قال محمد بن على رضى الله تعالى عنهما : إن الله تعالى رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنتهم ، ولم يوصهم بهم ، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم ، وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق ، وشر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط . والأمهات أكثر إشفاقاً ، وأوفر حباً ، لما باشرن من الولادة ، وعانين من التربية ، فإنهن أرق قلوباً ، وألين نفوساً ، وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن ، وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر ، وجمع بينهما فى الوصية ، فقال تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً » وقد روى أن رجلا أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : « إن لى أماً أنا مطيعها : أقعدها على ظهرى ، ولا أصرف عنها وجهى ، وأرد إليها كسبى فهل جزيتها ؟ » قال : لا ولا بزفرة واحدة . قال : ولم ؟ قال : « لأنها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها » وقال الحسن البصرى « حق الوالد أعظم ، وبر الوالد ألزم » . وروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « أنهاكم عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات » وروى خالد بن معدان عن المقداد قال « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » . وأما المولودون فهم الأولاد ، وأولاد الأولاد ، والعرب تسمى ولد الولد الصفوة ،

---

(١) النياط بالكسر عرق متصل بالقلب من الوتين اذا قطع مات صاحبه .

وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم ، والآخر منتقل . فأما اللازم فهو الأنفة للآباء من تهضم أو خمول ، والأنفة فى الأبناء فى مقابلة الإشفاق فى الآباء . وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى بقوله :

فأصبحتُ يلقانى الزمانُ لأجله   بإعظامِ مولودٍ وإشفاقِ والدِ

فأما المنتقل فهو الإدلال ، وهو أول حال الولد ، والإدلال فى الأبناء أمس . وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله ! ما بالنا نَرِق على أولادنا ولا يَرِقُّونَ علينا ؟ قال «لأنا ولدناهم ولم يلدونا» . ثم الإدلال فى الأبناء قد ينتقل مع الكبر إلى أحد أمرين : إما إلى البر والإعظام ، و إما إلى الجفاء والعقوق ؛ فإن كان الولد رشيداً أو كان الأب براً عطوفا صار الإدلال براً و إعظاماً . وقد روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله : إن حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ، و يؤثره على نفسه عند النصب والسغب ، فإن المكافئ ليس بالواصل ، ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها ، و إن كان الولد غاوياً ، أو كان الوالد جافياً ، صار الإدلال قطيعة وعقوقاً . ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « رحم الله امرأ أعان ولده على بره » . و بشر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بمولود فقال : ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار ، أو عدو ضار ؛ وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم ، والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى أدنى رتبة الأنفة لأن الأنفة تمنع من التهضم . وليس لها فى كراهة الخمول نصيب إلا أن يقترن بها ما يبعث على الألفة . وحمية المناسبين إنما تدعو إلى النصرة على البعداء والأجانب . وهى معرضة لحسد الأدانى والأقارب ، موكولة إلى منافسة الصاحب بالصاحب ، فإن حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها . واقترن بحمية النسب مصافاة المودة ، وذلك أوكد أسباب الألفة ، وقد قيل لبعض

قريش : أيما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ قال : أخى إذا كان صديقاً ! وقال مسلمة بن عبد الملك : العيش فى ثلاث : سعة المنزل ، وكثرة الخدم ، وموافقة الأهل . وقال بعض أهل العلم : البعيد قريب بمودته ، والقريب بعيد بعداوته ؛ وإن أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب ، واعتماداً على حمية القرابة ، غلب عليها مقت الحسد ، ومنازعة التنافس ، فصارت المناسبة عداوة ، والقرابة بعداً . وقال الكندى فى بعض رسائله : الأب ، رب ؛ والولد ، كمد ؛ والأخ ، فخ ؛ والعم غم ؛ والخال ، وبال ، والأقارب ، عقارب . وقال ابن المعتز فى معنى ذلك :

لحومهم لحمى وهم يأكلونه　　　وما داهيات المرء إلا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام ، وأثنى على واصلها ، فقال تعالى « والذين يصلون ما أمر الله أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » قال المفسرون : هى الرحم التى أمر الله بوصلها ، ويخشون ربهم فى قطعها ، ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها . وروى عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتققت لها من اسمى اسماً فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : صلة الرحم منماة للعدد ، مثرة للمال ، محبة فى الأهل ، منسأة فى الأجل . وقال الأزدى :

وحسبك من ذل وسوء صنيعة　　　مناواة ذى القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه　　　لترجعه يوماً إلىَّ الرواجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل　　　وعبدٌ لأرحام القرابة قاطعُ

والمقصود أن اعتناء العرب بحفظ الأنساب لما يترتب عليه من مقاصدهم التى ذكرناها ، والشريعة أكدت ما كانوا عليه ، وندبت بنصوصها إليه ، خلافاً لمن زعم أن علم النسب علمٌ لا ينفع وجهل لا يضر . وقد رد ابن حزم فى مقدمة كتاب

النسب على من زعم ذلك بأن فى علم النسب ما هو فرض على كل أحد ، وما هو فرض على الـكفاية ، وما هو مستحب ؛ قال : فمن ذلك أن يعلم أن محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ابن عبد الله الهاشمى فمن زعم أنه لم يكن هاشمياً فهو كافر ؛ وأن يعلم أن الخليفة من قريش ، وأن يعرف من يلقاه بنسب فى رحم محرمة ليجتنب تزويج ما يحرم عليه منهم ، وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة ؛ وأن يعرف أمهات المؤمنين وأن نـكاحهن حرام على المؤمنين ؛ وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب ؛ وأن يعرف الأنصار ليحسن إليهم لثبوت الوصية بذلك ، ولأن حبهم إيمان وبغضهم نفاق . قال : ومن الفقهاء من يفرق فى الجزية وفى الاسترقاق بين العرب والعجم فحاجته إلى علم النسب آكد . وكذا من يفرق بين نصارى بنى تغلب وغيرهم فى الجزية وتضعيف الصدقة . قال : وما فرض عمر رضى الله تعالى عنه الديوان إلا على القبائل ، ولولا علم النسب ما تخلص له ذلك ؛ وقد تبعه على ذلك عثمان وعلىّ وغيرهما .

وقال ابن عبد البر فى أول كتابه النسب : ولعمرى لم ينصف من زعم أن علم النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر ، وقال صاحب كتاب (نهاية الأرب ، فى معرفة قبائل العرب) : لاخفاء أن المعرفة بعلم الأنساب من الأمور المطلوبة ، والمعارف المندوبة ، لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية ، والمعالم الدينية ؛ فقد وردت الشريعة المطهرة باعتبارها فى مواضع ، منها : العلم بنسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه النبى القرشى الهاشمى الذى كان بمكة وهاجر منها إلى المدينة المنورة فإنه لابد لصحة الإيمان من معرفة ذلك ، ولا يعذر مسلم فى الجهل به ، وناهيك بذلك ! ومنها : التعارف بين الناس حتى لا يعتزى أحد إلى غير آبائه ، ولا ينتسب إلى سوى أجداده ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وعلى هذا يترتب

أحكام الورثة فيحجب بعضهم بعضاً ، وأحكام الأولياء فى النكاح ، فيقدم بعضهم على بعض ، وأحكام الوقف إذا خص الواقف بعض الأقارب ، أو بعض الطبقات دون بعض . وأحكام العاقلة فى الدية حتى يضرب الدية على بعض العصبات ؛ وما يجرى مجرى ذلك . فلولا معرفة الأنساب لفات إدراك هذه الأمور وتعذر الوصول إليها ؛ ومنها : اعتبار النسب فى كفاء الزوج والزوجة فى النكاح ففى مذهب الإمام الشافعى لا يكافىء الهاشمية والمطلبية غيرهما من قريش ، ولا يكافىء القرشية غيرها من العرب ممن ليس بقرشى ؛ وفى الكنانية وجهان أصحهما أن لا يكافئها غيرها ممن ليس بكنانى ولا قرشى ؛ وفى اعتبار النسب فى العجمى أيضاً وجهان أصحهما الاعتبار . وفى مذهب الإمام أبى حنيفة : قريش بعضهم أكفاء بعض ؛ وبقية العرب بعضهم أكفاء بعض ؛ وأما فى العجم فلا يعتبر النسب عندهم . فإذا لم يعرف النسب تعذرت معرفة هذه الأحكام . ومنها : مراعاة النسب الشريف فى المرأة المنكوحة فقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع : لدينها وحسبها ومالها وجمالها » فراعى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المرأة المنكوحة الحسب وهو الشرف فى الآباء إلى غير ذلك من الأحكام الجارية هذا المجرى .

طبقات الأنساب

قال الإمام الماوردى فى كتاب (الأحكام السلطانية) وقد رتبت أنساب العرب ست مراتب فجعلت طبقات أنسابهم وهى : شَعْب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان . سمى شعباً لأن القبائل منه تشعبت . ثم القبيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الشعب مثل ربيعة ومُضَر سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها . ثم العِمارة وهى ما انقسم فيه أنساب القبائل مثل قريش وكنانة . ثم البطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة

مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم . ثم الفخذ وهو ماانقسم فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم وبنى أمية . ثم الفصيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الفخذ مثل بنى أبى طالب وبنى العباس . فالفخذ يجمع الفصائل . والبطن يجمع الأفخاذ . والعمارة تجمع البطون . والقبيلة تجمع العمائر . والشعب يجمع القبائل . و إذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً . والعمائر قبائل انتهى . وقد قسمها الزبير بن بكار فى كتاب النسب إلى شعب ، ثم قبيلة ؛ ثم عمارة (بكسر العين) ثم بطن ، ثم فخذ ثم فصيلة. وزاد غيره قبل الشعب الجذم ، و بعد الفصيلة العشيرة . ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة فمثال الجذم عدنان ، ومثال الشعب مُضر ، ومثال القبيلة كنانة ، ومثال العمارة قريش ، وأمثلة ما دون ذلك لا تخفى . قال : ويقع فى اعتباراتهم أشياء مرادفة لما تقدم كقولهم حىّ وبيت وعقيلة وأرومة وجرثومة ورهط وغير ذلك . ورتبها محمد بن أسعد النّسابة المعروف بالحرانى جمعها وأردفها فقال : جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد غيره فى أثنائها ثلاثة وهى : بيت وحى وجماع . فزادت على ما ذكر الزبير عشرة . وقال أبو إسحق الزجاج : القبائل للعرب كالأسباط لبنى إسرائيل ، ومعنى القبيلة الجماعة . ويقال لكل ما جمع على شىء واحد قبيلة أخذا من قبائل الشجرة وهو غصونها . أو من قبائل الرأس وهو أعضاؤها ، سميت بذلك لاجتماعها ، والمراد بالشعوب فى الآية النسب البعيد . وهو قول مجاهد أخرجه الطبرى عنه . وذكر أبو عبيدة مثال الشعب مضر وربيعة ، ومثال القبيلة من دون ذلك . وأنشد لعمرو بن أحمر :

من شعب هَمْدانَ أو سعد العشيرة أو خولان أو مَذْحجٍ هاجوا له طرَبا[1]

(١) همدان : بسكون الميم قبيلة باليمن وجميع ما فى الصحابة والرواة ومصنفات الحديث هو نسبة لهذه القبيلة . وأما همذان البلد فهى بالتحريك والذال المعجمة ولا ينسب اليها أحد من الرواة لا فى الصحيحين ولا فى غيرهما

ويقال : المراد بالشعوب فى الآية بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، والله أعلم . وترتيب الإمام الماوردىّ هو الأولى بالاعتبار ، وكأن العرب رتبوا ذلك على بنية الإنسان فجعلوا الشعب منها بمثابة أعلى الرأس ، والقبائل بمثابة قبائل الرأس ، وهى القطع المشعوب بعضها إلى بعض يتصل بها الشئون وهى القنوات التى فى القحف لجريان الدمع : وقد ذكر الجوهرى أن قبائل العرب إنما سميت بقبائل الرأس وجعلوا العمارة تلو ذلك إقامة للشعب ، والقبيلة مقام الأساس من البناء ، وبعد الأساس تكون العمارة ، وهى بمثابة العنق والصدر من الإنسان وجعلوا البطن تلو العمارة لأنها الموجود من البدن بعد العنق والصدر ، وجعلوا الفخذ تلو البطن لأن الفخذ من الإنسان بعد البطن ، وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ لأنها النسب الأدنى الذى ينفصل عنه الرجل بمثابة الساق والقدم . إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون بدليل قوله تعالى (وفصيلته التى تؤويه) أى تضمه إليها ولا يضم الرجل إلا أقرب عشيرته . واعلم أن أكثر ما يدور على الألسنة من الطبقات الست المتقدمة : القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة ثم الفخذ والفصيلة . وربما عبر عن كل واحد من الطبقات الست بالحى . إما على العموم مثل أن يقال حىٌّ من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حى من بنى فلان . ثم إن ترتيب العرب فى الديوان إذا أثبتوا فيه كالترتيب الذى فعله عمر رضى الله تعالى عنه حين دونهم فإنهم تجمعهم أنساب وتفرق بينهم أنساب ، فترتبت قبائلهم بالقربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بالترتيب فى أصل النسب ثم بما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان فقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم ، وعدنان تجمع ربيعة ومضر فقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم ، وقريش تجمع بنى هاشم

من كتب الحديث الستة .. وبنو سعد العشيرة : حى من كهلان من القحطانية وجعل فى العبر سعد العشيرة بطنا من مذحج ، ومذحج قبيلة من كهلان . وخولان بطن من كهلان من القحطانية .

وغيرهم فقدم بنى هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب إليهم حتى استوعب قريشاً ثم بمن يليهم فى النسب حتى استوعب جميع عدنان ، والله يختص بفضله من يشاء .

ما يجب للناظر فى علم الأنساب

لابد للناظر فى علم الأنساب من أمور منها ما ذكره الجوهرى أن القبيلة هى بنو أب واحد . وقال ابن حزم . جميع قبائل العرب راجعة إلى أب واحد سوى ثلاث قبائل ، وهى : تَنُوخ ، والعُتق ، وغسَّان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون[1] نعم الأب الواحد قد يكون أبا لعدة بطون ؛ ثم أبو القبيلة قد يكون له عدة أولاد فيحدث عن بعضهم قبيلة أو قبائل فينسب إليه من هو منهم ويبقى بعضهم بلا ولد أو يولد له ولم يشتهر ولده فينسب إلى القبيله الأولى ومنها إذا اشتمل النسب على طبقة فأكثر كهاشم وقريش ومضر وعدنان جاز لمن فى الدرجة الأخيرة من النسب أن ينسب إلى الجميع فيجوز لبنى هاشم أن ينسبوا إلى هاشم و إلى قريش و إلى مضر و إلى عدنان . فيقال فى أحدهم الهاشمى والقرشى والمضرى والعدنانى . بل قد قال الجوهرى إن النسبة إلى الأعلى تغنى عن النسبة إلى الأسفل فإذا قلت فى النسبة إلى كلب بن وبرة الكلبى استغنيت أن تنسبه إلى شىء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع فى النسب بين الطبقة العليا والطبقة السفلى ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى مثل أن يقال الأموى العثمانى و بعضهم يرى تقديم السفلى على العليا فيقال العثمانى الأموى ومنها : أن الرجل قد ينضم إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينسب إليهم فيقال فلان حليف بنى فلان أو مولاهم . ومنهـا : أن الرجل إذا كان من قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرى

---

(١) أقول : وذلك أن تنوخا اسم لعشر قبائل اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا بتنوخ أخذا من التنخ وهو المقام ، والعتق جمع اجتمعوا على النبى صلى الله عليه وسلم فظهر بهم فأعتقهم فسموا بذلك ، وغسان عدة بطون من الازدنزلوا على ماء يسمى غسان فسموا به .

جاز أن ينسب إلى قبيلته الأولى وأن ينسب إلى القبيلة التى دخل فيها ، وأن ينسب إلى القبيلتين جميعاً مثل أن يقال التميمى ثم الوائلى ، أو الوائلىّ ثم التميمى وما أشبه ذلك . ومنها : أن القبائل فى الغالب تسمى باسم الأب الوالد للقبيلة ، كربيعة ومضر والأوس والخزرج ونحو ذلك ، وقد تسمى القبيلة باسم أم القبيلة : كخندف وبجيلة ونحوهما . وقد تسمى باسم خاصة (خصت أهل تلك القبيلة) ونحو ذلك وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كغسان ، فإنهم نزلوا على ماء يسمى غسان فسموا به . وربما وقع اللقب الواحد عليه فسموا به . وقيل غير ذلك مما هو مذكور فى كتب الأنساب . ومنها : إذا كان فى القبيلة اسمان متوافقان كالحرث والحرث مثلا وأحدهما من ولد الآخر وبعده فىّ الوجود عبروا عن الوالد السابق منهما بالأكبر وعن اللاحق بالأصغر .

مذهب العرب في أسماء القبائل

أسماء القبائل فى اصطلاح العرب على خمسة أوجه (الأول) أن يطلق على القبيلة لفظ الأب : كعادٍ وثمُودَ ومَديَنَ ، ومن شاكلهم ، وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى (وإلى عادٍ . وإلى ثمُودَ . وإلى مَديَنَ) يريد بنى عاد ، وبنى ثمود ، وبنى مدين ، ونحو ذلك ، وأكثر ما يكون ذلك فى الشعوب والقبائل العظام لا سيما فى الأزمان المتقدمة بخلاف البطون والأفخاذ ونحو ذلك (الوجه الثانى) أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان . وأكثر ما يكون ذلك فى البطون والأفخاذ والقبائل الصغار ، لاسيما فى الأزمان المتأخرة (الوجه الثالث) أن ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبِيِّين والجعَافِرة ونحوهما ، وأكثر ما يكون ذلك فى المتأخرين دون غيرهم (الوجه الرابع) أن يعبر عنها بآل[1] فلان : كآل ربيعة ، وآل فَضْلٍ ، وآل علىّ وما أشبه ذلك ؛ وأكثر ما يكون هذا فى الأزمنـة المتأخرة ، لاسيما عرب الشام (الوجه الخامس) أن يعبر عنها

---

(١) المراد بالآل الاهل .

بأولاد فلان ، ولا يوجد ذلك إلا فى المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة : (كقولهم أولاد زعازع ، وأولاد قريش ونحو ذلك) .

مذهب العرب فى التسمية والكنى

الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككاب وحَنْظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء ، كفلاح ونجاح ونحوهما والسبب فى ذلك ما حُكى أنه قيل لأبى الدقيش[1] الكلابىّ : لِمَ تسُمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (يريد أن الأبناء معدة للأعداء ؛ فاختاروا لهم شر الأسماء والعبيد معدة لأنفسهم فاختاروا لهم خير الأسماء) كذا فى كتاب (نهاية الأرب) وقال الحافظ ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة : كانت للعرب مذاهب فى تسمية أولادهم ، فمنهم من سمى تفاؤلاً بالظفر على أعدائهم نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وغارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق . ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك . ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلاً بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل . ومنهم من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه كائناً ما كان من سبع أو ثعلب أو ضبّ أو ظبى أو كلب أو حشيش أو نحو ذلك وكان القوم على ذلك إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام انتهى . وغالب أسماء العرب كما فى النهاية منقولة عما يدور فى خِزَانة خَيالهم مما يخالطونه ويجاورونه ؛ إما من الحيوان كأسد ونَمِر ، وإما من النبات كنبت وحنظلة ، وإما من الحشرات كحية وحنش ، وإما من أجزاء الأرض كفهر وصخر ونحو ذلك . ورأيت فى سبب

---

(١) أهمله فى الأصل وصوابه الاعجام .

تسمية الموضع الذى قتل فيه الزبير بن العوام (بوادى السباع) وهو من نواحى الكوفة بين البصرة ومكة : أن أسماء بنت دُرَيْم بن القَيْن بن أهْوَد بن بَهراء كان يقال لها أم الأسْبُع وولدها بنو وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة يقال لهم السباع ، وهم كلب وأسد والذئب والفَهد وثعلب وسرحان ونَزْك[1] (بفتح النون وسكون الزاى وهو الحريش[2] ويقال له الكَرْكَدَّن[3] له قرن واحد يحمل الفيل على قرنه على ما قيل) وخثعم (وهو الضبع) والفِزْر (وهو الببر نوع من الضباع دون جرم الفهد إلا أنه أشد وأجرأ منه) وعنزة (وهى دابة طويلة الخطم تُعَدُّ من رؤوس السباع تأتى الناقة فتدخل خطمها فى حيائها وتأكل ما فى بطنها ، وتأتى البعير فتملخ عينيه) وهر وضَبُع والسِمْع (بالكسر وهو ولد الذئب من الضبع) ودَيْسَم (وهو الثعلب وقيل ولد الذئب) وتِمِس (وهو دويبة فوق ابن عرس يأكل اللحم وهو أسود ملمع ببياض) والعِفْر (جنس من البَبْر) وسيد[4] والدُلْدُل[5] والظربان[6] (دويبّة) منتنة الفساء) ووعْوَع (وهو ابن آوى الضخم) وكانت تنزل مع أولادها بهذا الوادى فسمى (وادى السباع) بأولادها تغليباً ، فإن السباع جمع سبع ، وهو يقال على ماله ناب و يعدو على الناس والدواب فيفترسها مثل الأسد ، والذئب والنمر والفهد فأما الثعلب فإنه وإن كان له ناب فإنه ليس بسبع لأنه لا عدوان له وكذلك الضبع قال ابن حبيب : مَرَّ وائل بن قاسط بأسماء هذه أم ولد وبَرَة ، وكانت امرأة جميلة وبنوها يرعون حولها فهمّ بها ، فقالت له : لعلك أسررت فى نفسك منى شيئاً فقال : أجل ! فقالت : لئن لم تنته لأستصرخنّ عليك أسبعى ، فقال ما أرى بالوادى أحداً ! فقالت : لو دعوت سباعه لمنعتنى منك ، وأعانتنى عليك ! فقال : أو تفهم السباع عنك ؟ فقالت : نعم : ثم رفعت صوتها : يا كلب ! يا ذئب !

---

(١) قال المجد : النزك بالكسر ويفتح ذكر الضب والورل .
(٢) دويبة قدر الاصبح بارجل كثيرة أو هى دخال الاذن .
(٣) مشددة الدال والعامة تشدد النون (٤) ذئب (٥) القنفذ أو عظيمه أو شبهه . (٦) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٢٧ .

يا فهد ! يا دُبّ ! يا سرحان ! يا أسد ! فجاءوا يتعادون ويقولون : ما خبرك يا أماه ؟ قالت : ضيفكم هذا أحسنوا قِراه ولم تر أن تفضح نفسها عند بنيها فذبحوا له وأطعموه ، فقال وائل : ما هذا إلاّ وادى السباع ! فسمى بذلك انتهى ، وقد ذكرت هذه القصة أيضا فى القاموس مع اختصار . . ومنهم من كان يسمى بعبد العزّى وعبد ودّ وعبد مَناة ونحو ذلك مما فيه إضافة العبودية لأحد أصنامهم ، ومنهم من كان يسمى ببيت شعر ونحوه مما يطول ذكره (وأما الكنى) فقد وقعت فى كلامهم قديماً وحديثا ، وكانت العرب تقصد بها التعظيم فإن بعض النفوس تأنف أن تخاطب باسمها ولذلك يجاء بها للانسان فى مقام الإكرام والاحترام كما يشير إلى ذلك قول الشاعر :

أُكنّيه حينَ أُناديه لأُكْرِمَهُ ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْأَةَ اللقبا[1]

وأصل الكنية من الكناية . وهو أن تتكلم بالشىء وتريد به غيره . ويقال كنيت وكنوت بكذا وعن كذا كنية وكنية والجمع الكنى واكتنى فلان بكذا ويكنى بكذا ، وكنيته أبا كذا وبأبى كذا . وجاء التخفيف والتثقيل والتخفيف أكثر وفلان كَنِيُّ فلان إذا شاركه فى الكنية كما يقال سميّه إذا شاركه فى الاسم (وسبب الكنى فى العرب) أن ملكاً من ملوكهم الأول ولد له ولد توسم فيه أمارات النجابة فشغف به فلما نشأ وترعرع[2] وصلح لأن يؤدب أدب الملوك أحبّ أن يفرد له موضعاً بعيداً من العمارة يكون فيه مقيماً يتخلّق بأخلاق مؤدبيه ، ولا يعاشر من يضيع عليه بعض زمانه ، فبنى له فى البرية منزلا ونقله إليه ورتب له من يؤدبه بأنواع الآداب العلمية والملكية ، وأقام له

---

(١) نسبه أبو تمام فى مختار أشعار قبائل العرب لبعض الفزاريين ولم يسم قائله ، وأورد بعده هذا البيت :

كذاك أدبت حتى صار من خلقى انى وجدت ملاك الشيمة الأدبا

والسوأة منصوب على أنه مفعول معه ، واللقب منصوب بألقبه . والملاك: اسم لما يملك به الشىء . والشيمة : الغريزة والطبيعة . والأدب : اسم لما يفعله الانسان فيتزين به فى الناس . (٢) أى تحرك ونشأ .

ما يحتاج إليه من أمر دنياه ، ثم أضاف إليه من هو من أقرانه وأضرابه من أولاد بنى عمه وأمرائه ليؤنسوه ، ويتأدبوا بآدابه ، ويحببوا له التأدب بموافقتهم له عليه وكان الملك فى رأس كل سنة يمضى إلى ولده ويستصحب معه من أصحابه من له ولد عند ولده ليبصروا أولادهم ، فكانوا إذا وصلوا إليهم سأل ابن الملك عن أولئك الذين جاءوا مع أبيه ليعرفهم بأعيانهم ، فيقال له : هذا أبو فلان وهذا أبو فلان ! يعنون آباء الصبيان الذين هم عنده ، فكان يعرفهم بإضافتهم الى أبنائهم ، فمن هنالك ظهرت الكنى فى العرب ، ثم انتشرت واتسعت حتى صاروا يكنون كل إنسان باسم ابنه ، ثم اتسع الأمر فصاروا يكنون من لم يكن له ابن وكان له بنت ببنته كما قيل لمسروق بن الأجدع : أبو عائشة ؛ ومن لم يكن له ابن ولا بنت يكنونه بأقرب الناس إليه ، كما كنى النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم عبد الله ابن الزبير وهو صبى بأبى بكر وهو جد لأُمه أسماء ، ثم لما ولد له ولد سماه خبيباً ، وتكنى به فصار له كنيتان ، وجروا فى كنى النساء بالأمهات هذا المجرى فقالوا : أم سلمة ، وأم زينب فى الكنى بالأولاد ، وأم عبد الله فى كنية عائشة (رضى الله تعالى عنها) يعنون عبد الله بن الزبير وهو ابن أختها أسماء حيث لم يكن لها ولد ثم لما شارك الناس فى الولادة باقى الحيوانات كنوا ما كنوا منها بالآباء والأمهات كأبى معاوية لابن آوى ؛ وأم عامر للضبع ، وأجروها فى ذلك مجرى الأناسى ، وكذلك فعلوا فى إضافة الأبناء والبنات إكراماً واحتراماً لهم بإضافتهم الى آبائهم مع ترك أسمائهم فقالوا : ابن عباس ، وابن عمر ، وكانوا يقولون للحسين : ابن بنت رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) كرامةً له بأمه ، وأجروا غير الأناسى مجراها فى ذلك فقالوا : ابن قترة للحية ، وبنت حذف لضرب من غنم الحجاز ، ولما توسعوا فى إجراء الحيوانات العجم مجرى الناس فى الكنى والأبناء حملوا عليها بعض الجمادات فأجروها مجراها ، فقالوا : أبو جابر للخبز ، وأم قار للداهية ، وابن ذكاء للصبح ، وبنت الأرض للحصاة ، ثم إنهم يجروه على سَنَنٍ واحد

فكنوا بالآباء مذكراً على الأصل فقالوا للذئب : أبو جعدة ، وللنمر أبو جهل ، وكنوا بها مؤنثاً من الجمادات فقالوا للنار : أبو سريع ، وأبو حباحب ، وكذلك فى الأمهات فقالوا للقوس : أم السهام ، ولجبل معروف أم سخل ، وجروا فى البنين والبنات هذا المجرى فقالوا للغراب : ابن دَأية ، ولطائر معروف بنْت الماء ، وقد جروا فى الأسماء والكنى على قسمين : معتاد ، ونادر ، فمن المعتاد الكنية بالأولاد ، والنادر كأبى تراب لعلىّ (كرم الله تعالى وجهه) واستعملوهما أيضاً فى ذى وذات ، فمن المعتاد ذو الجلال ، وذات البروج ، ومن النادر ذو النون ، وذات النطاقين ، ومن الكنى والأبناء ما جعل علماً للمسمى لا لمعنى فيه ، ومنها ما جعل صفة لمعنى فيه . وينقسم ما سموه من هذه الأسماء والكنايات والإضافات إلى ثلاثة أقسام : الأول ما يلزم (ألْ) كأبى الحرث للأسد ، وأبى الحصين للثعلب ، والثانى مالا تدخله أل كأبى جعدة ، وأم عامر ، وابن دأية ، وبنت طَبَق للحية ، والثالث ما يجوز إدخال أل فيه وإسقاطها : كأبى مضاء للفرس ، وأم رئال للنعامة ، وابن ماء لطير الماء ، وقد اتسعوا فى الأم أكثر من اتساعهم فى الأب ، واتسعوا فى الابن والبنت أكثر من اتساعهم فى الأم ، حتى قالوا للقصيدة من الشعر : هى ابنة ليلها وفلان ابن بطنه ، وابن فرجه ، إذا كان همه فيهما ، وابن يومه أى لا يتفكر فى غده وقالوا هؤلاء أبناء فارس والروم ، وأبناء مكة وخراسان ، ولم يستعملوا هذا فى الآباء والأمهات ، ولم يقصروا هذا التوسع فى هذه الأسماء خاصة ، بل أجروه فى غيرها ، فقالوا لمن صاحب شيئاً ، أو عاناه ، أو أكثر من استعماله : هو أخوه وأخته ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخا الحرب لبّاساً إليها جِلالَها وليس بولّاجِ الخوالفِ أعقلا[1]

---

(١) أخو الحرب . المؤاخى والملازم لها ، ولباس : مبالغة فى لابس ، والجلال: بكسر الجيم جمع جل بضمها وهو الدرع . والولاج : الكثير الولوج اى الدخول، والخوالف : جمع خالفة وهى فى الأصل عماد البيت وأراد بها هنا البيت نفسه ، وأعقلا : بالعين المهملة والقاف مأخوذ من أعقل الرجل اذا اضطربت رجلاه من الفزع والخوف وهو حال من الضمير المستتر فى ولاج أو خبر ثان

وقول أبو الأسود الدؤلى فى الخمر والنبيذ :

فإلاَّ يكنها أو تـكنهُ فإنهُ أخوها غذته أمه بِلبانها[١]

ومن الأشخاص من له اسم ولا كنية له وهو الأكثر ، ومن له اسم وكنية وهو دون الأول فى الـكثرة ، ومن يكون له علم وكنية واسم جنس . كأسامة ، وأبى الحرث ، والأسد ؛ ومن له كنية وليس له اسم غيرها : كأبى براقش[٢] لحيوان معروف ، وأم رباح بالباء الموحدة لطائر أغبر أحمر الجناحين والظهر يأكل العنب ، ومن له كنيتان فى حالين : كعامر بن الطفيل كان يكنى فى السلم بأبى علىّ وفى الحرب بأبى عقيل ، ومن يكون له كنيتان أو أكثر فى حالة واحدة وهو كثير وقد ألف الإمام الثعالبى كتاباً حافلا فى الـكنى ، وما يناسبها ، وهو كتاب جليل والله الموفق.

من اشتهر من العرب فى معرفة النسب

كان العرب لمزيد اعتنائها بحفظ الأنساب أكثر الناس معرفةً بها ولم تخلُ قبيلة من قبائلهم من نسّابةٍ يلحق الفروع بأصولها ، وينفى عنها من ليس منها ، حتى كادوا يكونون جميعاً على هذه الصفة . واستيعاب ذكرهم فى هذا المقام مما لايمكن غير أنا نذكر من ضرب به المثل فى هذا الباب . منهم :

دغفل بن حنظلة السدوسى من بنى شيبان

فمن أمثالهم « فلان أنسَبُ من دَغْفَلٍ » وهو رجل من بنى ذُهْل بن ثعلبة ابن عُـكابة . كان أعلم أهل زمانه بالأنساب . زعموا أن معاوية سأله عن أشياء

لليس بناء على جواز تعدد خبرها والالف فيه للاطلاق . والبيت للقلاخ بن حزن يمدح نفسه .

(١) قبله :

دع الخمر يشربها الغواة فاننى رأيت أخاهـا مغنيا لمكانهـا

ـــ يعنى بأخيها نبيذ الزبيب ، يقول : ان لم يكن الزبيبى الخمر أو يكون الزبيبى فانهما أخوان غذيا بلبن واحد ينوب أحدهما مناب الآخر .

(٢) طائر صغير برى كالقنفذ أعلى ريشه أغر وأوسطه أحمر وأسفله أسود فاذا هيج انتفش فتغير لونه ألوانا شتى . قال الشاعر :

كابى براقـش كل لـــو ن لونــه يتخيـــل

فخبّره بها . فقال له : بِمَ علمت ؟ قال : بلسان سَؤول ، وقلب عَقول ، على أن للعلم آفةً و إضاعةً ، ونكداً واستجاعة فآفته النسيان ، و إضاعته أن تحدث به من ليس بأهله ، واستجاعته أن صاحبه منهوم لا يشبَع ، ونكده الكذب فيه . وقيل هو دغفل بن حنظلة السدوسى أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً . ووفد على معاوية وعنده قُدامة بن جَراد القُريعى فنسبه دغفل حتى بلغ أباهُ الذى ولده . فقال وولد جَرادٌ رجلين أما أحدهما فشاعر سفيه والآخر ناسك فأيهما أنت ؟ قال : أنا الشاعر السفيه وقد أصبت فى نسبتى وكل أمرى ! فأخبرنى بأبى أنت متى أموت ؟ قال دغفل : أما هذا فليس عندى . وقتلته الأزارقة . قال الميدانىّ عند الكلام على قولهم « إنَّ البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ » روى عن المفضل أن أول من قال ذلك أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فيما ذكره ابن عباس قال : حدثنى على ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب وأنا معه وأبو بكر فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر وكان نسَّابةً فسلم فردوا عليه السلام . فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . فقال : أمن هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا : من هامتها العظمى . قال فأى هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : ذهل الأكبر . قال : أفمنكم عوف الذى يقال له « لا حر بوادى عوف » ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم بسطام[1] ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم جساس بن مرة[2] حامى الذمار ، ومانع الجار ؟ قالوا لا. قال : أفمنكم الحوفزان[3] قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة[4] ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا . قال :

---

(١) هو ابن قيس وقصته فى المفاخرة بمحضر من كسرى مشهورة .. راجع الاغانى ١٧ — ١٠٦ ، ونهاية الارب للنويرى ص ٣٦٦ ، والجزء الأول من هذا الكتاب . (٢) قاتل كليب وقصته مشهورة راجع الجزء الثانى ص ١٥١ (٣) هو الحرث بن شريك — أنظر فهرس الجزء الأول والثانى .
(٤) هو عمرو بن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان .

أفمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال : فلستم ذهلاً الأكبر أنتم ذهل الأصغر . فقام إليه غلام قد بقل وجهه[١] يقال له دغفل . فقال : —

إنَّ على سائلنا أن نسأله والعبء لاتعرفه أو تحمله[٢]

يا هذا ! إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئاً . فمن الرجل ؟ قال : رجل من قريش قال : بَخٍ بَخٍ [٣] أهل الشرف والرياسة ! فمن أى قريش أنت ؟ قال : من تيم بن مرة قال : أمكنت والله الرامى من صفا الثُغْرة[٤] أفمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعاً ؟ قال : لا . قال أفمنكم هاشم[٥] الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال : لا . قال : أفمنكم شيبة الحمد[٦] مطعم طير السماء الذى كان فى وجهه قمر يضىء فى ليل الظلام الداجى ؟ قال : لا . قال أفمن المفيضين بالناس أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال :لا . قال : أفمن أهل الرفادة أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا. قال : أفمن أهل السقاية[٧] أنت ؟ قال : لا . قال : فاجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال دغفل :

صادف درء السيل درءاً يدفعهْ يهيضهُ حيناً وحيناً يصدعهْ

أما والله يا أخا قريش لو تثبت لأخبرتك أنك من زمعات[٨] قريش ولست من الذوائب[٩] أو ما أنا بدغفل ! قال فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال على رضى الله تعالى عنه : قلت لأبى بكر ؛ لقد وقعت من الأعرابى على باقعة[١٠] قال : أجل ! إن لكل طامةٍ طامةً و إن البلاء موكَّلٌ بالمنطق . . وكما كان هذا الرجل مشاراً إليه بالبنان فى معرفة أنساب العرب كذلك كان فى معرفة الأنواء

---

(١) أى خرج شعر وجهه (٢) ورد فى نهاية الارب للنويرى « والعى لا نعرفه أو نحمله » فليحقق (٣) بخ : كلمة تقال عند الرضا بالشىء وهى مبنية على الكسر والتنوين وتخفيف فى الاكثر (٤) الثغرة بالضم نقرة النحر بين الترقوتين (٥) ترجمته فى الجزء اثانى ص ٢٨٣ (٦) عبد المطلب بن هاشم
(٧) يطلب تفسير هذه الكلمات فى الجزء الثانى ص ٢٨٣ و٢٨٥ .
(٨) الزمع محركة رذال الناس (٩) الرؤساء وأهل العز والشرف .
(١٠) هو الرجل الداهية والذكى العارف الذى لا يفوته شىء ولا يدهى.

وعلم السماء ، وسائر علوم العرب ، وأحوال القبائل .

روى الهيثم بن عدى عن عوانة قال : سأل زياد دغفلاً عن العرب . فقال الجاهلية ليمن ، والإسلام لمضر ، والفتنة لربيعة . قال فأخبرنى عن مضر . قال : فاخر بكنانة ، وكابر بتميم ، وحارب بقيس ، ففيها الفرسان والنجوم ، وأما أسد ففيها ذل وكيد . وقيل له : ماتقول فى بنى عامر بن صعصعة ؟ قال : أعناق ظباء وأعجاز نساء ... فما تقول فى بنى أسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة ... فما تقول فى بنى تميم ؟ قال : حجر أخشن إن صادفته آذاك وإن تركته أعفاك ... فما تقول فى خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث ... فما تقول فى اليمن ؟ قال : سيود أيوك . قال نصر ابن سيار :

إنا وهذا الحى من يمن عند الفخار أعزّةٌ أكفاء
قومٌ لهم فينا دماء جمة ولنا لديهم أجنة ودماء
وربيعة الأذناب فيما بيننا لا هم لنا سلم ولا أعداء
إن ينصرونا لا نعز بنصرهم أو يخذلونا فالسماء سماء[1]

وعن ابن الأعرابى قال . بلغنى أن جماعة وقفوا على دغْفَلْ النسّابة بعد ما كف فسلموا عليه . فقال : من القوم ؟ فقالوا : سادة اليمن . قال : أمن مجدها القديم ، وشرفها العميم ، كندة ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم الطوال قصباً ، الممخضون نسباً ، بنو عبد المدان ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم أقودها للزحوف وأخرقها للصفوف ، وأضربها بالسيوف ، رهط عمرو بن معديكرب ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم أحضرها قرى وأطيشها قنى ، وأشدها لقى ، رهط حاتم بن عبدالله الطائى ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم الغارسون للنخل ، والمطعمون فى المحل ، والقائلون بالعدل الأنصار ؟ قالوا : نعم ! فانظر إلى هذه الفطنة والذكاء . ومنهم .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٣ من طبعة الجمالية .

ورقاء الأشعر

كان أيضاً ممن يضرب به المثل فى معرفة أنساب العرب فمن أمثالهم (أَنْسَبُ من ابنِ لسان الحُمَّرَة) وهو أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه واسمه ورقاء الأشعر ويكنى أبا كلابٍ . قال الميدانى . وكان أنسب العرب وأعظمهم كبراً وفى القاموس : وابن لسان الحمرة كسكرة خطيب بليغ نسابة اسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشعر ، ومنهم :

زيد بن الكيس النمرى

وهو من بنى عوف بن سعد بن تغلب بن وائل . قال فى القاموس : كان نسابة . وقال أبو عبيدة : إن زيد بن الكيس ممن يقارب دَغْفَلاً فى العلم بالأنساب من العرب . وفيه وفى دغْفَل يقول مسكين بن عامر :

فحكّم دَغفَلاً وارحل إليه ... ولاتدع المطى من الكلال (١)
أو ابن الكيس النمَرِى زيداً ... ولو أمسى بمُنْخَرِق الشمال (٢)

ومنهم :

النخار بن أوس بن الحرث بن هذيم القضاعى

كان هذا الرجل أيضاً من المقدمين فى علم النسب . قال أبو عبيدة : إنه أنسب العرب . وفى القاموس وشرحه : وكشداد النخار بن أوس بن أبير القضاعى أنسب العرب وهو من ولد سعد هذيم ودخل على معاوية فازدراه وكان عليه عباءة فقال . إن العباءة لاتكلمك . انتهى .

وروى عن أبى بكر بن دريد قال . حدثنا أبو حاتم عن أبى عبيدة قال . كان أبو زُرارة بَجّال بن حاجب العلْقمى من ولد علقمة بن زرارة خرج يريد

---

(١) الاعياء (٢) مهب الشمال .

بني شيبان [١] بن علقمة حاجاً فرأى حين شارَفَ البلد شيخاً يخفه ركب على إبل عِتاق برحال مِيسٍ [٢] مُلْبسةٍ أدَما . قال : فَعَدَلْت وسلمت عليهم وبدأت به وقلت : من الرجل ومن القوم ؟ فأرَمّ القوم [٣] ينظرون إلى الشيخ هَيبةً له . فقال الشيخ : رجل من مَهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، فقلت : حيّاكم الله ! وانصرفت . فقال الشيخ قفْ أيها الرجل نَسبتنا فانتسبنا لك ثم انصرفت ولم تكلمنا ، قال أبو بكر : وروى السكن بن سعيد عن محمد بن عباد شاَمَمْتَنَا مُشَامَّةَ الذئب الغنم ثم انصرفت ! قلتُ ما أنكرتُ سوءاً ، ولكنني ظننتكم من عشيرتي فأناسبكم فانتسبتم نسباً لا أعرفه ولا أراه يعرفني . قال : فأمال الشيخ لثامه ، وحَسرَ عمامته ، وقال : لعمري لئن كنت من جِذْم من أجذام العرب لأعرفنك فقلت : فإني من أكرم أجذامها . قال : فإن العرب بنيت على أربعة أركان : ربيعة ومُضَر ، واليمن ، وقضاعة ، فمن أيهم أنت ؟ قلت : من مضر . قال : أفمن الأرحاء أنت أم من الفرسان ؟ فعلمت أن الأرحاء خِنْدِف . وأن الفُرسان قيس . قلت : من الأرحاء . قال : فأنت إذاً من خندف . قلت : أجَلْ قال : أفمن الأرنبة أم من الجمجمة ؟ فعلمت أن الأرنبةَ مُدْرِكَةُ ، وأن الُجمجمة طابخة ، فقلت : من الجمجمة . قال : فأنت : إذاً من طابخة . قلت: أجل ! قال : أفمن الصميم أنت أم من الوشيظ [٥] ؟ فعلمت أن الصميم تميم ، وأن الوشيظ الرباب . قلت من الصميم . قال : فأنت إذاً من تميم . قلت : أجل ! قال : أفمن الأحلمين أم من الأكرمين أم من الأقلين ؟ فعلمت أن الأحلمين عمرو بن تميم ، وأن الأكرمين زيد مناة ، وأن الأقلين الحرث بن تميم . قلت : من الأكرمين قال : فأنت إذاً من زيد مناة . قلت : أجل ! قال أفمن الجدود ، أم من البحور ، أم من الثماد ، [٦] فعلمت أن الجدود مالك ، وأن البحور سعد ،

---

(١) وفي نسخة : خرج يزيد بن شيبان .. الخ (٢) ضرب من الشجر يعمل منه الرحال (٣) سكتوا (٤) الجذم بالكسر الأصل ويفتح
(٥) الخسيس من الرجال (٦) هو في اللغة الماء القليل الذي لا مادة له .

وأن الثماد امرؤ القيس بن زيد مناة . فقلت : من الجدود ! قال : فأنت إذاً من بنى مالك . قلت : أجل ! قال أفمن الذُّرَى أم من الأرداف ؟ فعلمت أن الذرى حنظلة ، وأن الأرداف ربيعة ومعاوية وهما الـكُرْدُوسان . قلت : من الذرى . قال : فأنت إذاً من بنى حنظلة . قلت : أجل ! قال : أفمن البدور أنت أم من الفرسان أم من الجرائيم ؟ فعلمت أن البدور مالك ، وأن الفرسان يربوع ، وأن الجرائيم البراجم . فقلت : من البدور : قال : أفأنت إذاً من بنى مالك بن حنظلة . قلت : أجل ! قال : أفمن الأرنبة أم من اللاحيين أم من القفا ؟ فعلمت أن الأرنبة دارم ، وأن اللاحيين طُهَيَّة والعَدَوِيَّة ، وأن القفا ربيعة بن مالك بن حنظلة . قلت : من الأرنبة . قال : فأنت إذاً من دارم . قلت : أجل ! قال : أفمن اللُّباب ، أم من الهِضاب ، أم من الشهاب ؟ فعلمت أن اللباب عبد الله ، وأن الهضـاب مجاشع ، وأن الشهاب نهشل . قلت : من اللباب . قال : فأنت إذاً من بنى عبد الله ، قلت : أجل ! قال : أفمن البيت أم من الزَّوافر ؟ فعلمت أن البيت بنو زرارة ، وأن الزوافر الأحلاف قلت : من البيت قال : فأنت إذاً من بنى زرارة . قلت : أجل ! قال : فإن زرارة ولد عشرة : حاجباً : ولقيطاً . وعلقمة ، ومعبـداً . وخزيمة . ولبيداً . وأبا الحرث . وعمراً . وعبد مناة . ومالـكا فمن أيهم أنت ؟ قلت من بنى علقمة . قال : فإن علقمة ولد شيبان ولم يلد غيره فتزوج شيبان ثلاث نسوة : مَهْدد بنت حُمْران بن بشر بن عمرو بن مرثد فولدت له يزيد ، وتزوج عِكْرِشة بنت حاجب بن زرارة بن عُدَس فولدت له المـأمور (1) وتزوج عمرة بنت بشر بن بنت عمرو بن عدس فولدت له المُقْعَد فلأيتهن أنت ؟ قلت : لمهدد . قال يا ابن أخى ما افترقت فرقتان بعد مدركة إلا كنت فى أفضلهما حتى زاحمك أخوالك فإنهما أن تَلِدَنى أمها أحب إلى من أن تلدنى أمك ! يا ابن أخى أتُرانى عَرَفْتُكَ ؟ قلت : أى وأبيك أىّ معرفة ! فلله تعالى در هذه النسابة وما بلغه

---

(1) كذا بالأصل وحرره .

من العلم ومعرفة الناس وأحوالهم ولو كان أباً لهم لربما اختلفت عليهم أحوال بعضهم وهم بهذا العدد الكثير، والجم الغفير، ولكن المواهب الإلهية. والعنايات الربانية، إذا توفق لها أحد سهلت عليه صعاب الأمور، وبلغ مالم يبلغه الساعى وإن استوعب بمسعاه الدهور. ومنهم:

صعصعة بن صوحان

قد كان صعصعة هذا من المشاهير بمعرفة أنساب العرب، ومن المقدمين بعلم أحوال قومه، فى الجاهلية، وقد أدرك الإسلام. ففى كتاب الأمالى[1] روى عن أبى بكر بسنده إلى الشعبى قال: دخل صعصعة بن صوحان على معاوية رضى الله عنه أول ما دخل عليه وقد كان يبلغ معاوية عنه فقال له معاوية: ممن الرجل؟ قال: رجل من نِزار. قال: وما نزار؟ قال: إذا غزا انْحَوَش، وإذا انصرف انكَمَش، وإذا لقِيَ افترش. قال: فمن أى ولده أنت؟ قال: من ربيعة قال: وما ربيعة؟ قال: كان يغزو بالخيل، ويُغير بالليل، ويَجُود بالنَّيل. قال فمن أى ولده أنت؟ قال: من أسد. قال: وما أسد؟ قال: كان إذا طلب أفضى[2] وإذا أدرك رضى، وإذا آبَ أنضى[3]. قال: فمن أى ولده أنت؟ قال: من جَدِيلة. قال: وما جديلة؟ قال: كان يطيل النِّجاد[4]، ويُعِدُّ الجياد، ويُجيد الجلاد[5] قال: فمن أى ولده أنت؟ قال: من دُعْمِىٍّ. قال: وما دعمى؟ قال: كان ناراً ساطعاً، وشراً قاطعاً، وخيراً نافعاً. قال: فمن أى ولده أنت؟ قال: من أقصى. قال: وما أقصى؟ قال: كان يَنزل القارات[6]، وَيكثر الغارات ويحمى الجارات. قال: فمن أى ولده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما

---

(١) يريد أمالى القالى ج ٢ ص ٢٣٠ (٢) وصل وبلغ (٣) أنضى بعيره: هزله بالسير وأنضى الثوب أبلاه وأخلقه بكثرة اللبس (٤) بالكسر حمائل السيف وفلان طويل النجاد كناية عن أنه طويل القامة (٥) المضاربة والمقاتلة (٦) جمع قارة وهى الجبيل الصغير.

عبد القيس ؟ قال : أبطال ذادة ،[١] جَحاجحة[٢] قادة ، صناديد[٣] سادة .
قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال من أقصى . قال : وما أقصى ؟ قال : كان ذا رماح مُشْرَعة[٤] ، وقدور مُترَعة[٥] ، وجفان[٦] مفرغة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال من لُكَيْز . قال : وما لكيز ؟ قال كان يباشر القتال ، و يعانق الأبطال ، و يُبَدد الأموال ، قال فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عجل . قال : وما عِجْل ؟ قال : الليوث الضراغمة[٧] ، الملوك القماقمة[٨] ، القروم القشاعمة[٩] ، قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من كعب . قال : وما كعب ؟ قال : كان يسعر الحرب ، و يجيد الضرب ، و يكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك .
قال : وما مالك ؟ قال: الهمام للهمام ، والقَمْقام للقَمْقام . قال معاوية : والله ما تركت لهذا الحى من قريش شيئاً . قال : بل تركت أكثره وأحبه قال : وما هو ؟ قال تركت لهم الوَبَر والمدَر ، والأبيض والأصفر ، والصفا ، والمشعر ، والقبة والمفخر ، والسرير والمِنبر ، والمُلْكَ إلى المحشر . فقال : أما والله لقد كان يسوؤنى أن أراك أسيراً .
فقال : وأنا والله لقد كان يسوءونى أن أراك أميراً ، ثم خرج فبعث إليه فرده ووصله وأكرمه . ولصعصعة هذا أخبار كثيرة يطول ذكرها . ومنهم :

عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان

وهو النسابة الشهير ، وصاحب الفهم الغزير ، روى عن أبى بكر قال : أخبرنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن العباس بن هشام قال : سأل معاوية بعد الاستقامة عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وكان عبد الحجر وفَدَ على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسماه عبد الله فقال له : كيف علمك بقومك ؟ قال .

---

(١) من الذود وهو الطرد والدفع (٢) جمع جحجح وهو السيد .
(٣) جمع صنديد وهو السيد الشجاع أو الحكيم أو الجواد أو الشريف
(٤) مسددة (٥) ممتلئة (٦) جمع جفنة وهى اناء (٧) جمع ضرغام وهو الأسد القوى الشديد (٨) جمع قمقام وهو السيد (٩) القروم : السادة ، والقشاعمة جمع قشعم وهو المسن من الرجال .

كعلمى بنفسى ! قال : ما تقول فى مُراد ؟ قال : مُدْركو الأوتار[١] ، وحماة الذِّمار[٢] ومحرِزو الخِطَار[٣] . قال : فما تقــول فى النَّخَعِ ؟ قال : مانعو السِّرْب ، ومُسْعِرو الحرب[٤] ، وكاشفو الــكرب . قال : فما تقول فى بنى الحرث بن كعب ؟ قال فرّاجُوا اللّــكاك[٥] ، وفُرسان العراك ، ولزاز الضكاك ، تَرَاكِ تَرَاكِ[٦] . قال : فما تقول فى سعد العشــيرة ؟ قال : مانعو الضيم ، وبانو الرّيم[٧] ، وشافو الغيم[٨] . قال : ما تقول فى جُعْفى ؟ قال : فرسان الصباح ، ومعملو السلاح ، ومبارزو الرياح ، قال : ما تقول فى بنى زَبيد ؟ قال : كماة أنجاد ، سادات أمجاد ، وُقُر عند الذِّياد ، صُبُر عند الطراد ، قال ما تقول فى جَنْب ؟ قال : كُـفاة يمنعون عن الحريم ، ويفرجون عن الــكظيم[٩] . قال . فما تقول فى صُداء ؟ قال : سمام الأعداء ، ومَساعير الهيجاء ، قال : فما تقول فى رَهاء ؟ قال : ينهنهون عادية الفوارس[١٠] . ويَرِدُون الموت وِرْدَ الخوامس[١١] . قال : أنت أعلم بقومك !

ومن أمثال العرب قولهم : أنسب من كـثّير

أنسب هنا من النسيب وهو ذكر الشاعر المرأة بالحسن ، والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل . وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء ، والصبوة إليهن ، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه ، وقولهم « أنسب من كثير » أخذ من قول الشاعر :

وكأنَّ قُسًّا فى عُــكاظ يخطُب وابن المقفَّع فى اليتيمة يُسْهِبُ[١٢]

---

(١) جمع وتر وهو الذحل (٢) كل ما حميته فهو ذمار (٣) الشرف
(٤) يقال « فلان مسعر حرب » أى هو آلة فى ايقاد الحرب (٥) الزحام .
(٦) الضكاك : مثل اللكاك سواء (٧) الريم : الدرجة ، قال أبو عمرو بن العلاء : اتيت دار قوم باليمن أسأل عن رجل فقال لى رجل منهم « اسمك فى الريم » أى أعل فى الدرجة (٨) العطش (٩) المكظوم وهو الذى قد رد نفسه الى جوفه (١٠) ينهنهون : يكفون (١١) الخمس بالكسر من أظماء الابل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وهى ابل خوامس (١٢) قس : هو ابن ساعدة الايادى الخطيب المشهور — ترجمته فى الجزء الثانى ص ٢٤٤ وعكاظ : سوق من أسواق — انظر فهرس الجزءين: ١ و٢ وابن المقفع: هو أحد فحول البلاغة الذين عبدوا للناس طريق الترسل ورفعوا لهم معالم صناعة الانشاء . ولد حوالى سنة١٠٦ هـ ونشأ بالبصرة على دين أبيه (المجوسية) ثم أسلم على =

وكأن ليـلى الأخْيَلِيَّةَ تنـدبُ   وكُثيِّرَ عزّةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسِبُ(١)

قال الُجمحي : كان لـكثير في النسيب نصيب وافر ، وكان له من فنون الشعر ما ليس لجميل ، واسمه (بضم الـكاف وفتح المثلثة وكسر الياء المشددة التحتية) وهو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة بن الأسود بن عامر ، وقال اللخمي : هو كثير بن أبي جمعة . وكانت أمه جمعة بنت الأشيم ، وكان الأشيم يكنى بابنته هذه فلذلك قيل كثير بن أبي جمعة ، وهو خزاعي ، وأبو خزاعة الصلت بن النضر بن كنانة . وفي ذلك يقول كثير :

أليس أبي بالنضر أم ليس والدي   لـكل نجيب من خزاعة أزهرا ؟

فحقق كثير أنه من قريش . وقيل إنه أوديّ من قحطان وهو شاعر حجازي من شعراء الدولة الأموية . ويكنى أبا صخر . واشتهر بكثير عزة وهي محبو بته ، وغالب شعره مشبب بها ، وهي كما قال ابن الـكلبي : عزة بنت حُميد (بضم المهملة) ابن حفص من بني حاجب بن غفار ، وكنيتها أم عمرو الضَّمْرِيَّـة نسبة إلى قبيلة ضمرة ، وكثيرا ما يطلق عليها الحاجبية نسبة إلى جدها الأعلى كقوله من قصيدة :

خليلي ! إنَّ الحاجبيةَ طَلِّحتْ   قلُوصَيْـكُما وناقتي قد أكلت(٢)

قال ابن قتيبة في كتاب الشـعراء : بعثت عائشة بنت طلحة بن عبد الله إلى كثير : يا ابن أبي جمعة ما الذي يدعوك إلى ما تقول من الشعر في عزة

= عيسى بن علي عم الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي أيام ولايته على كرمان وتسمى (عبد الله) بدل (روزبة) ، ومات قتلا بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سفيان بن معاوية والي البصرة لاتهامه بالزندقة وكيده للاسلام . ترجم ابن المقفع كتبا عدة من الفارسية الى العربية من أشهرها كتاب كليلة ودمنة وله كتاب الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، والدرة اليتيمة ، وطبع الأدب الكبير معنونا الدرة اليتيمة خطأ ثم طبع في مصر مسمى باسمه الحقيقي . .

(١) ليلى الاخيلية : شاعرة مشهورة . كان توبة بن الحمير يهواها وخطبها الى أبيها فأبى أن يزوجه اياها — والبيتان لأبي تمام في الحسن بن وهب .

(٢) طلحت : أتعبت وأجهدت ، والقلوص : الناقة الفتية .

وليست على ما تصف من الجمال ؟ لو شئت صرفت ذلك إلى من هو أولى به منها أنا أو مثلى . و إنما أرادت تجربته بذلك . فقال :

إذا وصلتنا خـلة كى تزيلها أبينا وقلنا الحاجبيـة أولُ
لها مهل لا يستطاع دراكه وسابقة مِلْحُب لا تتحول[1]
سَنُوليك عرفاً إن أردتِ وصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوْصَلُ !

فقالت : والله لقد سميتنى لك خلة وما أنا لك وعرضت علىّ وصالك وما أريد ! هلاّ قلت كما قال جميل :

يارب عارضة علينـا وصلها بالجد تخلطهُ بقول الهـازل
فأجبتها بالرفق بعـد تستُّرٍ حبى بثينةَ عن وصالك شاغلى
لو كان فى قلبى كقدر قُلامةٍ وصلتك كتبى أو أتتك رسائلى[2]

وروى القالى فى أماليه عن العتبى فقال : دخلت عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان فقال لها : أنت عزة كثير ؟ فقالت : نعم ! قال لها : أ تَرْوِين قول كثير :

وقد زعَمَتُ أنى تغيَّرْتُ بعدَها ومن ذا الذى يا عزّ لا يتغَيَّرُ ؟
تغير جسمى والخليقة كالتى عهدتِ ولم يُخبر بسرِّك مخبرُ

قالت : إنى لا أروى هذا ولـكنى أروى قوله :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلَّتِ
صَفُوحاً فما تلقاك إلا بخيـلةً فمن ملّ منها ذلك الوصل ملَّتِ[3]

وروى ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : أن عائشة بنت طلحة قالت لعزة أرأيت قول كثير :

قضى كل ذى دينٍ فوفى غريمه وعَزَّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

---

(١) ملحب : من الحب (٢) القلامة بالضم : المقلومة اى، المقطوعة من طرف الظفـر .
(٣) يروى « صفوح » موضع « صفوحا » والصفوح المعرض

ما كان ذلك الدين ؟ قالت : وعدته قبلة فتحرجت منها ! فقالت اقضيها وعلى إثمها ! وإنما صغر اسمه لشدة قصره وحقارته . قال الوقاصى : رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فلا تصدقه . وهجاه الحر بن الكنانى بقوله :

قصيرٌ قميصٌ فاحشٌ عند بيتــهِ   يعضُّ القُراد باستْهِ وهو قائمُ (١)

وكانت وفاته فى خلافة يزيد بن عبد الملك بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل السلام . قال جويرة بن أسماء : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس فى يوم واحد فقال الناس : اليوم مات أفقه الناس وأشعر الناس ! ولم يتخلف رجل ولا امرأة عن جنازتيهما . وذلك فى سنة خمس أو سبع ومائة ، وغلبت النساء على جنازة كثير . وقد أطنب الأصبهانى فى الأغانى فى ترجمته . والمقصود : أن لفظ أنسب فى المثل من النسيب لا من النسب . وكذلك قولهم « أنسب من قطاة » هو من النسبة وذلك أنها إذا صوّتت فإنها تنتسب لأنها تصوت باسم نفسها فتقول قطا قطا . والقطاة طير معلوم ، وهى مشهورة بسرعة الطيران والله أعلم .

علم العرب بالأخبار

من تتبع شعر العرب واستقراه ، ووقف على ما قالوه من مثل واستقصاه ، تبين له ما كان للعرب الأولين ، من اليد الطولى والقدم الراسخــة فى معرفة أخبار الأمم الماضين ، وأخلاقهم وسيرهم ، ودولهم وسياستهم ، لا سيا شعرهم فهو سجل أخلاقهم ، وخزانة معارفهم ، ومستودع علومهم ، وحافظ آدابهم

---

(١) رواه أبو تمام فى ديوان الحماسة هكذا :

(أظن خليلى من تقارب شبخصه * الخ . . .)

ولم يسم قائله . والاست: العجز ، ويراد به حلقة الدبر ، والقراد جمع قرادة وهى دويبة تعلق بأعجاز الابل والخيل .

ومَعْدِنُ أخبارهم ، ومرجعهم عند اختلافهم فى الأنساب والحروب ، فلذلك قيل « الشعر ديوان العرب » وعليه قول قائلهم :

الشعر يحفَظُ ما أوْدى الزمان به والشعر أفخرُ ما ينبى عن الكرم [1]

لولا مقالُ زُهَيْرٍ فى قصائده ما كنت تَعْرِفُ جوداً كان فى هَرِمِ [2]

ومن شعرهم دون الناس أيامهم وحروبهم : كأبى عبيدة ، وأبى الفرج الأصبهانى ، وغيرهما ، ومن شعرهم ألف أبو حاتم السجستانى (كتاب المعمرين) ! ومن شعوهم ألف من ألف فى أحوال شعرائهم المتقدمين : ككتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، ومن شعرهم ألف من ألف فى جزيرة العرب ، ووصف ما فيها من البلاد ، والجبال ، والأودية ؛ والوهاد ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى أخبار ملوكهم وأحوالهم ، ومن شعرهم أخذ ما ألف فى الحيوان والنبات ككتاب (الحيوان) للجاحظ ، وكتاب (النبات) لأبى حنيفة الدينورى ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى أحوالهم ، وأديانهم ، وما كانوا عليه أيام جاهليتهم ، ومن شعرهم ترجح القول بأن ذا القرنين كان من العرب ، فقد أكثروا ذكره فى أشعارهم [3] . قال أعشى بن ثعلبة :

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً بالحِنْوِ فى جدثٍ هُناك مقيم [4]

وقال الربيع بن ضبيع

والصعب ذو القرنين عمّر ملكه ألفين أمسى بعدَ ذاك رميا [5]

وقال قُسّ بن ساعدة

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً باللَّحْدِ بين ملاعب الأرياح [6]

---

(١) أودى به : ذهب به . (٢) أخبار هرم فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٨٤ و٨٥ و٨٦ ، وزهير : هو ابن أبى سلمى الشاعر الشهير وأخباره متفرقة فى هذا الكتاب أنظر الفهارس .

(٣) الشواهد الآتية تقدمت فى الجزء الأول ص ١٧٧ و١٧٨ (٤) قال السهيلى فى الروض الأنف (ج ١ ص ١٩٥) : يريد بالحنو حنو قراقر الذى مات فيه ذوى القرنين بالعراق .

(٥) الرميم العظام البالية (٦) ملاعب الأرياح : مدارجها .

وقال تبع الحميرى

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتحشدُ [١]

من بعده بِلقيس كانت عمتى ملكتهمُ حتى أتاها الهُدْهُدُ [٢]

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذى القرنين من اليمن يخاطب قوماً من مضر :

سَمُّوا لنا واحداً منكم فنعرفه فى الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين وذى القرنين [٣] يقبله أهل الحجا وأحقّ القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الأنصارىّ

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتم

ووقع ذكر ذى القرنين أيضاً فى شعر امرىء القيس ، وأوس بن حجر ، وطَرَفَةَ بن العبد وغيرهم ، ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح فى اسمه الصعب ، ومن شعرهم علمنا حال قُس بن ساعدة وما كانت العرب تعتقده فيه حتى عظمته تعظيماً ، وضربت شعراؤها بحكمته الأمثال ، وفى كتاب الإصابة شواهد ذلك ، وهكذا حال لقمان بن عاد الأكبر ، والأصغر ، ولُقَيْم بن لقمان ، فقد كانوا يعظمون شأنهم فى النباهة ، وعلو القدر ، والعلم ، والحكم ، واللسان ، والحلم ، وهذان غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن على ما يقول المفسرون ، ولارتفاع قدره ، وعظم شأنه ، قال النمر بن تولب :

لُقَيْمُ بنُ لقمانَ من أختهِ فكان ابنَ أختٍ له وابنَمَا [٤]

ليالى حُمِّقَ فاستحصنتْ عليه فغرَّ بهاً مظلما [٥]

---

(١) أى تطيعه الملوك وتجيبه مسرعة وتخدمه (٢) بلقيس بالكسر ملكة سبأ

(٣) فى بعض الروايات — كما تقدم فى الجزء الأول — «وذو القرنين» بالرفع

(٤) لقيم : بضم اللام وفتح القاف ، و « أخته » اسمها صحر ، و «ابنم» ابن زيدت عليه الميم .

(٥) حمق : بضم الحاء وتشديد الميم ، أىأسكر حتى ذهبعقله ، ويرويه المفضل حمق بفتحتين وزعم أنه يقال اذا شرب الخمر ، يقال لها الحمق ، واستحصنت . بالبناء للفاعل أى أتته وهى حصان كما تأتى المرأة وزوجها ، وقوله « فضربها » غر بضم الغين من الغرة وهى الغفلة ويروى موضعه «فجامعها» وقوله « مظلما » بكسر اللام .

فغر بها رجل محكم فجاءت به رجلًا محكما[1]

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان : إنى امرأة محمقه ، ولقمان رجل منجب محكم ، وأنا فى ليلة طهرى ، فهى لى ليلتك ، ففعلت فباتت فى بيت امرأة لقمان ، فوقع عليها ، فأحبلها بلقيم ، فلذلك قال النمر بن تولب ما قال ، والمرأة إذا ولدت الحمقى فهى محمقة ، ولا يعلم ذلك حتى يرى ولد زوجها من غيرها أكياساً ، وقد أطال القول فى لقمان ولقيم الجاحظ فى كتاب البيان ، وأورد شواهد العرب فى أحواله ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى الأضياف ، والفرسان ، وغير ذلك ، وقد بالغ العلامة الهمدانىّ على ما ذكر فى كتاب (الوشى المرقوم) فقال : لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب ، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة ، وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة ، وجاور الأعاجم ، علم أخبارهم ، وأيام حمير وسيرها فى البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم ، وبنى إسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمين علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان فى ظل الملوك السيارة — إلى أن قال — والعرب أصحاب حفظ ورواية ، والمقصود أن العرب كما لا يخفى على من سبر أقوالهم ، وأشعارهم ، كان لهم حظ وافر من رواية الأخبار ، ومن طالع الكتب المؤلفة فى أمثالهم وقف على كثير من المواد التاريخية التى لا شبهة فيها .

---

(١) قوله « فغربها رجل محكم » يروى فى موضعه « فأحبلها رجل نابه » — ونابه من النباهة ارتفاع الذكر — وهو لقمان فجاءت (أى أخته) به (أى بلقيم) « ومحكما » بفتح الكاف أى حكيما ، وهذه الابيات من قصيدة للنمر عدد أبياتها نحو ٢٣ بيتا . وقد كانت فى الأصل محرفة تحريفا شائنا كما أنها وردت كذلك فى البيان والتبيين للجاحظ (ج ١ ص ١٠٣ — ط : مطبعةالفتوح الأدبية بمصر) ومما زاد هناك فى الطين بلة أن المصحح الذى أخذ على عاتقه ضبط الكلمات بالشكل الكامل ، خلط فى الضبط خلطا زاد به التحريف غموضا واشكالا ولا حول !. ومرجعنا فى تصحيح هذه الأبيات خزانة الأدب وتاج العروس .

التاريخ عند العرب فى الجاهلية

لما بسطنا القول على ما كان للعرب أيام جاهليتهم من السابقة فى رواية الأخبار ومعرفة القرون الخالية ، وأحوال الأمم الماضية ، وسير الأجيال السالفة ، كما دل على ذلك شعرهم وأمثالهم وسائر أقوالهم ، أتبعناه بذكر مذهبهم فى التاريخ ، وكيفية ضبطهم للوقائع ، ومبدأ الحوادث . وقد لخصت ذلك من كتاب (أدب الكتاب) للإمام أبى بكر الصُولىّ وهو كتاب فريد فى فنه ، فأقول ومنه المعونة : تاريخ كل شىء غايته ووقته الذى ينتهى إليه ، ومنه : فلان تاريخ قومه فى الجود ، أى الذى انتهى إليه ذلك ، وسئلَ بعضُ أهل اللغة : ما معنى ذلك ؟ فقال : معناه التأخير . وقال آخر : هو إثبات الشىء . ويقال : ورخت الكتاب توريخا لغة تميم ، وأرخته تأريخا لغة قيس وتاريخ وتاريخان وتواريخ ، وأرخ كتابك هذا وورخه ، ولكل نبوّة ومملكة تاريخ . فأما العرب فكانوا يؤرخون بالنجوم قديماً ، وهو أصل ومنه صار الكتاب يقولون : نجمت على فلان كذا حتى يؤديه فى نجوم وأنجمة جمع نجوم ، والعرب تخص بالنجم الثريا ، ومنه قولهم :

طلع النجم غديَّه فابتغى الراعى كسيَّه

والنجم بعد هذا سائر النجوم يدل الواحد على جميعها . كما يقال : أهلك الناس الدينار والدرهم يراد الجنس . وعلى هذا قرأ أبو عمرو بن العلاء (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) والنجم ما نجم من النبات ، ومن الرأى ما ظهر وهو غير هذا ، وكانت العرب تؤرخ بكل عام يكون فيه أمر مشهور متعارف ، فأرخوا بعام الفيل ، وفيه ولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان فى السنة الثامنة والثلاثين من ملك كسرى أنوشروان (وقد مرت قصة الفيل فى أوائل الجزء الأول عند ذكر مكة شرفها الله تعالى) وأرخت العرب بعام الخُنَانِ لأنهم تماوتوا فيه ، وعظم عندهم أمره . فقال النابغة الجعدى :

فمن يك سائلاً عنى فإنى ... من الشبان أيام الخُنان [1]

مضت مائة لعام ولدت فيه ... وعشر بعد ذاك وحجتان

وأرخت قريش بموت (هِشام بن المغيرة المخزومىّ) لجلالته فيهم ، ولذلك قال شاعرهم :

وأصبح بطن مكةَ مقْشعرًّا ... كأن الأرضَ ليس بها هِشامُ [2]

وروى عن الزهرى والشعبى أن بنى إسماعيل[3] أرخوا من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنائه البيت حين بناه مع إسمعيل ، و إن بنى إسمعيل أرخوا من بنيان البيت إلى تفرق معد (فكان كلما خرج قوم أرخوا بمخرجهم ، ومن بقى بتهامة من بنى إسماعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بنى زيد من تهامة (٤)) ثم كانوا يؤرخون بشىء شىء إلى موت كعب بن لؤى ، ثم أرخوا بعام الفيل إلى أن أرخ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان سبب ذلك أن أبا موسى كتب إليه : إنه يأتينا من قِبَلِ أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ، فلا ندرى على أيها نعمل ! وروى أيضاً أنه قرأ صكا محله شعبان فقال : أى الشعبانين الماضى أم الآتى ، فكان سبب التاريخ من الهجرة بعد أن قالوا : نؤرخ بعام الفيل ، وقالوا من المبعث ، ثم اجتمع الرأى على

---

(١) الخنان « فى الأصل بالتاء بعد الخاء وهو تصحيف » . وايام الخنان : على ما يزعم الصولى والمرتضى — أيام كانت للعرب قديمة هاج فيهم مرض فى أنوفهم وحلوقهم . والمعروف أن الخنان على وزن غراب زكام يأخذ الابل فى مناخرها وتموت منه ، وزمنه كان فى عهد المنذر بن ماء السماء ! قال الأصمعى : كان الخنان داء يأخذ الابل فى مناخرها وتموت منه فصار ذلك تاريخا لهم (٢) هشام : كان من أعاظم بنى مخزوم وكان له ولبنيه صيت بمكة وذكر منتشرة ، وكان سيد قريش فى دهره ، قيل : لما هلك نادى مناد بمكة أن أشهدوا جنازة ربكم ! وهو والد أبى جهل .. يستشهد النحويون بهذا البيت على أن « كأن » تكون للتحقيق عند الكوفيين ، وخرجه ابن مالك على أن الكاف التعليل .. وفى التصريح : أنه لا حجة للكوفيين فى هذا البيت لأنه محمول على التشبيه فان الأرض ليس بها هشام حقيقة بل هو فيها مدفون .

(٣) كذا الأصل والظاهر أن يكون « بنى اسحاق » فتدبر .

(٤) هذه الجملة التى بين القوسين سقطت من نسخة (أدب الكتاب) التى اعتمدنا عليها فى نشره .

الهجرة ، وقالوا : ما يكون أول التاريخ ؟ فقال بعضهم : شهر رمضان ، وقال بعضهم : رجب فإنه شهر حرام والعرب تعظمه ، ثم أجمعوا على المحرم . فقالوا : شهر حرام وهو منصرف الناس من الحج ، وكان آخر الأشهر الحرم ، فصيروه أولا لأنهـا عندهم ثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والفرد رجب ، فكانت الأربعة تقع فى سنتين فلما صار المحرم أولا وقعت فى سنة . « قال الصولى » وسألت أبا ذكوان عن أرخت وورخت فقال : مثله أكدت الأمر تأكيداً ووكدته توكيداً لغة تميم وبها نزل القرآن « ولا تنقضوا الأيمـان بعد توكيدها » وأما التاريخ بلغة قيس فهو الذى يستعمله الناس ، وأما التوريخ لغة تميم فمـا استعمله كاتب قط ، وإن كانت العرب تتكلم به . وغلبت العرب الليالى على الأيام فى التاريخ لأن ليلة الشهر سبقت يومه ولم يلدها وولدته ، ولأن الأهلة لليالى دون الأيام ، وفيها دخول الشهر ، وما ذكرها الله عز وجل إلا قدم الليالى قال الله تعالى :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » وقال: « سخَّرها عليهم سبعَ ليال وثمانية أيام حُسُوماً » وقال : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » وقال : جل اسمه « سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين » والعرب تستعمل الليل فى الأشياء التى يشاركه فيها النهار دون النهار لاستثقالهم الليل فيقولون أدركنى الليل بموضع كذا لهيبته ، وقال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خِلْتُ أنّ المُنْتأى عنك واسع[1]

وقالوا صمنا عشراً من شهر رمضان . وإنما الصوم للأيام ، ولكنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان وأنشد أبو عبيدة .

فصامتْ ثلاثاً من مخافةِ ربِّها ولو مكثتْ خمساً هناك لَصَلَّتِ

وأما الشهور فانها كلها مذكرة إلا جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ؛ ويكتبون من شهر كذا إلا فى ثلاثة أشهر يكتبون فى شهر رمضان لقول الله عز وجل : « ان كنتم تعلمون * شهر رمضانَ الذى أنزل فيه القرءآن » ويقولون شهر ربيع

---

(١) راجع من ١٠١ و١٠٢ من هذا الجزء .

الأول ، وشهر ربيع الآخر ، لأن الربيع وقت من السنة فخافوا إذا قالوا من ربيع ولم يذكروا الشهر أن يظن أنه من الوقت ، قال الراعى :

شَهْرَىْ ربيع ما تذوقُ لبونهُم إلا حموضاً وخمةً وذويلا

كل ما انكسر واسود من النبت فهو ذويل . فإذا رأوا الهلال أول ليلة كتبوا « وكتب ليلة الجمعة غرة كذا ومستهل كذا ومهل شهر كذا » لأنهم يقولون استهل الهلال وأهل الهلال ولا يقولون هل ولا أهل ولا استهل ومن قال ذلك فقد أخطأ ، والاستهلال الصوت والصياح ، ومنه استهلال الصبى صياحه وبكاؤه إذا ولد . فلما كانوا يكبرون عند رؤية القمر كل أول ليلة من الشهر ، وفى أول سائر الشهور لقربهم بمضى الخارج من وقت الحج وسرورهم بالموسم نسبوا الرؤية إلى فعلهم فقالوا استهل وأهل ، وسموا القمر هلالا لهذا المعنى . وكان أهل مكة يجتمعون ويوقدون النار وتلعب ولدانهم وعبيدهم عندها كل أول ليلة من سائر الشهور لفرحهم بقرب وقت الحج ، ويكتبون ليلة الإهلال لغرة كذا ولا يكتبون لليلة خلت، ولا لليلة مضت إلا من الغد لأن الليلة قد مضت ، وإن كتبوا يوم الجمعة قالوا : أول يوم من شهر كذا . ولا يكتبون مستهل ولا مهل لأن الهلال إنما يرى بالليل . ويكتبون فى اليوم الثانى لليلتين مضتا فإذا جاز ذلك كتبوا لثلاث خلون وأربع مضين . وكتبوا لثمان خلون فيحذفون الياء ويثبتون الألف فى الخط فإذا أضافوا إلى الليالى أثبتوا الياء للإضافة لأنه لا يكون تنوين مع إضافة ، وإنما سقط الياء للتنوين فيسقطون الألف عند ذلك فى الخط فيكتبون لثمانى ليالى ومنهم من يثبتها ، وإنما أنثوا إلى قولهم لعشر خلون لتقدم الليالى على الأيام كما سبق . فإذا جاوزوا العشرة قالوا لإحدى عشرة ليلة خلت ومضت ولا ثنتى عشرة ليلة . وإنما قالوا ههنا خلت ومضت لأن الترجمة بليلة فوحدوا الفعل لذلك : ويكتبون لخمس عشرة ليلة (خلت) وإن شاءوا كتبوا للنصف من شهر كذا ، ولا يكتبون لخمس عشرة ليلة بقيت كرهوا ذلك لأنه

شبيه الاستثناء ولا يكون إلا أقل مما استثنى منه ، ولكن يكتبون بعد النصف بيوم لأربع عشرة ليلة بقيت . وقد كره أهل الورع ذلك لأنهم لا يدركون كم بقى لنقصان الشهر وتمامه فيكتبون لإحدى وعشرين ليلة خلت ، والكتاب على غير هذا . فإذا كان آخر ليلة من الشهر كتبوا سلخ كذا لأنهم يقولون : انسلخ الشهر انسلاخاً وسلخت أشهر كذا سلخاً وسلوخاً . ولو كتب كاتب فى ربيع الأول ولم يقل فى شهر أو فى رمضان ولم يقل فى شهر جاز وليس بالمختار . قال الشاعر :

جارية فى رَمضَانَ الماضى ... تُقَطِّعُ الحديث بالإيماض (١)

ولا يدخلون فى شهر من الشهور الألف واللام إلا فى المحرم لأنه أول السنة فعرفوه لذلك كأنهم قالوا هذا الذى يكون أبداً أول السنة . ولا يكتبون لليلة بقيت وأنت فيها كما لم يكتبوا لليلة خلت وأنت فيها . والعرب تسمى أول ليلة من الشهر ليلة البراء لتبرؤ القمر من الشمس . ويسمونها النحيرة لأن الهلال نحرها أى رؤى فى نحرها وأولها ، قال ابن أحمر :

ثم استمر عليها واكف همعٌ ... فى ليلةِ نحرتْ شعبانَ أو رجبا (٢)

نحرت شعبان كانت فى نحره وصدره لأنها أوله كما نحرها الهلال إذا رؤى فى أولها ، ونحيرة فعيلة من نحرت مثل قتلت فهى قتيلة « قال الصولى » قال بعض

---

(١) قال أبو عمرو المطرزى : معناه انهم كانوا يتحدثون فنظرت اليهم فاشتغلوا بحسن نظرها عن الحديث ومضت (أ هـ) وقيل غير ذلك . وفى الروض الأنف للسهيلى : فى قوله تعالى «شهر رمضان» أختار الكتاب والموثقون النطق بهذا اللفظ دون أن يقولوا « كتب فى رمضان »وترجم البخارى والنووى على جواز اللفظين جميعا ! وأورد الحديث « من صام رمضان » ولم يقل « شهر رمضان » . قال السهيلى : ولكل مقام مقال ، ولا بد من ذكر شهر فى مقام وحذفه فى مقام آخر ، والحكمة فى ذكره اذا ذكر فى القرآن وغيره ، والحكمة أيضا فى حذفه اذا حذف من اللفظ وأين يصلح الحذف ويكون أبلغ من الذكر : كل هذا قد بيناه فى كتاب (نتائج الفكر) غير أنا نشير الى بعضها فنقول : قال سيبويه — ومما لا يكون العمل الا فيه كله المحرم وصفر، يريد أن الاسم العلم يتناوله اللفظ كله وكذلك اذا قلت الاحد والاثنين فان قلت يوم الاحد أو شهر المحرم كان ظرفا ولم يجر مجرى المفعولات وزال العموم من اللفظ لانك تريد فى الشهر وفى اليوم ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من صام رمضان » ولم يقل شهر رمضان ليكون العمل فيه كله . انتهى . (٢) الواكف : المطر ، وسحاب همع ككتف : ماطر .

الكتاب . التاريخ عمود اليقين ، ونافى الشكل ، و به تعرف الحقوق ، وتحفظ العهود . قال : ولا يقع التاريخ فى شىء من الكتب السلطانية من رئيس أومرؤوس إلا فى أعجاز الكتب . وقد يؤرخ النظير والتابع ما خلص من الكتب فى صدورها . وقيل : الكتاب بغير تاريخ نكرة بلا معرفة ، وغفل بغير سمة ؛ قال بعض الشعراء فى تاريخ (شخص) توفى :

وكان يؤرّخ علم القرون   فهاهو ذا اليوم قد أُرخا !

فأما الذى يروى للمستوغر بن ربيعة فهو قوله وهو عجيب من العمر فى مثل زمانه :

ولقد سَئِمْتُ من الحياة وطولها   وازددت من عدد السنين سنينا

مائة أتت من بعدها مائتان لى   وازددت من عدد الشهور مئينا

هل ما بقى إلا كما قد فاتنا   يوم يكرّ وليلة تحذونا

وقد ذكرنا عند الكلام على مجامعهم أسماء الأشهر — أيامَ العرب العرباء — وأسماءها لدى المستعربة وغير ذلك مما يناسبه . ثم إن الصُولى — رحمه الله تعالى أطنب فى بيان تثنية الأيام والشهور وجموعهما ، وفى ذكر فوائد أخر تتعلق بغرضه ، وقد أهمل كثيراً مما كان العرب تؤرخ به . فقد كان لهم فى اليمن والحجاز ونجد تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفاً عن سلف ، وقد كان كل طائفة منهم تؤرخ بالحادثات المشهودة فيها ، وحيث إن استيعاب ذلك يطول اقتصرت على بيان ما كان شائعاً عند جميعهم وهو (زمن الفِطَحْل) فلا بدّ من تفصيل القول فيه و بالله التوفيق :

زمن الفطحل

هو زمن كانوا يؤرخون به كل ما قدم عليه العهد ومرت عليه العصور والدهور واختلف أئمة اللغة فى تفسيره فقال الخليل : هو الزمن الذى لم يخلق فيه الناس بعد ، ومنهم من قال : هو زمن نوح عليه السلام ، ومنهم من قال : هو الزمن الذى كانت الحجارة فيه رطابا ، واذ كل شىء ينطق ، و بذلك أجاب رؤبة حين سئل

عنه . وفى الصحاح : قال الجرمىّ سألت أبا عبيدة عنه فقال الأعراب تقول ؛ هو زمن كانت الحجارة فيه رطبة . وهو معنى قول بعضهم زمن الفطحل إذ السلام رطاب . وقال أبو حنيفة الدينورى : تقول أتيتك عام الفطحل والهدملة يعنى زمن الخصب والريف . وأنشد أبو عبيدة لرؤبة بن العجاج وقد نزل ماء من المياه فأراد أن يتزوج امرأة فقالت له المرأة : ما سنك ما مالك ما كذاما كذا فأنشأ يقول :

لما ازدَرَتْ نَقْدِى وقلَّتْ إبلى   تألَّقَتْ واتصلَتْ بِعُكل [1]

تسألنى عن السنين كم لى   فقلتُ لو عُمِّرْتُ عمر الحسْلِ [2]

أو عُمْرَ نوحٍ زمَنَ الفِطَحْلِ   والصخرُ مُبْتَلّ كطين الوحْلِ

أو أننى أوتيتُ عِلمَ الحُكلِ   علم سليمان كلامَ النمل

كنتُ رهينَ هَرَمٍ أو قتل

الحكل بالضم من الحيوان مالا يسمع صوته كالذر والنمل . و بعض أئمة اللغة يقول : هو العجم من الطيور والبهائم . وقال الليث : الحكل فى رجز رؤبة اسم لسليمان عليه السلام ، وهو قوله :

لو أننى أوتيتُ عِلم الحُكل   علمت منه مستسرّ الدَّخْل [3]

علم سليمان كلام النمل   ماردأزوى [4] أبداً عن عذل

قال الإمام الثعالبى [5] نقلاً عن القاضى عبد المحسن [6] . أما قولهم أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شىء ينطق فهما من الأمور التى يتداولها جهلة الأمم ،

---

(١) ازدرت نقده . رأته قليلا ، والنقد : الدراهم ، وتألقت : تلونت وتغيرت ، ويجوز أن يريد تنكرت وتخبثت من قولهم « امرأة ألقة — بكسر اللام » الخبيثة الصخابة المنكرة ويجوز أن يكون من قولهم تألق البرق أى لمع : يريد أنه لما ذكر لها ماذكر أنكرته وتعجبت منه فلوحت بثوبها الى من يقرب منها ونادت « يال عكل ! » تستغيث بهم ليحضروا فيسمعوا ما تكلم به، والاتصال : أن يعتزى الرجل الى قبيلته (٢) الحسل : الضب وهو لا تسقط له سن ، ومن أمثالهم فى التأبيد « لا أفعله سن الحسل » والتقدير دوام سن الحسل أى مدة دوامه . وقد زعموا أن الضب يعيش ثلثمائة سنة وأنه والحية والقراد والنسر أطول شىء عمرا ولذلك قالوا « أحيا من ضب لطول حياته » .

(٣) الدخل : العيب الباطن (٤) تيس الجبل البرى .

(٥) المضاف والمنسوب ص ٥١٦ (٦) فى المضاف والمنسوب « أبو الحسن ابن عبد العزيز » .

وهو الظاهر بين إغفال العرب هذا وأمية بن أبى الصلت وهو من حكماء العرب والمتخصصين منها بالرواية قال :

وإذ هم لا لبوسَ لهم عراة وإذ صمّ الصلاب لهم رطابُ
بآية قام ينطِقُ كلّ شىء وخان أمانةَ الديكِ الغُرابُ

وعن مقاتل بن سليمان أنه كان يقول : إذ الصخور كانت لينة ، واذ قدم إبراهيم عليه السلام أثرت فى صخرة المقام للين الصخور يومئذ ، قال الثعالبى ، وليس مذهب هؤلاء فيما رواه مذهب من جعلها أجزاء من الأرض تستصلب وتتكسر وتتحجر ، فزعم أنها تيبس عن ندوة وتصلب بعد رخاوة ، ولو أرادوا ذلك لوجدوا متسعاً فى القول ، لكن الأوهام التى صورت أن البهائم كانت ناطقة عاقلة ، وفروع السعدان[1] ملساء لينة ، وأغصان العوسج خضرة ناعمة — هى التى أدتهم لذلك ، ولا يبعد أن يكون القوم لما رأوا الحكماء قصدوا استعطاف الأوهام[2] ألى الحكمة فوضعوا أمثالا ، ورشحوها ببعض الهزل ، وأدرجوا الجد فى أثناء المزح ليخف عن القلوب احتمالها ، ويسرع إليها التفاتها — ظن من لم يقع من التمييز موقع الكمال بالبهائم أنها تنطق وتفضح ، وتبين عن نفسها وتعرب؛ فاختلقوا أحاديث أضافوها إليها ، وكان للعرب فى ذلك خصوصاً ما زادت به على سائر الأمم لفضل ما فيها من اللهج بالكلام ، وما أوتيت من القدرة على التصرف فى المنطق ، فنظمت لها قريضاً ، وفصلت أسجاعه كالذى حكت عن الضب أنه قال فى صبره على الماء ، وهو عندهم أصبر ذى نفس عليه : « أصبح قلبى صردا . لا يشتهى أن بَرِدَا ، إلا عراداً عردا . وصلياناً بردا ، وعكناً ملتبدا[3] ، » ومنهم

(١) نبت من أفضل مراعى الابل ، ومنه « مرعى ولا كالسعدان »
(٢) ن : القلوب
(٣) صرد كفرح يصرد صردا فهو صرد : وجد البرد سريعا وقوله « الاعرادا عردا » قال فى النوادر : عرد الشجر وأعرد اذا غلظ وكبر وعراد عرد على المبالغة ثم أنشد « أصبح قلبى الخ » وقال : وانما اراد عاردا وباردا فحذف للضرورة « عن ابى الهيثم » وقوله « عكنا » صوابه « منكثا » وهو شجر يشتهيه الضب . والصليان بكسرتين مشددة اللام والياء خفيفة ، نبت من الطريفة .

من يرويها هكذا : « آليت أن لا أرِدا ، إلا عراداً عردا ، وصليانا صردا ، وعنكثاً ملتبدا » وزعموا أن القطا قال للحجل : « حجل حجل ، تفر فى الجبل من خشية الوجل » فقالت لها الحجل : « قطا قطا ، أرى قفاك أمعطا[1] بيضك ثنتان و بيضى مئطا[2] » هكذا جاءت الرواية والأمثال تجرى على ألفاظها . . وهذا الوجه الذى ذكره الثعالبى هو المتعين ، وأشباه ذلك فى كلامهم ومحاوراتهم كثيرة مذكورة فى كتب الأدب ؛ ومن ذلك ما حكاه أصحاب اللغة فى وجه تسمية بعض الكواكب وعدوه من أكاذيبها وخرافاتها ، مع أن الوجه ما اختاره الثعالبى من أن ذلك لأغراض مقصودة لهم فقالوا : الشعرى كوكبان إحداهما الشعرى العبور والأخرى الشعرى الغميصاء ، أما العبور فإنها من نجوم الجوزآء ويسمى كلب الجبار ، وسميت بالعبوو لأنها كانت والغميصاء وسهيل مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانياً ، وتبعته العبور فعبرت المجرة ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت ، والغمص فى العين نقص وضعف ، وأما الغميصاء فأقل نوراً من العبور وهى من نجوم الذراع المبسوطة ، و بينها و بين العبور والمجرة ؛ وأصحاب الصور يعدونها فى صورة الكلب الأكبر ؛ وهى تقطع السماء عرضاً ، وليس غيرها من الكواكب كذلك ؛ وهى التى عناها الله تعالى بقوله « وأنه ربّ الشعرى » وإنما خصها بالذكر لأن خزاعة كانت تعبدها ، وأول من سن ذلك لهم أبو كبشة وهب بن غالب جد وهب بن عبد مناف . وقالوا فى وجه تسمية كوكبى الدبران والعيوق : إن العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهراً وهى نجوم صغار مجتمعة فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، والدبران يعوقه ؛ ولذلك سموا هذه النجوم القلاص ، وعليه قول الشاعر[3] :

أما ابن طوق فقد أوفَى بذِمّتهِ كما وفى بقلاص النجم حاديها[4]

---

(١) أى لأشعر عليه (٢) يريد « مائتان » وحذفت النون شذوذا

(٣) هو طفيل الغنوى (٤) يقال : وفى بالعهد وأوفى وقد جمعهما طفيل فى بيته ، وحادى القلاص : هو الدبران . قال ذو الرمة :

قلاص حداها راكب متعمم هجائن قد كادت عليه تفرق

ولو تتبعنا أمثال ما ذكر مما قصدوا به المعنى الشعرى ، ولم يريدوا به الحقيقة لطال الكلام ، وما أوردناه وافٍ بالمرام .

ما كان للعرب من العلم بالسماء وكائنات الجو

كل ما استقصى شعر العرب الأولين ، وما صح عنهم من الأمثال والأقوال عرف أن أوائل العرب كان لهم بحث عن الأجرام العلوية ، والآثار الجوية ، وأنهم اشتغلوا بالرصد ، ومعرفة حركات الكواكب ، وطلوعها وغروبها ؛ لا سيما ما يتعلق بها غرضهم ، وتمس إليها حوائجهم ، وقد ألف السلف من أئمة اللغة فيما كان لهم من ذلك كتباً مفيدة جمعوا فيها ما كان للعرب من العلم بالسماء ، وهى كثيرة . منها : (كتاب الأنواء) لأبى فيد (مؤرخ) ابن عمر النحوى[1] وآخر لأبى بكر محمد بن حسن المعروف بابن دُرَيْد اللغوى[2] وآخر لأبى عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى[3] وآخر لأبى الحسن النضر بن شُمَيْل النحوى[4] وآخر لأبى إسحق إبراهيم بن محمد الزجاج النحوى[5] وكل هذه الكتب مشتملة على مسائل مفيدة من مذاهب العرب واعتقاداتهم ، وأتمها فائدة كتاب أبى حنيفة الدينَوَرِى[6] ، فإنه تضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح ، وتفصيل الأزمان وغير ذلك . وإنى مستعيناً بالله ذاكر فى هذا المقام نبذةً من ذلك عازياً كل مبحث أخصه ههنا إلى محله مما عثرت عليه من كتب الفن ، لئلا يبقى جيد هذا الكتاب عاطلاً من هاتيك الفرائد الغالية الثمن .

---

(١) ترجمته فى بغية الوعاء للسيوطى ص ٤٠٠ من طبعة مصر .
(٢) فهرست ابن النديم ص ٦١ و٨٨ ونزهة الالباء لابن الانبارى ص ٣٢٣ والبغية ص ٣٠ و ٣١ و٣٢ (٣) الفهرست ص ٨٨ والبغية ص ٤٢ وكتاب عبد الرحمن الصوفى ص ٣٢ . (٤) الفهرست ص ٥٢ ونزهة الالباء ص ١١١ والبغية ص ٤٥ (٥) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٣٦ و٣٤٤ و٣٤ والفهرست ص ٨٨ (٦) الفهرست ص ٧٨ و٨٨ وطبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ٩٥ والنزهة ص ٣٠٦ والآثار الباقية ص ٣٣٦ و٣٤٧ الى ٣٤٨

السماوات والأفلاك

السماء عند العرب كل ما علاك فأظلك ، ولذلك قيل للسقف والسحاب ولأعلى الفرس سماء ، ومن أسمائها الجرباء لاشتباك كواكبها ، والخلقاء إذا لم تر نجومها كالملساء ، والرقيع ، وجربة النجوم ، قال قائلهم :

وخَوَتْ جِرْبةُ النّجومِ فما تشـ ـرَبُ أرْوِيّة بمرىّ الجَنوبِ[١]

وأصل الجربة القراح من الأرض[٢] وكانوا يعتقدون فيها اعتقاد المليين ، ويثبتون العرش والكرسى ، وكانوا يسمون السماء الدنيا الرقيع . والسماء الثالثة الصاقورة والحاقورة ، والسماء الرابعة الخضراء ، ويقولون لما ولينا منها بطن السماء وظهر السماء لما يخالفه ، والهواء الفتق بين السماء والأرض وهو السُّكاك والسُّكاكة واللوح ، وعنان السماء ماعن منها إذا نظر إليها ولونها العوهق ، والفلك مدار النجوم الذى يضمها ، ومجرة السماء كأثر المجر فيها يسمونها أم النجوم ، ومن كواكبها « الشمس » لأنها فى السماء الرابعة تشبيهاً لها بشمسة القلادة ، ويقال لها ذُكاء وإلاهة والضِّحّ والجونة والغزالة والجارية والسراج والبيضاء وبوح وبراح ومهاة والشرق ، إلا أنه لا يقال غاب الشرق ولا غابت الغزالة ، قال قائلهم .

تَرَوّحْنا من اللعباء قصراً وأعجلنا إلاهَةَ أن تؤوبا[٣]

« وقال آخر »

ثم يجلو الظلام ربٌّ رحيمٌ بمهاةٍ شُعاعُها منشُورُ[٤]

ودارتها الطُّفاوة ، وآياتها ضوؤها ولعابها ما تراه فى شدة الحر كنسج

---

(١) يقول : صارت كواكب السماء التى كان الناس يسقون بنوئها خالية من الغيث لم يكن عند سقوطها مطر ولم يكن فى الفلاة يسير ماء تشرب منه الشاة الجبلية من الماءالذى تستدره ريح الجنوب (٢) القراح كسحاب الأرض التى لا ماء بها ولا شجر أو المخلصة للزرع والغرس

(٣) يقول خرجنا بعد الزوال من هذا المكان قرب العشى وبادرنا الى المقصد قبل أن تغرب الشمس (٤) يقول : ثم يكشف ظلمة الليل رب رحيم نظرا لخلقه ليتصرفوا فى معايشهم بشمس نورها ينشر فى البلاد .

العنكبوت ينحدر من السماء كاللعاب من الحيوان ، ويقال شرقت الشمس وذرت ذروراً أى طلعت وأشرقت أى انساح ضوؤها ، وكسفت ذهب ضوؤها ، والفىء الظل بعد الزوال ، وظل دوم لا تنسخه الشمس ، وطفلت وجنحت مالت للغروب ودنقت أيضاً ، وأشفت غابت إلا شفاً أى قليلا ، ووجبت غابت ، ودلكت اصفرت للغيوب ، وصامت الشمس ركدت نصف النهار كأن لها وقفةً وإبطاء عن الزوال ، ودومت ، قال ذو الرّمة :

مُعْرَوْرِياً رَمَضَ الرَّضْراض يركضُهُ والشمس حَيْرى لها فى الجوّ تدويمُ(١)

وقَرْن الشمس وحاجبها أول نواحيها ، والمشرق المطلع ، والمغرب المغيب وهما مشرقان ومغربان : مشرق الصيف هو مطلع الشمس فى أطول يوم ، ومشرق الشتاء وهو أخفض مطالعها فى أقصر يوم ، والمغربان على ذلك ، ودرارى النجوم كبارها .

ومنها القمر

ويقال له أول ما يهل (هلال) إلى ثلاث ليال ، ثم هو قمر إلى أن يهل ثانياً ، قال قائلهم

ثم استمرّت كشقة القمر البد رِ خفوق الأحشاء والكبد(٢)

ويقال لكل ثلاث ليال من أول الإهلال إلى أن ينسلخ الشهر اسم ؛ فالأول غُرَر ، وبعدها نُفَل ؛ ثم تُسَع ، ثم عُشَر ؛ وثلاث بيض ، وثلاث درع ؛ وثلاث ظلم ؛ وثلاث حنادس ، وثلاث دآدىء واحدتها دأداء ؛ وثلاث مِحاق ، وقد نظمها بعضهم فقال :

---

(١) معروريا : راكبا والرمض محركة شدة وقع الشمس على الرمل وغيره. والرضراض : الحصى أو صغارها ، ويروى « رمض الرمضاء » وهى الأرض الشديدة الحرارة ، ويركضه : يضربه برجله ، ومعنى قوله والشمس حيرى الخ أن الشمس فى كبد السماء واقفة متحيرة الى أن تنحط وتجنح للغروب وذلك من مبدأ الزوال والبيت فى وصف الجندب (٢) البيت فى وصف بقرة. يقول : ثم استمرت هذه البقرة الوحشية من خوف الصائل وهى فى بياضها كالنصف من البدر فجعة قلقة خوفا من الرامى .

ثم ليالى الشهر قدماً عرفوا   كل ثلاث بصفات تعرفُ

فَغُرَرٌ وَنُفَل وتسع   وعُشَرٌ فالبيض ثم الدرع

وظُلَم حنادس دَآدى   ثم المحاق لانمحاقِ بادى

وليلة السواء ليلة تمام القمر ، وهو وفاء ثلاث عشرة ، و بعدها ليلة البدر ؛ ومَيْسان ليلة النصف ، تقول : أسوينا ، وأبدرنا ، وأنصفنا ، أى صرنا فى ذلك وهذه الليالى الثلاث بيض ثم يدرع الشهر ، أى تسود أوائل لياليه ، من قولك شاة درعاء إذا اسود مقدمها وابيض سائرها ، ثم ينتقص القمر حتى يمتحق ؛ وهو أن يطلع مع الشمس فيحترق ، وليلة ثمان وعشرين الدعجاء ، و بعدها الدهماء ، وليلة الثلاثين الليلاء ، وابنا جمير يومان فى المحاق يستسر فيهما القمر ، والبراء آخر ليلة من الشهر لتبرؤ القمر فيه من الشمس وهو السرار . وقيل : بل هو أول يوم من الشهر ؛ والناحر والنحير كذلك . . وقيل يقال للهلال ما أنت ابن ليله رضاع سُخَيْله[(١)] ، حلّ أهلها بِرُمَيْله ، ما أنت ابن ليلتين : حديث أَمَتَيْن . بكذب ومَيْن[(٢)] ، ما أنت ابن ثلاث : حديث فتيات ، غير مؤتلفات[(٣)] ، ما أنت ابن أربع : عتمة أم رُبَعٍ[(٤)] لا جائع ولا مُرْضَع ، ما أنت ابن خمس ، عَشاء خَلِفات قعس[(٥)] ، ما أنت ابن ست : سرو بت[(٦)] ، ما أنت ابن سبع : دلجة الضبع ، ما أنت ابن ثمان : قمر أضحيان[(٧)] ، ما أنت ابن تسع : ملتقط الجزع[(٨)] ، ما أنت

---

(١) سخيلة : تصغير سخلة . المعنى : ان الهلال يبقى بقدر ماينزل قوم فتضع شاتهم سخلة ثم ترضعها ريرتحلون ، فبقاؤه فى الافق كمقدار رضاع السخلة (٢) يريد أن بقاءه له قليل كمقدار ما تلقى الأمة فتحدثها فتكذب لها حديثا ثم تفترقان (٣) يريد أنه يبقى بقاء فتيات أبكار اجتمعن على غيرميعاد فتحدثن ساعة ثم انصرفن غير مؤتلفات (٤) أم ربع : الناقة . يريد أن بقاء مقدار ماتحلب ناقة لها ولد ولدته فى أول الربيع وهو أول النتاج ، وعتمت ابله اذا تأخرت زمن هذا سميت العتمة لانها آخر الوقت (٥) الخلفات : هى التى استبان حملها ، والقعس جمع قعساء : وهى الداخلة الظهر الخارجة البطن (٦) أى سرفى وبت ، فاننى أبقى بقدر ما يبيت انسان ويسير (٧) مضىء (٨) أراد أنه مضىء أبلج او انقطعت فيه مخنقة فتاة مفصلة بجزع ما ضاع منها شىء لضيائه ونقائه .

ابن عشر . ثلث الشهر ، ويقال إن ما بعدها موضوع ، وهو مذكور فى كثير من كتب الأدب .

والدارة حول القمر (الهالة) و يقال حاق القمر . والقمر الليلة فى الهالة وحجر إذا استدار بخط . ويقال للقمر الزبرقان والأزهر والشهر والساهور ، وقيل غلافه الذى يستتر فيه إذا خسف وفى التسع البواقى . وقال أمية بن أبى الصلت :

لا نقص فيه غير أنّ خبيه   قمر وَسَاهورٌ يسلّ ويغمد(١)

والشامة : السواد فى القمر ، و بذلك ألغز بعضهم :

وما شامةٌ سوداء فى حُرِّ وجهه   مجلّلة لا تنجلى لزمان
و يدرك فى تسع وخمس شبابَهُ   ويهرم فى سبع معاً وثمان(٢)

ويقولون أضاءت القمراء ، وليلة قمراء وضَحْياء ضَحْيانة وبيضاء ، والمحمقات الليالى البيض تغيم فيها السماء فترى ضوءاً ولا ترى قمراً فتظن أنك مصبح وعليك ليل ، يقال غرنى غرور المحمقات ، و بزغ القمر : طلع ، وأفل : غاب ، والفَخْتُ : ضوء القمر ، و يقال : جلسنا فى الفخت وقيل الدأداء الليلة التى يشك فيها أمن الشهر الماضى هى أم من الداخل ؛ وليلة غُمَّى يحال فيها دون الهلال ، وأنشد شاعرهم .

وليـلةٍ مشتبهٍ أهوالهـا   ليلةِ غُمَّى طامس هلالها(٣)

وقد سمت العرب كواكب كثيرة يطول استقصاؤها ، واقتصرنا على ذكر النيرين الأعظمين .

(١) يقول : القمر وغلافه مختلفان فمرة ينزع من غلافه فيكون بدرا كاملا ومرة يرد الى غلافه حتى يكون مستسرا ثم يبدو ملألأ فيتزايد الى ان يعود بدرا
(٢) قولـه : ويدرك الخ يروى « ويدرك فى ست وتسع شبابه » . قال ابو محمد فى شرح هذين البيتين : الذى عندى انه أراد وماشى فى حر وجهه شامة سوداء ، ويكون سؤاله عن القمر الا أنه ألغز ، وان حمل الكلام على ظاهره كان السؤال عن الشامة ما سببها ، والمجللة : التى جللت وجهه . لا تنجلى لزمان : لاتذهب فى وقت من الأوقات ، وقوله « ويدرك فى ست وتسع شبابه » يريد أنه يتناهى تمامه الى خمس عشرة ليلة من الشهر ثم يتناقص من وقت تمامه الى آخر الشهر ، وانما أنث أسماء العدد لانه أراد الليالى (كنز الحفاظ فى تهذيب الالفاظ ص ٤٠١) وحر الوجه. ما بدا منه. (٣) يقول. ورب ليلة مظلمة داجية اذا نظرت اليها رايت من وحشة ظلمتها ما يهولك ويروعك وهى ليلة لا يرى فيها هلالها . وغمى : كحتى وتمد وتضم الاولى مع القصر .

منازل القمر وأنواؤها

المنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، وهى عند أهل الهند سبعة وعشرون لأن القمر يقطع فلك البروج فى سبعة وعشرين يوماً وثلث فحذفوا الثلث لأنه ناقص عن النصف كما هو مصطلح أهل التنجيم ، وعند العرب وساكنى البدو ثمانية وعشرون لا لأنهم تمموا الثلث واحداً كما قال بعضهم بل لأنه لما كانت سنوهم باعتبار الأهلة مختلفة الأوائل لوقوعها فى وسط الصيف تارة وفى وسط الشتاء أخرى ، وكذا أوقات تجاراتهم وزمان أعيادهم ، احتاجوا إلى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتى يشتغلوا فى استقبال كل فصل بما يهمهم فى ذلك الفصل من الانتقال إلى المراعى وغيرها ، فاحتالوا فى ضبطها فنظروا أولا إلى القمر ، فوجدوه يعود إلى وضع له من الشمس فى قريب من ثلاثين يوماً ، ويختفى آخر الشهر لليلتين أو أقل أو أكثر ، فأسقطوا يومين من زمان الشهر فبقى ثمانية وعشرون ، وهو زمان ما بين أول ظهوره بالعشيات مستهلاً أول الشهر وآخر رؤيته بالغدوات مستتراً آخره ، فقسموا دور الفلك عليه ، فكان كل قسم اثنتى عشرة درجة وإحدى وخمسين دقيقة تقريباً ، وهو ستة أسباع درجة ، فنصيب كل برج منه منزلان وثلث ، ثم لما انضبط الدور بهذه القسمة احتالوا فى ضبط سنة الشمس بكيفية قطعها لهذه المنازل فوجدوها تستتر دائماً ثلاثة منازل : ما هى فيه بشعاعها ، وما قبلها بضياء الفجر ، وما بعدها بضياء الشمس ، ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر ، ثم بشعاعها ، ثم بضياء الشفق ، فوجدوا الزمان بين كل ظهور منزلتين ثلاثة عشر يوماً تقريباً ، فأيام جميع المنازل تكون ثلاثمائة وأربعة وستين ، ولكن الشمس تقطع جميعها فى ثلاثمائة وخمس وستين فزادوا يوماً فى أيام منزل (غَفْر) وزادوه ههنا اصطلاحا منهم ، أو لشرفه على ما تسمعه إن شاء الله . وقد يحتاج إلى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة ، ويرجع الأمر إلى النجم الأول ، واعلم أن العرب

جعلت علامات الأقسام الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر فى ممره أو يحاذيه فيرى القمر كل ليلة نازلاً بقرب أحدها . وأحوال كواكب المنازل مع المنازل كأحوال كواكب البروج مع البروج عند أهل الهيئة من أنها مسامتة للمنازل ، وهى فى فلك الأفلاك . وإذا أسرع القمر فى سيره فقد يخلى منزلا فى الوسط ، وإن أبطأ فقد يبقى ليلتين فى منزل أول الليلتين فى أوله وآخرهما فى آخره ، وقد يرى فى بعض الليالى بين منزلتين ، وما يقال فى الشهور أن الظاهر من المنازل فى كل ليلة يكون أربعة عشر وكذا الخفى ، وإنه إذا طلع منزل غاب رقيبه وهو الخامس عشر من الطالع سمى به تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط فى المغرب إذا ظهر ذلك فى المشرق — ظاهر الفساد ، لأنها ليست على نفس المنطقة ولا أبعاد ما بينها متساوية ، ولهذا قد يكون الظاهر ستة عشر وسبعة عشر ، وقد يكون الخفى ثلاثة عشر .

* * *

وللمنازل أنواء اختلف علماؤها فيها ، ولنذكر ملخص ما أورده أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجى فى كتابه المؤلف فى الأنوء . قال : السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، لكل نَوْء ثلاثة عشر يوماً إلا نوء الجبهة فإنه أربعة عشر يوما (زيد فيه يوم لتكمل السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوماً) وهو المقدار الذى تقطع فيه الشمس بروج الفلك الاثنى عشر ، لكل برج منزلتان وثلث منزلة ، وكلما نزلت منزلة من هذه المنازل سترته لأنها تستر ثلاثين درجة : خمس عشرة من خلفها ، ومثلها من أمامها ، فإذا انتقلت عنها ظهرت ، هكذا قال الزجاجى ، فإذا اتفق أن تطلع منزلة من هذه المنازل مع الغداة ويغرب رقيبه فهو (النوء) ولا يتفق ذلك لكل منزلة منها إلا مرة واحدة فى السنة ، وهو مأخوذ من ناء ينوء إذا نهض متثاقلا ، والعرب تجعل النَّوْء للغارب لأنه ينهض للغروب متثاقلا ، وعلى ذلك أكثر أشعارها ، وتفسير بعض العلماء فى قوله تعالى

(ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى تميل بهم إلى الأرض ، وهذا التفسير أوجه من قول من يجعل الكلمة من المقلوب . قال : وبعضهم يجعله للطالع وهذا مذهب المنجمين لأن الطالع له التأثير والقوة ، والغارب ساقط لا قوة له ولا تأثير . قال المبرد : النوء على الحقيقة للطالع من الكوكبين لا الغارب ، وهذه المنازل كلها يطلع بها الفلك من المشرق ويغرب فى المغرب كل يوم وليلة ، وتلك دورة من دوراته .

الربع الأول من السنة : الربيع

ابتداؤه فى تاسع عشر يوماً[1] من آذار ، وبعضهم يجعله فى عشرين يوماً منه ، فيستوى حينئذ الليل والنهار ، ويطلع مع الغداة فرغ الدلو الأسفل وهو المؤخر ، وتسقط العوّاء وإليها ينسب النوء ، وهى تمد وتقصر وصورته[2] خمسة كواكب كأنها ألف معطوفة الذنب إلى اليسار وبذلك سميت . تقول العرب عويت الشىء (إذا) عطفته ، وقال آخرون : بل هى كأنها خمسة أكلب تعوى خلف الأسد . وقال ابن دريد : بل دبر الأسد والعواء فى كلامهم الدبر . النوء الثانى (السِّماك) وهما سماكان : أحدهما الأعزل وهو نجم وقاد شبهوه بالأعزل من الرجال وهو الذى لا سلاح معه وهو منزل القمر . والآخر كوكب تقدمه آخر شبهوه بالرمح ، وهما ساقا الأسد وسمى سماكا لعلوه ولا يقال لغيره إذا علا « سماك » هكذا قال سيبويه فيما حكى الزجاجىّ عن أبى إسحق الزجاج غير أنه قال فى الأعزل : وقيل إنما سمى الأعزل لأن القمر لا ينزل فيه ، وهذا مخالف لما عليه جمع الناس ، النوء الثالث (الغَفْر) وهو ثلاثة كواكب غير زهر ، وبذلك سميت من قولك غفرت الشىء إذا غطيته ، ومنه سميت الغفارة التى تلبس ، وقيل إنما سمى غفراً من الغفرة وهى الشعر الذى فى طرف ذنب الأسد ، وقال

---

(١) فى العمدة (ج ٢ ص ١٩٧) : « ابتداؤه من سبعة عشر يوما من آذار فليتدبر (٢) فى العمدة « وصفتها » .

أبو عبيدة : الغفر كل شعر صغر دون الكبير وكذلك هو فى الريش ، وقال قوم : هو من النكس فى المرض يقال أغفر المريض إذا نكس كأن النكس غطى العافية ، النوء الرابع (الزُّبانان) وهما كوكبان متفرقان وهما قرنا العقرب ، وقيل يداها ، وسميا زبانين لبعد كل واحد منهما عن صاحبه من قولهم زبنت كذا إذا دفعته لتبعده ، ومنه إشتقاق الزبانية لأنهم يدفعون أهل النار إليها ، النوء الخامس (الإكليل) وهو ثلاثة كواكب على رأس العقرب ولذلك سميت إكليلا ، النوء السادس (القلب) وهو كواكب أحمر وقاد جعلوه للعقرب قلباً على معنى التشبيه ، النوء السابع (الشَّوْلة) وهو كوكبان أحدهما أحق من الآخر ، وهما ذنب العقرب وذنب العقرب شائل أبداً فشبه به ، هذا قول بعضهم ، و بعضهم يجعل الشولة الإبرة التى فى ذنب العقرب وهم أهل الحجاز فهو أصح على مذهب من زعم أنهما كوكبان فقط .

الربع الثانى : الصيف

أول أنوائه (النَعَائم) وهى ثمانية كواكب نيرة : أربعة منها فى المجرة تسمى الواردة وأربعة خارجة منها تسمى الصادرة ، وشبهت بالخشبات التى تكون على البئر تعلق بها البكرة والدلاء ، الثانى من الصيف (البَلْدة) وهى فرجة لطيفة لا شيء فيها لكن فى جوارها كواكب تسمى القلادة ، وإنما قيل لتلك الفرجة بلدة تشبيهاً بالفرجة التى بين الحاجبين إذا لم يكونا مقرونين ، يقال منه رجل أبلد ، ويقال بل شبهت بالبلدة وهى باطن الراحة ، وقيل باطن ما بين السبابة والإبهام ، الثالث منه (سعدٌ الذابحُ) وهما نجمان صغيران أحدهما مرتفع فى الشمال معه كوكب آخر يقال له شاتُهُ التى تذبح [1] ، والآخر هابط فى الجنوب ، الرابع منه (سعد بُلَعَ) وهما كوكبان صغيران مستويان فى المجرة شبها بفم مفتوح يريد أن

---

(١) قلت : ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد بخلاف سائر السعود فانها يضاف اليها ما بعدها كما قاله الزجاج فى مقدمة أدب الكاتب .

يبتلع شيئاً ، وقيل إنما قيل له بُلَع لأنه كان قد بلع شاته و بلع غير مصروف لأنه معدول عن بالع مثل زُفَر وقُثَمَ وسعد مضاف إليه . الخامس منه (سعد السعود) وهو كوكبان أحدهما أنور من الآخر سمى بذلك لأن وقت طلوعه ابتداء كمال الزرع وما يعيش به الحيوان من النبات . السادس منه (سعد الأخبية) وهو كوكبان عن شمال الخباء ، والأخبية أربعة كواكب واحد منها فى وسطها يسمى الخباء لأنه على صورة الخباء ، وزعم ابن قتيبة أنه إنما سمى بذلك لطلوعه وقت انتشار الحيات والهوام وخروج ما كان مختبئا منها . السابع منه (فرغ الدلو الأعلى) وهو المقدم وبعضهم يسميه العرقوة العليا تشبيهاً بعرقوة الدلو ، وهو كوكبان متفرقان نيران ، وقيل له « الفرغ [1] » لأنه تأتى به الأمطار العظيمة ، و يقال بل سميا بذلك لأنهما مثل صليب الدلو الذى يفرغ منه الماء .

الربع الثالث : الخريف

أول أنوائه (فرغ الدلو الأسفل) وصورته كوكبان مضيئان بينهما بعد صالح يتبعان العرقوة العليا . ثم (الحوت) وهو كوكب أزهر نير فى وسط السمكة مما يلى رأسها و يسمى قلب السمكة . ثم (الشَّرَطان) وهو كوكبان مفترقان مع الشمالى منهما كوكب دونه فى القدر ، وسميا شرطين لأن سقوطهما علامة ابتداء المطر واتصاله ، وكل من جعل لنفسه علامة فقد أشرطها ، ومنه سمى الشرط لأن لهم علامات يعرفون بها . ثم (البطين) وهو ثلاثة كواكب طمس خفيات وهو بطن الحمل إلا أنه قد صغر . ثم (الثريا) وهى النجم ، وصورتها ستة كواكب متقاربة حتى تكاد تتلاصق ، وأكثر الناس يجعلها سبعة ، وقد جاء الشعر بالقولين جميعا ، سميت بذلك لأن مطرها عنه تكون الثروة ، وكثرة العدد والغنى ، وهى تصغير ثروى ، ولم ينطق بها إلا مصغرة . ثم (الدبران) وهو كوكب وقاد على أثر نجوم

(١) لعله (الدلو) كما فى العمدة .

سمى (الرِلاص) وقيل له دبران لأنه دبر الثريا أى جاء خلفها ، ويقال له أيضاً الراعى والتالى والتابع والحادى على التشبيه . ثم (الهَقْعَه) سميت بهـذا تشبيها بالدارة التى تـكون عند عقب الفارس فى جنب الفرس [١] ، وصورتها ثلاثة أنجم صـغار متقاربة كآثار رؤوس أصابع ثلاثة فى ثرى إذا جمعت الوسطى والسبابة والإبهام وهى رأس الجوزاء .

الربع الرابع : الشتاء

وهو آخر أرباع السنة . أول أنوائه (الهَنْعة) سميت بذلك لأنها كوكبان مقترنان كل واحد منهما منعطف على صاحبه من قولك هنعته إذا عطفت بعضه على بعض ، واقترانهما فى المجرة بين الجوزاء والذراع المقبوضـة . الثانى (ذراع الأسد المقبوضة) وقيل لها مقبوضة لانقباضها عن سمت الذراع المبسوطة والمقبوضة كوكبان نيران [٢] بينهما كواكب صغار تسمى الأظفار ، وأنواء الأسـد أحمد الأنواء ولذلك ، كثر ذكرها فى الشعر بين العرب . قال الشاعر [٣] :

يا مَنْ رأى عارضاً أسرّ به   بينَ ذراعَىْ وجبْهَةِ الأسدِ [٤]

والذراعان والجبهة من المنازل ، فالذراعان أربعة كواكب كل كوكبين منها ذراع . قال أبو إسحق : ذراع الأسد المقبوضة كوكبان نيران بينهما كواكب صغار يقال لها الأظفار كأنها فى موضع مخالب الأسد فلذلك قيل لها الأظفار ، وإنما قيل لها الذراع المقبوضة لأنها ليست على سمت الذراع الأخرى وهى مقبوضة عنها ، ونوؤها يكون لليلتين تمضيان من كانون الثانى يسقط الذراع فى المغرب غدوة ، وتطلع البلدة والنسر الطائر فى المشرق غدوة ، وفيه يجمد الماء ، ويشتد

---

(١) أقول : وقال القلقشندى فى صبح الاعشى ج ٢ ص ١٥٧ : سـميت بذلك تشـبيها بدائرة تكون فى عنق الفرس (٢) وقال القلقشـندى ج ٢ ص ١٥٨ : الذراع ــ كوكبان أحدهما نير والآخر مظلم بينهما قدر سوط فى رأى العين .. الخ (٣) هو الفرزدق (٤) العارض السحاب الذى يعترض الافق ، وأسر: أفرح ويروى أكفكفه أى أمسحه مرة بعد أخرى، ويروى أرقت له أى سهرت من أجله . والبيت من شواهد النحو ــ أنظر المفصل ص ١٠٠

البرد ، والجبهة أربعة كواكب فيها عوج أحدها براق وهو اليمانى منها ، وإنما سميت الجبهة لأنها جبهة الأسد ونوؤها يكون لعشر تمضى من شباط ، تسقط الجبهة فى المغرب غدوة ، ويطلع سعد السعود من المشرق غدوة ، وفيه تقع الجمرة الثالثة ، ويتحرك أول العشب ، ويصوت الطير ، ويورق الشجر ، ويكون مطر جود ، ويسمى نوء الأسد لأنه يتصل بها كواكب فى جبهة الأسد ؛ وخص الشاعر هاتين المنزلتين لأن السحاب الذى ينشأ بِنَوْء من منازل الأسد يكون مطره غزيراً فلذلك يسر به . قال الأعلم : وصف عارض سحاب اعترض بين نوء الذراع ونوء الجبهة ، وهما من أنواء الأسد ، وأنواؤه أحمد الأنواء ، وذكر الذراعين والنوء إنما هو للذراع المقبوضة منهما لاشتراكهما فى أعصاب الأسد ، ونظير هذا قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) يريد من البحرين الملح والعذب ، وإنما يخرج اللؤلؤ من الملح لا منهما . وقال شاعر من بنى سعد :

وخيفاء ألقى الليث فيها ذراعه فسرت وساءت كل ماش ومُصْرِمِ
تمشى بها الدرماء تسحب قُصْبَهَا كأن بطن حُبْلى ذات أونين متئم

الخيفاء : روضة فيها رطب ويبيس وهما لونان أخضر وأصفر . وكل لونين خيف ، وبه تسمى الفرس إذا كانت إحدى عينيها كحلاء والأخرى زرقاء ، وسمى الخيف خيفاً لأن فيه حجارةً سوداً وبيضا . وقوله : « ألقى الليث فيها ذراعه » يقول : مطرت بنوء الذراع وهى ذراع الأسد فسرت الماشى ، أى صاحب الماشية ، وساءت المصرم الذى لا مال له لأن الماشى يرعيها ماشيته ، والمصرم يتلهف على ما يرى من حسنها وليس له ما يرعيها . وقوله « تمشى بها الدرماء » يعنى الأرنب وإنما سميت الدرماء لتقارب خطوها ، وذلك لأن الأرانب تدرم درماً تقارب خطوها وتخفيه لئلا يقص أثرها فيقال درماء وكان ينبغى أن يقول دارمة . وقوله « تسحب قصبها » وهذا مثل ، والقُصْب المِعَى مقصور والجمع أقصاب ، وإنما أراد بالقصب البطن بعينه واستعاره يقول : فالأرنب قد عظم

بطنها من أكل الـكلأ وسمنت فـكأنها حبلى ، والأونان العدلان ، يقول : كأن عليها عدلين لخروج جنبيها وانتفاخهما ، ويقال أون الحمار وغيره إذا شرب حتى ينتفخ جنباه ومتئم اسم فاعل من أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين فى بطن فهى متئم ، والشعر فى هذا الباب كثير ، الثالث من أنواء الشتاء (النثرة) وهى لطخة ضعيفة بين كوكبين ، وهى ما بين فم الأسد وأنفه ومن الإنسان فرجة ما بين الشار بين حيال وترة الأنف ، وقيل إنما سميت نثرة لأنها كقطعة سحاب نثرت الرابع (الطرف) وهو عينا الأسد وهما كوكبان صغيران بينهما نحو قامة فى مرأى العين . الخامسة (الجبهة) وهو كما سبق أربعة كواكب معوجة فى اليمانى لها بريق وهى جبهة الأسد عندهم . السادس (الزُّبْرَة) وهو كوكبان نيران فى زبرة الأسد وهى موضع الشعر فى كتفيه ، ويقال لهما الخراتان كأنهما نفذا إلى جوف الأسد مشتق من الخرت وهو الثقب . وزعم قوم أنهما عجز الأسد ، والعيان يبطل ذلك كما قاله الزجاجى . السابع (الصَّرْفة) وهو كوكب وقاد عنده كواكب طمس ، سمى بذلك لانصراف البرد بسقوطه والحر بطلوعه . فهذه عدة المنازل وصفاتها وإنما أضيفت إلى القمر دون الشمس وحظهما فيها واحد لظهورها معه . وتسمى (نجوم الأخذ) لأن الأرض تأخذ عنها بركات المطر ، وقيل لأخذ الشمس والقمر سمتها فى سيرها .

أقسام الأنواء وأيامها لدى العرب

إعلم أن العرب قسمت المنازل بالنسبة إلى أنوائها إلى سبعة أقسام على غير الوجه الذى نقلناه عن أبى إسحق الزجاجى فيما سبق (القسم الأول من الأنواء البدرى) وهو تسعة وثلاثون يوماً من ثمانية أيام خلون من أيلول إلى سبعة عشر يوماً خلت من تشرين الأول ونوؤه على قول من يجعل النوء سقوط الـكوكب فى الغرب مع الغداة سقوط فرغ الدلو المقدم والفرغ المؤخر والحوت (القسم

الثانى الوسمى) وهو اثنان وخمسون يوما ومبدؤه من سبعة عشر يوماً خلت من تشرين الأول إلى تسعة أيام تمضى من كانون الأول ونوؤه سقوط الشرطين والْبُطَيْنِ والثريا والدَّبَرَان (القسم الثالث الولى) وهو مائة وثلاثون يوما ، ومبدؤه من تسعة أيام تمضى من كانون الأول إلى ثمانية عشر يوماً تمضى من نيسان ونوؤه سقوط الهقْعة والهنْعة والذراع والنَّثْرة والطَّرْف والجبهة والزُّبرة والصَّرفة والعوّاء والسماك (القسم الرابع الغمير والمد) وهما متداخلان وهما اثنان وخمسون يوماً ، ومبدؤه من ثمانية عشر يوما من نيسان إلى تسعة أيام تمضى من حزيران ونوؤه سقوط الغفر والزُّبانى والإكليل والقلب (القسم الخامس البسرى) وهو ستة وعشرون يوماً ، ومبدؤه تسعة أيام تمضى من حزيران إلى خمسة أيام تمضى من تموز وتسميه العامة النفاخ لأنه يكبر فيه البلح فيصير بسراً ، وكذلك الفواكه والسماك ونوؤه سقوط الشولة والنعائم (القسم السادس بارح القيظ) ويسمى أيضا رياح القيظ الشديدة وهى السموم وتسميه العامة الطباخ لأنه يطبخ البسر الذى ينفخه البسرى فيصير رطباً ، وهو تسعة وثلاثون يوما ، ومبدؤه من خمسة أيام مضين من تموز إلى ثلاثة عشر يوماً خلت من آب ، ونوؤه سقوط البلدة وسعد بُلَع وسعد الذابح (القسم السابع إحراق الهوى) وهو ستة وعشرون يوما من ثلاثة عشر يوماً من آب إلى ثمانية أيام من أيلول ، ونوؤه سقوط سعد السعود وسعد الأخبية .

البعد بين المنازل

إعلم أن البعد من الشَرَطين إلى البُطَيْن اثنتا عشرة درجة ، ومن البطين إلى الثريا ثلاث عشرة درجة ، ومن الثريا إلى الدَّبران خمس عشرة درجة ، ومن الدبران إلى الهقعة أربع عشرة درجة ، ومن الهقْعة إلى الهنْعة ست عشرة درجة ، ومن الهنعة إلى الذراع كذلك ، ومن الذراع إلى النثْرة ثلاث عشرة درجة ، ومن الطرف إلى الجبهة عشر درجات ، ومن الجبهة إلى الزبرة أربع عشرة درجة

من الزبرة إلى الصرفة ثلاث عشرة درجة ، ومن الصّرفة إلى العوّاء ست عشرة درجة ، ومن العواء إلى السماك اثنتا عشرة درجة ، ومن السماك إلى الغفر مثل ذلك ، ومن الغَفْر إلى الزبانى مثل ذلك أيضاً ، وتسمى هـذه (متساوية الأبعاد) ومن الزبانى إلى الإكليل أربع عشرة درجة ، ومن الإكليل إلى القلب خمس عشرة درجة ، ومن القلب إلى الشّوْلة ست عشرة درجة ، ومن الشولة إلى النعائم عشرون درجة ، ومن النعائم إلى البلدة تسع درجات (وهن أوسط الأبعاد) ، ومن البلدة إلى سعد الذابح إحدى عشرة درجة ، ومن سعد الذابح إلى سعد بُلَعْ عشرة درجات ، ومن سعد بَلَع إلى سعد السعود مثل ذلك ، ومنه إلى سعد الأخبية مثل ذلك ، ومنه إلى الفرغ المقدم مثل ذلك ، (وهذه الأربعة متساوية الأبعاد) ومنه إلى الفرغ المؤخر تسع عشرة درجة .

ما تقوله العرب فى طلوع المنازل والكواكب

قال ابن قتيبة فى (كتاب الأنواء) يقول ساجع العرب (إذا طلع الشّرَطان) استوى الزمان ، وحضرت الأوطان ، وتهادى الجيران [١] (إذا طلع البُطَيْن) اقتضى الدين [٢] ، وظهر الزين [٣] ، واقتنى بالعطار والقين [٤] (إذا طلع النجم) يعنى الثريا فالحر فى حذم [٥] ، والعُشْب فى حطم ، والعانات فى كدم [٦] (إذا طلع الدبران) توقدت الحُزّان [٧] ، وكرهت النيران ، واستعرت الذبان ،

(١) يريد أنهم يرجعون عن البوادي الى أوطانهم ومياههم لان الغدران بالبوادى حينئذ قد قلت والحر قد رق وكاد النبات يهيج باقبال أوائل الحر، وتهادى الجيران يكون حينئذ لانهم كانوا متفرقين فى النجع ، واذا رجعوا الى مياههم التقوا وتقاربوا فأهدى بعضهم الى بعض . (٢) اقتضاؤهم الدين عند طلوع البطين ، لانهم يرجعون عن البوادى الى أوطانهم — واذا طلع الشرطان — فيتهادون ويتلاقون ولا يزالون كذلك (١٣) يوما حتى يطلع البطين فيطمئنوا ويقتضى بعضهم بعضا ماله عليه من الدين . (٣) يريد أنهم عند التلاقى يتجملون باحسن ما يقدرون عليه . (٤) القين : الحداد . واقتفاؤهم بالعطار والقين برهم بهما لحاجتهم الى ابتياع الطيب من العطار ، واصلاح الحداد مارث من آلاتهم وامتعتهم (٥) يريد أنه حينئذ يهيج وينكسر .
(٦) أى تتعاض (٧) الارضون الصلبة واحدها حزيز وانما تتوقد لشدة وقع الشمس .

ويبست الغدران ، ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان [١] (إذا طلعت الهقعه) تقوض الناس للقلعة ، ورجعوا عن النجعة [٢] ، وأردفتها الهنعة [٣] (إذا طلعت الجوزاء) توقدت المَعْزَاء [٤] ، وَكَنَسَت الظباء [٥] ، وعرقت العلباء [٦] ، وطاب الخباء [٧] (إذا طلعت العذاة) لم يبق بِعُمان بسرة [٨] ، إلا رطبة أو تمرة (إذا طلع الذراع) حسرت الشمس القناع [٩] ، وأشعلت فى الأفق الشعاع ، وترقرق السّراب بكل قاع [١٠] ، (إذا طلعت الشعرى) نشف الثرى ، وأجن الصَّرى ؛ وجعل صاحب النخل يرى [١١] (إذا طلعت النثرة) قنأ البسرة ، وجنى النخلْ بكرة [١٢] ، وأوت المواشى حجرة [١٣] ولم تترك فى ذات در قطرة (إذا طلعت الطرفة) بكرت الخُرفة ، وكثرت الطُّرفة ، وهانت للضيف الكلفة [١٤] (إذا طلعت الجبهة) تحانت الولهة ، وتنازت السفهة ، وقلت فى الأرض الرفهة [١٥] ، (إذا طلعت الصَّرْفة) احتال كل ذى حرفة [١٦] ، وجفر كل ذى نطفة [١٧]

---

(١) ذلك لانهم لا يخافون بردا ولا مطرا (٢) قال المجد النجعة بالضم طلب الكلأ فى موضعه (٣) أى مع طلوعها يرجع الناس الى مياههم .
(٤) الارض الصلبة تتوقد بحر الشمس (٥) يريد أنها تدخل الكنس فى شدة الحر ، واحدها كناس وهو مستترة فى الشجر (٦) يريد العلباوين فى العنق (٧) لانه يكن فى الحر (٨) عمان كغراب بلدة باليمن شديدة الحر ، فاذا بسر النخل بالبصره صرم بعمان (٩) أى كشفت القناع . يريد اشتداد حرارتها (١٠) ترقرق : تحرك ، والسراب : ما تراه نصف النهار كانه ماء ، والقاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام (١١) يريد تغير الماء المجتمع فى الغدران والمناقع لشدة الحرارة وانقطاع المرار عنه وتبين لصاحب النخل ثمرة نخله لانه حينئذ يكثر (١٢) يريد اشتدت حمرة البسرة حتى كادت تسود وذلك أول وقت الصرام فيجنون النخل بكرة لانه فى ذلك الوقت بارد ببرد الليل (١٣) أى ناحية منهم لحاجتهم الى ألبانها وانما يحلبونها فى هذا الوقت ويستقصون ما فى ضروعها لانهم هموا فيه بفصال الاولاد فلا يبقون فى الضروع لها شيئا لتنال من الرعى وتسلو عن الامهات (١٤) يريد ان خرفة التمر تبكر فى وقت طلوعه ، وتكثر الطرفة عندهم ، وتهون الكافة للضيف لكثرة التمر فى ذلك الوقت وكثرة اللبن الذى يستقصونه من الضروع لفصال الاولاد عن الامهات (١٥) وانما تحانت الولهة لان اولادها قد ميزت عنها وفصلت » فتسمع حنين الامهات ، ويكثر أيضا عند الفصال الموت فى الاولاد والامهات تحن ، وتتناز السفهة لانهم فى خصب من اللبن والتمر فيبطرون ، واذا تنازت السفهة قلت الرفهة أى الرحمة واحتاجوا الى حفظ أموالهم وجمع مواشيهم ونعمهم خوف الغارة (١٦) يريد أن الشتاء قد أقبل وكل ذى حيلة يضطرب ويحتال للشتاء ما يصلحه فيه ، وكانت العرب تقول (من غلى دماغه فى الصيف غلت قدره فى الشتاء » (١٧) يريد عدل عن الضراب فى هذا الوقت لان المخاض فيه وهى الحوامل من الابل قد ظهر بها الحمل وعظمت بطونها فليس يدنو منها الفحل .

وامتيز عن المياه زلفة (١) (إذا طلع العوّاء) ضرب الخباء ، وطاب الهواء ، وكره العراء(٢) وشنن السقاء (٣) (إذا طلع السماك) ذهب العكاك(٤) ، وقل عن الماء اللكاك(٥) (إذا طلع الغَفْر) اقشع السفر(٦) ، وتزيل النضر(٧) ، وحسن فى العين الجمر (إذا طلع الزبانى) أحدثت لكل ذى عيال شأنا ، ولكل ماشية هوانا وقالوا كان وكانا ، فاجمع لأهلك ولا توانَى(٨) (إذا طلع الأكليل) هاجت الفحول ، وشمرت الذيول ، وتخوفت السيول (إذا طلع القلب) جاء الشتاء كالكلب ، وصار أهل البوادى فى كرب ، ولم تمكن الفحل إلا ذات ثرب (٩) (إذا طلعت الشولة) أعجلت الشيخ البولة ، واشتدت على العائل العولة(١٠) وقيل شتوة زولة(١١) (إذا طلعت العقرب) جَمَسَ المذنب(١٢) وقرب الأشيب ، ومات الجِنْدَب(١٣) ولم يصِرّ الأخطب(١٤) (إذا طلعت النعائم) توسقت البهائم(١٥) وخلص البرد إلى كل نائم ، وتلاقت الرعاء بالنَّمائم(١٦) (إذا طلعت البلدة) حممت الجعدة(١٧) وأكلت القشْدَة(١٨) وقيل للبرد : إهده(١٩) (إذا طلع سعد الذابح) حمى أهله النابح(٢٠) ونفع أهله الرائح(٢١) وتصبح السارح(٢٢)

(١) يريد أنهم يخرجون متبدين ويفارقون المياه التى كانوا عليها لطلب الكلأ والانتجاع (٢) لان البرد حينئذ بالليل يؤذى ويكره العراء يريد النوم فى الصحارى الباردة (٣) أى ييبس لانهم قد أقلوا استقاء الماء فيه .

(٤) العكاك : الحر يريد أنه لا يبقى منه شىء عند طلوعه (٥) يريد الازدحام عليه لقلة شرب الابل فى ذلك الوقت (٦) المسافرون (٧) يريد ذهاب النضارة عن الارض والشجر بتغيير الكلأ والورق (٨)يريد أن البرد قد هجم فشغل صاحب العيال وابتذل صاحب الماشية نفسه فى تتبع مصالحها ، وانهم أكثروا الحديث والقول (٩) يريد ذات سمن وشحم لانها أحمل البرد من الهزيلة فهى تتقدمها (١٠) الحاجة (١١) عجيبة (١٢) جمد الماء فى مذانب الاودية (١٣) الجراد (١٤) الشقراق أو الصرد ، والصر : الصياح .

(١٥) أى تشعثت وتغيرت (١٦) لانهم حينئذ يفرغون ولا يشغلهم رعى فيتلاقون ويدس بعضهم الى بعض أخبار الناس (١٧) الجعدة : نبت ، يريد طلعت فاخضرت الارض لها ، وحمم وجه الغلام اذا بقل ، وحمم الرأس اذا اسود بعد الحلق من غير أن يطول (١٨) هى الزبدة الرقيقة ، وتعرف عندنا بالعراق باسم (الكشوة) بالكاف الفارسية » ولا شك أنها محرفة عن القشدة يريدان الزبد عندهم فى ذلك الوقت يكثر (١٩) أى يقال « اهدأ عنا » لشدة ما يقاسون منه (٢٠) يريد : الكلب يلزم حينئذ أهله فلا يفارقهم لشدة البرد وكثرة اللبن فهو يحميهم وينبح دونهم (٢١) أى أنهم يأتيهم بالحطب اذا راح فينفعهم بذلك (٢٢) أى لم يبكر بماشيته لشدة البرد .

وظهر فى الحى الأنافح [١] (اذا طلع سعد بُلَع) اقتحم الرُّبَع [٢] ولحق الهبع [٣] وصيد المُرَع [٤] وصار فى الأرض لمع [٥] (اذا طلع سعد السعود) نضر العود [٦] ولانت الجلود [٧] وكره فى الشمس القعود (اذا طلع سعد الأخبية) دهنت الأسقية [٨] ونزلت الأحوية [٩] وتجاورت الأبنية (اذا طلع الدلو [١٠]) هيب الجذو [١١] وأنسل العفو [١٢] وطلب اللهو الخلو [١٣] (اذا طلعت السمكة)أمكنت الحركة — وتعلقت بالثوب الحسكة [١٤] ونصبت الشبكة [١٥] وطاب الزمان للنسكة [١٦] ولهم غير ذلك من الأسجاع فى سائر الكواكب وأنوائها ؛ واستيعابها فيما أعد لها من الكتب.

الطالع والغارب من المنازل والرقيب منها

إعلم أن المنازل كما كانت ثمانية وعشرين كانت ثلاثة عشر منها ظاهرة

---

(١) جمع أنفحة بكسر الهمزة وهى شىء يستخرج من بطن الجدى الرضيع أصفر فيعصر فى صوفه مبتلة فى اللبن فيغلظ كالجبن (٢) الربع كصرد : الفصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج ، يريد أنه يقوى فى مشيه ويسرع فلا يضبط (٣) أى ان الهبع أيضا قد نوى شيئا فهو يلحقه ، وهو : ما نتج فى أول النتاج وهو ضعيف ، وانما سمى هبعا لانه اذا مشى خلف أمه هبع أى مد عنقه فيستعين بعنقه لضعفه (٤) جمع مرعة كهمزة وغرفة وهو طائر يشبه الدراج ، كأنه فى هذا الوقت يقطع (٥) أى قطع من الكلأ

(٦) يريد أن الماء قد جرى فيه قبل ذلك فصار ناضرا غضا .

(٧) وانما لانت بذهاب يبس الشتاء وقحله (٨) وانما تدهن الاسقية لانها فى الشتاء قد يبست وشننت لتركهم الاستقاء فيها فتدهن فى هذا الوقت عند الحاجة اليها (٩) جمع حواء وهى جماعات بيوت الناس ، والحلال مثلها، وهى تكون من وبر وشعر كانهم فى هذا الوقت ينتقلون من مشتاهم ويتجاورون

(١٠) جمع الساجع فى سجعه القول للفرغين جميعا بذكره « الداو »

(١١) يريد ان الرطب جف وخيف أن لا تكتفى به الابل من الماء

(١٢) أى سقط نسله أو حان أن يسقط وهو وبره الذى يستجد مكانه كل سنة ، والعفو : ولد الحمار (١٣) يريد طلب التزويج ، واللهو : المراة . وهو النكاح . قال الله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا) أى لو أردنا صاحبة لاتخذنا ذلك عندنا ولم نتخذه عندكم لو كنا فاعلين ، وانما يطلب الخلو التزويج فى هذا الوقت لانه قد خرج من ضيق الشتاء وشدته ، وأمكنه التصرف وابتغاء الرزق فطلب التزويج (١٤) يريد شوكة السعدان . يعنى أن النبت قد اشتد وقوى فتعلقت الحسكة بالثوب وغيره (١٥) لان الطيور حينئذ تسقط فى الرياض وتصوت (١٦) يعنى النساك المتقللين الذين يسيحون فى الارض ولا يبالون كيف أخذوا ولا يتأذون بحر ولا برد .

فى الأفق الأعلى ، وثلاثة عشر فى الأفق الأسفل ، والطالع فى حكم الطلوع ، والغارب فى حكم الغروب ، فإذا عرفت الطالع كان رقيبه الخامس عشر . وإنما سمى الغارب رقيباً تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط من المغرب إذا ظهر ذلك من المشرق ، والطالع والغارب كما يعدان لأهل الأفق الأعلى كذلك يعدان لأهل الأفق الأسفل ، وبقية الثلاثة عشر الظاهرة واحد منها متوسط فى وسط السماء ، وستة منها إلى جهة المشرق ، وستة إلى المغرب ، وكذلك الثلاثة عشر السفليه ، فإذا غربت منزلة طلعت من المشرق أخرى فيتوسط ما بعد المتوسط فى العدد ، ومهما كان الطالع فالخامس عشر منه الغارب ، والثامن منه متوسط .

بروج الفلك الاثنا عشر

قسم العرب الفلك الى اثنى عشر قسماً وسموا كل قسم برجاً ، وهى : الحَمَلُ والثَّوْر والَجوْزاء (ويسمى التوأمين) والسَّرَطان والأسد والسنبلة (وتسمى العذراء أيضا) وهذه البروج الست شمالية ، والميزان والعقرب والقوس (ويسمى الرامى أيضا) والَجدْى والدلو (ويسمى ساكب الماء والدالى أيضا) والحوت (ويسمى السمكتين أيضا) وهذه الست جنوبية ، وجعلوا كل ثلاثة منها لفصل من فصول السنة الأربعة . ونظم بعضهم هذه البروج على الترتيب المعتبر عندهم فقال :

حَمَلَ الثورُ جوزةَ السرَطَان ورعى الليث سُنْبل الميزان
ورمى عقرب بقوس جديا نزحت دلوها بركة الحيتان [1]

وهذه الأسامى المذكورة مأخوذة من صور توهمت على المنطقة من كواكب ثابتة تنظمها خطوط موهومة وقعت وقت التسمية فى تلك الأقسام (فللحَمَل) ثلاثة عشر كوكباً على صورة كبش ذى قرنين مقدّمه إلى المغرب ومؤخره إلى

---

(١) كذا والرواية الصحيحة :
وزنوا عقربا وقوسا بجدى ومن الدلو مشرب الحيتان

المشرق وظهره إلى الشمال ورجلاه فى الجنوب وقد التفت إلى خلفه (وللثور) اثنان وثلاثون كوكباً على صورة مقدم نور مقطوع من سرته وقد نكس رأسه، مقدمه إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب، ومن كواكبه الثريا والدَّبَران (وللتوأمين) ثمانية عشر على صورة صبيين عريانين معتنقين فى جوز السماء (أى وسطها) رأساهما فى الشمال والمشرق أى فيما بينهما، وأرجلهما إلى المغرب والجنوب (وللسَّرَطان) تسعة كواكب على صورته مقدمه إلى المشرق والشمال ومؤخره إلى المغرب والجنوب (وللأسد) سبعة وعشرون على صورته وجهه إلى المغرب وظهره إلى الشمال والنيّر الذى هو فيها هو قلب الأسد، ومنها الهلبة وهى كواكب مجتمعة متكاثفة من جملتها الضَّفِيرة (وللعذراء) ستة وعشرون كوكباً على صورة جارية ذات جناحين أرسلت ذيلها، رأسها إلى المغرب والشمال، وقدماها إلى المشرق والجنوب، ويدها اليسرى مسبلة مع جنبها، واليمنى مرفوعة حَذْوَ منكبيها وقد قبضت بها سنبلة والنّير الذى على كفها اليسرى هو السِّماك الأعزل (وللميزان) ثمانية على صورة ميزان كفتاه نحو المغرب، وعموده نحو المشرق (وللعقرب) أحد وعشرون على صورتها، رأسها إلى الشمال، وحُمَتُها[1] نحو الجنوب والمشرق، والأحمر الذى فيه هو قلب العقرب (وللرامى) أحد وثلاثون كوكباً على صورة كأنها جسد دابة إلى العنق وهو فى المشرق ثم يخرج من مغرز العنق نصف رجل من عند الحِقْو[2] عليه عمامة ذات ذوائب، وقد وضع السهم فى قوسه، وأغرق فى النزع نحو المغرب (وللجَدْى) ثمانية وعشرون كوكباً على صورة النصف المقدم من جَدْى ذى قَرْنين رأسه ويداه نحو المغرب وظهره إلى الشمال والباقى كمؤخر سمكة إلى ذنبها (ولساكب الماء) اثنان وأربعون كوكبا على صورة رجل قائم، رأسه فى الشمال ورجلاه فى الجنوب متوجه إلى المشرق مادّ

---

(١) الحمة على وزن ثبة : الابرة التى تضرب بها العقرب

(٢) بالفتح ويكسر : الكشح او الازار أو معقده .

اليدين بإحداهما كوز قد قلبه وانصب الماء إلى مقام رجليه وجرى من تحتهما إلى فم الحوت (وللسمكتين) أربعة وثلاثون على صورة سمكتين قد وصل ذنب إحداهما بذنب الأخرى بخيط طويل من كواكب على تعريج يسمى خيط الكتان إحداهما وهى المتقدمة رأسها إلى المغرب وذنبها إلى المشرق ، ورأس الأخرى الى الشمال وذنبها الى الجنوب ، ولا يذهب عليك أن هذه الكواكب عند البروج متحركة بحركة الفلك الثامن فلاَ محالة تنتقل هذه الصور عن مواضعها فى تلك الأقسام ، والله تعالى أعلم .

فصول السنة على مذهب العرب ، ومالهم فيها من الاختلاف

إعلم أن العرب قسموا السنة الى أربعة أجزاء (فجعلوا الجزء الأول الصَّفَرِيّة) سموا مطره الوسمى ، وأوله عندهم سقوط عرقوة الدلو السفلى ، وآخره سقوط الهقْعة (وجعلوا الجزء الثانى الشتاء) وأوله عندهم سقوط الهَنْعة ، وآخره سقوط الصَّرفه (وجعلوا الجزء الثالثَ الصيف) وأوله عندهم سقوط العواء ، وآخره سقوط الشولة (وجعلوا الجزء الرابع القيظ) وسمّوا مطره الخريف ، وأوله عندهم سقوط النعائم ، وآخره سقوط عرقوة الدلو العليا ، كذا فى كتاب (در اللآلى) وقال ابن قتيبة فى باب ما يضعه الناس فى غير موضعه وهو أول كتابه (أدب الكاتب) : ومن ذلك الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء ويأتى فيه الورد والنَّوْر ، ولا يعرفون الربيع غيره ، والعرب تختلف فى ذلك ، فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده ، ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذى تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذى تدعوه العامة الصيف ، ومن العرب من يسمى الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذى يتلو الشتاء ويأتى فيه الكمأة والنور الربيع الثانى ؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع

قال شارحه ابن السيد : مذهب العامة فى الربيع هو مذهب المتقدمين ، لأنهم كانوا يجعلون حلول الشمس برأس الحمل أول الزمان وشبابه ، وأما العرب فإنهم جعلوا حلول الشمس برأس الميزان أول فصول السنة الأربعة ، وسموه الربيع . وأما حلول الشمس برأس الحمل فكان منهم من لا يجعله ربيعاً ثانياً فيكون فى السنة على مذهبهم ربيعان ، وكان منهم من لا يجعله ربيعاً ثانياً فيكون فى السنة على مذهبهم ربيع واحد ، وأما الربيعان من الشهور فلا خلاف بينهم أنهما اثنان ربيع الأول وربيع الآخر .

وقال المرزبانى فى كتاب صنفه فى الأنواء أتى فيه بفوائد كثيرة مقداره مائة وعشرون كراسة : ومن العرب من يقسم السنة نصفين ويبدأ بالشتاء لأنه ذكر ، والصيف أنثى ، قال : وإنما جعلوه أنثى لأن النبات يظهر فيه ، ثم يقسم الشتاء نصفين ، فيجعل الشتاء أوله ، والربيع آخره ، ويقسم الصيف نصفين فيجعل الصيف أوله ، والخريف آخره ، وفى بعض التعاليق أن من العرب من يجعل للسنة ستة أزمنة (الأول الوسمى) وحصته من السنة شهران ، ومن النجوم أربعة أنجم ، أولها العواء (الزمن الثانى الشتاء) وحصته من السنة شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الزمن الثالث الربيع) وحصته شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الزمن الرابع الصيف) وحصته شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الخامس الحميم) وحصته شهران ، وأربعة أنجم وثلثا نجم (السادس الخريف) وحصته شهران وأربعة أنجم وثلثا نجم . والذى عليه الغالب من العرب أن الفصول أربعة وهى المشهورة بين الناس وأن لكل فصل من فصول السنة سبعة منازل فللربيع من الشَّرَطين إلى الذراع ، وللصيف من النثرة إلى السماك ، وللخريف من الغَفْر إلى البلدة ، وللشتاء من سعد الذابح إلى الرشا ، والأوائل من الأطباء وإن كانوا يقسمون السنة على أربعة أقسام إلا أنهم يجعلون الصيف والشتاء أطول زماناً من الربيع والخريف ، فيجعلون للشتاء أربعة أشهر ، وللصيف كذلك ، وللربيع

والخريف أربعة أشهر لكل شهران ، لكونهما متوسطين بين الحر والبرد فكأنهما وصلتان بين الشتاء والصيف ، وقد أعرضنا عما يستشهد به من الشعر لكل مذهب لئلا يطول الكلام .

الجمرات وسقوطها ، وهل هى كواكب أم لا ؟

قال بعض من تكلم فى الأنواء : إن بعض الأعراب كانوا إذا اشتد عليهم البرد دخلوا مغارات فى الجبال واسعة ، وأدخلوا معهم أغنامهم ومواشيهم من الإبل والبقر والغنم ونحو ذلك ، وخصوا لهم موضعاً ، وللأغنام موضعاً ، ولنحو البقر موضعاً ، وأوقدوا لكلٍّ ناراً دفعاً لِسَوْرَةِ البرد [1] ، فإذا أحسوا بتصرمه أطفأوا ناراً فناراً إلى أن يطفئوا الثلاث ، فعبروا عن ذلك بسقوط الجمرات ، وعن إطفاء كل نار بسقوط جمرة ، ونحوه ما قيل إن ملوك المغل ونحوهم من سكان البلاد كانوا إذا اشتد البرد وأوقدوا فى مجالسهم ثلاث مجامر ، فإذا أحسوا بتصرمه رفعوها واحدة فواحدة ، فعبروا عن ذلك بما ذكر ، وشاع استعماله فيما بين الناس غير أولئك الفريقين كناية عن انكسار سَوْرَةِ البرد فى الماء والهواء والتراب وعندى أن هذا الوجه فى غاية البعد فإن اللفظ من اللغة العربية وعوائد المغل لم تكن معهودة للعرب يومئذ ! ورأيت لبعض المحققين فى ذلك وهو الحرى بالإصغاء إليه أن الجمرات عبارة عن كواكب ثلاثة : رأس الحية وهو كوكب من كواكب الطرف ، والذراع الشامى وهو كوكب من كواكب الهَنْعه ، وقلب الأسد وهو كوكب من كواكب الجبهة ، وسميت بالجمرات لتوقدها وضربها إلى الحمرة ، وسقوطها ميلها للغروب ، وقد جرت عادة الله تعالى بظهور أثر الحرارة فى الماء عند سقوط رأس الحية فى الغداة سابع شباط وميله للغروب فى ذلك الوقت ، وبظهور أثرها فى الهواء عند سقوط الذراع الشامىّ فى الغداة أيضا فى رابع عشرة ،

---

(١) أى شدته .

وبظهوره فى التراب عند سقوط قلب الأسد فى ذلك الوقت فى الواحد والعشرين منه، ولهذه المناسبة قالوا للأولى: جمرة المـاء، وللثانية جمرة الهواء، وللثالثة: جمرة التراب، وربما وقع فى التقاويم فى الترتيب سقوط جمرة المـاء، ثم سقوط جمرة التراب، ثم سقوط جمرة الهواء، وفى بعضها سقوط جمرة الهواء، ثم سقوط جمرة المـاء، ثم سقوط جمرة التراب، فلعل ذلك بناء على الاختلاف فى ترتيب ظهور الآثار، وفى تقييد السقوط بقوله بالغـداة اندفع إشكال لا يخفى على من يعرف الطالع والغارب، وذلك إذا أريد بالغـداة ما يعم وقت طلوع الشمس وما بعده إلى الزوال، وقد يقال الأمر أيضاً سهل إذا أريد بها وقت الطلوع بناء على أن قلب الأسد مثلا فى الدرجة الرابعة والعشرين من برجه، وأنهم يبنون الأمر على الترتيب كما لا يخفى على من راجع كتب الأحكام، من ذوى الأفهام، وفى كتب الأنواء زيادة تفصيل لمثل هذه المطالب.

مخايل العرب فى الأنواء

لمـا كانت العرب أيام جاهليتهم فى ضنك من العيش، وكلف من الحاجة، وشدة من العوز، ألحوا فى تتبع مواقع القطر وأوغلوا فى بطون الأودية، وجابوا منابت الشجر، سداً لفم حوائجهم، وارتياداً لمـا يقوم بمؤنهم، ويصلح لعلف دوابهم، ومراعى إبلهم، وسائر مواشيهم، وكانت دارهم كثيرة القحط، قليلة الأنهار والعيون، فامتدت أعناقهم نحو السماء لمطالعـة علائم الظفر بمقصودهم ومطلوبهم، فكانت لهم مخايل لصوادق الأنواء لا تـكذب، فعرفوا السحاب الممطر من غـيره وميزوا البرق الْخُلَّبَ[1] عما سواه، ووصفوا الغيث والمطر بأقسامه، ووقفوا على الرياح وخواصها، وأدركوا ما يعقبها من الحوادث من غير استناد إلى آلة حدثت بعدهم بعدة قرون، بل فهموا ذلك من علائم ظهرت لهم، وقد استوى فى معرفتها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، ولذلك شواهد فى

---

(١) المطمع المخلف.

منظوم كلامهم ومنثوره توقف الناظرين إليها فى موقف الحيرة ، لما كان عليه القوم من فصاحة المنطق ، وذرب اللسان وحلاوة التعبير ، وسعة نطاق البيان ، بيد أنى أورد من ذلك غالب ما ذكره الإمام أبى بكر محمد بن الحسن الشهير بابن دريد الأزدى فى كتاب (المطر والسحاب) محيلاً شرح الألفاظ إلى ذلك الكتاب روماً للاختصار ، وهو كتاب جليل جمع فيه ما ذكرته العرب فى جاهليتها و إسلامها من وصف المطر والسحاب ، وما نعتته العرب الروّاد من البقاع مع الشرح المبسوط لألفاظه (روى أبو بكر بن دريد بسنده) قال : بَيْنا رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاتَ يوم جالس مع أصحابه إذ نشأت سَحابة ، فقالوا يا رسول الله : هذه سحابة ! قال : كيف ترون قواعدها[١] ؟ قالوا : ما أحْسَنَها وأشَدَّ تمكنها ! قال : وكيف ترون رَحاها[٢] ؟ قالوا ما أحسنها وأشدّ استدارتها . قال : وكيف ترون بواسقها[٣] ؟ قالوا : ما أحسنها وأشدَّ استقامتها ! قال : وكيف ترون بَرْقَها أوَمِيضاً ، أم خَفْياً[٤] ، أم يَشُقُّ شقّاً ؟ قالوا : بل يَشُقُّ شقّاً . قال : وكيف ترون جَوْنَها[٥] ؟ قالوا : ما أحسنه وأشدّ سوادَهُ ! فقال : الحَيَا[٦] . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذى هو منك أفصح ! قال : وما يمنعنى من ذلك فإنما أنزل القرآن بلسانى بلسان عربىٍّ مُبين .

وروى بسنده عن الأصمعى . قال : خرج معقر بن حماد البارق ذات يوم وقد كفّ بصره وابنته تقوده فسمع رعداً ، فقال لابنته : ما ترين ؟ قالت : أراها حماء عقاقة[٧] ، كأنها حولاء ناقة[٨] ، لها سيْروانٍ وصدرٌدان . فقال : مرّى فلا بأس عليك ؟ ثم سمع رعداً آخر فقال : ما ترين ؟ فقالت : أراها كأنها لحمٌ نثِت :

---

(١) أسافلها واحدثها قاعدة (٢) وسطها ومعظمها وكذلك رحى الحرب . ومعظمها حيث استدار القوم (٣) ما علا منها وارتفع وكل شىء ارتفع وطال فقد بسق (٤) الوميض : اللمع الخفى ، والخفو : البرق الضعيف ، وقال أبو عمرو : خفى البرق خفيا اذا برق برقا ضعيفا (٥) أسودها ، والجون من الأضداد يكون الأسود ويكون الأبيض (٦) الغيث والخصب (٧) الحماء : السوداء تضرب الى الحمرة ، والعقاقة : التى تعق بالبرق . تريد ان البرق ينشق عقائق (٨) الحولاء : جلدة رقيقة تقع مع سليل الناقة كأنها مرآة .

منه مسيك ومنه منهرت[1] . فقال : وائلى[2] الجئ بى إلى جانب قَفْلةٍ[3] فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل .

وروى بسنده إلى عم الأصمعى . قال : سئل أعرابىّ عن مطر فقال : استقلّ سُدٌّ مع انتشار الطَّفَل[4] ، فَشَصَا واحزألّ[5] ، ثم اكفهرّتْ أرجاؤه[6] ، واحمومَتْ أرحاؤه[7] ! وابذعرّتْ فَوَارِقه[8] ، وتضاحكت بَوَارِقُه[9] واستطار وادِقه[10] ، وارْتَتَقَتْ جُوَبُه[11] ، وارْتَعَنَ هَيْدَبُه[12] ، وحَشَكَتْ أخلافه[13] واستقلّتْ أردافه[14] ، وانتشرت أكنافه[15] ، فالرعد مُرْتجس[16] ، والبرق مختلس[17] ، والماء مُنْبَجِس[18] ، فأتْرَعَ الغُدُر[19] ، وانتَبَثَ الوُجُر[20] ، وخَلَطَ الأوعال بالآجال[21] ، وقرن الصِّيران بالرِّئال[22] ، فللأودية هَدِير[23] ، وللشِّراج خَرِير[24] ، وللتلاع زَفِير[25] ، وحَطَّ النَّبْعَ والعتم[26] ، من القُلَل

---

(١) تريد : لحم مسترخ قد انتن فبعضه متماسك وبعضه متساقط

(٢) بادرى (٣) ضرب من الشجر : (٤) استقل : ارتفع فى الهواء ، والسد : السحاب الذى يسد الافق ، والطفل : اختلاط الظلام بعد غروب الشمس .

(٥) شصا : ارتفع يعنى السحاب ، واحزأل : انتصب (٦) أكفهر : تراكم ، وغلظ ، وأرجاؤه : نواحيه واحدها رجا مقصور (٧) احمومت : اسودت ، وأرحاؤه : أوساطه (٨) ابذعرت : تفرقت ، والفوارق جمع فارق وهو السحاب الذى ينقطع من معظم السحاب ، وهذا مثل وأصله فى الابل ، يقال : ناقة فارق وهى التى تند عن الابل عند نتاجها حيث لا نرى فتنتج (٩) شبه لمعان البرق بالضحك (١٠) استطار انتشر ، والوادق : الذى يكون فيه الودق وهو المطر العظيم القطر (١١) أى التأمت فرجه (١٢) ارتعن : استرخى ، والهيدب الذى يتدلى ويدنو من الارض مثل هدب القطيفة (١٣) هذا مثل ، يقال : حشك ضرع الناقة اذا امتلأ لبنا ، والاخلاف جمع خلف وهو الضرع الناقة خاصة (١٤) مآخيره (١٥) نواحيه (١٦) مصوت (١٧) كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه (١٨) منصب (١٩) أى ملأها والغدر جمع غدير وهو القطعة من الماء يغادرها السيل (٢٠) أى أخرج نبيثتها وهو تراب البئر والقبر . يريد أن هذا المطر لشدته هدم الوجر (وهى جمع وجار وهو سرب الثعلب والضبع) حتى أخرج ماداخلها من التراب (٢١) الأوعال : التيوس الجبلية ، والآجال : جمع اجل وهو القطيع من البقر . يريد أنه لشدته حمل الوعول وهى تسكن الجبال ، والبقر وهى تسكن القيعان والرمال فجمع بينهما .

(٢٢) الصيران : جمع صوار وصيار ايضا وهو القطيع من البقر ، والرئال : فراخ النعام واحدها رأل مهموز (٢٣) صوت كهدير الابل لكثرة السيل .

(٢٤) الشراج : مجارى الماء من الحرار الى السهولة ، والخرير : صوت الماء

(٢٥) التلاع : مجارى ما ارتفع الى بطن الوادى و « لها زفير » أى تزفر بالماء لفرط امتلائها (٢٦) النبع : شجر يتخذ منه القسى ينبت فى الجبال ، والعتم : الزيتون الجبلى .

الشم[١] ، إلى القيعان الصُّحْم[٢] ، فلم يبق فى القلل إلا مُعْصَم مُجْرَنْثَم[٣] ، أو داحص مُجَرْجَم[٤] وذلك من فضل ربٍّ العالمين ، على عباده المجرمين .

(وروى بسنده عن الأصمعى) قال : سألت أعرابياً من بنى عامر بن صعصعة عن مطر صاب[٥] بلادهم ، فقال : نشأ عارضا[٦] ، فطلع[٧] ناهضا ، ثم ابتسم وامضا[٨] . فأعس فى الأقطار فأسحاها[٩] ، وامتدّ فى الآفاق فغطاها ، ثم ارتجز فهمهم[١٠] ثم دوى فأظلم ، فأرك ودثّ[١١] ، و بغش وطشّ[١٢] ، ثم قطقط[١٣] فأفرط . ثم ديم فأغمط[١٤] ، ثم ركد فأثجم[١٥] ، ثم و بل فسجم[١٦] وجاد فأنْعَم[١٧] . فقمس الرّبى[١٨] ، وأفرط الزّبى[١٩] ، سبعاً تباعا ، ما يزيد انقشاعا ، حتى إذا ارتوت[٢٠] الحزون[٢١] ، وتضحضحت المتون[٢٢] ، ساقه ربك إلى حيث شاء كما جلبه من حيث شاء .

(وروى بسنده عن عبد الرحمن عن عمه) قال : سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جدب ، فقال : نشأ حملاً سدّاً[٢٣] . متقاذف الأحضان[٢٤] .

---

(١) القلل : أعالى الجبال ، والشم : المرتفعة (٢) القيعان : جمع قاع وهى الأرض الطيبة الطين الحرة ، والصحم :التى تعلوها حمرة واحدها أصحم .
(٣) المعصم : الذى قد تمسك بالجبال وامتنع فيها ، والمجرنثم : المنقبض
(٤) الداحص : الذى يفحص برجليه عند الموت ، والمجرجم : المصروع
(٥) أى جاد والصوب المطر الجود (٦) العارض : السحاب يعرض فى أفق السماء (٧) أى ارتفع (٨) أى لامعا لمعانا خفيا كالتبسم (٩) قوله «فأعس» لعل صوابه «فعسعس» أى دنا من الأرض فى الاقطار ، «فأسحاها» أى فملأها
(١٠) ارتجز الرعد : صات ، والسحاب تحرك بطيئا لكثرة مائه ، وهمهم الرعد : اذا سمع له صوت كهمهمة الأسد (١١) أرك : جاء بالرك وهو المطر القليل أو هو فوق الدث (١٢) البغش : المطر الضعيف، والطش : فوق البغش
(١٣) أى تتابع قطره (١٤) ديم. مطر ديمة والديمة مطر يبقى أياما لا يقلع، واغمط : دام (١٥) ركد : دام ، واثجم : أقام (١٦) السجم : الصب .
(١٧) أى فبالغ (١٨) أى غوصها فى الماء والربى جمع ربوة (١٩) أى ملأها والزبى جمع زبية وهى حفير تحفر للاسد والذئب ليصاد بها وهى لا تحفر الا فى موضع مرتفع فاذا بلغ السيل الى موضع الزبية فقد بلغ الغاية
(٢٠) افتعلت من الرى (٢١) جمع حزن وهو الغليظ من الأرض
(٢٢) المتون جمع متن وهى صلابة من الارض فيها ارتفاع ، وتضحضحت: صار فوقها ضحضاح من الماء وهو الماء يجرى على وجه الارض رقيقا .
(٢٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذى قد سد الافق.
(٢٤) يريد النواحى .

محمومى الأركان[١] . لماع الأقراب[٢] ، مكفهرّ الرَّبَاب[٣] ، تحنّ رعوده حنين اضطراب ، وتزمجر زمجرة الليوث الغضاب[٤] لبوارقه التهاب ، ولرواعده اضطراب . فجاحَفَتْ صدوره الشعاف[٥] ، وركبت أعجازه القِفاف[٦] ، ثم ألقى أعباءه[٧] وحطّ أثقاله ، فتألّق وأصعق . وانبجس وانبعق[٨] ، ثم أنجم[٩] فانطلق فغادر النهاء مترعة[١٠] ، والغيطان ممرعة[١١] ، حباءً للبلاد ، ورزقاً للعباد .

(وروى بسنده عن الأصمعى) قال : سمعت أعرابياً من غنيّ يذكر مطراً صاب[١٢] بلادهم فى غِبِّ جدْب[١٣] فقال تدارك ربُّك خَلْقَه وقد كلِبَتْ الأمحال[١٤] وتقاصرت الآمال وعكف[١٥] الياس ، وكُظِمَتِ الأنفاس[١٦] وأصبح الماشى مُصْرِما[١٧] ، والمُتْرِب مُعْدِماً[١٨] ، وجُفيت الحلائل[١٩] ، وامتُهِنت العقائل[٢٠] فأنشأ الله سَحابا نشأ رُكاما[٢١] ، كَنَهْوَرًا سَجّاماً[٢٢] ، بروقه متألّقة ، ورعوده مُتَقَعْقِعَة[٢٣] فسحّ ساجيا راكداً ثلاثاً غير ذى فوَاق[٢٤] ، ثم أمر ربك الشّمال فَطَحَرَتْ رُكامَه[٢٥] ، وفرّقت جَهامه[٢٦] ، فانقشع محموداً ؛ وقد أحيا فأغنى ،

---

(١) هو مفعول من الحمأ وهو سواد تخلطه حمرة يسيرة وهو من قولهم فرس أحم (٢) الخصور (٣) المكفهر : المتراكب ، والرباب سحاب تراه كانه متعلق بالسحاب الواحدة ربابة (٤) زمجر الليث (وهو السبع) : ردد الزئير

(٥) جاحفت : زاحمت ودانته ، والشعاف : رؤوس الجبال (٦) جمع قف وهو الغلظ من الارض لا يبلغ أن يكون جبلا . يريد أن أعالى هذا السحاب مطل على الجبال ومآخيره على القفاف دان من الارض (٧) أى اثقاله يريد الماء

(٨) الانبجاس : الانفجار بالماء . والانبعاق : الصب الكثير فى سعة

(٩) أقلع (١٠) غادر : ترك ، والنهاء : جمع نهى وهو الغدير أو شبهه . ومترعة : ملأى (١١) الغيطان : جمع غائط وهو البطن المطمئن من الأرض ، وممرعة : مخصبة (١٢) من الصوب وهو المطر الجود (١٣) الغب بالكسر : عاقبة الشيء . والجدب : المحل اى القحط (١٤) اى اشتد القحط .

(١٥) أقام وثبت (١٦) أى ردت الى الاجواف (١٧) الماشى صاحب الماشية ، والعرب تقول أمشى الرجل اذا كثرت ماشيته ، والمصرم . الذى لا مال له (١٨) المترب هنا الغنى المثرى ، والمعدم : الفقير (١٩) جمع حليلة وهى الزوجة (٢٠) أى استخدمت الكرائم (٢١) متراكما (٢٢) كنهورا : قطعا مثل الجبال ، سجاما : كثير الصب (٢٣) مصوتة (٢٤) سح : صب ، وساجيا : راكدا ثابتا ، و « غير ذى فواق » اى لا يصب صبه ثم يسكن ثم يصب أخرى ثم يسكن مثل فواق الناقة (٢٥) طحرت : ساقت وأبعدت ، والركام : المتراكم (٢٦) هو السحاب الذى قد اهراق ماءه .

وجاد فأروى ، فالحمد لله الذى لا تُـكَتُّ نعمه[1] ، ولا تنفدُ قسمه ، ولا يَخيب سائلهُ . ولا يَنزُر نائله[2] .

وروى بسنده عن الأصمعى قال : كان شيخٌ من الأعراب فى خِبائه وابنة له بالفناء[3] إذ سمع رعداً ، فقال : ما ترين يا بنية ! فقالت : أراها حواء قرحاء[4] كأنها أقرب أتان قمراء[5] ثم سمعَ راعدةً أخرى فقال : كيف ترينها ؟ قالت : أراها جمّة الترجاف[6] ، متساقطة الأكناف[7] ، تتألقُ بالبرق الولاف[8] . قال : هلمى المغرفة أنتئ نُؤيا[9] .

وعن الأصمعى أيضاً قال : وقف أعرابىّ على أبى المكنون النحوىّ ، وهو فى حلقته فسأله ، فقال له : مكانَكَ حتى أفرغ لك ، فدعا واستسقى ، ثم قال : اللهم ربنا وإلهنا ومولانا صلِّ على نبينا محمد ومن أرادنا بسوء فأحط ذلك السوء به إحاطة القلائد ، بترائب الولائد[10] ثم أرسخه[11] كرسوخ السجيل[12] ، على أصحاب الفيل[13] اللهم اسقنا غيثاً مزناً طبقاً[14] مريعاً[15] تاماً مجلجلا[16] مسحنفراً[17] هزجاً[18] سحاً سفوحاً غدقاً مثعنجراً[19] . قال : فولى الأعرابى

---

(١) أى لا تحصى نعمه (٢) أى لا يقل عطاؤه (٣) الفناء بالكسر ما اتسع من أمام الدار (٤) حواء : سوداء الى الحمرة كلون الفرس الاحوى ، قرحاء : يريد ان البرق فى أعاليها فكأنها قرحاء مثل الفرس الاقرح (٥) الاقراب : الخصور . شبهها ببطن الاتان القمراء والقمرة بالضم لون الى الخضرة . أو بياض فيه كدرة (٦) أى كثيرة الاضطراب (٧) الاكناف : النواحى . يريد قد استرخت نواحيها لكثرة مائها (٨) هو الذى يبرق ببرقتين متوالفتين . وهو لا يكاد يخلف (٩) المغرفة : المسحاة . والنؤى . الحفير الذى حول الخباء أوالخيمة يمنع السيل . ونأيته وأنأيته وانتأيته: عملته (١٠)الترائب:موضع القلادة (١١) اى اثبته (١٢) هو الطين المتحجر (١٣) اصحاب الفيل : ورد ذكرهم فى التنزيل ، على سبيل العظة والاعتبار وقصتهم معروفة متواترة الرواية حتى انهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به اوقات الحوادث فيقولون ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك ، وقد أوردها الاستاذ المؤلف فى الجـزء الأول ص ٢٥١ » وذكرنا (فى شرح الضرائر المطبوع بمصر سنة ١٣٤١) ما اتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به من أمرها ، كما فعل الامام الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عم (١٤) الطبق من المطر الذى يطبق الأرض (١٥) هو الذى يمرع اى يخصب (١٦) هو الذى تسمع لرعده جلجلة اى صوتا وهدة (١٧) اسحنفر المطر : كثر (١٨)مصوتا (١٩) السح: الصب ، والسفوح: المنسفح ، والغدق: الكثير الماء ، والمثعنجر: الجارى حتى يملأ الأرض .

مدبراً . فقال له : مكانك حتى أقضى حاجتك : قال الطوفان وربّ الكعبة حتى آوى عيالى إلى جبل يعصمهم من الماء .

(وروى بسنده عن الأصمعى) قال : مررت بغلمة من الأعراب يتماقلون[١] فى غدير ، فقلت لهم : أيكم يصفُ لى الغيثَ وأعطيه درهماً ، فخرجوا إلىّ فقالوا : كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم صفوا فأيكم ارتضيت وصفه أعطيته الدرهم ، فقال أحدهم : عنَّ لنا عارض قصْراً[٢] تسوقه الصبا ، وتحدوه الجنوب ، يحبو حبو المُعتنك[٣] حتى إذا ازلأمت[٤] صدوره ، وانتحلت خصوره ، ورجع هديره وأصعق زئيره ، واستقل نِشَاصُه[٥] وتلام خصاصه[٦] وارتعج ارتعاصه[٧] وأوقدت سقابه[٨] وامتدت أطنابه[٩] — تدارك وَدْقه[١٠] وتألق برقه ، وحفزت تواليه[١١] وانسفحت عزاليه[١٢] فغادر الثرى عمداً[١٣] والعَزاز ثئداً[١٤] والحث عقداً[١٥] والضحاضح متواصية[١٦] والشعاب متداعية ، وقال الآخر : تراءت المخايل[١٧] من الأقطار ، تحنُّ حنين العشار ، وتترامى بشهب النار ، قواعدها متلاحكة[١٨] وبواسقها متضاحكة[١٩] وأرجاؤها متقاذفة[٢٠] وأعجازها مترادفة وأرحاؤها متراصفة[٢١] فواصلت الغرب بالشرق[٢٢] والوبل بالوَدْق . سحًّا

---

(١) أى يتعاطون فى الماء، وامتقل : غاص مرارا (٢) عن : عرض، والعارض السحاب الذى يعترض فى الافق وأكثر ما يكون ذلك عند اقبال الليل . والقصر : العشى (٣) الحبو : دنو الصدر من الأرض ومن ذلك حبا الصبى اذا زحف وصدره دان من الأرض . والمعتنك : البعير الذى يصعد فى العانك من الرمل وهو الكثيب المتداخل الرمل يشق على الصاعد الصعود فيه والبعير اذا كلف صعوده زحف فشبه نهوض السحاب لثقله بما فيه من الماء به قال رؤبة « اوديت ان لم تحب وحبوا لمعتنك » (٤) انتصبت (٥) بالكسر والفتح ما انتصب من السحاب (٦) الخصاص : الفرج (٧) الارتعاج : تدارك الحركات . والارتعاض : الاضطراب (٨) هذا مثل والسقاب أعمدة الخباء فشبهه بالخباء قد رفع . والايفاد : الرفع (٩) هى حبال الخباء التى تشد بالاوتاد

(١٠) أى تتابع (١١) أى أعجلت مآخيره (١٢) العزالى : عزالى المزادوهو مخارج الماء من أسافلها (١٣) أى رطبا يجتمع فى اليد وغادر : ترك .

(١٤) العزاز : الغلظ من الارض . ومكان ثئد : ند (١٥) الحث : الرمل اليابس (١٦) الضحاضح : ما تضحضح على الارض من الماء . ومتواصية : متواصلة (١٧) السحب التى تحسبها ماطرة (١٨) أى أسافلها متداخل بعضها فى بعض (١٩) أى أعاليها متضاحكة بالبرق (٢٠) أى نواحيهامتباعدة

(٢١) أى أوساطها متراكمة قد انضم بعضها الى بعض (٢٢) أىامتدت من المشرق الى المغرب .

دراكا(١) متتابعاً لكاكا(٢) فضحضحت الجفاجف(٣) وأنهرت الصفاصف(٤) وحوضت الأصالف(٥) ثم أقلعتْ محمودة الآثار، مومومة الخيار. فقال الثالث: والله ما خِلْتُهُ بلغ خمساً(٦)! فقال: هلم الدرهم أصف لك؟ فقلت لا، أو تقول كما قالا، قال: لأبزنهما وصفاً، ولأوقفنهما رصفاً، فقلت: هات لله أبوك! فقال: بينما الحاضر بين الباس والإبلاس(٧) قد غمرهم الإشفاق(٨) رَهْبَةَ الإملاق(٩) وقد جفت الأنواء(١٠) ورَفْرَفَ البلاء، واستولى القُنُوط على القُلوب، وكثر الاستغفار من الذنوب، — ارتاح ربك لعباده، فأنشأ سَحَاباً مستجهراً كَنَهْوَراً(١١) معنونكا(١٢) محلولكاً(١٣) ثم استقلّ واحزألّ(١٤)، فصار كالسماء دون السماء(١٥) وكالأرض المدحوّة(١٦) في لوح(١٧) الهواء، فأخْسَبَ السُّهول(١٨)، وأتأق الهجول(١٩)، وأحيا الرجاء، وأماتَ الضراء، وذلك من فضل رب العالمين. قال: فملأ (والله) اليَفَع صدري، فأعطيتُ كلّ واحدٍ درهماً، وكتبت كلامهم.

ورَوى عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: سألت أعرابياً عن مطر أصابهم بعد جَدْب. فقال: ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون، وخامرَ القلبَ القنُوط فأنشأ بنوء الجبهة(٢٠) قزعةً كالفَرْضِ من قبل العين(٢١)، فاحزألّتْ عند ترجّل

---

(١) أي صبا متتابعا. (٢) متلاصقا بعضه ببعض (٣) جمع جفجف وهو الغليظ من الأرض وضحضحها جعلت فيها ضحاضح جمع ضحضاح وهو الماء السائح على وجه الأرض ليس بالكبير (٤) جمع صفصف وهو المستوى من الأرض (٥) جمع الصلفاء وهي ماصلب من الأرض. وحوضتها: جعلت فيها حياضا (٦) الظاهر أن العبارة ينبغي أن تكون هكذا: (.. فقال الثالث — والله ما خلته بلغ خمسا — : هلم ..) (٧) الابلاس: اليأس والتحير

(٨) الجزع (٩) الافتقار (١٠) أي امسكت الامطار (١١) المستجهر: الابيض، والكنهور: الذي مثل قطع السحب (١٢) المعنونك: الذي قد تراكم حتى صار كالعانك، والعانك: مر تفسيره قريبا، والمحلولك: الشديد السواد

(١٣) أي انتصب وارتفع (١٤) أي من كثافته (١٥) المبسوطة وانما قال «كالارض» لغبرته وسواده (١٦) اللوح: الهواء نفسه (١٧) أي كفاها

(١٨) أتأق: ملأ، والهجول جمع هجل، وهو المطمئن من الارض

(١٩) الشاب (٢٠) الجبهة: نجم من نجوم الاسد ونوؤها محمود عندهم.

(٢١) القزعة: القطعة من السحاب صغيرة، والفرض: الترس الصغير: والعين: القبلة.

النهار(١) ، لإِزميم السَّرار(٢) ، حتى إذا نهضت فى الأفق طالعة أمر مسخرها الجنوب ، فتنسمت لها ، فانتشرت أحضانُها(٣) ، واحومت(٤) أركانُها ، وبَسَقَ عَنَانُهَا(٥) واكفهرَّت رحاها(٦) ، وانبعجت كلاها(٧) ، وذمرت أخراها أولاها(٨) ، ثم استطارت عقائقها(٩) وارتعجت(١٠) بوارقُها ، وتقعقعت صواعقها ، ثم ارتَعَنَّت جوانبها(١١) ، وتداعت سواكبها(١٢) ، ودَرَّت حوالبها ، فكانت الأرض طبقاً ، سح فهضب ، وعم فأحسب(١٣) ، فَعَلَّ القيعان(١٤) ، وضحضح الغِيطان(١٥) ، وخوخ الأضواج(١٦) ، وأترع الشِراج(١٧) ، فالحمد لله الذى جَعَلَ كفاء إساءتنا إحساناً ، وجزاء ظلمنا غُفراناً .

(وروى عن عبد الرحمن عن عمه) قال : سمعت أعرابياً من بنى عامر بن لؤى ابن صعصعة يَصِفُ مطراً ، فقال : نشأ عند القَصْر(١٨) ، بنوء الغَفْر(١٩) ، حَبِيّاً عارِضاً(٢٠) ، ضاحكاً وامضاً ، فكلا ولا(٢١) ما كان ، حتى شجيتْ به(٢٢) ، أقطار الهواء ، واحتجبت به السماء ؛ ثم أطرق فاكفهرّ(٢٣) ، وتراكم فادلهمّ(٢٤) ، وبَسَقَ فازلأمّ(٢٥) ؛ ثم حدت به(٢٦) الريح فحنّ ، فالبرق مرتعج(٢٧) ، والرعد

---

(١) أى عند انبساط الشمس (٢) الازميم بالكسر احدى ليالى السرار وهى ثلاث ليال من آخر الشهر (٣) أى فانبسطت نواحيها (٤) اسودت .
(٥) أى ارتفع سحابها (٦) اكفهرت : كثفت ، ورحاها : وسطها .
(٧) هذا مثل والكلية من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وانبعجت : انشقت شبهه بثنى السقاء والقربة اذا رق ورشح منه الماء فأراد أن مخارج المطر من السحاب مثل ذلك (٨) هذا مثل أيضا كأنه حض بعضها بعضا على المطر (٩) استطارت : انتشرت ، والعقائق جمع عقيقة وهى البرقة المستطيلة فى عرض السحاب (١٠) أى تدارك بعضها فى أثر بعض .
(١١) أى استرخت لكثرة ما فيها من الماء (١٢) كأنه دعا بعضها بعضا بالماء
(١٣) أى عم الأرض ولم يخص موضعا دون موضع ، واحسبها اى كفاها واعطاها ما هو حسبها (١٤) العل : السقية الثانية (١٥) ضحضح : مر تفسيره قريبا ، والغيطان جمع غائط وهو البطن المطمئن من الأرض وقد مر أيضا قريبا (١٦) أى هد الاجراف (١٧) أى ملأ مسايل الماء (١٨) العشى
(١٩) من نجوم الاسد (٢٠) الحبى الدانى من الارض ، والعارض : المعترض فى الافق (٢١) أى كقولك كلاولا فى السرعة (٢٢) اى تضايقت به كمايشجى الغاص (٢٣) أطرق : تكاثف بعضه على بعض ، واكفهر : تراكم وغلظ
(٢٤) أسود (٢٥) اى ارتفع فانتصب (٢٦) ساقته (٢٧) متدارك .

متبوج[١]، والخَرْج متبعج[٢]، فأثجم[٣] ثلاثاً، متحيراً أهثهاثاً[٤]، أخلافه حاشكه[٥]، ودفعه متواشكة[٦]، وسَوَامه متعاركه[٧]، ثم ودع مُنجماً[٨]، وأقلع مُتهماً[٩]، محمود البلاء، مُترع النِّهاء[١٠]، مشكور النعماء، بِطَوْل[١١] ذى الكبرياء.

(وروى بسنده عن أشياخ من بنى الحرث بن كعب) قالوا: أجْدَبَتْ بلاد مَذْحِجْ، فأرسلوا رُوَّاداً[١٢] من كل بطن رجلًا، فبعث بنو زَبِيد رائداً، و بعثت جُعْفِيٌّ رائداً، و بعثت النَّخَعُ رائداً، فلما رجع الرُّوَّاد قيل لرائد بنى زَبيد: ما وراءك؟ قال: رأيت أرضاً مُوشِمةَ البقاع[١٣]، ناتحة القِّاع[١٤]، مُستحلسة الغيطان[١٥]، ضاحكة القُرْيان[١٦]، واعدةً وأحْرِ بِوَفائها[١٧]، راضيةً أرضُها عن سمائها، وقيل لرائد جُعْفِيّ ماوراءك؟ فقال: رأيت أرضاً جمعت السماء أقطارها[١٨]، فأمرعتْ أصبارها[١٩]، ودَيَّثَت أوعارَها[٢٠]، فَبُطنانُها غَمِقَة[٢١]، وظُهْرانها غَدِقَه[٢٢]، ورياضها مُسْتَوْسقه[٢٣]، ورَقاقُها رائخ[٢٤]، وواطِئُها سائخ[٢٥]،

(١) مرتفع الصوت (٢) الخرج: السحاب اول ما ينشأ، ومتبعج: متشقق (٣) أى دام وأقام متحيرا كأنه قد تحير له وجه يقصده (٤) متداخلا بعضه فى بعض. وقال أبو بكر: الهنهثة ــ اختلاط الصوت (٥) هذا مثل أخلاف الناقة: ضروعها، وحاشكة: ممتلئة (٦) مسرعة (٧) هذا مثل. السوام الابل السائمة أى الراعية. يشبه السحاب بالابل التى يعارك بعضها بعضا أى يزاحم (٨) أى منقشعا (٩) أى نحو تهامة. يقال: أتهم الرجل اذا أتى تهامة. وأنجد اذا أتى نجدا. وأعمن اذا أتى عمان وأعرق اذا أتى العراق

(١٠) جمع نهى وهو الغدير (١١) بفضل (١٢) جمع رائد وهو المرسل فى طلب الكلأ (١٣) أوشمت الأرض اذا بدأ فيها نبت (١٤) ناتحة: راشحة.

(١٥) المستحلسة: التى قد جللت الأرض بنباتها، وقال الاصمعى: استحلس النبت اذا غطى الأرض أو كاد يغطيها والمعنى واحد (١٦) مجارى الماء الى الرياض مفردها قرى (١٧) واعدة: تعد تمام نباتها وخيرها. وأحر: أخلق

(١٨) السماء: المطر ههنا، يريد ان المطر جاد بها فطال النبت فصار النبت كأنه قد جمع أكنافه. وانشد ابن قتيبة:

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

(١٩) أمرعت: اعشبت وطال نباتها، والاصبار نواحى الوادى (٢٠) ديثت: لينت، والاوعار جمع وعر وهو الغالظ والخشونة (٢١) البطنان: جمع بطن وهو ما غمض من الأرض، وغمقة: ندبة (٢٢) الظهران: جمع ظهر وهو ما ارتفع يسيرا، وغدقة: كثيرة البلل والماء (٢٣) منتظمة (٢٤) الرقاق. الأرض اللينة من غير رمل، رائخ: مفرط اللين (٢٥) اى تسوخ رجلاه فى الأرض من لينها.

وماشيها مسرور ، ومُصْرِمُها محسور[١] ، وقيل للنخعيّ : ما وراءك ؟ فقال : مَدَاحى سَيْل[٢] ، وزُهَاء ليل[٣] ، وغَيْلٌ يُواصى غَيْل[٤] ، قد ارتوتْ أجْرازها[٥] ، ودُمِّثَ عَزَازُها[٦] ، والتبدت أقوازُها[٧] ، فرائدها أنق[٨] ، وراعيها سَنِق[٩] ، فلا قَضَض ، ولا رَمَض[١٠] ، عازِبُها لا يُفزَعُ[١١] وواردها لا يُنْكَع[١٢] ، فاختاروا مَرَاد النخعيّ .

وروى عن عمه عن ابن الكلبيّ قال : خطب ابنةَ الخُسّ الإيادية[١٣] ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجمالهم ، وأرادت أن تَسْبُرَ عقولهم ، فقالت لهم : أريد أن ترتادوا لى مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بقلا وبقيلا[١٤] ، وماء غدقا سيلا ، يحسبه الجاهل ليلا[١٥] ، قالت : أمرعت . قال الآخر : رأيت ديمةً بعد ديمة[١٦] ، على عهاد غير قديمة[١٧] ، فالنّاب تَشْبَعُ قبل الفطيمه[١٨] . قال الثالث : رأيتُ غيثاً ثَمْدًا مَعْدًا[١٩] ، مترا كما جعدًا[٢٠] ، كأفخاذ نساء بنى سعد[٢١] ، تشبع منه الناب وهى تعد[٢٢] .

---

(١) الماشى : صاحب الماشية ، والمصرم : المقل المقارب المال (٢) يقول : قد جرى فيها السيل ودحاها أى بسطها حتى استوى ولان وجهها (٣) الزهاء : الشخص وانما جعل نباتها زهاء ليل لشدة خضرته (٤) الغيل : الماء الجارى على وجه الأرض . ويواصى : يواصل (٥) جمع جرز وهى التى لم يصبها المطر ، ويقال : التي قد اكل نباتها (٦) دمث : لين ، ودمث لان ، والعزاز : الأرض الصلبة الغليظة (٧) جمع قوز وهى رمال تستدير وتنعطف نحو الاحقاف (٨) الرائد :المرسل فى طلب الكلأ ، وانق : معجب بالمرعى (٩) راعيها: الذى يرعاها ، والسنق : البشم من كثرة الرعى (١٠) القضض ؛ والرمض : الصغار ، يريد أن النبات قد غطى الأرض فلا ترى هناك قضضا ، والرمض أن يحمى الحصى والحجارة من شدة الحر ، يقول فليس هناك رمض لان الارض مجللة بالنبت فلا يرمض واطئها (١١)الذى يعزب بأبله أى يبعد بها فى المرعى (١٢) أى لا يمنع (١٣) أخبارها فى الجزء الاول ص ٣٣٩ و ٣٤٠

(١٤) يقول : بقل قد طال ، وتحته غمير قد نشا (١٥) أى كثير يحسبه الجاهل ايلا من كثافته وشدةخضرته (١٦) الديمة: المطر يدوم أياما فى سكون ولين (١٧)العهاد : اول ما يصيب الأرض من المطر (١٨) الناب : الناقة المسنة، يريد أن العشب قد اكتهل وطال وتم . تشبع منه الناب قبل الصغيرة لانها تتناول الكلأ وهى قائمة لاتطلبه ولاتبرح من موقفها والفطيمة تتبع ماصغر من النبات (١٩) النعد : الغض من البقل ، ومعد : اتباع . ويقال : « ماله ثعد ولا معد » اى قليل ولا كثير (٢٠) الثرى الجعد : الذى قد كثر نداه فاذا ضممته بيدك اجتمع ودخل بعضه فى بعض كالشعر الجعد (٢١) اراد فى غلظ افخاذ

(وروى عن أبى حاتم عن أبى عبيدة) قال : خرج النعمان فى بعض أيامه فى عقب سماء ، فلقى أعرابياً على ناقة فأمر فأتى به ، فقال : كيف تركت الأرض وراءك ؟ فقال : فيح رحاب[١] ، منها السيول ومنها الصعاب ، منشوطة بجبالها حاملة لأثقالها[٢] ! قال : إنما سألتك عن السماء ، قال : مُطلة مستقلة[٣] على غيرِ سقاب ، ولا أطناب[٤] ، يختلفُ عصراها[٥] ، ويتعاقبُ سِراجاها[٦] ، قال : ليس عن هذا أسألك ، قال : فسل ما بدالك ! قال : هل صاب الأرضَ غيث ؟ قال : نعم ! أغمطت السماء[٧] ، فى أرضنا ثلاثاً رَهْوًا[٨] ، فثرّت وأرْزَغَتْ ورسغت[٩] ، ثم خرجت من أرض قومى أقرؤها[١٠] ، فإذا هى مُتواصية[١١] لا خطيطة[١٢] بينها حتى هبطت بعشار[١٣] ، فتداعى السّحاب من الأقطار[١٤] ، فجاءنا بالسيل الخرلر ، فعفا الآثار[١٥] ، وملأ الجفار[١٦] ، وقوّر[١٧] عالى الأشجار ، فأحجر الحضار[١٨] ، ومنع السّفار ، ثم أقلع عن نفع و إضرار[١٩] ، فلما انلأبّت[٢٠] لى القيعان ، ووضحت السُّبل فى الغيطان[٢١] ، وفات العَنان[٢٢] ، من أقطار الأعنان[٢٣] ، فلم أجد وَزَرًا إلا الغيران[٢٤] ، ففات جارّ الضبع[٢٥] ، فغادرت السهول كالبحار ، تتلاطم بالتيّار[٢٦] ، والحزون متلفعة بالغُثـاء[٢٧] ، والوحوش مقذوفة على

= بنى سعد (٢٢) هذا نحو الكلام الأول. يقول : النبت قد ارتفع وطال والناب الناقة المسنة تعدو وهى تأكل ولا تطأطىء رأسها .

(١) فيح : واسعة (٢) أى مثبتة لاتزول ، حاملة لأثقالها : لمن عليها من الناس وغيرهم (٣) مطلة : مرتفعة ، وكذلك « مستقلة » (٤) السقاب أعمدة الخباء ، والأطناب : الحبال المشدودة الى الأوتاد ، وهذا مثل (٥) أى الليل والنهار (٦) أى الليل والنهار (٧) أى دام مطرها (٨) الرهو : السكون (٩) ثرت : تركت الأرض ثرية ، وأرزغت : تركت الأرض رزغة ، والرزغة : الوحل ، ورسغت : بلغ الماء الى الرسغ (١٠) أى أتتبعها (١١) متصل بعضها ببعض (١٢) الخطيطة : الأرض التى لم تمطر بين ممطورتين أو التى مطر بعضها (١٣) اسم موضع (١٤) النواحى (١٥) أى طمس الطرق (١٦) جمع جفر كسهم وهو البئر التى لم تطو (١٧) أى قطع أو اجتاح (١٨) أى ألزمهم بيوتهم ، و « منع السفار » عن الحركة (١٩) يقول : نفعت عواقبه وضرت لكثرته (٢٠) وضحت (٢١) جمع غائط وهو المطمئن من الأرض (٢٢) السحاب (٢٣) أى من نواحى السماء (٢٤) الوزر : الملجأ ، والغيران جمع غار وهو الكهف فى الجبل (٢٥) أى فات من ألقى وهذا غاية مايوصف به المطر فى الكثرة ، والمعنى أنه يجر الضبع من وجارها (٢٦) الموج (٢٧) الحزون : جمع حزن وهو ماغلظ من الأرض ، والغثاء : حميل السيل

الأرجاء[١] ، فمازلت أطأ السماء[٢] ، وأخوض الماء ، حتى وطئت أرضكم .

(وروى عن أبى حاتم عن أبى عبيدة) قال : وقف أعرابىٌّ على قوم من الحاج فقال : يا قومى بدا شأنى الذى ألفجنى[٣] إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قَوِىَ[٤] عنا ، ثم تكرْفأ السحاب[٥] ، وشَصَا الرَّباب[٦] ، وادلهمّ سَيِّقه[٧] ، فارتجس رَيِّقه[٨] ، وقلنا هذا عام باكر الوسمى[٩] ، محمود السمى[١٠] ، ثم هبت له الشمال ، فاحزألَّتْ طَخَاريره[١١] ، وتقزع كرفئه[١٢] متباشراً ؛ ثم تتابع لمعان البرق ، حيث تَشيمه الأبصار[١٣] ، وتحده النظار ، ومَرَت[١٤] الجنوب ماءه ، فقوّض الحى مُزلَئمِّين[١٥] نحوه ، فسرحنا المال[١٦] فيه ، وكان وخماً وخيما ، فأساف المال[١٧] ، وأضف الحال[١٨] ، فرحم الله امرأً جاد بِمَيْرٍ[١٩] ، أو دل على خير .

وروى أبو حاتم عن العتبى قال : حدثنى أبى قال : خرج الحجاج إلى ظهرنا هذا ، فلقى أعراباً قد انحدروا للميرة ، فقال : كيف تركتم السماء وراءكم ؟ فقال متكلمهم : أصابتنا سماؤنا بالمثل مثل القوائم[٢٠] حيث انقطع الرمث بضرب فيه

---

(١) يقول : قد غرقت الوحوش فهى مطروحة على أرجاء الأرض أى نواحيها (٢) أى أطأ المطر فالعرب تسمى آثار المطر فى الأرض السماء (٣) أى أحوجنى (٤) أى احتبس (٥) أى كثر وتراكم (٦) شصا : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض (٧) ادلهم أسود ، والسيق ككيس : السحاب الذى لاماء فيه (٨) تمخض ماؤه (٩) الوسمى : أول المطر يقع على الأرض وذلك عند اقبال الشتاء قبل الربيع سمى بذلك لأنه يسم الأرض . قال الأصمعى : أول المطر الخريف وهو الذى يأتى عند صرام النخل ، ثم الوسمى يلى ذلك وهو اقبال الشتاء ، ثم يليه الربيع ، ثم الصيف ثم الحميم (١٠) جمع سماء وهو المطر ، قال العجاج : « تلفه الارواح والسمى » . م(١١) احزالت ارتفعت ، والطخارير : جمع طخرور — وهو بالخاء والحاء اللطخ من السحاب القليل . قال الأزهرى : وهى الطحارير والطخارير لقزع السحاب (١٢) تقزع : تقشع ، والكرفىء : قطع من السحاب متراكبة واحدتها كرفئة (١٣) شمت البرق : رقبته تنظر أين يصوب (١٤) استخرجت (١٥) مسرعين (١٦) أى الابل (١٧) أى ذهب به واهلكه (١٨) أى ضعضعها ، والضفف : الفقر والحاجة الى الناس (١٩) المير بالفتح كالميرة وهى الطعام يمتاره الانسان ، ويطلق ويراد به القوت (٢٠) المثل : بكسر اوله وسكون ثانيه — موضع بفلج يقال له رحى المثل ، وقوله « مثل القوائم » اراد أن هذا الموضع قطره كمثل مواقع القوائم

نقير[١]، وهو على ذلك يعضِدُ ويرسغ[٢]، ثم أصابتنا سماء « أميثل » منها تسيل الدماث والتلعة الزهيدة[٣]، فلما كنا حذاء (الحفر) أصابنا ضرس جَوْد ملأ الآخاد[٤]. فأقبل الحجاج على زياد بن عمرو العتكى فقال : ما يقولُ هذا الأعرابى ؟ قال : وما أنا وما يقول : إنما أنا صاحب سيف ورمح ! قال : بل أنت صاحب مجذاف وقَلْس ، إسبح ! فجعل يفحص الثَّرى ويقول : لقد رأيتنى وأن المصعب ليعطينى المائة ألف وها أنا أسبح بين يدى الحجاج ! .

وروى عن عبد الرحمن عن عمه . قال قال أبو مجيب وكان أعرابياً من بنى ربيعة ابن مالك . لقد رأينا فى أرض عجفاء[٦]، وزمان أعجف ، وشجر أعسم[٧] فى قُفّ[٨] غليظ ، فبينما نحن كذلك إذ نشأ الله تعالى من السماء غيثاً مستكفاً نشؤه[٩]، مسبلة عزاليه[١٠]، ضخماً قطره جَرْداً صوبه[١١]، زاكياً أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فتعيش به أموالنا[١٢]، ووصل به طرقنا ، وأصابنا وإنا لبِمَنْوطَةٍ بعيدة الأرجاء[١٣]، فاهْرَمَّعَ[١٤] مطرها حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء ، وضهوات[١٥] الطلح ؛ وضرب السيل النجاف[١٦]، وملأ الأدوية فزعبها[١٧] فما لبثنا إلا عشراً حتى رأيتها روضةً تندى .

---

(١) قال الاصمعى : الرمث — من شجر السهل اهـ فمعنى قوله « حيث انقطع الرمث » حيث أفضى من السهولة الى الحزونة » والضرب من المطر الضعيف الدائم ، والنقير فى الأصل النكتة فى ظهر النواة (٢) قوله « يعضد » أى يكسر ويصرم والمعنى ان هذا المطر مع ضعفه عظيم القطر فعظم قطره يعضد الشجر يدلك على ذلك قوله « بالمثل مثل القوائم » ولولا ذلك لما جاز أن يعضد الشجر مع ضعفه ، و « يرسغ » يبلغ طينه وماؤه الرسغ (٣) الدماث : الأماكن اللينة السهلة ، والتلعه : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها ضد ، والتلعه : مسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادى ، والزهيدة : الحقيرة (٤) الضرس : القطعة من الأمطار المتفرقة ، والجود المطر الغزير ، والآخاد : الاماكن التى تحبس الماء كالنقر فى الحجارة والجوب من الأرضين (٥) القلس : حبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما من قلوس سفن البحر (٦) أى لانبات بها (٧) يابس (٨) هو ماغلظ من الأرض وارتفع (٩) المستكف : المستدير والنشء : السحاب المرتفع أو أول ماينشأ منه (١٠) مسبلة : ممطرة . والعزالى : أفواه السحاب وأصل ذلك فى المزادة والقربة (١١) الصوب المطر (١٢) أى ابلنا (١٣) النوطة : المكان المرتفع عن الماء » والنوطة : مكان فى وسطه شجر وطرفاه لاشجر فيهما وهو مرتفع عن السيل والأرجاء : النواحى (١٤) أى در وأسرع (١٥) الضهوة : كالغار يجمع فيها ماء المطر (١٦) جمع نجفة وهو ما أشرف من الأرض (١٧) أى فملأها ، وكرر المعنى لما اختلف اللفظ توكيدا

وعن عبد الرحمن عن عمه قال شام(١) أعرابيٌّ برقاً فقال لابنته : انظرى أين ترينه ، فقالت :

أناخ بذى بَقَرٍ بركه كأن على عَضُدَيْهِ كِتافا(٢)

ثم قال : عودى فشيمى ، فقالت :

نحته الصَّبا ومَرَتْه الجنوب وانتجفته السماء انتجافا(٣)

وروى بسنده عن الأصمعى قال : كان أعرابىّ ضرير تقوده ابنته وهى ترعى غنيمات لها ، فرأت سحاباً ، فقالت : يا أبت جاءتك السماء ، فقال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها فرس دهماء تجر جلالها ، قال : إرعىْ غنيماتك ، فرعت مليًّا ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عين جمل طريف(٤) ، قال : ارعى غنيماتك ، فرعت مليا ؛ ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : سطحت وابيضت . قال : أدخلى غنيماتك ، قال : فجاءت السماء بشىء شطأ(٥) له الزرع وأينع(٦) ، وخضر ونضر(٧) .

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى(٨) بسنده قال : كان من حديث زهير ابن جناب الكلبىّ أنه كان قد بلغ عمراً طويلًا حتى ذهب عقله ، وكان يخرج تائهاً لا يدرى أين يذهب فتلحقه المرأة من أهله والصبى فيرده ، ويقول له : إنى أخاف عليك الذئب أن يأكلك ! فأين تذهب ؟ فذهب يوماً من أيامه ، ولحقته ابنة له فردته فرجع معها يهدج(٩) كأنه رأل(١٠) ، وراحت عليهم سماء(١١) فى الصيف فعلتهم منها بغشة(١٢) ، ثم أردفها غيث منكر ؛ وسمع له زجلا(١٣)

---

(١) أبصر (٢) ذو بقر : موضع . والبرك : الصدر . والكتاف ماكتف به الشىء (٣) نحته : صرفته . ومرته : استخرجت ماءه وكذلك « انتجفته » (٤) أى مطروف وهو الذى يستطرف الكلأ لايرعى فى مكان واحد كالمرأة المطروفة وهى التى تطرف الرجال لاتثبت على واحد (٥) أى أخرج نباته (٦) أينع النبت يونع ايناعا اذا اخضر وينع الثمر ينعا وينيعا وينوعا اذا أدرك ونضج (٧) أى حسن (٨) — ج ٢١ ص ٦٥ (٩) أى يمشى فى ارتعاش (١٠) ولد النعام أو حوليه (١١) مطر (١٢) مطرة ضعيفة (١٣) صوتا

منكراً . فقال : ما هذا يا بنية ؟ فقالت عارض هائل [١] إن أصابنا دون أهلنا هلكنا . فقال : انعتيه لى ! فقالت : أراه منبطحاً مسلنطحاً [٢] ، قد ضاق ذرعا [٣] وركب ردعا ، ذا هيدب [٤] يطير ، وهماهم [٥] وزفير ؛ ينهض نهض الكسير ، عليه مثل شباريق الساج [٦] ، فى ظلمة الليل الداج [٧] ؛ يتضاحك مثل شعل النيران ، يهرب منه الطير ، ويوائل [٨] منه الحشرة . قال : أى بنية وائلى منه إلى عصر [٩] قبل أن لا عين ولا أثر . وفى هذا الفن كثير من المنظوم وقد ذكرت منه نبذة غير يسيرة فى كتاب جزيرة العرب للهمدانى ، والله ولى التوفيق .

ومن علومهم :

علم القيافة والعيافة

إعلم أن القيافة على قسمين : قيافة الأثر ويقال لها العيافة ، وقيافة البشر ، أما العيافة فهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر فى المقابلة للأثر ، وهى التى تكون فى تربة حرة يتشكل بشكل القدم ؛ ونفع هذا العلم بين إذ القائف يجد بهذا العلم الفارّ من الناس ، والضالّ من الحيوان بتتبع آثارها وقوائمها بقوة الباصرة ، وقوة الخيال والحافظة ، حتى يحكى أن بعضهم يفرق بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب والولادة فى سائر أحوالها وأخلاقهما . وقد فسرها أبو القاسم الأصفهانى فى كتاب الذريعة بتفسير أوجز فقال : والقيافة ضربان : أحدهما بتتبع أثر الأقدام ، والاستدلال به على السالكين ؛ والثانى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على

---

(١) العارض : السحاب المعترض فى الأفق . (٢) واسعا عريضا (٣) يقال : ضاق فلان بالأمر ذرعا أى ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . وركب ردعا : خر لوجهه على دمه (٤) هو السحاب المتدلى أو ذيله (٥) أصوات (٦) قطع الطيلسان الأخضر أو الأسود (٧) المظلم (٨) وآءل : طلب النجاة والى المكان بادر (٩) هو الملجأ والمنجاة

نسبته وخص الاستدلال بالقيافة البشرية من العرب بنو مُدْلج [١] ، و بنو لِهْب [٢]
وذلك لمناسبة طبيعية حاصلة فيهم لا بتعلم قال الاصفهانى : خص الله تعالى بذلك
العرب ليكون سبباً لارتداع نسائهم عما يورث ثلب نسبهم ، وخبث حسبهم ،
وفساد بذورهم ، وزروعهم ، صيانةً للنسبة ؛ ولأجل حفظه تعالى نسبهم بذلك
قال تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) أى ليعرف بعضكم بعضاً بمعرفة
أصله انتهى ، و بمثل ذلك قال بعض الحكماء ، وحصول هذا العلم بالحدس والتخمين
لا بالاستدلال واليقين ، ولا يحصل بالمدارسة والتعليم ، فلذا لم يصنف فيه مصنف
لا حادث ولا قديم ، والقيافة اليوم موجودة فى بعض قبائل عرب نجد ، و يقال
إنهم بنو مرة ، وهم أعلم الناس بها ، وقد نقل الثقات ممن سافر إلى بلاد نجد أن
كثيراً منهم يرى الأثر فيقول : هذا أثر فلان وفلان ، وهذا أثر بعير فلان
وفلان ، وهذا أثر أناس لم يطأوا الأرض الفلانية ، وهؤلاء أناس قدموا من كذا
وكذا ، فلم يخلوا بشىء منها . وسمعت أن أعرابياً اتبع أثر حمار له سرقته اللصوص
حتى دخل (الحلة [٣]) وهو ينشده حتى أوقفه أثره عليه من بين آثار حمير
لا تحصى ، و إذا نظروا إلى عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه ، والأخ بأخيه ،
والقريب بقريبه ، وميزوا الأجنبى إذا كان بينهم ، وأهل مكة فيهم ، من يقارب
هؤلاء ، فترى كثيراً منهم يميز بين العراقى والشامى ، والمصرى والمدنى ، والعربى
والعجمى ، ولو لم يكن بزيه وهيئته ، وفى هذا الباب حكايات لولا تواترها لحكم
عليها بما يقرب من الاستحالة ، والقيافة محكوم بها فى الشرع وهى إحدى الطرق
الحكيمة ، ففى الصحيح من حديث مجزز الأسلمى [٤] أنه دخل فرأى أسامة

(١) قبيلة من كنانة (٢) بطن من الازد . (٣) الحلة : علم لعدة مواضع .
ويريد المؤلف حلة بنى مزيد مدينة من مدن العراق . كان أول من عمرها
ونزلها سيف الدولة صدقة ابن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الاسدى ،
وهى لاتزال عامرة آهلة بالسكان ، وأغلب أهلها اليوم شيعة ، وفيها جامع
لأهل السنة عامر لانظير له فيها يعرف بالجامع الكبير . وهى طيبة الهواء ،
عذبة الماء ، ذات بساتين غناء ، ومروج خضراء ، تسر الناظرين ، وتعجب
الرائين . (٤) ترجمته فى الاصابة للحافظ العسقلانى ج ٦ ص ٤٥ — ط :
المطبعة الشرفية .

ابن زيد وزيداً وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما ، فنظر إليها مجزز الأسلمي وقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض ، فسرّ بذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي ناشئة من كمال الفطنة والذكاء ، ومن توابع غزارة العقل .
ومن علومهم .

علم الفراسة

وهو الاستدلال بهيئة الإنسان ، وأشكاله ، وألوانه ، وأقواله ، على أخلاقه ، وفضائله ورذائله ، وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) وقوله : (تعرفهم بسيماهم) وقوله (ولتعرفنهم في لحن القول[1]) ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحي ، وإياه عنى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله « المؤمن ينظر بنور الله » وهو الذي يسمى صاحبه المروع والمحدث . وقال عليه الصلاة والسلام « إن يكن في هذه الأمة محدث فهو عُمَرُ » وقيل في قوله تعالى (وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً أوْ مِن وراء حجاب أو يرسل رسولا) إنما كان وحياً بإلقائه في الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقد يكون بإلهام في حال اليقظة ، وقد يكون في حال المنام ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة » .

(والضرب الثاني من الفراسة) يكون بصناعة متعلمة ، وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة ، والأخلاق ، والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة ، وقد عمل في ذلك كتب كثيرة من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ماضمنوه ، والفراسة ضرب من الظن ، وهي من توابع

(١) أي في معنى القول . وفي مذهب القول .

العقل ، وكلما كان العقل أكمل كانت الفراسة أقوى ، ولهذا كانت العرب فيها أوفر نصيباً من غيرهم . وما روى عنهم من عجائب هذا الباب شيء كثير . من ذلك ما ذكره الإمام الماوردى فى كتاب (أعلام النبوة[١]) قال : إن أول من أسس لعدنان مجداً ، وشيد لهم ذكراً ، معدّ بن عدنان حين اصطفاه بختنصر وقد ملك أقاليم الأرض ، وكان قد همّ بقتله حين غزا بلاد العرب ، فأنذره نبيّ كان فى وقته بأن النبوّة فى ولده ، فاستبقاه ، وأكرمه ، ومكنه ، واستولى على تهامة بيد عالية ، وأمر مطاع ، وفيه يقول مهلهل الشاعر :

غنيت دارنا تهامة بالأمـ ... ـس وفيها بنو معدٍّ حلولا

ثم ازداد العز بولده نزار ، وانبسطت به اليد ، وتقدم عند ملوك الفرس واجتباه (تستشف) ملك الفرس ، وكان اسمه خلدان ، وكان مهزول البدن ، فقال الملك : مالك يا نزار ، وتفسيره فى لغتهم يا مهزول ؟ فغلب عليه هذا الاسم فسمى نزاراً ، وفيه يقول قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان :

جديسا خلفناه وطَمْساً بأرضه ... فأكرِمْ بنا عند الفخار فخارا

فنحن بَنُو عَدْنان خلدانُ جدُّنا ... فسماه (تستشف) الهُمَامُ نِزارا

فسمى نِزارًا بعد ما كان اسمه ... لدى العرب (خلدان) بنوه خيارا

وكان لنزار أربعة أولاد : مُضر ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ، فلما حضرته الوفاة وصاهم . فقال : يا بَنِيّ هذه القبة الحمراء وما أشبهها لمضر ، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه لربيعة ، وهذه الخادمة وما أشبهها لإياد ، وهذه الندوة والمجلس وما أشبهه لأنمار ، فإن أشكل عليكم واختلفتم ، فعليكم بالأفعى الجرهمى بنجران فاختلفوا فى القسمة ، فتوجهوا إليه ، فبينماهم يسيرون إذ رأى مضر كلأً قد رعى فقال : إن البعير الذى رعى هذا الكلأ لأعور ! وقال ربيعة : هو أزور[٢] وقال إياد : هو أبتر[٣] وقال أنمار هو شرود[٤] ! فلم يسيروا قليلًا حتى لقيهم

---

(١) ص ١١٨ (٢) اى به زور وهو عوج الزور أو اشراف أحد جانبيه على الآخر (٣) مقطوع الذنب (٤) نفور

رجل يوضع[١] على راحلته[٢] ، فسألهم عن البعير . فقال مضر : هو أعور ! قال : نعم ! وقال ربيعة . هو أزور ! قال : نعم ! وقال إياد : هو أبتر ! قال : نعم ! وقال أنمار : هو شرود ! قال : نعم ! وهذه والله صفة بعيرى فدلونى عليه ، فقالوا والله ما رأيناه ، قال : قد وصفتموه بصفته فكيف لم تروه ؟ وسار معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمى ، فناداه صاحب البعير : هؤلاء أصحاب بعيرى وصفوه لى بصفته ، وقالوا لم نره ! فقال لهم الأفعى الجرهمى : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً فعرفت أنه أعور ! وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فعرفت أنه أزور ! وقال إياد : رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ! وقال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوز إلى غيره فعرفت أنه شرود ! فقال الجرهمى لصاحب البعير : ليسوا أصحاب بعيرك فاطلبه من غيرهم ! ثم سألهم : مَنْ هم ؟ فأخبروه أنهم بنو نزار بن معد ، فقال : أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ؟ فدعا لهم بطعام ، فأكلوا وأكل ، وبشراب فشربوا وشرب ، فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أجود لولا أنها نبتت على قبر ! وقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً أطيب لولا أنه ربى بلبن كلب ! وقال إياد : لم أر كاليوم رجلًا أسرى لولا أنه يدعى لغير أبيه ! وقال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع فى حاجتنا ! وسمع الجرهمى الكلام فتعجب لقولهم وأتى أمه فسألها ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا ولد له فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلًا من نفسها كان نزل به فوطئها فحملت منه به ! وسأل القهرمان عن الخمر ، فقال : من كرمة غرستها على قبر أبيك ! وسأل الراعى عن اللحم ، فقال : شاة أرضعتها بلبن كلبة ، لأن الشاة حين ولدت ماتت ، ولم يكن ولد فى الغنم شاة غيرها . فقيل لمضر : من أين عرفت الخمر ونباتها على قبر ، قال : لأنه أصابنى عليها عطش

---

(١) اوضع : أسرع فى سيره (٢) الراحلة : المركب من الابل ذكرا كان أوانثى وبعضهم يقول ــ الراحلة . الناقة التى تصلح أن ترحل .

شديد ! وقيل لربيعة : من أين عرفت أن الشاة ارتضعت على ابن كلبة ؟ قال : لأنى شممت منها رائحة الـكلب ! وقيل لإياد : من أين عرفت أن الرجل يدعى لغير أبيه ؟ قال : لأنى رأيته يتـكلف ما يعمله . ثم أتاهم الجرهمى وقال : صفوا لى صفتـكم ، فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوهم نزار ، فقضى لمضر بالقبة الحمراء والدنانير والإبل وهى حمر فسمى مضر الحمراء ، وقضى لربيعة بالخباء الأسود والخيل الدّهم فسمى ربيعة الفرس ، وقضى لإياد بالخادمة الشمطاء والماشية البلق[1] ، وقضى لأنمار بالأرض والدراهم ، وهذا الذى ظهر فى أولاد نزار من قوة الذكاء وحدة الفطنة تأسيساً لتميزهم بالفضل ، واختصاصهم بوفور العقل ، مقدمة لما يراد بهم انتهى . فانظر إلى هذه الفراسة التى كادت تصل إلى حد الإعجاز ؛ وكانت فى الوصول إلى مكنون الحقائق أقوم مجاز ، فلله تعالى در العرب ، فهم مظهر كل عجب .

وقد ازدادت فيهم الفراسة بعد أن أشرقت أنوار الإسلام على قلوبهم ، فنظروا بنور الله تعالى المودع فى أعين بصائرهم ما خفى من غيوبهم ، فقد ذكر ابن القيم فى كتابه (مفتاح دار السعادة) أن الإمام الشافعى القرشى كان له النصيب الأوفى منها ، فقد حكى أنه ومحمد بن الحسن رأيا رجلًا فقال محمد إنه نجار ، وقال الشافعىّ إنه حداد ، فسألاه عن صنعته ، فقال : كنت حداداً والآن نجاراً . بل إن كثيراً من أعراب البادية اليوم من له حظ منها ، وسمعت أن كثيراً منهم إذا نظر إلى السحاب المهراق قال : أمطرت أرض كذا وكذا وسال وادى كذا وكذا ، ولم تمطر أرض كذا ، وابتدىء أرض كذا ، فيكون كما قال ؛ وعرب اليمن أوفر حظاً من غيرهم فى الضرب الثانى من الفراسة ، والإمام الشافعى أخذ ذلك عنهم ، وله فى هذا الفن طرائف ، ففى (مفتاح دار السعادة) أن الإمام الشافعى قال : خرجت إلى اليمن فى طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ،

---

(١) جمع ابلق وهو المرتفع التحجيل الى الفخذين

ثم لما كان انصرافى مررت فى الطريق برجل ، وهو مُحْتَبٍ[1] بفناء داره ، أزرق العين ناتىء الجبهة ، فقلت له : هل من منزل ؟ قال نعم ! قال الشافعى : وهذا النعت أخبث ما يكون فى الفراسة ، فأنزلنى فرأيته أكرم رجل : بعث إلىّ بعشاء وطيب وعلف للدواب وفراش ولحاف ، وجعلت أتقلب الليل أجمع ماذا أصنع بهذه الكتب فلما أصبحت قلت للغلام أسرج ، فأسرج ، فركبت ومررت عليه ، وقلت له إذا قدمت مكة ومررت بذى طوى ، فسل عن منزل محمد بن إدريس الشافعى . فقال لى الرجل أمولى لأبيك كنت أنا ؟ قلت : لا ! قال : فهل كانت لك عندى نعمة ؟ قلت : لا ؛ قال : فأين ما تكلفت لك البارحة ، قلت : وما هو ؟ قال : اشتريت لك طعاماً بدرهمين وأدماً بكذا . وعطراً بثلاثة دراهم ، وعلفاً لدوابك بدرهمين . وكرى الفراش واللحاف درهمان ! قلت : فهل بقى شىء ؟ قال كرى المنزل فإنى وسعت عليك وضيقت على نفسى ! فغبطت نفسى حينئذ بتلك الكتب ! فقلت له بعد أن أعطيته ما طلب : هل بقى شىء ؟ قال . امض أخزاك الله فما رأيت شراً منك ! وفى الكتاب المذكور أيضاً عن الربيع أنه قال اشتريت للشافعى طيباً بدينار فقال لى : ممن اشتريته ؟ فقلت : من ذلك الأشقر الأزرق ، فقال ، أشقر أزرق ، اذهب فردّه . وعن حرملة قال : سمعت الشافعى يقول : احذروا من كل ذى عاهة فى بدنه فإنه شيطان ، قال حرملة قلت — من أولئك ؟ قال الأعرج والأحول ونحوهما انتهى .

قال الأصفهانى : فى الذريعة : ومن الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله تعالى أمرها فى جميع الكتب المنزلة ، وقال لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس والشجرة الملعونة فى القرءان) وقال (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) الآية . وقال فى قصة إبراهيم (يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) وقوله (يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا) والرؤيا : هى فعل النفس الناطقة

---

(١) أى مشتمل بثوب أو جامع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها

ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة فى الإنسان فائدة ، والله يتعالى عن الباطل . وهى ضربان ضرب — وهو الأكثر — أضغاث أحلام ، وأحاديث النفس بالخواطر الرديئة لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموج لا يقبل صورة وضرب — وهو الأقل — صحيح ، وذلك قسمان : قسم لايحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة يفرق بين الأضغاث و بين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية و يفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لانصح له رؤيا . وفيهم من تصح رؤياه ثم من صح له ذلك منهم من يرشح أن تلقى إليه فى المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لايرشح له ذلك ، ولهذا قال اليونانيون : يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظاً من النبوّة . وقد قال عليه الصلاة والسلام : «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وهذا العلم لايحتاج إلى مناسبة بين متحريه و بينه ، فربّ حكيم لايرزق حذقاً فيه ، وربّ نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة .

و يحكى عن العرب فى التعبير حكايات عجيبة حتى عن المولدين منهم . قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) حكى عن المهدى أنه رأى رؤيا ونسيها ، فأصبح مغتماً بها ، فدل على رجل كان يعرف الزجر والفأل والتعبير ، وكان حاذقاً ، واسمه خويلد ، فلما دخل عليه أخبره بالذى أراده له ، قال له : يا أمير المؤمنين صاحب الزجر والفأل إلى الحركة ، فغضب المهدى وقال : سبحان الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدرى ما هو ! ومسح يده ووجهه ، وضرب بها على فخذه ، فقال له : أخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين ! قال : هات ! قال : رأيت كأنك صعدت جبلا ، فقال المهدى : لله أبوك يا سحار صدقت ! قال : ما أنا بسحار يا أمير المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على رأسك فزجرت لك ، وعلمت أن الرأس ليس فوقه شىء إلا السماء فأولته بالجبل ، ثم نزلت بيدك إلى جبهتك ، فزجرت لك بنزولك إلى أرض ملساء فيها عينان مالحتان ثم انحدرت إلى سفح الجبل فلقيت رجلاً

من فخذك قريش ، لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على فخذه فعلمت أن الرجل الذى لقيته من قرابتك ! قال : صدقت ، وأمر له بمال وأمر أن لا يحجب عنه ، ومثل هذه الحكاية كثير . قال الأصفهانى : والزكانة ضرب من الفراسة أيضاً ، وهى معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم ؛ والقيافة ضرب من الزكانة لكنها أدق ، وقد ذكرناها سابقاً بقسميها ، والله ولى الهداية والتوفيق . ومن علومهم :

علم الكهانة والعرافة

كان هذا العلم فى العرب أيام الجاهلية شائعاً فيهم ، وعليه مدار فصل خصوماتهم ومنازعاتهم ؛ وقد تكلم فى الكهانة كثير من أهل العلم ، وبسطوا الكلام فيها وأوجزوا ، ونحن نلخص هنا ما وقفنا عليه فنقول : الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها ، قيل : هى ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب ، والأصل فيها استراق الجنىّ السمع من كلام الملائكة فيلقيه فى أذن الكاهن ؛ والكاهن لفظ يطلق على العراف ، والذى يضرب بالحصى والمنجم ، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ، ويسعى فى قضاء حوائجه ، وقال فى المحكم . الكاهن القاضى بالغيب ، وقال فى الجامع : العرب تسمى كل من أذن بشىء قبل وقوعه كاهناً ، وقال الخطابى : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه ، قال بعض الأفاضل : وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشيةً خصوصاً فى العرب لانقطاع النبوة فيهم ، وهى على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن فيزيد فيه ، فلما جاء الإسلام ونزل القرءان ، حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم ما يتخطفه

الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً كما سنبين ذلك فى أخبار شق وسطيح ونحوهما ، وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل ؛ ثانيها ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد ؛ ثالثها ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله تعالى فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه ؛ رابعها ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ؛ ومن هذا القسم الأخير ما يضاهى السحر ، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم .

وقال الإمام النووىُّ فى شرح صحيح مسلم : الكهانة فى العرب ثلاثه أضرب أحدها أن يكون للإنسان رَئِىٌّ[1] من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الثانى أن يخبره بما يطرأ ويكون فى أقطار الأرض ، وما خفى عنه مما قرب أو بعد ، وهذا لا يبعد وجوده . ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما ، ولا استحالة فى ذلك ولا بعد فى وجوده ، لكنهم يصدقون ويكذبون ، والنهى عن تصديقهم والسماع منهم عام ؛ الثالث المنجمون ، وهذا الضرب يخلق الله تعالى فى بعض الناس قوة مّا لكن الكذب فيه أغلب ، ومن هذا الفن العرافة فصاحبها عراف ؛ وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها : كالزجر والطرق بالحصى ؛ وهذه الأضراب كلها تسمى كهانة ، وقد أكذبهم الشرع ، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم انتهى . يريد بالنهى حديث « من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ولعل الحكمة فى النهى عن ذلك لغلبة الكذب فى كلامهم ولأن فى تصديقهم فَتْحَ بابٍ يوصل إلى لظى ، إذ قد

(١) قال ابن الأثير : يقال التابع من الجن رئى ككمى وهو فعيل أو فعول . سمى به لأنه يتراآى لمتبوعه أو هو من الرأى من قولهم فلان رئى قومهم اذا كان صاحب رأيهم .

يجر إلى تعطيل الشريعة والطعن فيها ، لا سيما من العوام ؛ واستثناء ما هو من جنس الكسوف لندرة خطئهم فيه ، بل لعدمه إذا أمكنوا الحساب ؛ ولا كذلك ما يخبرون به من الحوادث إذ قد بنوا ذلك على أوضاع السيارات بعضها مع بعض أو مع بعض الثوابت ، ولا شك أن ذلك لا يكفى فى الغرض والوقوف على جميع الأوضاع ، وما تقتضيه مما يتعذر الوقوف عليه لغير علام الغيوب .

وقد أطال الكلام ابن خلدون فى مقدمته على المدركات الغيبية ، ومنها الكهانة ، ومن كلامه فيها أنه قال[1] وأما الكهانة فهى أيضاً من خواص النفس الإنسانية وذلك أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك . ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ، ولا بأمر من الأمور إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر ، وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً فى الطبيعة البشرية فيعطى التقسيم العقلى أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه ، وشتان ما بينهما ! فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عند ما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة ، وعظام الحيوانات وسجع الكلام ، وما سنح من طير أو حيوان ، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ، ويكون كالمشيع له ، وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ، ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص

---

(١) المقدمة ص ٨٤ — ط بولاق

والقصور عن الكمال كان إدراكها فى الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم فى غاية القوة ، لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً فى نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها بالمخيلة . وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ، ولا يقوى الكاهن على الكمال فى إدراك المعقولات ، لأن وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشىء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه فى تلك الحركة ، والذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه عن لسانه فربما صدق ووافق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ، ومباين لها غير ملائم ؛ فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به ، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات ، حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويهاً على السائلين ، وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مثله (هذا من سجع الكهان) فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد[1] حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال : يأتينى صادق وكاذب ، فقال : خلط عليك الأمر يعنى أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى ، والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى إدراكه ، والتبست بالإدراك الذى توجه إليه ، فصار مختلطاً بها ، وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة ، وإنما قلنا : إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز[2] بعض الشىء .

---

(١) سنذكر عنه شيئا قريبا . (٢) كذا . ولعله سقط من قلم الناسخ لفظ « عن » .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل ، لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه ، وأيضاً فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب ، وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لابد له من وضع فلكى يقتضيه ، وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها ، ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذى يقتضيه ناقصة ، وهو معنى الكاهن على ما قررناه ، فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبى بكماله ، وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شىء بعد ، وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره ، وهو غير مسلم ، فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئاً لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ؛ ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبى ، ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم ، ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ،

ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب إلا قوة المطامع فى أنها نبوة لهم فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبياً ، وكذا وقع لابن الصياد[1] ، ولمسيلمة[2] وغيرهم ؛ فإذا غلب الإيمان ، وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان كما وجب لطليحة الأسدى[3] وسواد بن قارب[4] وكان لهما فى الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان . انتهى المقصود من نقله .

كلام فى العرافة

والعرافة قسيمة للكهانة حسبما يفهم من كلام كثير من أهل العلم . قال الأصفهانى فى كتاب الذريعة : الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، والعرافة بالأمور الماضية . وعرفها بعضهم بقوله . العرافة الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية بالمناسبة ، أو المشابهة الخفية ، التى تكون بينهما ، أو الاختلاط ، أو الارتباط على أن يكونا معلولى أمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى الاستقبال ؛ وشرط كون الارتباط المذكور خفياً لا يطلع عليه إلا الافراد ، وذلك إما بالتجارب ، أو بالحالة المودعة فى أنفسهم عند الفطرة ؛ وهى كثيرة فى العرب جاهلية وإسلاماً . يحكى أنه كان فى زمن هرون الرشيد رجل أعمى من أهل العرافة ، وكان يستدل على المسؤول عنه بكلام صدر عن الحاضرين عقب السؤال ، فسرق يوماً من خزانة الرشيد بعض من الأشياء ، فطلب الرجل ، وأمر أن لا يتكلم أحد بعد السؤال أصلا ، ففعلوا كما أمر ، والأعمى ألقى سمعه ولم يسمع شيئاً فأمرَّ يده على البساط

---

(١) قال الزبيدى : هو رجل من اليهود أو دخيل فيهم واسمه « صاف » قيماقيل . وكان عنده شىء من الكهانة أو السحر . وجملة أمره انه كان فتنة امتحن الله بها عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة . ثم انه مات بالمدينة فى الاكثر . وقيل انه فقد يوم الحرة فلم يجدوه انتهى « التاج مادة صيد » (٢) انظر ص ١٩٦ من الجزء الأول (٣) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الاسدى الفقعسى كان يعد بألف فارس ثم تنبأ ثم اسلم وحسن اسلامه (٤) سيأتى ذكره قريبا .

فوجد فيه نواة تمرة ، فقال : إن المسئول عنه در وزبرجد وياقوت ! فقال الرشـــيد أين هو ؟ قال : فى بئر ، فوجدوه كما ذكر الأعمى ، فتحير الرشيد فيه فسئل عن سبب معرفته ، فقال : وجدت نواة تمرة وطلع النخل أبيض ، وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ولون الزمرد كذلك ، ثم يكون رطباً وهو أحمر ولون الياقوت كذلك ، ثم لما سألتم عن مكان المسروق سمعت صوت دلو فعرفت أنه فى بئر ! فاستحسن الرشيد استخراجه وفراسته ، فأعطاه مالًا جزيلا . وحكى أن أبا معشر وصاحبه ذهبا إلى عراف فسألاه عن شيء فقال إنـكما سألتما عن مسجون ! فقالا : إنه يخلص ؟ قال : نعم يخلص ! فسألاه عن سبب معرفته ، فقال : إنـكما لمـا سألتمانى وقع نظرى على قربة ماء فعرفت أن السؤال عن مسجون ولمـا سألتمانى عن خلاصه نظرت فإذا هو قد فرغ قربته ، ولابن خلدون كلام فى حقيقة العرافة ونحوها يستحسنه أهل النظر ، ولعلنا نذكره فى علم الزجر .

نبذة من أخبار بعض من اشتهر من الـكهان والعرافين

قد كان العرب على ما ذكرنا سابقاً يفزعون إلى الـكهان والعرافين فى تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم فى الخصومات ، ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من ذلك ، واشتهر منهم فى الجاهليـــة جماعة معدودون ، منهم :

عزى سلمة الكاهن

روى هشام بن محمد الـكلبى عن أبيه عن أبى صالح عن عقيل بن أبى طالب قال : كان عبد المطلب بن هاشم نديما للحرث بن أمية حتى تنافرا إلى نفيل ابن عبد العزى ، فما نفر عبد المطلب فتفرقا . ومات عبد المطلب وهو ابن عشرين ومائة سنة ، ومات قبل الفجار فى الحرب التى بين هوازن ، ويقال بل تنافرا إلى عزى

سلمة الكاهن ، قالوا : كان لعبد المطلب ماء بالطائف يقال له : (ذو الهَرْم[١]) فجاء الثقفيون فاحتفروه فخاصمهم عبد المطلب إلى عزى أو إلى نفيل ، فخرج عبد المطلب مع ابنه الحرث ، وليس له يومئذ غيره ، وخرج الثقفيون مع صاحبهم وحرب ابن أمية معهم على عبد المطلب فنفد ماء عبد المطلب فطلب إليهم أن يسقوه ، فأبوا ، فبلغ العطش منهم كل مبلغ ، وأشفوا[٢] على الهلاك ، فبينا عبد المطلب يثير بعيره ليركب إذ فجر الله له عينا من تحت جِرانه[٣]. فحمد الله وعلم أن ذلك منه فشرب وشرب أصحابه ريهم ، وتزودوا منه حاجتهم ، ونفد ماء الثقفيين ، فطلبوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم ، فأنعم لهم ، فقال له ابنه الحرث : لأنتحين على سيفى حتى يخرج من ظهرى ! فقال عبد المطلب : لأسقينهم فلا تفعل ذلك بنفسك فسقاهم ثم أطلقوا حتى أتوا الكاهن ، وقد خبأوا له رأس جرادة فى خرزة مزادة ، وجعلوه فى قلادة كلب لهم يقال له : (سوّار) فلما أتوا الكاهن إذا هم ببقرتين تسوقان بينهما بَخْرجا[٤] كلتاهما تزعم أنه ولدها ، ولدتا فى ليلة واحدة فأكل النمر أحد البخرجين فهما توأمان الباقى ، فلما وقفا بين يديه قال الكاهن : هل تدرون من تريد هاتان البقرتان ؟ قالوا لا : قال الكاهن : ذهب به ذو جسد أربد[٥] وشِدْق مرمع[٦] وناب معلق ، ما للصغرى فى ولد الكبرى حق ، فقضى به للكبرى ، ثم قال : حاجتكم ، قالوا : قد خبأنا لك خبيئاً فأنبئنا عنه ، ثم نخبرك بحاجتنا ، قال : خبأتم لى شيئاً طار فسطع فتصوب فوقع ، فى الأرض منه بقع ، فقالوا : لاده أى بينه ، قال : هو شىء طار فاستطار ، ذو ذنب جرار ، وساق كالمنشار ، ورأس كالمسمار . فقالوا لاده ، قال :

---

(١) بفتح فسكون . وضبطه بعضهم بكسر الراء . قال ياقوت : هكذا ضبطناه عن أهل العلم والصحيح عندى انه ذو الهرم بالتحريك وله فيه قصة جاء فيها سجع يدل على ذلك ... ومن ضبط الهرم بالفتح والسكون قال أنه « مال » كان لعبد المطلب أو لأبى سفيان بالطائف (٢) اشرفوا

(٣) بالكسر مقدم عنقه من مذبحه الى منحره .

(٤) البخرج : ولد البقرة (٥) أي اسود مختلط (٦) الشدق : جانب الفم . ومرمع : مصفر متغير .

إن لاده فلاده ، هو رأس جراده ، فى خرز مزاده ، فى عنق (سوار) ذى القلاده ، قالوا : صدقت ، فأخبرنا فيما اختصمنا إليك فأخبرهم فانتسبوا له فقضى بينهم ورجعوا إلى منازلهم على حكمه . وقد أورد هذا القصة الميدانى أيضاً عند الكلام على قولهم (إلّا دهِ فلَادَهِ) قال : وروى ابن الأعرابى إلاده فلاده ، ويروى أيضاً إلاده فلاده أى إن لم تُعط الاثنين لا تعطى العشرة ، قال أبو عبيد : يضرب به الرجل يقول أريد كذا وكذا . فإن قيل له ليس يمكن ذا قال فكذا وكذا ، وقال الأصمعى : معناه إن لم يكن هذا الآن فلا يكون بعد الآن ، وقال : لا أدرى ما أصله . قال : رؤبة « وقُوَّلٌ إلادهِ فلاده » قال المنذرى : قالوا معناه إلا هذه فلا هذه يعنى أن الأصل الاذه فلاذه بالذال المعجمة فعرب بالدال غير المعجمة ، كما قالوا يهوذ . ثم عرب فقيل يهود ، وقيل أصله إلادهى أى إن لم تضرب فأدخل التنوين فسقط الياء وقبله .

فاليوم قد نهنهنى تنهنهى وأوّلُ حلمٍ ليس بالمُسَفَّهِ
وقُوَّلٌ إلّا دَهِ فلادَهِ وحقَّةٌ ليستْ بقوْل التُرَّهِ

يقول : زجرنى زواجر العقل ، ورجوع حلم ليس ينسب إلى السفه ، وقُوَّل أى ورجوع قول أى نساء قُوَّل يقلن إن لم يتبِ الآن مع هذه الدواعى لا يتب أبداً . وقوله : و « حقة » أى وقالة حقة يقال حق وحقة كما يقال أهل وأهلة يريد الموت وقرب انتهى . وقال عبد القادر البغدادى فى كتاب خزانة الأدب بعد أن أورد هذه الأبيات : وصف رؤبة قبل هذه الأبيات شبابه ، وما كان فيه من مغازلة الغوانى ومواصلة الأمانى — إلى أن قال — فاليوم قد زجرنى عما كنت فيه أربعة أشياء : الأول التنهنه ، وهو مطاوع نهنهته عن كذا فتنهنه . أى كففته وزجرته عنه فكف ، أى زجرنى زواجر العقل ، الثانى أول حلم أى رجوع عقل لا ينسب إلى السفه ، الثالث عذل القائلين إن لم تتب الآن مع هذه الدواعى إلى التوبة فلا تتوب أبداً فقوله «وقوّل» على حذف مضاف ، والرابع حقة أى خطة حقة ، فالموصوف محذوف ، وأراد بها الموت وقرب به ، يقال حق وحقة كما يقال أهل وأهلة ،

والتره اسم مفرد بمعنى الباطل ، يقال تره وترهة وجمع الأول تراريه ، وجمع الثانى ترهات . وقول الرضى (دَهْ) بفتح الدال وسكون الهاء إلى آخر ماذكره هذا كلام شارح اللباب إسمعيل القالى من غير زيادة ولا نقص ، ولا يخفى أنه إذا كان ده بمعنى اضرب فهو اسم فعل لا صوت ، والحق أنها فى لغة الفرس زجر لذى الحافر ليسرع ، أو ليذهب وليست بمعنى اضرب ، وهذا أمر ظاهر من استعمالهم إلى الآن ، ولكنهم أجمعوا على أنها بمعنى الضرب وحينئذ فيرد عليهم أنها تكون اسم فعل لا صوتاً قال صاحب اللباب : ذكر جار الله أن ده زجر للإبل مثل هيد وهاد ، وذكر فى أمثاله أن ده بفتح الدال وكسرها فارسية معناها الضرب قد استعملها العرب فى كلامهم ؛ وأصله أن الموتور يلقى واتره فلا يتعرض له ، فيقال له : « إلا ده فلا ده » أى إنك إن لم تضرب به الآن فإنك لا تضرب به أبداً ، وتقديره إن لم يكن ده فلا يكون ده أى إن لم يوجد ضرب الساعة فلا يوجد ضرب أبداً ، ثم اتسعوا فيه فضربوه مثلًا فى كل شىء لا يقدم عليه الرجل وقد حان حينه من قضاء دين قد حل ، أو حاجة طلبت ، أو ما أشبه ذلك من الأحوال التى لا يسوغ تأخيرها ؛ والحاصل أن قولهم إلا ده فلا ده قد اختلف فى ضبط لفظه وشرح معناه ، وجميع الأقوال على أنها كلمة فارسية معربة ؛ وقد أبى أبو محمد عبد الله الشهير بابن برى المقدسى أن تكون هذه الكلمة فى هذا المثل غير عربية ، وذهب إلى أنها صفة مشبهة من الدهاء وهو الفطنة ، وورد على ملك النحاة فى زعمه أنها أعجمية فى الأصل بمعنى اسم الفعل ؛ ولقد أجاد ، فيما أفاد ، وحقق مدعاه فوق المراد ، وهو مذكور فى كتاب الخزانة ، ومنهم :

شق بن أنمار بن نزار

كان شق هذا شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، ذكر الحافظ ابن الجوزى : أن خالد بن عبد الله الفهرى كان من ولد شق هذا ؛ وهذ

الاسم في الأصل اسم لحيوان وهو بكسر الشين ؛ قال القزويني . الشق من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمي ! و يزعمون أن النسناس مركب من الشق ومن الآدمي ، و يظهر للإنسان في أسفاره . وذكروا أن علقمة بن صفوان بن أميـة خرج في بعض الليالي فانتهى إلى موضع فعرض له شق ، فقال علقمة : ياشق ! مالي ولك ، اغمد عني مُنْصلك[1] أتقتل من لا يقتلك ؟ فقال شق : هَيْتَ لك[2] ، واصبرْ لما قد حُمَّ لك[3]فضرب كل واحد منهما صاحبه فوقع ميتاً ؛ وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحق : أن مالك بن نصر اللخمي رأى رؤيا هالته ، فبعث إلى جميع الـكهان والسحرة والمنجمين من رعيته فاجتمعوا إليه فقال : إني رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فقالوا : قصها علينا نخبرك بتأويلها ! فقال لهم إنْ أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم في تأويلها ، ولست أصدق في تأويلها إلاَّ من عرفها قبل أن أخـبره بها ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الذي يرومه الملك لا يجده إلا عنـد شق وسطيح ، فلما أخبروه بذلك أرسل الملك من أتاه بهما ، فسأل سطيحاً فقال : أيها الملك إنك رأيت حممة[4] خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة[5] وأكلت منها كل ذات جمجمة[6] ! فقال الملك ؛ ما أخطأت شيئاً ، فما عندك في تأويلها ؟ فقال سطيح : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملـكن ما بين أبين إلى جرش ! فقال الملك : وأبيك ياسطيح إن هذا لنـا لغائظ موجع ، فمتى يكون ذلك أفي زماني أم بعده ؟ فقال : بل بعـده بحين ، أكثر من ستين ، أو سبعين ، يمضين من السنين ، ثم يقتلون و يخرجون منها هاربين ! قال الملك : ومن الذي يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليـه ابن ذي يزن[7] يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن ! قال : أفيدوم ذلك من

---

(١) سيفك (٢) أي هلم (٣) أي قضى لك وقدر (٤) قطعة من نار
(٥) منخفضة (٦) انما قال كل ذات جمجمة ولم يقل كل ذي جمجمة لأن القصد الى النفس والنسمة فهو أعم ويدخل فيه جميع ذوات الأرواح ولو جاء بالتذكير لكان اما خاصا بالانسان أو عاما في كل شيء حيٍّ أو جماد .
(٧) كذا والصواب « يليه ارم ذي يزن » .

سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه ؟ قال . نبيّ زكيّ ، يأتيه الوحى من ربه العليّ ، قال . وممن هذا النبى ؟ قال . من ولد غالب بن فهر بن مالك ابن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر ، فقال الملك : وهل للدهر من آخر ياسطيح ؟ قال . نعم ! يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون ، فقال الملك . أحق ماتقول يا سطيح ؟ قال : نعم ! والشفق[1] والغسق[2] ، والفلق إذا اتّسق[3] ، إن ما أخبرتكم به لحق (ثم إن الملك) دعا شقاً فسأله كما سأل سطيحاً ، فقال له شق . إنك رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة[4] . فأكلت كل ذات نسمة[5] فلما سمع الملك مقالة شق قال له . ما أخطأت شيئاً فما عندك فى تأويلها ؟ فقال شق . أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كلّ طَفْلة البنان[6] ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران ، فقال الملك وأبيك يا شق إن ذلك لنا لغائظ مؤلم فتى يكون ذلك أفى زمانى أم بعده ؟ فقال . بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم الشأن ، ويذيقهم أشد الهوان ، فقال الملك . من هو العظيم الشأن ؟ قال . غلام ليس بدنى ولا مدن[7] يخرج عليهم من بيت ذى يزن ، فقال الملك . أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال . بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل ، فقال الملك . وما يوم الفصل ؟ فقال شق . يوم يجزى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمعها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، ويكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات ، فقال الملك . أحق

---

(١) الحمرة فى الافق من الغروب الى قريب العتمة (٢) ظلمة أول الليل.

(٣) اى انتظم (٤) شرفة كالرابية (٥) النسمة فى الاصل نفس الريح ثم سميت بها النفس بالسكون (٦) أى رخصة الاصابع ناعمتها (٧) الدنى: معروف والمدنى كمحدث الضعيف الخسيس الذى لا غناء عنده المقصر فى كل ما أخذ فيه نقله الازهرى وأنشد :

فلا وأبيك ما خلقى بوعر ولا انا بالدنى ولا المدنى

بما تقول ياشق ؟ قال . إى وربّ السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتـكم به لحق مافيه أمض[١] ، فوقع ذلك فى نفس الملك لما رأى من تطابق شق وسطيح على ما ذكراه ، فجهز أهل بيته إلى الحيرة فَرَقاً من سلطان الحبشة . ومنهم :

سطيح بن مازن بن غسان

كان سطيح يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلا الجمجمة و يقال إنه كان وجهه فى صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان فى عصره من أشهر الـكهان ، وأخباره فى التواريخ والسير كثيرة ؟ وكان هو وشق ولدا فى يوم واحد ، وكانا من المعمَّرين . قال كثير من أهل السير و بعضهم يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال . لما كانت الليلة التى ولد فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ارتجس[٢] إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرافة ، فعظم ذلك على أهل مملـكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة فى بحيرة طبرية ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الـكتب أبرز سريره ، وظهر لأهل مملـكته ، فأخبرهم الخبر ، فقال المُوْبَذَان[٣] : أيها الملك إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتنى ، قال له : وما رأيت ؟ قال رأيت إبلًا صعاباً[٤] ، تقود خيلًا عراباً[٥] قد اقتحمت دجلة وانتشرت فى بلادنا ، قال : رأيت عظيماً فما عندك فى تأويلها ؟ قال : ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ، ولـكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه

---

(١) أى ما فيه شك ولا مستراب (٢) رجف (٣) بضم الميم وفتح الباء فقيه الفرس وحاكم المجوس (٤) جمع صعب وهو من الدواب نقيض الذلول (٥) أى عربية منسوبة الى العرب .

إليك رجلًا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحدثان ، فبعث إليه عبد المسيح بن بُقَيْلَةَ الغسّانيّ ، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر ، فقال له : أيها الملك : واللهِ ما عندى فيها ولا فى تأويلها شيء ، ولـكن جهزنى إلى خال لى بالشام يقال له (سطيح) قال : جهزوه ، فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه وكلّمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أصمّ أم يسمع غِطْرِيف اليمن — يا فاصلَ الخطّة أعيتْ مَنْ ومَنْ[1]
أتاكَ شيخُ الحيّ من آل سنن — أبيض فَضْفَاض الردآء والبدن[2]
رسول قَيْل العجم يهوى للوثن — لا يَرْهَب الرعد ولا رَيْبَ الزمن[3]

فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مشيح[4] ، جاء إلى سطيح . وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤْيا المُؤْبَذَان ، رأى إبلًا صعاباً ، تقود خيلًا عراباً ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . ثم قال : يا عبد المسيح إذا ظهرت التلاوة ، وفاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهراوة[5] فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملـكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكلّ ما هو آتٍ آت ، ثم قال :

إن كان ملك بنى ساسان أفرطهم — فإن ذا الدهر أطواراً دهاريرُ[6]
منهم بنو الصرح بهرام وإخوته — والهرمزان وسابور وسابور
فربما أصبحوا يوماً بمنزلة — تهاب صولهم الأسد المهاصير
حثوا المطى وجدوا فى رحالهم — فما يقوم لهم سرج ولا كُور[7]
والناس أوْلادُ عَلَّاتٍ فمن علموا — أن قد أقل فمحقور ومهجور[8]

---

(١) الغطريف بالكسر السيد الشريف والسخى السرى (٢) الفضفاض الواسع (٣) القيل الملك أو هو دون الملك الاعلى (٤) جاد مسرع (٥) الهراوة: العصا ، وصاحب الهراوة : هو سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .
(٦) الدهارير : تصاريف الدهر ونوائبه مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعباديد ويقال دهر دهارير أى شديد (٧) الكور بالضم : رحل البعير (٨) أولاد العلات : اولاد امهات شتى من رجل واحد .

والخير والشر مقرونان فى قرن[١]   فالخـير متبع والشر محـذور

فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره ، قال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا تكون أمور ، ويدور الزمان ، فهلكوا كلهم فى أربعين سنة ، والموابذة عند الفرس هم القضاة ، والمرابذة هم كالخلفاء للموابذة ، والأصبهبد حافظ الجيوش وأمير الأمراء ، والمدار هو الوزير الأعلى ، والمرازبة حفظة الثغور وولاة المملكة ، كذا فى كتب السير . وأخبار وشق وسطيح كثيرة . قال ابن خلدون فى مقدمته : ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبرا به : من ملك الحبشة لليمن ، وملك مضر من بعدهم ، وظهور النبوة المحمدية فى قريش ، ورؤيا الموبذان التى أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة ، وخراب ملك فارس ، وهذه كلها مشهورة ، ومنهم :

طريفة[٢] الكاهنة

كانت طريفة هذه من أشهر كهان عصرها ، وهى التى أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب ، وإتيان سيل العرم وإفساده الجنتين ، بمقتضى ما ظهر لها من الكهانة ، قال عبد الملك فى شرح قصيدة ابن عبدون : إن أرض سبأ من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجد ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ، فمزقوا كل ممزق ، وكان أول من خرج من اليمن فى أول الأمر عمرو بن عامر مزيقياء ، وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة يقال لها طريفة الخير ، وكانت رأت فى منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعا شديداً ، وأتت الملك عمراً

---

(١) أى مجموعان فى حبل   (٢) هكذا ضبطت فى معجم البلدان « طبعة مصر » وضبطها بعضهم بفتح الطاء وكسر الراء .

وهى تقول : ما رأيت كاليوم ، أزال عنى النوم ، رأيت غيماً أرعد وأبرق ، وزمجر وأصعق ، فما وقع على شىء إلا أحرق ، فلما رأى ما دخلها من الفزع سكنها ، ثم إن عمراً دخل على حديقة له ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ طريفة ، فخرجت إليه وخرج معها وصيف لها اسمه سنان ، فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن (وهى دواب تشبه اليرابيع) فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرنى ، فلما ذهبت أخبرها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها الخليج الذى فى حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة ، فوقعت على الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها فتحثو التراب على بطنها من جنباته وتقذف بالبول على بطنها قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها استحيا منها وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية ، ثم قال لها : يا طريفة ، فكهنت وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك ، قال عمرو : من أخبرك بهذا ؟ قالت : أخبرتنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيه الولد الوالد ، قال ما تقولين ؟ قالت أقول قول الندمان لهفاً ، لقد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ ! قال : ماترين فى ذلك ؟ قالت : هى داهية دهياء من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة ، قال : وما هو ويلك ؟ قالت : أجل وإن فيه الويل ، ومالك فيه من نيل ، وإن الويل فيما يجىء به السيل ، فألقى عمرو عن فراشه وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ، قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : إذهب إلى السد فإذا رأيت جرذاً يكثر بيديه فى السدّ الحفر ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن الغمر غمر ، وأنه قد وقع الأمر ، قال

وما الذى تذكرين ؟ قالت : وعد من الله تعالى نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل فبغيرك يا عمرو يكون الثكل ، فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب رجليه صخرة ما يقلها خمسون رجلًا ، فرجع وهو يقول :

أبصرتُ أمْراً عادنى منه أَلَمْ ... وهَاجَ لى من هَوْله بَرَح السقم[1]

من جرذٍ كفحل خنزير الأجُمْ ... أو كبش صرم من أفاويق الغنم[2]

يسحب قطراً من جلاميد العرم ... له مخاليبُ وأنياب قضم[3]

ما فاته سحلًا من الصَّخْر قصم[4]

فقالت طريفة : وإن من علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلسَ فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادى وحَزْنِهِ ، وقد علمت أن الجنان مظللة لا يدخلها شمس ولا ريح ؛ فأمر عمر بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلا حتى امتلأت من التراب فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد ؟ قالت : فيما بينى و بينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، وأنه لاتأتى علىَّ ليلة فيما بينى و بين السبع سنين إلا ظننت هلاكه فى غدها أو فى مسائها ؛ ثم رأى عمرو فى منامه سيل العَرِم ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم أنه واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأجمع على بيع كل شىء له بأرض مأرِب ، وأن يخرج منها هو وولده ؛ ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به فى الملأ من الناس ، وإذا لطمه يرفع هو يده

---

(١) البرح : الشدة (٢) الاجم : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف . والصرم : جمع صريمة وهى القطعة من الابل (٣) قضم قضما أكل باطراف سنانه (٤) سحله : قشره ونحته . وقصمه : كسره .

ويلطمه ؛ ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مَأْرِب أن عمراً قد صنع طعاماً يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه ؛ فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما قد أمره ، فجعل يأمره فيتأبى عليه ، فرفع عمرو يده فلطمه ، فلطمه ابنه وكان اسمه مالكاً ، فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو وبهجته : صبيّ يضرب وجهه ! وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا يرغبون إليه حتى ترك ، وقال : والله لا أقيم بموضع صنع فيه بى هذا ، ولأبيعن أموالى حتى لا يرث بعدى منها شيئاً ! فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غيظ عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ، فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب وفشى بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا عن الشراء . فلما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج ، فخرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض (عك) فحار بتهم عك ، فارتحلوا عن بلادهم ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو ، وتفرقوا فى البلاد : فمنهم من سار إلى الشام وهم أولاد جفنة عمرو بن عامر ، ومنهم من سار إلى يثرب وهم أبناء قيلة الأوس والخزرج وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر ، وسارت أزد السراة إلى السراة ، وأزد عمان إلى عمان ، وسار مالك بن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيىء فنزلت أجأ وسلمى ، ونزلت أبناء ربيعة بن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة وسموا خزاعة لانخزاعهم من إخوانهم ، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، وفى ذلك يقول ميمون بن قيس الأعشى :

وفى ذلك للمؤتسى أسوة ومأرب عفّى عليها العَرِمْ
رُخام بَنَتْهُ لهم حِمْيَرٌ إذا جاء موّاره لم يَرِم
فأروى الزروعَ وأعنابها على ساعة ماؤهم إذْ قسم
فصاروا أيادى ما يقدرو نَ منه على شرب طفل فطم

وذكر الميدانى عند قول العرب فى المثل « تفرقوا أيادى سبأ » عن فروة ابن مسيك ، قال أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أخبرْنى عن سبأ أرجل هو أم امرأة ، فقال : هو رجل من العرب ولد عشرةً : تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد والكندة والمذحج والأشعرون وأنمار منهم بجيلة . وأما الذين تشاءموا فعاملة وغسان ولخم وجذام ، وهم الذين أرسل عليهم سيل العرم ، وذلك أن الماء كان يأتى أرض سبأ من الشحر وأودية اليمن ، فردموا ردماً بين جبلين ، وحبسوا الماء وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث ، فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً نقبت ذلك الردم حتى انتقض ، فدخل الماء جنتيهم ، فغرقهما ودفن السيل بيوتهم ، فذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم) والعرم : جمع عرمة وهو السكر الذى يحبس الماء . وقال ابن الأعرابى : العرم السيل الذى لا يطاق . وقال قتادة ومقاتل : العرم اسم وادى سبأ ، ثم ذكر الميدانىّ عن الكلبى عن أبى صالح أن طريفة الكاهنة قد رأت فى كهانتها أن سد مأوب سيخرب ، وأنه سيأتى العرم فيخرب الجنتين ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه ، حتى انتهوا إلى مكة فأقاموا بها وبما حولها ، فأصابتهم الحمى ، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذى أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابنى الذين تشكون وهو مفرق بيننا . قالوا فماذا تأمرين ؟ قالت : من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد ، فكانت أزد عمان . ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقسر ، وصبر على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مر ، فكانت خزاعة ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوس والخزرج . ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والملك والتأسير ، ويلبس الديباج ، والحرير ، فليلحق بِبُصْرَى وغوير ، وهما من أرض

الشام ، فكان الذين سكنوها آل جَفنة ، من غَسَّان . ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل العتاق ؛ وكنوز الأرزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل جَذيمةَ الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محرِّق . . . والمقصود أن طريفة كانت من مشاهير الكهان فى زمنها ، ولها أخبار كثيرة ونوادر شهيرة . ومنهم :

زبراء الكاهنة

كانت من الكهنة المذكورين عند العرب ، وكلامها له وقع فى نفوسهم ، ولها فى ذلك نوادر معجبة . روى القالى فى أماليه[1] عن أبى بكر قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن أبى مِخْنَف عن أشياخ من علماء قضاعة قال : كان ثلاثة أبطُن من قضاعة مُجْتَوِرين بين الشِّحْرِ وحضْرَمَوْت : بنو ناعب و بنو داهنٍ ، و بنو رِئام وكانت بنو رئام ، أقلهم عدداً ، وأشجعهم لقاء ، وكانت لبنى رئام عجوز تسمى خُوَيْلة ، وكانت لها أمةٌ من مولِّدات العرب تسمى (زبْراء) وكان يدخل على خويلة أربعون رجلًا كلهم لها مُحْرَمٌ بنو إخوة و بنو أخَوَات ، وكانت خويلة عقيماً ؛ وكانت بنو ناعب و بنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذاتَ يوم فى عُرْس لهم وهم سبعون رجلًا كلهم شجاعٌ بئيس ، فطَعِمُوا وأقبلوا على شرابهم ، وكانت زبراء كاهنة ، فقالت لخويلة انطلقى بنا إلى قومك أُنْذِرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زَبْرَاء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالًا لها ، فقالت يا ثمر الأكباد ، وأنْدَاد الأولاد ، وشجا الحساد[2] هذه زبراء ، تخبركم عن أنباء . قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيد[3] الشنعاء ، فاسمعوا ماتقول ! قالوا : ما تقولين يا زبراء ؟ فقالت : والليل الغاسق[4] ، واللوح[5] الخافق ،

---

(١) ج ١ ص ١٢٦ (٢) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه
(٣) أى الداهية والامر العظيم (٤) أى الشديد الظلمة (٥) بالضم ، الهواء بين السماء والأرض ، وبالفتح العطش .

والصباح الشارق ، والنجم الطارق[1] . والمزن الوادق ، إن شجر الوادى لَيَادُو خَتْلا[2] ، و يحرق أنياباً عُصْلا[3] . و إن صخر الطود لينذر ثُكْلا ، لا تجدون عنه مَعْلا[4] ، فوافقتْ قوماً أُشَارى سُكارى[5] فقالوا : ريح خَجُوج[6] ، بعيدة مابين الفروج ، أتت زبراء بالأَبْلَق النَّتُوج[7] ، فقالت زبراء : مهْلاً يا بنى الأعزة ! والله إنى لأشَمُّ ذَفَرَ[8] ، الرجال تحت الحديد ! فقال لها فتى منهم يقال له هُذَيْل بن مُنْقِذ : يا خذاق[9] ، والله ما تشمين إلّا دفَرَ إبْطَيْك ! فانصرفت عنهم : فارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون ، و بقى ثلاثون ، فرقدوا فى مَشرَبهم ، وطرقتهم بنو داهن و بنو ناعب فقتلوهم أجمعين ، وأقبلت خُوَيْلة مع الصباح فوقفت على مصارعهم ، ثم عمَدَتْ إلى خناصرهم فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة ، وألقتها فى عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمَرْضاوى بن سعْوة المهرى وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه وأنشأت تقول :

يا خيرَ مُعتَمَدٍ ، وأمنع ملجأ وأعزَّ منتقم وأدرَكَ طَالِبِ
جاءتك وافدةُ الثَّكالى تَغتَلى بسوادها فوق الفَضَاء النَاضِبِ[10]

---

(١) الطارق : النجم سمى بذلك لانه يطرق أى يطلع ليلا (٢) أدوت له آدو أدوا اذا ختلته — والختل — الخدع — قال الشاعر :

أدوت له لأختلـــه فهيهات الفتى حذرا

(٣) حرق أنيابه : حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه « هو يحرق الارم » أى الاسنان . والعصل : المعوجة .
(٤) المعل : المنجى (٥) أشارى : جمع أشر كمرح (٦) سريعة المر
(٧) الأبلق لا يكون نتوجا ، والعرب تضرب هذا للشيء الذى لا ينال فتقول « طلب الأبلق العقوق ، فلما فاته أراد بيض الأنوق » والانوق : الذكر من الرخم ولا بيض له . هذا قول بعض اللغويين وعامتهم يقولون : الانوق : الرخمة وهى تبيض فى مكان لا يوصل فيه الى بيضها الا بعد عناء . فيراد على هذا القول أنه طلب ما لا يقدر عليه فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله . وعلى الاول أنه طلب ما لا يمكن فلما لم يجد طلب أيضا ما لا يكون ولا يوجد ؛ والعقوق : الحامل ٨) الذفر : يكون فى النتن والطيب وهو حدة الريح . والدفر لا يكون الا فى النتن (٩) خذاق : كناية عما يخرج من الانسان
(١٠) المغالاة : المباعدة فى الرمى . والناصب : البعيد ، ومنه نضب الماء أى بعد عن أن ينال .

عَيْرَانة سُرُح اليـَـدَيْنِ شِمِلَّةٌ ... عُبْر الهَوَاجِر كالهِزَفِّ الخاضِبِ[١]

هذى خناصرُ أُسْرَتى مَسْرُودةً ... فى الجيد منى مثل سِمْطِ الـكاعبِ[٢]

عشرون مُقْتَبلاً وشطرُ عَديدِهم ... صُيَّابة مِلقَوْمِ غـير أشايبِ[٣]

طَرَقَتْهُمُ أُمُّ اللُّهَيْمِ فأصبحوا ... تَسْتَنُّ فوقَهُمُ ذُيولُ حواصِبِ[٤]

جَزَراً لعافيـة الخَوَامِـع بعـدما ... كانوا الغياثَ من الزمان اللاَّحِبِ[٥]

قَسَمَتْ رجالُ بنى أبيهم بينهم ... جُرَعَ الرَّدى بمَخَارِصٍ وقَوَاضِبِ[٦]

فابْرُدْ غَليلَ خُوَيلةَ الثَّـكْلَى التى ... رُمِيَتْ بأَثْقَلَ من صخور الصَّاقِبِ[٧]

وتلَافَ قَبْـلَ الموْتِ ثأرى إنَّه ... عَلِقٌ بِثَوْبَىْ داهنٍ أو ناعِبِ

فقال : حجْرٌ[٨] على مَرْضَاوى الأعذبانِ والأحمرانِ[٩] أوْ يَقْتُلَ بعددِ رئام من داهنٍ وناعب ! ثم قال :

أخالتَنَا سِرُّ النساء مُحَرَّمٌ ... علىَّ وتَشْهادُ النَّدَامى على الخَمْرِ[١٠]

كذاكَ وأفلاذُ الفَئِيدِ وما ارْتمَتْ ... به بنى جالَيْهَا الوَئِيَّةُ مِلْوَذْرِ[١١]

لئن لم أُصَبِّحْ داهِناً ولَفِيفَهَا ... وناعِبَهَا جَهْرًا براغية البَـكْرِ[١٢]

---

(١) عيرانة : تشبه العير لصـلابتها . والسرح : السهلة رجع اليـدين . والشملة : السريعة الخفيفة . ويقال « ناقة عبر أسفار » اذا كانت قوية على السفر ، و « عبر الهواجر » اذا كانت قوية على الحر وأصل هذا كأنه يعبر بها الهواجر والاسفار . والهزف : الظليم الجافى والخاضب : الذى قد أكل الربيع فاحمرت ظنبوباه وأطراف ريشه . والظنبوب مقدم عظم الساق .
(٢) مسرودة : مشكوكة . والسمط قلادة أطول من المخنقة . والكاعب: التى نهد ثدياها (٣) مقتبل : مستأنف الشباب ، والصيابة : صميم القـوم وخالصهم . وملقوم : من القوم . واشايب : أخلاط من الناس (٤) أم اللهيم: الداهية . وتستن : تسير . والحواصب : الرياح التى تسفى الحصباء .
(٥) الخوامع : الضباع . واللاحب : القاشر (٦) المخارص : جمع مخرص وهو سكين كبير مثل المنجل يقطع به الشجر (٧) الصاقب : جبل معروف
(٨) حرام (٩) الاعذبان : النكاح والاكل . والاحمران : اللحم والخمر
(١٠) السر : النكاح (١١) الأفلاذ : جمع فلذ وهو ما قطع طولا من اللحم . والفئيد : الشواء وهو فعيل بمعنى مفعول يقال فأدت اللحم اذا شويته . والجالان : الناحيتان من أعلاهما الى أسفلهما . والوئية : القدر العظيمة . والوذر : من اللحم القطع الصغيرة التى لا عظم فيها (١٢) فى الاساس : كانت عليهم كراغية البكر أى اشتدت عليهم كرغاء ثقب ناقة صالح ، قال الأخطل :
لعمرى لقد لاقت سليم وعامر ... على جانب الثرثار راغية البكـر

فوَارى بنَانَ القوم فى غامض الثَّرَى   وصُورى إليكِ من قناعٍ ومن سِتْرِ [١]
فإنى زعيمٌ أن أُروِّى هامَهُمْ   وأُظْمِىءَ هاماً ما انسَرَى الليلُ بالفجر [٢]

ثم خرج فى مَنْسرٍ [٣] من قومه فطرق داهناً وناعباً فأوجع فيهم . ومنهم :

خنافر بن التوأم الحميرى

ذكر القالى فى أماليه [٤] عن أبى بكر قال : حدثنى عمى عن أبيه عن ابن الكلبىّ عن أبيه قال : كان خُنَافر بن التوأم الحِميرىّ كاهناً ، وكان قد أُوتى بَسْطةً فى الجسم ، وسعَةً فى المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وظهر الإسلام أغار على إبل لمراد فاكتَسَحها [٥] ، وخرج بأهله وماله ، ولحق بالشِّحْر ، فحالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمىّ وكان سيداً منيعاً ، ونزل بواد من أودية الشِّحْر مُخْصِباً كثير الشجر من الأيك والعَرِين [٦] (قال خنافر) وكان رئِىٌّ [٧] فى الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى ، فلما شاع الإسلام فقدته مدة طويلة وساءنى ذلك ، فبينا أنا ليلة فى ذلك الوادى نائماً إذ هوى هوىّ العُقَاب ! فقال : خنافر ! فقلت : شِصار ! فقال : إسمع أقلْ فقلت : قل أسمع . فقال : عه تغْنَمْ ، لكل مدة نهاية ، وكل ذى أمد إلى غاية . قلت : أجل ! فقال : كل دولةٍ إلى أجل ، ثم يُتَاح لها حِوَل [٨] ، انْتَسِخت النِّحَلُ ، ورَجَعَتْ إلى حقائقها الملل ، إنك سجيرٌ موصول [٩] ، والنصح لك مبذول ، و إنى

أى الشؤم والشدة

(١) صورى : ميلى (٢) زعيم : ضامن وكذلك قبيل وحميل وكفيل وضمين واحد . وقوله (أروى هاما) كانت العرب تقول اذا قتل الرجل فلم يدرك بثأره خرج من هامته طائر يسمى (الهامة) فلا يزال يقول : (اسقونى ! اسقونى !) حتى يقتل قاتله فيسكن . (انظر الجزء الثانى ص ٣١١ و٣١٢ و٣١٣) (٣) المنسر : من الخيل مابين الثلاثة الى العشرة وقيل مابين الثلاثين الى الأربعين أو من الأربعين الى الخمسين أو الى الستين أو من المائة الى المائتين والمنسر أيضا قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير (٤) أمالى القالى ج ١ ص ١٣٣ (٥) كنسها (٦) الأيك : الشجر الملتف الكثير والغيضة تنبت السدر والاراك ، والعرين : جماعة الشجر (٧) الرئى : مايتراءى الانسان من الجن

(٨) تحول (٩) السجير : الصديق ، والشجير بالشين معجمة الغريب . وقد قال بعض اللغويين يقال السجير والشجير للصديق .

آنَسْتُ[١] بأرض الشام ، نفراً من آل العُذَام[٢] . حُكَّاماً على الحكام، يذْبُرون[٣] ذا رونق من الكلام ؛ ليس بالشعر المؤلّف ، ولا بالسجع المتكلّف ، فأصغيت فزُجِرْت ، فعاودت فظُلِفْتَ[٤] ؛ فقلت : بم تُهَيْنِمُونَ[٥] ، و إلام تعتزون[٦] قالوا خطابٌ كُبَّار[٧] ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شِصار ، عن أصدق الأخبار واسلك أوضح الآثار ، تَنْجُ من أُوار[٨] النار ! قلت : وما هذا الكلام ؟ قالوا : فرقان بين الكفر والإيمان ، رسول من مُضَر ، من أهل المدر ، ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بَهَر ، وأوضح نهجاً قد دَثَرَ ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذٌ لمن ازدجر ، أُلِّفَ بالآى الكُبَرَ . قلت . ومن هذا المبعوث من مُضَر ؟ قال : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشَّبَرَ[٩] ، و إن خالفت أُصليتَ سَقَر ، فآمنت يا خُنافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، و إلا فهو الفراق لا عن تلاق . قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال : من ذات الإحرّين[١٠] ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح . قال : الْحَقْ بيثْرِبَ ذات النخل ، والحرة ذات النعل[١١] ، فهنالك أهل الطّوْل والفضل ؛ والمواساة والبذل ، ثم امّلس عنى فبتُّ مذعوراً أراعى الصباح ، فلما برق لى النور امتطيت راحلتى ، وآذنت[١٢] أعبدى ، واحتملت بأهلى ، حتى وردت الْجَوْف ، فرددت الإبل على أربابها ، بِحُولها وسِقابها[١٣] ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها معاذ بن جبل أمير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فبايعته على الإسلام ، وعلمنى سوراً من القرآن فمنّ الله علىّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقلت فى ذلك :

---

(١) أى أبصرت (٢) قبيلة من الجن . كذا قال أبو بكر (٣) يقرأون
(٤) منعت . قال الشاعر :

ألم أظلف عن الشعراء عرضى … كما ظلف الوسيقة بالكراع

(٥) الهينمة : الصوت الخفى (٦) تنتسبون (٧) كبير (٨) الاوار : شدة الحر .
(٩) الشبر : الخير وحرك للسجع (١٠) قال الاصمعى : جمع الحرة حرار وحرون واحرون (١١) النعل : المكان الغليظ من الحرة (١٢) أعلمت (١٣) الحول : جمع حائل وهى الانثى من أولاد الابل . والسقاب : جمع سقب وهو الذكر

أَلم تَرَ ان الله عاد بفضله ... وأَنْقَذَ من لَفْحِ الزَّخيخ خُنافرا[١]

وكَشَّفَ لى عن جَحْمَتَىَّ عماها ... وأَوضح لى نَهْجى وقد كان داثِرا[٢]

دعانى شِصارٌ للتى لو رفضتها ... لَاصْليت جمراً من لَظَى الهَوْب واهرا[٣]

فأصبحْتُ والإسلام حَشْوُ جوانحى ... وجانَبْتُ من أمسى عن الحق نائرا[٤]

وكان مُضلِّى مَنْ هُدِيتُ بِرُشْدِهِ ... فلله مُغْوٍ عادَ بالرُّشْدِ آمِرا

نَجَوْتُ (بحمدالله) من كلِّ قُحْمَةٍ ... تُؤَرِّثُ هُلْكاً يوم شايَعْتُ شاصِرا[٥]

وقد أَمِنَتْنِى بعد ذاك يُحَابِرٌ ... بما كنْتُ أغشى المُنْدِيات يُحَابِرا[٦]

فمن مُبْلِغٌ فتيانَ قومى أُلُوكَةً ... بأَنِّىَ من أقتال من كان كافرا[٧]

عليكم سواءَ القصد لافُلَّ حدُّكم ... فقد أصبح الإسلام للكفر قاهرا

ومنهم :

صواحبات مصاد بن مذعور القينى

روى عن أبى بكر بن دريد قال : حدثنا السكن بن سعيد عن العباس بن هشام عن أبيه . قال : كان مُصَادُ بن مذعور القينى رئيساً قد أخذ مِرْباع قومه دهراً (وهو ربع الغنيمة) وكان ذا مال فندَّ ذَوْدٌ من أذواد له[٨] ، فخرج فى بغائها[٩] قال فإنى لفى طلبها إذ هبطت وادياً شجيراً[١٠] كثيف الظلال ، وقد تفسخت أيناً[١١] ، فأنخت راحلتى فى ظل شجرة ، وحططت رحلى ، ورسَفْتُ بعيرى[١٢] ، واضطجعتُ فى بُرْدى ، فاذا أربع جَوَارٍ كأنهن اللآلى يرعين

(١) الزخيخ بلغة أهل اليمن النار (٢) الجحمتان : العينان بلغتهم والنهج : الطريق الواضح (٣) الهوب : النار بلغتهم . والواهر : الساكن مع شدة الحر . وكل هذه الأحرف من لغتهم (٤) أى نافرا (٥) القحة : الشدة (٦) يحابر « كيقاتل مضارع قاتل » ابن مالك بن أدد أبو مراد القبيلةالمشهورة ثم سميت القبيلة يحابر ، والمنديات : المخزيات (٧) الالوكة : الرسالة ، والاقتال : الأعداء (٨) ند : شرد ، والذود : مابين الثلاثة الى العشرة ، والعرب تقول : « الذود الى الذود ابل » يعنى اذا اجتمع القليل الى القليل صار كثيرا (٩) أى طلبها (١٠) كثير الشجر (١١) كلالا وتعبا (١٢) شددت رسغه

والله مالى غير الذود ، فرمى الله فى نواصيهن بالرّغس[١] ، وإنى اليوم لأكثر بنى القَين مالًا ، وفى ذلك أقول :

هو الدهر آسٍ تارةً ، ثم جارحُ — سوانحهُ مبثوثة والبَوَارحُ[٢]

فبينا الفتى فى ظلّ نَعْماء غضّةٍ — تُباكِرُهُ أفياؤه وتُرَاوِح[٣]

إلى أن رَمَتْهُ الحادثاتُ بنكبة — تضيق به منها الرحابُ الفَسَائح[٤]

فأصْبحَ نِضْواً لا يَنوء كأنَّما — بأعظُمه مما عراه القوادح[٥]

فما خِلْتُنى من بعد عَرْجٍ عُكامِسٍ — أُقَسّسُ أذواداً وهنّ روازحُ[٦]

حَدابيرُ ما ينهضنَ إلا تحاملًا — شَوَاسِف عُوجٌ أسأرتها الجوائح[٧]

فياواثقاً بالدهر كُنْ غَيْرَ آمنٍ — لما تنتضيه الباهضات الفوادح[٨]

فلست على أيامه بمُحَكَّمٍ — إذا فَغَرَتْ فاها الخطوبُ الكوالحُ[٩]

مُجيرك منه الصبر إن كنت صابراً — و إلا كما يهوى العَدُوُّ المكاشحُ[١٠]

ومنهم :

سلمى الهمدانية الحميرية

روى أبو على القالى فى أماليه[١١] عن أبى بكر . قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبى قال : أغار رجل من مراد يقال له حريم على إبل عمرو بن برّاقة الهَمْدَانى وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو سلمى وكانت

---

(١) البركة والنماء . قال رؤبة :

دعوت رب العزة القدوسا — دعاء من لايقرع الناقوسا

حتى أرانا وجهك المرغوسا

(٢) آس : مداو ، والسانح والبارح : المبارك والشؤم (٣) غضة : طريقة ناعمة (٤) الفسائح : الواسعات (٥) نضوا : مهزولا . وينوء : ينهض بجهد ومشقة ، والقوادح جمع قادحة وهى العيب فى العود والسن (٦) أقسس : أتبع . والروازح : التى قد سقطت من الهزال (٧) الحدابير : التى قدتقوست من الهزال واحدها حدبار . والشواسف : مر معناها قريبا ، والجوائح : الشدائد (٨) فوادح الدهر : خطوبه . وبهضه الأمر : فدحه (٩) فغرت : فتحت . والكوالح : الشدائد . وكلح كلوحا وكلاحا : تكشر فى عبوس (١٠)كشح له بالعداوة وكاشحه : عاداه (١١) ج ٢ ص ١٢٢ و ١٢٣

بنت سيدهم وعن رأيها كانوا يَصْدُرون ، فأخبرها أن حريماً المرادى أغار على إبله وخيله ، فقالت : والخَفْوِ [١] والوميض [٢] ، والشفق كالأخْرِيض [٣] ، والقُلّةِ والحضيض [٤] . إن حريماً لمنيع الحيز [٥] ، سيد مزيز [٦] ، ذو مَعْقِل حريز ، غير أن الحمَّة ستظفر منه بعثرة [٧] ، بطيئة الجبره ، فأغِرْ ولا تُنكَّعَ [٨] ، فأغار عمرو فاستاق كل شيء له ، فأتى حَرِيمٌ بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع ، فقال عمرو قصيدةً منها :

تقول سُلَيْمى لا تَعرَّضْ لتَلْفَةٍ وليلُكَ عن ليل الصَّعاليك نائم [٩]

ومنهم :

عفيراء الكاهنة الحميرية

ذكر رواة أخبار العرب نوادر طريفة لعفيراء هذه . من ذلك ما أورده محمد بن ظفر فى كتابه (خبر البشر بخير البشر) . قال : روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزاة غزاها بغنائم عظيمة : فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنؤنه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرته ، وأهالته فى حال منامه ، فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئاً وثبت ارتياعه فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساء به الوفود الظن ، ثم إنه حشر الكهان ، فجعل يخلو بكاهنٍ كاهن ثم يقول له : أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه ! فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندى حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان إليه منه ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه [١٠] ، وكانت أمه ، قد تكهنت

---

(١) اللمعان الضعيف (٢) هو أشد من الخفو (٣) حجارة النورة (٤) القلة بالضم أعلى كل شيء . والحضيض : القرار فى الأرض (٥) الناحية (٦) فاضل من قولهم هذا أمز من هذا أى أفضل منه (٧) الحمة : القدر وقيل هى واحد الحمام (٨) تنكع : تردع (٩) الصعاليك : الفقراء (١٠) الأرق السهر بالليل

فقالت له : أبيْتَ اللَّعن[١] أيها الملك ! إن الـكواهن أهدى إلى ما تسأل عنـه لأن اتباعَ الـكواهن من الجان ، ألطف وأظرفُ من اتباع الـكهان ، فأمر بحشر الـكواهن إليه وسألهن كما سأل الـكهان فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه ، ولمـا يئس من طلبته سلا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل *[٢] ، فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرفعت له أبيات من ذَرى * جبل ، وكان قد لفحه الهجير[٣] ، فعدل إلى الأبيـات وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنهـا فبرزت إليه منـه عجوز فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجَفْنَةَ[٤] المُدَعدَعة * ، والعُلبة * المترعة ، فنزل عن جواده ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الأرواح * نام فلم يستيقظ حتى تصرم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا بين يديه فتـاة لم يرَ مثلها قواماً ولا جمـالاً ، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك الهُمام ، هل لك فى الطعام ؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لمـا رأى أنها عرفته وتصامم عن كلمتها ، فقالت له : لا حذر ، فداك البشر فجدّك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر ، ثم قربت إليه ثريداً وقديداً وحَيْـساً[٥] ، وقامت تذب عنه حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً * وضريباً * فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة فملأت عينيه حسناً وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمك ياجارية ؟ قالت : اسمى (عفيراء) فقال لهـا : ياعفيراء من الذى دعوته بالملك الهمام ؟ قالت : مرثد العظيم الشان ، حاشر الـكواهن والـكهان ، لِمُعضِلة[٦] بعد عنها الجان * ! فقال ياعفيراء : أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك إنها رؤيا منـام ، ليست بأضغاث أحلام ، قال الملك : أصبت يا عفيراء ! فما تلك

---

(١) انظر ص ١٩٣ من الجزء الثانى (٢) كل ماوضعنا ازاءه هذه النجمة وأضربنا عن تفسيره فهو مشروح فى الأصل (٣) لفحه : أحرقه والهجير : نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو من عند زوالها الى العصر لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا . والهجير : شدة الحر (٤) الجفنة : القصعة (٥) القديد : اللحم المشرر المقطع . والحيس : تمر وأقط وسمن . أنظر الجزء الأول ص ٣٨٤ (٦) المعضلة : الشديدة

الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصير زوابع * ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع * : يقفوها نهر متدافع ، وسمعت فيما أنت سامع ، دعاء ذى جَرْس * صادع ، هلموا إلى المشارع * فروى جارع * ، وغرق كارع * فقال الملك : أجل هذه رؤياى فما تأويلها ياعفيراء ؟ قالت : الأعاصير الزوابع : ملوك تبابع * والنهر : علم واسع ، والداعى : نبى شافع ، والجارع ولى تابع ، والكارع : عدو منازع ، فقال الملك : ياعفيراء أسلم هذا النبى أم حرب ؟ فقالت : أقسم برافع السماء ومنزل الماء من العماء * ، إنه لمطِلّ الدماء ، ومنطق العقائل نطقَ الإماء * ، فقال الملك : إلامَ يدعو ياعفيراء ؟ قالت إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام ، واجتناب آثام ، فقال الملك : ياعفيراء إذا ذبح قومه فمن أعضاده * ؟ قالت : أعضاده غطاريف * يمانون ، طائرهم به ميمون ، يغزيهم فيغزون ، ويدمث بهم الحزون ، وإلى نصره يعتزون ، فأطرق الملك يؤامر نفسه فى خطبتها ، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك إن تابعى غَيُور ، ولأمرى صَبُور . وناكحى مثبور . والكاف بى ثبور ، فنهض الملك وجال ، فى صهوة جواده وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كوماء !

* * *

« قال محمد بن ظفر » أوغل فى طلب الصيد : أى بالغ فى ذلك وأمعن ، والوغول الدخول فى الشىء بقوة . وذرى جبل : بفتح الذال المعجمة الكنّ ، والمدعدعة : هى التى ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص مافيها ثم ملئت بعد ذلك والعلبة بضم العين المهملة وإسكان اللام إناء من جلد والأرواح : هى الرياح وصريفاً : اللبن المحض يحدث آن الحلاب يصرف عن الضرع إلى الشارب . وضريباً : اللبن الرائب . وبعد عنها الجان : أى جنبوا عنها ولم يطيقوها . وأعاصير زوابع : هى من الرياح مايثير التراب فيعليه فى الجو ويديره . وساطع

بهْماً لهنّ ، فلما خالطَتْ عيني السِنَةُ أقبلن حتى جلسن قريباً مني ، وفي كف كل واحدة حصيات تقلّبهن ، فخطّتْ إحداهن ثم طرقت فقالت : قلن يابنات عرّاف في صاحبِ الجمل النِّياف[1] والبُرْد الكُثاف[2] والجِرْم الخفاف[3] ثم طرقت الثانية فقالت : مُضِلُّ أذوادٍ علاكد[4] ، كُومٍ صَلاخِد[5] ، منهن ثلاث مقاحد[6] وأربع جَدائد[7] شُسُفٌ صَمارِد[8] ، ثم طرقت الثالثة فقالت : رعَيْنَ الفَرْع[9] ثم هبطن الكَرَع[10] ، بين العَقِدات والجَرَع[11] ، فقالت الرابعة : ليهبِط الغائِطَ الأفيح[12] ثم ليظهرْ في الملأ الصَّحْصَح[13] ، بين سَدير وأملَح[14] ، فهناك الذَّوْدُ رِتاع ، بِمُنْعَرَج الأجْراع ، قال : فقمت إلى جملي ، فشددت عليه رحله ، وركبت ، ووالله ما سألتهنّ مَنْ هُنّ ولا ممن هن ؟ فلما أدبرت قالت إحداهن أبرح[15] فتى إنْ جَدَّ في طلب . فماله غيرهن نَشَب[16] ، وسيثوب عن كثب[17] ، ففزّع قلبي — والله — قولُها ! فقلت : وكيف هذا وقد خَلَّفْتُ بوادي عُرْجاً عُكامِساً ؟[18] فركبت السمت الذي وصفن لي حتى انتهيت إلى الموضع ، فإذا ذوْدي رواتع ، فضربت أعجازهن حتى أشرفت على الوادي الذي فيه إبلي فإذا الرعاء تدعو بالويل ، فقلت : ماشأنكم ؟ قالوا : أغارت بهْراء على إبلك فأسْحَفَتْها[19] ، فأمسيت

---

(١) العالي (٢) أى الكثيف (٣) الجرم : الجسد . والخفاف : الخفيف (٤) صلاب والواحد علكد (٥) الكوم : العظام الأسنمة ، والصلاخد : العظام الشداد واحدها صلاخد بالضم وفيه لغات يقال بعير صلاخد وصلخدى وناقة صلخداة . (٦) جمع مقحاد وهى الغليظة السنام والقحدة السنام ويقال أصل السنام (٧) جمع جدود وهى التى انقطع لبنها (٨) شسف : جمع شاسف وهو اليابس ضمرا وهزالا . والصمارد جمع صمرد ، والصمرد والبكيئة والدهين القليلة اللبن (٩) جمع فرعة وهى أعلى الجبل (١٠) هو ماء السماء ينزل فيستنقع وسمى كرعا لأن الماشية تكرع فيه (١١) العقدة : ماتعقد من الرمل . والجرع : جمع جرعة وهى الرملة الطيبة المنبت لاوعوثة فيها ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، أو الدعص لاينبت كالأجرع (١٢) الغائط : المطمئن من الأرض ، والأفيح : الواسع (١٣) الملأ : الفضاء والصحصح : الصحراء (١٤) موضعان (١٥) أشد (١٦) هو المال الأصيل من الناطق والصامت (١٧) أى قرب (١٨) العرج : نحو خمسمائة من الابل ، والعكابس والعكامس جميعا الكثير (١٩) استأصلتها

أى مرتفع . ودعاء ذى جَرْس صادع : الجرس الصوت . والمشارع : الداخل إلى النهر وجارع : أى من شرب جرعا أمن . وكارع : أى من أمعن غرق . وتبابع جمع تبَّع ، وهذا لقب لملوك اليمن وهو من الأتباع لأن بعضهم كان يتبع فى الملك بعضاً . والعماء : هو الغيم والغمام . ومنطق العقائل : هن الكرائم من النساء أى يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن كالإماء المهنة والخدمة . والأعضاد : الأنصار . والغطاريف : السادة . والتغطرف التكبر . ويدمث : أى يسهل . ويؤامر نفسه : يراد به تعاضد الرأيين المتضادّين فى النفس . وجال فى صهوة جواده : جال أى وثب ، والصهوة · مقعد الفارس من ظهر فرسه ، والكوماء : الناقة العظيمة السنام . ومنهم :

سواد بن قارب الدوسى

روى أبو بكر بن دريد قال : حدثنى عمى الحسين عن أبيه ابن الكلبى عن الذّيَّال بن نَفْر عن الطِّرِمَّاح بن حَكيم قال : خرج خمسة نفر من طيئ من ذوى الحجا والرأى منهم بُرْج بن مُسْهِر وهو أحد المعمَّرين ، وأُنَيف بن حارثة ابن لأم ، وعبد الله بن سعد بن الحشْرَج أبو حاتم طيئ ، وعارق الشاعر ، ومُرَّة ابن عبد رضى ، يريدون (سواد بن قارب الدّوْسىّ) ليختبروا علمه ، فلما قربوا من السَّرَاة قالوا : ليخبأ كل واحد منا خبيئاً ولا يخبر به صاحبه لنسأله عنه ، فإن أصاب عرفنا علمه ، وإن أخطأ ارتحلنا عنه ، فخبأ كل واحد منهم خبيئاً ، ثم صاروا إليه فأهدوا إليه إبلاً وطُرفاً من طرَف (الحيرة) فضرب عليهم قبة ونحر لهم ، فلما مضت ثلاث دعا بهم فدخلوا عليه ، فتكلم بُرْجٌ ، وكان أسنَّهُم ، فقال : جادك السحاب ؛ وأمْرَعَ لك الجَناب[1] ، وضَفَتْ عليك النعم الرِّغاب[2] ،

---

(١) أمرع : أخصب ، والجناب : ماحول الدار (٢) الضافى : السابغ الكثير . يقال : خير فلان ضاف على قومه أى سابغ عليهم . والرغاب : الواسعةالكثيرة

نحن أولو الآكال[١] ، والحدائق والأغيال[٢] ، والنَّعَم الجُفال[٣] ، ونحن أصهار الأملاك ، وفُرْسان العِراك ، يُوَرِّى عنهم أنهم من بكر بن وائل ، فقال سَوَادٌ . والسماء والأرض ، والغَمْر والبرْض[٤] ، والقَرْض والفرض[٥] ، إنكم لأَهْلُ الهضاب الشُّمّ[٦] ، والنخيل العُمّ[٧] ، والصخور الصمّ ، من أجأ العَيْطاء ، وسلمى ذات الرّقبة السَّطْعاء[٨] ، قالوا إنا كذلك وقد خبأ لك كل رجل منا خبيئاً لتخبرنا باسمه وخبيئه فقال لبرج : أقسم بالضياء والحَلَك[٩] ، والنجوم والفلَك ، والشروق والدَّلَك[١٠] ، لقد خبئت بُرْثُنَ فَرْخ[١١] فى أعليط مَرْخ[١٢] تحت آسرة الشَّرْخ[١٣] ! فقال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : برج بن مُسْهر عُصْرَة المُمْعر[١٤] وثمال المُحَجَّر[١٥] ، ثم قام أُنَيْف بن حارثة فقال : ماخبيئى وما اسمى ؟ فقال : والسحاب والتراب ، والأصباب والأحداب[١٦] ، والنعم الـكُثاب[١٧] ، لقد خبأت قُطَامَةَ فَسِيط[١٨] ، وقُذَّة مَرِيط[١٩] ، فى مدرَةٍ من مَدِىّ مَطِيط[٢٠] ، قال ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال : أنيف ، قارى الضيف

---

(١) يقال : فلان ذو أكل (بضم الهمزة وسكون الكاف) أى ذو حظ ورزق فى الدنيا والجمع آكال (٢) جمع غيل وهو الماء الجارى على وجه الارض (٣) الكثيرة وهذا الجمع قليل جدا لم يأت منه الا أحرف مثل رباب جمع ربى وهى الحديثة النتاج ، وفرار جمع فرير وهو ولد البقرة ، ونعم كثاب وهى الكثيرة ، وبراء جمع برىء (٤) الغمر : الماء الكثير ، والبرض : الماء القليل وجمعه براض (٥) القرض : الدين ، والفرض الهبة (٦) الهضاب : جمع هضبة وهى الجبل المنبسط على وجه الأرض ، والشم ، الطوال (٧) الطوال أيضا (٨) أجأوسلمى : جبلا طيىء ، والعيطاء : الطويلة وكذلك السطعاء (٩) الظلام (١٠) هو اصفرار الشمس عند المغيب . وفى اللسان : الدلك وقت الدلوك الذى هو اصفرار الشمس (١١) البرثن : ظفر كل مالا يصيد من السباع والطير مثل الحمام والضب والفأرة فاذا كان مما يصيد قيل لظفره مخلب (١٢) المرخ : شجر تقدح منه النار ، والاعليط : وعاء ثمر المرخ والعرب تشبه به آذان الخيل (١٣) الآسرة : القد الذى يشد به خشب الرحل ، وشرخا الرحل : جانباه (١٤) العصرة : المنجاة ، والممعر : الذى ذهب ماله (١٥) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه ، والمحجر : الملجأ المضيق عليه (١٦) الأصباب جمع صبب وهو ما انخفض من الارض ، والأحداب : جمع حدب وهو ما علا (١٧) الكثيرة (١٨) القطامة : ماقطمته بفيك ، والفسيط : قلامة الظفر (١٩) القذة : الريشة . والمريط : من السهام الذى قد تمرط ريشه أى نتف (٢٠) المدرة : قطعة طين يابسة . والمدى : جديول يجرى=

ومُعمِل السيف ، وخالط الشتاء بالصيف « ثم قام عبد الله بن سعد فقال : ما خبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد . أُقسِمُ بالسَّوام العازب[1] ، والوقير الكارِب[2] ، والمُجِدِّ الراكب ، والمشيح الحارب[3] ، لقد خبأت نُفَاثة فنَن[4] ، فى قطيع قد مَرَن[5] ، أو أديم قد جرَن ، قال . ما أخطأت حرفاً فمن أنا ؟ قال . أنت ابن سعد النوال ، عطاؤك سِجال[6] ، وشرك عُضال[7] ، وعمَدك طوال ، و بيتك لا ينال ، ثم قام عارق . فقال . ماخبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد . أُقسم بنفنف اللُّوح[8] ، والماء المَسفوح[9] ، والفضاء المندوح[10] ، لقد خبأت رقعة طلاً أعفر[11] ، فى زِعنفةِ أديم أحمر[12] ، تحت حِلس نضْوٍ أدبر[13] ، قال ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال . أنت عارق ذو اللسان العضْب[14] ، والقلب النَّدْب[15] ، والمضّاء الغَرْب[16] ، منّاع السَّرْب[17] ، ومبيح النَّهْب ، ثم قام مرة بن عبد رُضى فقال . ما خبيئى ، وما اسمى ؟ فقال . سَوَاد . أُقسم بالأرض والسماء ، والبرُوج والأنواء ، والظلمة والضياء ، لقد خبأت دِمَّةً فى رِمّه[18] ، تحت مُشيط لِمَّه[19] ، قال . ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال : أنت مره ، السريع الكرّه ، البطىء الفرّه ، الشديد المِرّه[20] ، قالوا . فأخبرنا بما رأينا فى طريقنا إليك ، قال . والناظر

= منه ماسال مماهرق من الحوض . كذا قال الأصمعى وانشد « وعن مطيطات المدى المدعوق » . والمطيط : الماء الخاثر فى أسفل الحوض والمدعوق : الذى قد أكثر فيه الوطء (١) السوام : المال الراعى من الابل . والعازب : البعيد (٢) الوقير : الغنم التى بالسواد ، والكارب : القريب (٣) المشيح : الجاد فى لغة هذيل . وفى غيرها الحاذر (٤) النفاثة : ما تنفثه من فيك . والفنن : واحد أفنان الأشجار وهى أغصانها (٥) القطيع : الطائفة من الغنم والنعم ، ومرن وجرن : لان فى صلابة (٦) كثير ، يقال أسجله أى أكثر له من العطاء وأعطاه سجله من كذا أى نصيبه (٧) شديد (٨) النفنف واللوح واحد وهما الهواء وانما أضاف لما اختلف اللفظان فكأنه أضاف الشىء الى غيره (٩) المصبوب (١٠) الواسع (١١) الطلا : ولد الظبى ساعة يولد ، والاعفر : الذى تعلو بياضه حمرة (١٢) الزعنفة : القطعة من الثوب ، وطرف الأديم (١٣) الحلس للبعير بمنزلة القرطاط للحافر وهو البرذعة . والنضو : المهزول من الابل وغيرها (١٤) أى الحديد الكلام (١٥) الذكى (١٦) الحد (١٧) بالفتح الماشية كلها وبالكسر القطيع من الظباء والنساء وغيرها (١٨) الدمة : القملة . والرمة : العظام البالية (١٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن (٢٠) القوة .

من حيث لايُرَى ، والسامع قبل أن يُناجى ، والعالم بما لايُدْرى ، لقد عنَّتْ لكم عُقاب عَجزاء [١] ، فى شغَانيب دَوْحَةٍ جرداء [٢] ، تحمل جِدْلا [٣] ، فماريتم [٤] إمَّا يداً وإما رجلاً ، فقالوا : كذلك ، ثم مَهْ ؟ قال سنحَ [٥] لكم قبل طلوع الشرق [٦] ، سِيدٌ أمَقّ [٧] ، على ماء طرق [٨] ، قالوا : ثم ماذا ؟ قال : تَيْسٌ أفْرَق [٩] ، سَنَدَ فى أبرَق [١٠] ، فرماه الغلام الأزرق ، فأصاب بين الوابلة [١١] والمرفَق ، قالوا : صدقت وأنت أعلم من تحمل الأرض ! ثم ارتحلوا عنه ، فقال عارق :

ألا لله عِلْمٌ لا يجارى ... إلى الغايات فى جَنْبَىْ سَوَاد

أتيناه نُسائله امتحانا ... ونحسب أن سيعمد بالعناد

فأبدى عن خفى مخبآتٍ ... فأضحى سِرُّها للناس بادى

حُسَام لا يليقُ ولا يثأنى ... عن القَصْدِ الميمم والسَّداد [١٢]

كأن خبيئنا لما انتجينا ... بعينَيْهِ يصرِّح أو ينادى

فأقسم بالعتائر حيث فَلْسٌ ... ومن نسك الأقيصرِ مِلْعباد [١٣]

لقد حُزْتَ الكهانة عن (سطيح) ... و (شقٍّ) و (المُرقِّلِ) من إياد

سبب إسلام سواد بن قارب ، وقصته البديعة

كان سواد بن قارب من أعلم أهل وقته ، وأشهرهم فى الكهانة والشعر ، وأطولهم باعاً فى جميع المكارم . وقد وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلم

---

(١) هى التى ابيض ذنبها وقيل : التى كبرت عجيزتها (٢) الشغانيب : ما تداخل من الأغصان . والدوحة : الشجرة العظيمة (٣) عضوا (٤) تجادلتم (٥) عرض (٦) الشمس (٧) السيد : الذئب والامق : الطويل (٨) بولت فيه الابل (٩) هو البعيد مابين قرنيه (١٠) سند : صعد ، والابرق : غلظ من الارض فيه حجارة ورمل وجبل ابرق اذا كان فيه لونان (١١) رأس العضد الذى يلى المنكب (١٢) يليق : يمسك . قال الاصمعى للرشيد : ما ألاقتنى أرض حتى خرجت اليك يا أمير المؤمنين . أى ما أمسكتنى . ويثأنى : يحبس . والميمم : المقصود (١٣) العتائر : جمع عتيرة وهو ذبح كان يذبح للأصنام فى الجاهلية . وفلس : صنم . والاقيصر : صنم أيضا . وملعباد من العباد

وكان رئيّه قد أتاه ثلاث ليال فى حال سِنتِه يضرب برجله ، ويقول : قم ياسواد ابن قارب ، واعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث نبى من لؤى بن غالب . وقد أورد قصته هذه مفصلة جمع من الثقات منهم الإمام الماوردى فى كتابه (أعلام النبوة) قال بسنده : بينما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ذات يوم جالساً إذ مَرَّ به رجل فقيل له : أتعرف هذا المار ياأمير المؤمنين ؟ قال : ومَنْ هو ؟ قالوا : هذا سواد ابن قارب رجل من أهل اليمن ، وكان له رئىّ من الجن ، فأرسل إليه عمر فقال : أنت سواد بن قارب ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين ، فقال : أنت الذى أتاك رئيك بظهور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذْ أتانى رئيى من الجن فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد ابن قارب فاسمع مقالى ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤىّ ابن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته ، وأنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتطلابها ... وشدّها العيس[1] بأقتابها
تهوى إلى مكةَ تبغى الهدى ... ما صادقُ الجنِّ كَكذَّابها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشمٍ ... ليس قُداماها كأذنابها

فقلت له : دعنى فإنى أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قال رأساً ؛ فلما كانت الليلة الثانية أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته ، وأنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتخبارها ... وشدِّها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكةَ تبغى الهدَى ... مامؤمنو الجنّ كَكفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين روابيها وأحجارها

فقلت : دعنى فقد أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قال رأساً ؛ فلما كانت الليلة

---

(١) العيس : الابل البيض

الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسولٌ من لؤى بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته وأنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتجسـاسها وشدها العيس بأحلاسها[1]
تهوى إلى مكةَ تبغى الُهدَى ما خـيّرو الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصّفوة من هاشمٍ واسْمُ بعَينَيْك إلى رأسها

قال : فأصبحت وقد امتحن الله قلبى للإسلام ، فرحلت ناقتى ، وأتيت المدينة ، فإذا رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم وأصحابه ، فقلت : اسمع مقـالى يارسول الله ! قال : هات ! فأنشأت :

أتانى رئيّى بعـد هَدْء ورقدةٍ ولم أكُ فيما قـد بلوت بكاذِب
ثلاث ليال قوله كلّ ليـلة أتاك رسولٌ من لؤىّ بن غالب
فشمرّت عن ذيلى الإِزَارو وسّطت بى الذِّعْلِبِ الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لاشىء غيره وأنك مأمـون على كل غائب
وأنك أدنى المرْسلين وسـيلةً الى الله يا ابنَ الأكرمين الأطايب
فمرنا بمـا يأتيك ياخير مرسل وإن كان فيما جئت شيب الذوائب
وكنْ لى شفيعاً يومَ لاذو شفاعةٍ بمُغْن فتيلاً عن سوَاد بن قارِب

(الرئى : الخادم من الجن ، والهـدء : السكون ، والذعلب بكسر الذال وسكون العين وكسر اللام : الناقة السريعة ، والوجناء : الشديدة ، والسباسب : جمع سبسبٍ ، المفازة) ففرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً حتى رؤى الفرح فى وجوههم ، قال : فوثب إليه عمر فالتزمه ، وقال : قـد كنت أحب أن أسمع منك هـذا الحديث ، فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ فقال مذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن . وتمـام الـكلام على أخباره فى الاستيعاب والإصابة . ومنهم :

---

(١) جمع حلس وهو كساء على ظهر البعير

فاطمة بنت مر الخثعمية

وهى كاهنة كانت بمكة ، ويحكى عنهـا أمور فى باب الـكهانة عجيبة ؛ ومن الأمثال الشائعة بين العرب « قد كانَ ذلكَ مَرَّةً فاليَوْمَ لاَ » قال الميدانى : أول من قال ذلك فاطمة بنت مر الخثعمية ، قال : وكانت قد قرأت الـكتب ، فأقبل عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب بن عبد منـاف بن زهرة بن كلاب ، فمرَّ على فاطمة ، وهى بمكة ، فرأت نور النبوّة فى وجه عبد الله فقالت له : من أنت يافتى ؟ قال أنا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، فقالت : هل لك أن تقع علىَّ وأعطيك مائة من الإبل ؛ فقال :

أما الحـــرام فالممات دونَه والحل لا حل فأستبينه
فـكيف بالأمر الذى تنوينه ؟

ومضى مع أبيـه فزوجه آمنة ، وظل عندها يومه وليلته ، فاشتملت بالنبىّ صلى الله تعـالى عليه وسلم ، ثم انصرف ، وقد دعته نفسه إلى الإبل فأتاها ، فلم ير منها حرصاً ، فقال لها : هل لك فيما قلت لى ؟ فقالت «قدكان ذلك مرةً فاليوم لا» فأرسلتها مثلاً يضرب فى الندم والإنابة بعد الاحترام ، ثم قالت له : أى شىء صنعت بعدى ؟ قال : زوجنى أبى آمنة بنت وهب ، فـكنت عندها . فقالت : رأيت فى وجهك نور النبوة ، فأردت أن يكون ذلك فىَّ فأبى الله تعـالى إلا أن يضعه حيث أحبه ، وقالت :

بنى هاشم قد غادرت من أخيكم أمينـــة إذ للبـاه يعتلجانِ
كما غادَرَ المصباح بعـد خبوِّهِ فتـــائل قد ميثت له بدهانِ
وما كلُّ ما نالَ الفتى من نصيبه بحزمٍ ، ولا ما فاته بِتَوَانِ
فأجملْ إذا طالبت أمراً فإنّه سيكفيكه جدَّانِ يَصْطَرِعانِ

وقالت أيضـ .

إنى رأيتُ مخيلةً نَشَأَتْ فتلألأَتْ بحنـاتم القطر

لله ما زهرية سلبت منك الذى استلبت وماتدرى

وقد أورد هذه القصة الإمام الماوردىّ أيضاً فى كتاب (أعلام النبوة) مع بعض الزيادة . قولها « بعد خبوه » أى طفئه . والمخيلة . السحابة التى هى مظنة المطر . قال فى الصحاح : وقد خالت السحاب وأخيلت وخايلت إذا كانت ترجى المطر وقد أخلت السحابة وأخيلتها إذا رأيتها مخيلة . والخناتم : سحائب سود لأن السواد عندهم خضرة ، والحنتم : الجرة الخضراء . وزهرية : منسوبة إلى زهرة حى من قريش ، وهو اسم امرأة كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر نسب ولده إليها ، وهم أخوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . . والكهان كثيرون يحتاج استيعابهم ، وماروى عنهم من الأخبار ، وما نطقوا به من السجع والرجز إلى سفر كبير[1] ؛ قال الأصفهانىّ عند الكلام على الكهانة: كان ذلك فى العرب كثيراً ، وآخر من وجد وروى عنه الأخبار العجيبةَ سطِيح وسَوَاد بن قارب ، قال : وكان وجود ذلك فى العرب أحد أسباب معجزات النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يخبر به ، ويحث على اتباعه .

العرافون

قال ابن خلدون فى مقدمته : العرافون — كان فى العرب منهم كثير ، وذكروهم فى أشعارهم ، قال قائلهم :

فقلتُ لعرّاف اليمامة داونى فإنّك إنْ داويتنى لَطبيبُ

وقال الآخر .

جعلتُ لعرّافِ اليمامة حكمه وعرّاف نجدٍ إن هما شفيانى

فقالا . شفاك الله ! والله مالنا بماحملت منك الضلوع يدانِ[2]

---

(١) قلت : وقد الف الخرائطى كتابا فى هذا الباب حافلا ، ومنه — على مابلغنى — نسخة فى مكتبة الظاهر فى دمشق . (٢) أنظر ص ٤

وعراف اليمامة . هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد . الأبلق الأسدى انتهى .
وبعض العرب يسمى الكاهن عرافاً أيضاً ، وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطبيب أيضاً ، قال الخطابى فى شرح سنن أبى داود : الكاهن هو الذى يدعى مطالعة علم الغيب . ويخبر الناس عن الكوائن ، وكان فى العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور . فنهم من كان يزعم أن له رئيًّا من الجن وتابعه يلقى إليه الأخبار ، ومنهم من كان يدعى أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيه ، قال : وكان منهم من يسمى عرافاً ، وهو الذى يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها . كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة ، وتتهم المرأة بالريبة فيعرف من صاحبها ، ونحو ذلك من الأمور . ومنهم من كان يسمى المنجم كاهناً ، والحديث قد يشتمل على النهى عن إتيان هؤلاء كلهم ، والرجوع إلى قولهم ، وتصديقهم على ما يدعونه من هذه الأمور ، ومنهم من كان يدعو الطبيب كاهناً ، وربما دعوه عرافاً . قال أبو ذؤيب :

يقولون لى : لو كان بالرمل لم يمتْ نشيبة ، والكهان يكذب قيلها

وقال آخر : جعلت لعراف اليمامة البيت . وهذا غير داخل فى جملة النهى وإنما هو مغالطة فى الأسماء . وقد أثبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الطب ، وأباح العلاج والتداوى . ومن علومهم :

علم الزجر والعيافة

وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات ، وحركاتها ، وسائر أحوالها ، على الحوادث ، واستعلام ماغاب عنهم . وقال ابن خلدون : وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه بعد مغيبه ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع ، وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها فى البحث ، مستعيناً بما رآه أوسمعه

فيؤديه ذلك إلى إدراكٍ مّا كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم ، وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس والمرئى فى يقظة فتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا انتهى وقد كان العرب أعلم الناس بهذا العلم ، وهومدار أفعالهم ، وقانون حركاتهم وسكناتهم؛ وقد روى عنهم فى هذا الباب ، روايات تحير ذوى الألباب ، قال ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة[1] : يروى فى حرب بنى تغلب أن تيم اللات أرسل بنيه فى طلب مال له ، فلما أمسى سمع صوت الريح فقال لامرأته : انظرى من أين نشأت السحاب ، ومن أين نشأت الريح ؟ فأخبرته بالواقع ، فقال : والله إنى لأرى ريحاً تدهده الصخر ، وتمحق الأثر ، فلما دخل عليه بنوه قال لهم : ما لقيتم ؟ قالوا : سرنا من عندك فلما بلغنا دعص الشعثمين إذا بعفر جاثمات على دعص من رمل ، فقال : فما ريحكم . ناطح أم دابر أم بارح أم سانح ؟ قالوا : ناطح ، فقال يخاطب نفسه : ياتيم اللات دعص الشعثمين والشعثم الشيخ الكبير وأنت شعثم بنى بكر وجواثم بدعص وريح نطحت فبرحت ، قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم رأينا ذئباً قد دلع لسانه من فيه وهو يحرن وشعره عليه فقال : ذلك حران ثائر ذو لسان عذول حامى الظهر همه سفك الدماء وهو أرقم الأراقم يعنى مهلهلا ، قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم رأينـا ريحا وسحاباً ، قال فهل مطرتم ؟ قالوا : بلى ! قال : ببرق ؟ قالوا : قد كان ذلك ، فقال أماء سائل ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ذلك دم سائل ومرهفات . قال : ثم مه ؟ قالوا ثم طلعنا قلعة صنعاء ثم تصوبنا من تل فاران ، قال : فكنتم سواء أو مترادفين ؟ قالوا : بل سواء ، قال : فما سماؤكم ؟ قالوا : جناء . قال : فما ريحكم ؟ قالوا : ناطح ، قال فما فعل الجيش الذين لقيتموهم ؟ قالوا نجونا منه هربا وجدّ القوم فى أثرنا قال : ثم مه ؟ قالوا : ثم رأينا عقاباً منقضة على عقاب فتشابكا وهويا إلى الارض ، قال : ذاك جمع رام جمعاً فهو لاقيه . قال : ثم مه ؟ قالوا : رأينا سبعاً على سبع ينهشه وبه بقيـة لم يمت . فقال : ذرونى أما والله إنها لقبيلة مصروعة

---

(١) — ج ٢ ص ٢٥١

مأ كولة من بنى وائل بعد عز وامتناع

وذكروا أن تيم اللات ، هـذا مر يوماً بجمل أجرب ، وعليه ثلاث غرابيب فقال لبنيه : ستقفون على مقتول! فكان كما قال وقتل عن قريب ، وكذلك قول علقمة فى مسيره مع أصحابه ، وقد مروا فى الليل بشبـح فقال : لقيتم شيخاً كبيراً فانياً يغالب الدهر والدهر يغالبه يخبركم أنـكم ستلقون قوماً فيهم ضعف ووهن ، ثم لقى سبعاً فقال : دلاج لايغلب ؛ ثم رأى غراباً ينفض بجؤجؤه فقال : أبشروا ألا ترون أنه يخـبركم أنْ قد اطمأنت بكم الدار ؟ فـكان الأمر كذلك . وذكر المدائنى قال : خرج رجل من لِهب ، ولهم عيافة ، فى حاجة ومعه سقاء من لبن فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرب فإذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم فى الثالثة نعب الغراب وتمرغ فى التراب فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخم ، ثم مضى فإذا غراب على سدرة فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى إليه فإذا تحت الشجرة كنز ! فلما رجع إلى أبيه قال له : ماصنعت ؟ قال : سرت صـدر يومى ، ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال . أثرْهُ وإلا فلست بابنى ، قال . أثرته ، ثم أنخته لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال أثره وإلا فلست بابنى ! قال : أثرته ، ثم أنخته لأشرب فنعب الغراب وتمرغ فى التراب ، قال : اضرب السقاء وإلا فلست بابنى قال : فعلت فإذا أسود ضخم ، قال : ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غرابا واقعاً على سدرة قال : أطره وإلا فلست بابنى ، قال : أطرته ثم وقع على سلمة ، قال : أطره وإلا فلست بابنى ، قال أطرته فوقع على صخرة ، قال : أخبرنى بما وجدت فأخبره . . وذكر أيضا أن أعرابياً أضل له ذوداً وخادماً فخرج فى طلبهما حتى إذا اشتدت عليه الشمس وحمى النهار مرّ برجل يحلب ناقة قال : أظنه من بنى أسد فسأله عن ضالته ، قال: اُدْنُ فاشرب من اللبن وأدلك على ضالتك قال . فشرب ، ثم قال . ماسمعت حين خرجت ؟ قال . بكاء الصبيان ،

ونباح الكلاب ، وصراخ الديكة ، وثغاء الشاء ، قال : ينهاك عن الغُدُوّ ، ثم مه ؟ قال ثم ارتفع النهار فعرض له ذئب ، قال . كسوب ذو ظفر ، ثم مه ؟ قال . ثم عرضت لى نعامة ، قال ذات ريش واسمها حسن ، هل تركت فى أهلك مريضاً يعاد ؟ قال . نعم ! قال . ارجعْ إلى أهلك فذودك وخادمك عندهم فرجع فوجدهم . .

وذكر أبو خالد التيمى قال . كنت آخذ الإبل بضمان فأرعاها فى ظهر البصرة فطردت فخرجت أقفوا أثرها حتى انتهيت إلى القادسية . فاختلطت علىَّ الآثار ، فقلت . لو دخلت الكوفة فتحسست منها ، فأتيت الكناسة فإذا الناس مجتمعون على عراف اليمامة فوقفت ، ثم قلت له . حاجتى ! فقال .

بعيدة أشطان الهوى جمعُ مثلِها على العاجز الباغى الغنى ذو تكائف

ولترجعن ! قال . فوجدتها فى الشام مع ابن عم لى فصالحت أصحابها عنها . .

وقال المدائنى . كان بالسواد زاجر يقال له مهر فأخبر به بعض العمال فجعل يكذب زجره ، ثم أرسل إليه ، فلما أتاه قال . إنّى قد بعثت بغنم إلى مكان كذا وكذا فانظر هل وصلت أم لم تصل ؟ وقد عرف العامل قبل ذلك أن بينهما وبين الكلأ مرحلةً ، فقال لغلامه : اخرج فانظر أى شىء تسمع ؟ قال . وكان العامل قد أمر غلامه أن يكمن فى ناحية ويصيح صياح ابن آوى ، فخرج غلام الزاجر ليسمع فصاح غلام العامل فرجع إلى الزاجر غلامه وأخبره بما سمع ، فقال للعامل . قد ذهبت عنك وقطع عليها الطريق فاستيقت . قال . فضحك العامل ! وقال . قد جاءنى خبرها أنها وصلت والصائح الذى صاح غلامى ! قال . إنْ كان الصائح الذى صاح ابن آوى فقد ذهبت الغنم ، وإن كان كلامك فقد ذهب الراعى أيضا ! قال : فبلغه بعد ذلك ذهاب الغنم وقتل الراعى .. وذكر العكلى أنه خرج فى تسعة نفر هو عاشرهم ليصيبوا الطريق فرأى غرابا واقعاً فوق بانة . فقال . ياقوم إنكم تصابون فى سفركم هذا فازدجروا وأطيعونى وارجعوا ! فأبوا عليه فأخذ قوسه وانصرف ، وقتلت التسعة ، وأنشأ يقول :

رأيتُ غراباً واقعاً فوق بانةٍ ينشنش أعلى ريشِهِ ويطايره
فقلت. غُرابٌ فاعترابٌ من النَّوَى وبانٌ فبين من حبيبٍ يجاوره
فما أعيفَ العكليّ لادرّ دَرُّه ! وأزْجَرَهُ للطير لاعزّ ناصره

وذكر عن كُثيِّر عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزّة بها ، فلقيه أعرابى من نهد فقال . أين تريد ؟ قال . أريد عزة بمصر ، قال مارأيتَ فى وجهك ؛ قال : رأيت غراباًساقطاً فوق بانة ينتف ريشه ، فقال · ماتت عزة ! فانتهى ومضى فوافى مصر والناس منصرفون من جنازتها ، فأنشأ يقول ·

فأما غرابٌ فاغـتراب وغربة وبانٌ فبين من حبيبٍ تعاشرُهْ

وذكر عنه أيضاً أنه هوى امرأة من قومه بعد عزة يقال لها (أم الحويرث) وكانت فائقة الجمال ، كثيرة المال ، فقالت له · اخرج فأصب مالاً فأتزوجـك ! فخرج إلى اليمن وكان عليها رجل من بنى مخزوم ، فلما كان ببعض الطريق عرض له قَوْطٌ (وهو الجماعة من الظباء) فمضى ، ثم عرض له غراب ينعب ويفحص التراب على رأسه ، فأتى كثير حيا من الأزد ، ثم من بنى لِهبٍ ، وهو من أزجر العرب ، وفيهم شيخ قد سقط حاجباه على عينيه ، فقص عليه ماعرض له فقال · إن كنت صادقا لقد ماتت هذه المرأة أو تزوجت رجلا من بنى كعب ! فاغتم كثير لذلك وسقى بطنه ! فكان ذلك سبب موته ، وقال فى ذلك :

تَيمَّمْتُ لِهباً أبتغى العلمَ عندهم وقد ردَّ علم العائفينَ إلى لِهْبِ[1]
فيممتُ شيخاً منهمُ ذو أمانة بصيراً بزجر الطير منحنىَ الصلب
فقلت له : ماذا ترَى فى سوانح وصوت غراب يفحص الأرض بالترب ؟
فقال : جرَى الطيرُ السنيحُ بِبَيْنِها ونادى غرابٌ بالفراق وبالسلب !
فان لاتـكنْ ماتت فقد حال دونها سواكَ حليلٌ باطن من بنى كعْب !

وقال رجل من بنى أسد . تزوجت ابنة عم لى فخرجت أريدها ، فلقينى شىء

(١) تيممت : قصدت . ولهب : قبيلة من الأزد فى اليمن وهم أعيف العرب

كالكلب مندلع لسانه فى شق ، فقلت : أخفت وربِّ الكعبة ! فأتيت القوم فلم أصل إليها ، وناقرنى أهلها ، فخرجت عنهم ، فمكثت ثلاثة أيام ، ثم بدا لى فخرجت نحوهم ، فلقيت كلبة تنطف أطباؤها لبنا ، فقلت : أدركت وربّ الكعبة ، فدخلت بأهلى وحملت منى بغلام ، ثم بآخر حتى ولدت أولاداً كثيرين وما رواه الثقات من الحكايات فى هذا الباب لايقوم بها مثل هذا الكتاب من المختصرات .

كيفية الزجر عند العرب

قال ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة عند الكلام على أصحاب الطير السانح والبارح والقعيد والناطح . وأصل هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها ، فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحاً ، وماتياسر منها سموه بارحاً ، وما استقبلهم منها فهو الناطح ، وماجاءهم من خلفهم فهو القعيد فمن العرب من يتشاءم بالبارح لأنه لايمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه ، ويتبرك بالسانح ؛ ومنهم من يرى خلاف ذلك . قال المدائنى . سألت رؤبة ابن العجاج ، ما السانح ؟ قال ، ماولاك ميامنه ، قال : قلت : فما البارح ؟ قال : ماولاك مياسره قال : والذى يجىء من قدامك فهو الناطح والنطيح ، والذى يجىء من خلفك فهو القاعد والقعيد ، ونقل عن المفضل الضبى أن البارح مايأتيك من اليمين يريد يسارك ، والسانح مايأتيك عن اليسار فيمر على اليمين ، وإنما اختلفوا فى مراتبها ومذاهبها ، لأنها خواطر وحدوس وتخمينات لا أصل لها ، فمن تبرك بشىء مدحه ، ومن تشاءم به ذمه[1] .. وقد ذكرنا سابقاً عند الكلام على تشاؤم العرب بالطيور أن أهل نجد تتيمن بالسانح وتتشاءم بالبارح ، وأهل العالية على عكس هذا ، وفى النهاية لابن الأثير : الزجر للطير هو التيمن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح ، وهو نوع من الكهانة والعيافة . وأقول .

---

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٢٤٢

إنه قسيم للكهانة لا نوع منها ، وظاهر كلامه يوهم أنها والعيافة مترادفان ، وهو أيضاً لا يسلم له وليس شيء من الطير إلا وهو يزجر إلا الرخم . قال الكميت يهجو رجلا :

أنشأت تنطق فى الأمو ر كواغد الرخم الدوائر
إذ قيل : يا رَخَم انطقى فى الطير إنك شر طائر
فأتت بما هى أهله والعى من شلل المحاور

وفى المثل « إنطقى يا رَخَم إنك من طير الله » يقال : إن أصله أن الطير صاحت فصاحت الرخم ، فقيل لها يهزأ بها : إنك من طير الله فانطقى ، يضرب للرجل لا يلتفت إليه ولا يسمع منه . والرخمة طائر أبقع يشبه النسر فى الخلقة يقال له الأنوق والجمع رخم وهو للجنس .

من اشتهر من العرب بالزجر والعيافة

قد كان فى العرب جماعة يعرفون بذلك كعراف اليمامة ، والأبلق الأسدى والأحلج ، وعروة بن يزيد ، وغيرهم ممن لا يحصى عدداً ، فكانوا يحكمون بذلك ويعملون به ويتقدمون ويتأخرون فى جميع ما ينقلبون فيه ، ويتصرفون فى حال الأمن والخوف والسعة والضيق والحرب والسلم ، فإن نجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه وداموا عليه ، وأن عطبوا فيه تركوه وذموه ، ومن اشتهر بإحسان الزجر عندهم ووجوهه حتى قصده الناس بالسؤال عن حوادثهم ، وما أملوه من أعمالهم سموه عائفاً وعرافاً كما سموه زاجراً ، وإنى ذاكر بحول الله تعالى فى هذا المقام شيئاً من أخبار بعض من وقفت على ترجمته منهم على طريق الاختصار . منهم :

حسل بن عامر [1] بن عميرة الهمدانى

ومن حديثه أن عامراً بعث ابنيه الحسل وعاجنة إلى تجارة ، فلقى الحسل قوم من بنى أسد فأخذوا ماله وأسروه ، وسار عاجنة أياماً ثم وقع على مال فى

(١) فرائد اللآل : « حاتم بن عميرة ... » .

طريقه من قبل أن يبلغ موضع متجره فأخذه ورجع ، وقال ذلك :

كفانى الله بعد السير ، إنى رأيت الخير فى السفر القريب
رأيت البعد فيه شقى ونأىٌ ووحشة كل منفرد غريب
فأسرعت الإياب بخير حالٍ إلى حوراء خرعبة لَعُوب
وإنى ليس يثنينى إذا ما رحلتُ سنوحُ سحَّاجٍ نَعُوب

(قال فى الصحاح : الحور شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وامرأة حوراء بينة الحور ، وجارية خرعبة وخرعوبة أى دقيقة العظام ناعمة ، وبعير سحاج : يسحج الأرض بخفه أى يقشر) .

فلما رجع تباشر به أهله ، وانتظروا الحسل ، فلما جاء إبانه الذى كان يجىء فيه ولم يرجع رابهم أمره ، وبعث أبوه أخاً له لم يكن من أمه يقال له شاكر فى طلبه والبحث عنه ، فلما دنا شاكر من الأرض التى بها الحسل وكان الحسل عائفاً يزجر الطير فقال :

تخبرنى بالنجاة القطاة وقول الغراب بها شاهد
يقول : ألا قد دنا نازحٌ فداء له الطَّرْفُ والتالدُ [1]
أخ لم تكن أُمنا أُمه ولكنْ أبونا أبٌ واحِدُ
تداركنى رأفة حاتم فَنِعْمَ المربُ والوالدُ

ثم إن شاكراً سأل عنه فأخبر بمكانه فاشتراه ممن أسره بأربعين بعيراً فلما رجع به قال له أبوه « إسْعَ بِجَدِّك لا بكدك » فذهبت مثلا . ومنهم .

أبو ذؤيب الهذلى الشاعر

ومن خبره ما حكى عنه أنه قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليل فاستشعرت حزناً ، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا يطلع

(١) الطرف : المال المستحدث والتالد : القديم

نورها ، فبت أقاسى طولها ، حتى إذا كان وقت السحر أغفيت فهتف بى هاتف وهو يقول :

خطبٌ أجلّ أناخ بالإسلام　　　بين النخيل ومقعد الآطام

قبض النبىّ (محمد) فعيوننا　　　تذرى الدموع عليه بالأسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبت من منامى فزعاً ، فنظرت إلى السماء ، فلم أر إلا سعد الذابح فأولته ذبحاً يقع فى العرب ، وعلمت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قبض أو هو ميت من علته ، فركبت ناقتى وسرت ، فلما أصبحت طلبت شيئاً أزجر به فعرض لى شيهم « وهو ذكر القنافذ » قد قبض على صلّ (يعنى حية) فهى تلتوى عليه ، والشيهم يقضمها حتى أكلها فزجرت ذلك وقلت شيهم شىء هم ، والتواء الصل تلوىُ الناسِ عن الحق على القائم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أوّلتُ أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الأمر ، فحثثت ناقتى حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر فأخبرنى بوفاته صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونعب غراب سانح فنطق بمثل ذلك ، فتعوذت بالله من شر ما عنّ لى فى طريقى ، فقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام فقلت : ما الخبر ؟ قالوا : قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجئت إلى المسجد فوجدته خالياً فأتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فوجدت بابه مرتجاً أى مغلقاً ، وقيل : هو مسجى وقد خلا به أهله ، فقلت أين الناس ؟ فقيل : فى سقفية بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار ، فجئت إلى السقفية فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وجماعة من قريش ، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة وفيهم شعراؤهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، فأويت إلى قريش ، وتكلمت الأنصار فأطالوا الخطاب ، وأطالوا الجواب ، وتكلم أبو بكر فلله دره من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب ، والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ومال إليه ، ثم

تكلم عمر رضى الله تعالى عنه بدون كلامه ، ثم قال لأبى بكر : مد يدك أبايعك ، فمد يده فبايعه و بايعه الناس ، ورجع أبو بكر رضى الله تعالى عنه ورجعت معه . قال أبو ذؤيب : فشهدت الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشهدت دفنه . ومنهم :

جابر بن عمرو المازنى

ومن حديثه أنه كان يسير يوماً فى طريق إذ رأى أثر رجلين ، وكان عائفاً قائفاً ، فقال أرى أثر رجلين شديداً كلبهما ، غزيراً سَلَبَهما ، و (الفرار بقراب كيس) ثم مضى أى الذى يفر ومعه قراب سيفه إذا فاته السيف أكيس ممن أُيفيت القراب أيضا [1]. قال الشاعر :

أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا   وأنجو إذا لم ينج إلا المكيس

ومنهم :

جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم

قال المفضل الضبى : إن جندباً هذا كان رجلا دميا [2] فاحشاً ، وكان شجاعاً ، وأنه جلس هو وسعد بن زيد مناة يشربان ، فلما أخذ الشراب فيهما قال جندب لسعد وهو يمازحه : يا سعد لشرب لبن اللقاح [3]، وطول النكاح ، وحسن المزاح [4] أحب إليك من الكفاح [5] ، ودعس الرماح [6] ، وركض الوقاح [7] ، فقال سعد : كذبت والله إنى لأعمل العامل ، وأنحر البازل [8]، وأسكت القائل ، قال جندب : إنك لَتَعْلَمُ أنك لو فزعت دعوتنى عجلا ، وما ابتغيت لى بدلا ، ولرأيتنى

---

(١) وقيل فى معناه : ان فرارنا ونحن قراب من السلامة أكيس من أن نتورط فى المكروه بثباتنا (٢) أى قبيح المنظر صغير الجسم وكأنه مأخوذ من الدمة بالكسر وهى القملة أو النملة الصغيرة (٣) جمع لقحة وهى الناقة ذات اللبن (٤) المداعبة (٥) المقاتلة والمضاربة (٦) طعن الرماح (٧) الفرس الصلب القوى (٨) البعير الذى فطرنا به بدخوله فى السنة التاسعة ويستوى فيه الذكر والأنثى

بطلاً : أركب العظيمة ، وأمنع الكريمة ، وأحمى الحريمة ، فغضب سعد وأنشأ يقول :

هل يسود الفتى اذا قبح الوجه وأمسى قراه غير عتيد (١)
وإذا الناس فى الندىّ رأوه ناطقاً قال قول غير سديد (٢)

فأجابه جندب

ليس زين الفتى الجمال ولكنْ زَيْنُهُ الضربُ بالحسام التليد (٣)
إن ينلك الفتى فزينٌ وإلاّ ربما ضنَّ باليسير العتيد

قال سعد : وكان عائفاً أيضاً : أما والذى أحلف به لتأسرنَّك طعنة ، بين العَرِينة والدهينة ، ولقد أخبرنى طيرى ، أنه لا يغيثك غيرى ! فقال جندب : كلا إنك لجبان ، تكره الطعان ، وتحبُّ القيان (٤) ، فتفرقا على ذلك ، فغبرا حيناً ؛ ثم إن جندباً خرج على فرس له يطلب القنص فأتى على أمَة لبنى تميم يقال إن أصلها من جرهم فقال : لتمكننى مسرورة ، أو لتقهرن مجبورة ! قالت : مهلاً ! فإن المرء من نوكه (٥) ، يشرب من سقاء لم يوكه (٦) ، فنزل إليها عن فرسه مدلا ، فلما دنامنها قبضت على يديه بيد واحدة فما زالت تعصرها حتى تركته لايستطيع أن يحركهما ، ثم كتفته بعنان فرسه ، وراحت به مع غنمها وهى تحدو به وتقول :

لا تأمننَّ بعدها الولائدا فسوف تلقى باسلاً مواردا (٧)
وحية تضحى لحى راصدا

قال : فمر بسعد فى إبله فقال : يا سعد أغثنى ! قال سعد « إن الجبان لايغيث » فقال جندب :

---

(١) أى غير مهيأ (٢) الندى : المجلس . وغير سديد : غير مصيب بقوله
(٣) الحسام : السيف القاطع . والتليد : كل مال قديم يورث عن الآباء .
(٤) جمع قينة وهى الأمة البيضاء هكذا قيده ابن السكيت مغنية كانت أو غير مغنية وقيل تختص بالمغنية . (٥) حمقه (٦) لم يشد رأسه (٧) الولائد: الاماء . والباسل : الشجاع

يا أيها المرء الكريمُ المشكومْ　　انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوم

فأقبل اليه سعد فأطلقه . ثم قال : لولا أن يقال قتل امرأة لقتلتك ! قالت : كلا لم يكن ليكذب طيرك ، ويصدق غيرك ، قال : صدقت . . قوله : انصر أخاك الخ هو من الأمثال يعنى انصره ظالماً إن كنت خصمه ، ومظلوماً من جهة خصمه . أى لاتسلمه فى أى حال كنت . ومنهم :

مرة الأسدى

ومن خبره أنه كانت له امرأة من أجمل النساء فى زمانها ، وأنه غاب عنها أعواماً فهويت عبداً لها حامياً كان يرعى لها ماشيتها ، فلما همت به أقبلت على نفسها فقالت : يانفس ! لا خير فى الشِرة [١] ، فإنها تفضح الحرة ، وتحدث العرّة ثم أعرضت عنه حيناً ، ثم همت به فقالت : يانفس موتة مريحة ، خير من الفضيحة وركوب القبيحة ، وإياكِ والعار ، ولبوسَ الشِّنار [٢] ، وسوءَ الشعار ، ولؤم الدثار [٣] ثم همت به وقالت : إن كانت مرة واحدةً ، فقد تصلح الفاسدة ، وتكرم العائدة ؛ ثم جسرت على أمرها ، وقالت للعبد : احضر مبيتى الليلةَ ! فأتاها فواقعها ، وكان زوجها عائفاً مارداً ، وكان قد غاب دهراً ، ثم أقبل آيباً ، فبينا هو يطعم إذْ نعب غراب فأخبره أن امرأته لم تفجر قط ولا تفجر إلا تلك الليلة ! فركب مرة فرسه وسار مسرعاً رجاءَ إن هو أحسها أمنها أبداً ، فانتهى إليها ، وقـد قام العبد عنها ، وقـد ندِمَتْ وهى تقول « خيرٌ قليلٌ وفضحت نفسى » فسمعها مرة فدخل عليها ، وهو يرعد لما به من الغيظ ، فقالت له : ما يرعدك ؟ قال مرة : ليعلم أنه قـد علم خير قليل المثل ! فشهقت شهقة وماتت ! فقال مرة :

لحى الله ربَّ الناس (فاقِرَ) ميتةً　　وأهوِنْ بها مفقودة حين تُفْقَدُ

---

(١) شرة الشباب بالكسر نشاطه وانما تفضح الحرة لأنها تهيج عليها شهوتها فلا تلبث أن تصبر حتى يكون منها مايكون فتحدث العرة وهى الخلة القبيحة (٢) العار (٣) الشعار : ماتحت الدثار من اللباس وهو يلى شعر الجسد . والدثار : مافوق الشعار من الثياب .

لَعَمْرُكِ ما تعتادُنى منكِ لوعة ولا أنا من وجد عليكِ مُسَهَّد

ثم قام إلى العبد فقتله . . والفاقرة : الداهية[1] ، ولحاه الله . قبحه ولعنه . والمارد العاتى .

من أنكر الزجر والطيرة من العرب

ومن العرب من أنكر الزجر ونحوه بعقله ، وأبطل تأثيره بنظره ، وذم من اغتر به ، واعتمد فى أمره عليه وتوهم تأثيره « منهم ضابىء بن الحرث » وقد قال فى ذلك .

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحاً ولا عن رَيْثِهِنَّ يخيب

وربَّ أمور لا تضيرُكَ ضيرة وللقلب من مخشاتِهِنَّ وجيب[2]

ولا خيرَ فيمن لا يوطِّنُ نفسَهُ على نائبات الدهرِ حين تنوب

قوله : وما عاجلات الطير الخ قال المبرد فى الكامل يقول . إذا لم تعجل له طير سانحة فليس ذلك بمبعد خيراً عنه ، ولا إذا أبطأت خاب فعاجلها لا يأتيها بخير وآجلها لا يدفع عنه إنما له ماقدرله ، والعرب تزجر على السانح ، وتتبرك به ، وتكره البارح ، وتتشاءم به ، والسانح ما أتاك مياسرة فأمكن الصائد ، والبارح ما أتاك ميامنة فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له . قال الشاعر :

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبِّحه إلا كواذب مما يخبر الفالُ

والفال والزجر والكهان كلّهم مضلّلون ودونَ الغيب أقفال

وقال ابن خلف . إذا خرج الإنسان من منزله فأراد أن يزجر الطير فما مر به فى أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها فقد راثت أى أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثانى مذموم يقول : ليس النجح بأن يعجل

---

(١) أقول : « فاقرة » هنا اسم امرأة مرة ، ورخمها فى البيت .

(٢) ضاره الأمر : ضره وخشية خشيا وخشيه وخشاة ومخشاة : خافتة . والوجيب : الخفقان

الطائر الطير الطيران كما يقول الذين يزجرون الطير، ولا الخيبة فى إبطائها، وهذا رد على مذهب الأعراب .

« ومنهم المرقش » وهو شاعر قديم، ومن شعره :

ولقد غَدَوْتُ وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتم [1]
فإذا الأشـائمُ كالأيا مِنِ والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خيرٌ ولا شرٌ على أحـد بدائم
لا يمنعنَّـك من بغا الـ خير تعقادُ التمائم [2]
قد خط ذلك فى السطو ر الأوَّليات القـدائم

« ومنهم : جهم الهذلى » وفى ذلك يقول من أبيات يرد بها على العائفين فى زجر الطير :

يظنّانِ ظَنًّا مرَّةً يُخطآنه وأخرى على بعض الذى يصفان
قضى الله أن لا يعلم الغيب غَيْرهُ ففى أىّ أمرِ الله يمتريان [3]

« ومنهم : ضابىء من حارث البرجمى » حيث يقول فى شعره :

وما أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غرابٌ أم تعرَّضَ ثعلب
ولا السانحات البارحات عشيةً أمرَّ سليم القرن أم مرَّ أعضب

وقال آخر وهو لبيد

لعَمْرُكَ ما تدرى الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانع

« ومنهم : الرقاص الـكلبى » وكان على إنكار الزجر واعتقاد بطلانه، وهو الذى يقول، وقيل لخيثم بن عدى :

وجدت أباك الخير (بحراً) بنجدة بناها له مجداً أ شمُّ قُماقِمُ [4]

---

(١) الواقى : طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير . والحاتم : الغراب الأسود وغراب البين وهو أحمر المنقار والرجلين وسمى حاتما لأنه يحتم بالفراق (٢) التمائم : جمع تميمة وهى خرزة رقطاء تنظم فى السير ثم يعقد فى عنق الصبى تعوذه من العين فاذا كبر قطعت عنه . (٣) امترى فيه : شك (٤) بحر : اسم رجل والمخاطب ابنه مسعود . والأشم : السيد ذو الأنفة . القماقم السيد

وليس بِهَيَّابٍ إذا شدّ رحله يقولُ عدانى اليوم واقٍ وحاتم
ولـكنه يمضى على ذاكَ مُقْدِما إذا صدّ عن تلكَ الهناَة الخثارم

والخثارم كعلابط : الرجل المتطير « ومنهم النابغة » فقد روى أنه خرج هو وزياد بن سيار يريدان الغزو فرأى زياد جرادة فقال : حرب ذات ألوان فرجع ومضى النابغة ، ولما رجع غانماً قال :

يلاحظ طيرة أبداً (زيادٌ) لتخبرَهُ وما فيهـا خبير
أقام كأنّ لقمانَ بن عاد أشار له بحكمته مشـير
تعلّم أنه لا طيرَ إلا على متطيِّرٍ وهو الثّبـور
بلى شىءٌ يوافق بعضَ شىء أحايينا وباطـلهُ كثير

وقد شفت الشريعة المحمدية الأمة فى الطيرة ، وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سئل عنها : « ذاك شىء يجده أحدكم فلا يصدنه » . وذكر شراح الحديث أن ليس فى سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه ، وإنما هو تكلف بتعاطى ما لا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله ؛ وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه كما سبق ، وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ، ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك ، وبقيت من ذلك بقايا فى كثير من المسلمين . وبقى كلام فى الطيرة ، والفأل والفرق بينهما ، وسبب تحريم أحدهما دون الآخر ، مذكور فى شروح كتب الحديث . ومن عجيب أمر بعض قبائل العرب فى الجاهلية أنهم لا يزوجون بناتهم إلا من اتصف بصفاتٍ : منها معرفته للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم من الصفات العلية ، ففى كتاب مجمع الأمثال للميدانى » عن المفضل الضبى : أن ابن أروى الكلاعى خرج تاجراً من اليمن إلى الشام فسار أياماً ، ثم حاد عن أصحابه فبقى مفرداً فى تيهٍ من الأرض حتى

سقط إلى قوم لا يدرى من هم ، فسأل عنهم فأخبر أنهم همدان ، فنزل بهم ، وكان طريراً [1] ظريفاً ، وأن امرأة منهم يقال لها (عمرة بنت سبيع) هويته وهويها ، فخطبها ابن أروى ، وكان اسمه (الضبّ) إلى أهل بيتها ، وكانوا لا يزوجون إلا شاعراً أو عائفاً أو عالماً بعيون المـاء ، فسألوه عن ذلك ، فلم يعرف منها شيئاً ، فأبوا تزويجه ، فلم يزل بهم حتى أجابوه فتزوجها ؛ ثم إن حياً من أحياء العرب أرادوا الغارة عليهم فتطيروا بالضب فأخرجوه وامرأته ، وهى طامث [2] ، فانطلقا ومع الضب سقاء من ماء ، فسارا يوماً وليلته وأمامهما عين يظنان أنهما يصبحانها ، فقالت له : ادفع إلىّ هذا السقاء حتى أغتسل فقد قار بنا العين . فدفع إليها السقاء فاغتسلت بما فيـه ولم يكفها ، ثم صبحا العين فوجداها ناضبة وأدركهما العطش ! فقال الضب (لا ماءَكِ أبقَيْتِ ولا حِرَكِ [3] أنقَيْتِ) ثم استظلا بشجرة حيال العين ، فأنشأ الضب يقول :

تا للهِ ما طلّة أصاب بهـا ... بعلاً سوى قوارع العَطَب [4]
وأى مهر يكون أثقل ممـا ... طلبـوه إذن من الضب
ان يعرف الماء تحت صم الصفا ... ويخبر الناس منطق الخطب [5]
أخرجنى قومها بأن الرحى ... دارت بشؤم لهم على القطب

فلما سمعت امرأته ذلك فرحت وقالت : ارجع إلى القوم فإنك شاعر ! فانطلقا راجعين ، فلما وصلا خرج القوم إليهما ، وقصـدوا ضربهما وردهما ، فقال لهم الضب : اسمعوا شعرى ثم اقتلونى ! فأنشدهم شعره فنجا ، وصار فيهم آثر من بعضهم . قال الفرزدق :

وكنت كذاتِ الحيض لم تُبْقِ ماءَها ... ولا هِىَ من ماءِ العذابةِ طاهِرُ [6]

---

(١) أى ذا منظر ورواء (٢) حائض (٣) الحر : بالكسر فرج المرأة (٤) الطلة : الزوجة . والبعل : الزوج . (٥) الصفا : جمع صفاة وهى الحجر الصلد الضخم الذى لاينبت . والصم : الصلب (٦) العذابة : بالدال والذال الرحم . وهذا البيت أورده الجوهرى * ولا هى مما بالعذابة طاهر * قال ابن مكرم : وكذلك وجدته فى عدة نسخ . ويقال : امرأة طاهرة من الأدناس وطاهر من الحيض بغير هاء

الطرق بالحصى والخط ونحو ذلك

كانت عند العرب أمور كثيرة يتوصلون بها إلى معرفة المغيبات بزعمهم كالطرق بالحصى والخط والحبوب وغير ذلك ، وهذه كلها من الكهانة على ماحققه أهل العلم ، والطرق له صورة مخصوصة فإن الكاهن إذا سئل عن حادثة أخرج حصيات قد أعدّها عنده فيطرق بعضها ببعض فيلوح له حينئذ مايعلم به جواب السؤال ، وصورة الخط مانقله ابن الأعرابى قال : يقعد الحازى[1] ويأمر غلاماً له بين يديه فيخط خطوطاً على رمل أو تراب ، ويكون ذلك منه فى خفة وعجلة كى لايدركها العدّ والإحصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين خطين وهو يقول : « ابنى عيان . أسرعا البيان ! » فإن كان آخر مايبقى منها خطين فهو آية النّجاح . وإن كان قد بقى خط واحد فهو علامة الخيبة والحرمان ، ورأيت فى بعض كتب الأدب راجزاً قال يصف جندبا[2] وهو ضرب من الجراد :

يحجل فيها مقلز الحجول بغياً على شقيه كالمشكول[3]

يخطّ لام ألف موصول والزاى والرا أيما تهليل

خط يد المستطرق المسئول

أى يخط لام ألف كخط يد الكاهن المسؤول منه التكهن ، والمستطرق : الذى يتكهن فإذا سئل عن الشىء خط فى التراب ونظر ، وقيل : المستطرق الكاهن الذى يطرق الحصى بعضه ببعض ، وفى سنن أبى داود عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يارسول الله ومنا رجال يخطون ! قال كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك ، وهذا يحتمل أن يكون معناه الزجر

---

(١) الكاهن . وانظر ص ١٥٩ من هذا الجزء . (٢) وقيل يصف غرابا

(٣) حجل الغراب : نزا فى مشيه كما يحجل البعير العقير على ثلاث وقوله « فيها » أى فى الدار . ويقال : انه لمقلز كمنبر أى وثاب عن ابن الأعرابى وانشد :

وقلز الغراب والعصفور وثب وكل مالا يمشى مشيا فقد قلز

وبغى فى مشيته اختال وأسرع . والمشكول : الذى شدت قوائمه بخيط

عنه إذا كان من بعده لايوافق خطه ، ولاينال حظه من الصواب ، لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبي ومعجزة له ، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعاً فى نيله ، وقد ذكر بعض المفسرين فى قوله تعالى (أو أثارة من علم) أن المراد به هذا العلم وهو المشهور اليوم بعلم الرمل ، وكل ذلك من قبيل الكهانة . قال (ابن خلدون فى مقدمته) : إنا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ، ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع ، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة . قال : ونحن نتكلم على هذه الإدراكات كلها ، ونبتدىء منها بالكهانة . ثم نأتى عليها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة فى النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب فى جميع الأصناف التى ذكرناها ؛ وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله ، وهذا أمر مدرك لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل ، فهى توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن ، وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها ، وماتنتزع من تلك الإدراكات من المعانى الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً

بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى [1] والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحـدة ؛ ولذلك نجـد الصبي فى أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذى لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما ، وذلك لأن صورتها التى هى عين ذاتها وهى الإدراك والتعقل لم يتم بعد ، بل لم يتم لها انتزاع الـكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصـل لهـا مادامت مع البدن نوعان من الادراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية ، و إدراك بذاتها من غير واسطة ، وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسمانى ، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التى للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الـكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية ، فتلتفت حينئذ إلى الذوات التى فوقها من الملأ الأعلى لمـا بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود ، وتلك الذوات روحانية وهى إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربمـا رفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه فى القوالب المعتادة ؛ ثم يراجع الحس بمـا أدركت إما مجرداً أو فى قوالبه فتخبر به . هذا هو شرح استعداد النفس لهـذا الإدراك الغيبيّ . قال : ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه فأما الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فـكلهم من قبيل الـكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه فى أصل خلقهم لأن الـكاهن لايحتاج فى رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها فى نوع واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف على المرئى البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر به عنه ، وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لمـا يرونه

---

(١) تقدم تفسيرها فى ج ٢ ص ٢٣١

هو فى سطح المرآة ، وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هى مداركهم ، فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفى أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه ؛ وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه فى تلك الحال ، وإنما ينشأ لهم بها من هـذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفسانى ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس كما هو معروف ، ومثل ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وأمثال ذلك ، قال وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ، ثم بالعزائم للاستعداد ، ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين ، والعالم أبو الغرائب ، ثم ذكر الزجر وسبب تكلم المجانين بأخبار الغيب ، ثم قال: وأما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك ، وليس لهم ذلك الاتصال ، فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ، ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة ، هذا تحصيل هذه الأمور . قال : وقد تكلم عليها المسعودى فى مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ، ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ فى المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله ! ثم ذكر ما للعرب فى ذلك من الاعتناء والاعتبار ، والمشاهير منهم فى معرفة هذه الأمور ، وحقيقة ما يصدر من المتصوفة مما يطول ذكره . ومن علومهم :

علم الطب

كان للعرب حظ وافر من معرفة الطب المبنى فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحىّ وعجائزه ، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج بعقاقير[1] وأدوية من نباتات وأغذية يحصل لغالبهم البرء العاجل باستعمالها ؛ وفى عرب البوادى اليوم كثير من ذلك ، وقد سمعنا عنهم فى هذا الباب عجائب نقلها من شاهدها منهم من الثقات ، وكذلك فى معالجة الجروح والعاهات ، وقسم منهم يعالجون أدواءهم بالكى فيحصل لهم البرء مما يشكون بأقل زمان وأيسر وقت ؛ وكذلك لهم العلم التام فى معالجة الدواب من الخيل والبغال والحمير والإبل ونحو ذلك ، ومعرفة تربيتها على أحسن وجه مما لا يبلغهم به غيرهم ، كل ذلك مشهور عنهم مسلم لهم ، وقد دون المتقدمون كل ما بلغهم عنهم من هذه الفنون بكتب كثيرة . وقد كان فى الجاهلية من العرب أطباء موسومون بالحذاقة ، موصوفون بالرئاسة فى الفن ، غير من كان منهم فى اليمن وعند التبابعة ، فإن هؤلاء لا يمكن حصرهم ، وشأن لقمان وما بلغه من الحذاقة أمر مشهور ؛ وكلامنا فيمن كان قبيل الإسلام بين مضر ومن جاورهم ؛ ونحن نذكر إنْ شاء الله نبذة منهم ، ومن أخبارهم ، وجملا من كلامهم فى هذا الفن ، مما يكون أنموذجاً ودليلا واضحا ، على من تردد فى ذلك واستبعده ، وفضل الله تعالى ليس مقصوراً على أحد .

---

(١) قال الجوهرى : العقاقير أصول الأدوية . وقال صاحب اللسان : مايتداوى به من النبات والشجر . وقال الأزهرى: الأدوية التى يستمشى بها . قال أبو الهيثم : العقار والعقاقير كل نبت ينبت مما فيه شفاء .

مشاهير أطباء العرب

منهم :

الحرث بن كلدة الثقفى

قال ابن أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء : كان الحرث هذا من الطائف ، وسافر إلى البلاد ، وتعلم الطب وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس واليمن ، وبقى أيام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب ومعاوية ، وقال له معاوية : ما الطب يا حارث ؟ فقال الأزْم . يعنى الجوع ذكر ذلك ابن جلجل . وقال الجوهرىّ فى الصحاح : الأزم المسك يقال أزم الرجل عن الشيء أمسك عنه ، وقال أبو زيد : الأزم الذى ضم شفتيه فى الحديث ، وقد سأل عمر رضى الله تعالى عنه الحرث بن كلدة عن الداء ، فقال : الأزم يعنى الحمية . قال : وكان طبيب العرب ، ويروى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم فقال : ادعوا له الحرث بن كلدة فإنه رجل يتطبب ، فلما عاده الحرث نظر إليه وقال : ليس عليه بأس اتّخذوا له فريقة [١] بشيء من تمر عجوة [٢] وحلبة يطبخان ، فتحسَّاها [٣] فبرئ ؛ وكانت للحرث معالجات كثيرة ، ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة ؛ وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره .

من ذلك أنه لما وفد على كسرى أنو شروان أذن له بالدخول عليه ، فلمـا وقف بين يديه منتصباً قال له : من أنت ؟ قال : أنا الحرث بن كلدة الثقفى .

---

(١) تمر يطبخ بحلبة للنفساء أو حلبة تطبخ من الحبوب لها . (٢) العجوة بالحجاز التمر المخشى وهى أم التمر الذى اليه المرجع كالشهريز بالبصرة والتبى بالبحرين والجدامى باليمامة وأيضا تمر بالمدينة يقال هو مما غرسه النبى (ص) بيده قال ابن الأثير : هى أكبر من الصيحانى يضرب الى السواد
(٣) أى شربها شيئا بعد شيء

قال : فما صِناعتك ؟ قال : الطب . قال : أعرابى أنت ؟ قال : نعم من صميمها ، وبُحبوحة[١] دارها ، قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها ، وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها[٢] ، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ! قال كسرى : فكيف تعرف ما تورده عليها ولو عرفت الحلم لم تنسب إلى الجهل ؟ قال : الطفل يناغى[٣] فيداوى ، والحية ترقى فتحاوى[٤] ، ثم قال : أيها الملك العقل من قسم الله تعالى قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم فكل من قسمته أصاب ، وخص بها قوم وزاد ، فمنهم مثرٍ ومعدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم ! فأعجب كسرى من كلامه ثم قال : فما الذى تَحْمَدُ من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك لهـا أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق[٥] من أفواههم الكلام ، مروق السهم من نبعة الرّام ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين[٦] مُطْعمو الطعام فى الجَذْب[٧] ، وضاربو الهام فى الحرب ، لا يرام عزّهم ، ولا يُضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل للأنام ، إلا للملك الهُمام ، الذى لايقاس به أحد . ولا يوازيه سوقة[٨] ولا ملك !

قال فاستوى كسرى جالسا ، وجرى ماء رياضة الحلم فى وجهه لما سمع من محكم كلامه ، وقال لجلسائه : إنى وجدته راجحاً ، ولقومه مادحاً ، وبفضيلتهم ناطقاً ، وبما يورده من لفظه صادقاً ، وكذا العاقل من أحكمته التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال :

---

(١) وسط (٢) الامشاج : الاخلاط . قال تعالى : انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه . قال ابن السكت : يريد النطفة لأنها ممتزجة من أنواع ولذلك يولد الانسان ذا طبائع مختلفة (٣) أى يكلم بما يجذله . (٤) التحوية : القبض (٥) يخرج (٦) السلسبيل : اللين الذى لاخشونة فيه . والمعين : الماء الجارى (١) القحط (٨) السوقة عند العرب خلاف الملك وليس المراد من قولهم (رجل سوقة) أنه من أهل الأسواق كما يتوهم عامة الكتاب والأدباء

كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك ! قال : فما أصل الطب ؟ قال : الأزم ، قال : فما الأزم ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال : أصبت ، فما الداء الدوىّ ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام هو الذى يفنى البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية ، قال فما الجمرة التى تصطلم منها الأدواء ؟ قال : هى التخمة إن بقيت فى الجوف قتلت ، وإن تحللت أسقمت ، قال : صدقت ، فما تقول فى الحجامة ؟ قال فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لاغيم فيه ، والنفس طيبة ، والعروق ساكنة ، لسرور يفاجؤك وهمّ يباعدك ، قال : فما تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لاتدخله شبعاناً ، ولا تغش أهلك سكراناً ، ولا تقم بالليل عرياناً ، ولا تقعد على الطعام غضباناً ، وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك ، قال : فما تقول فى الدواء ؟ قال ما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت ، وإن تركتها خربت ، قال فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهناه ، وأرقه أمراه ، وأعذبه أشهاه ، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً ، ويثير عليك من الأدواء أنواعاً ، قال : فأى اللُّحْمان أفضل ؟ قال : الضأن الفتى ، والقديد المالح مهلك للآكل ، واجتنب لحم الجزور والبقر ، قال : فماتقول فى الفواكه ؟ قال : كلْها فى إقبالها وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ، وأفضل الفواكه الرمان والأتْرُجّ ، وأفضل الرياحين الورود والبنفسج ، وأفضل البقول الهندباء والخس ، قال : فما تقول فى شرب الماء ؟ قال هو حياة البدن ، وبه قوامه ينفع ماشرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر أفضله أمراه ، وأرقه أصفاه ، ومن عظام أنهار[1] البارد الزلال لم يختلط بماء الآجام والآكام[2] ينزل من صرادح[3] المسطان ويتسلسل عن الرضراض[4] ، وعظام الحصى فى الأيفاع[5] قال : فما طعمه ؟ قال : لايوهم له طعم إلا أنه مشتق من الحياة ،

---

(١) كذا (٢) الآجام : الحصون . والآكام : التلول (٣) الصرادح : جمع صرداح وهو المكان المستوى (٤) الحصى (٥) جمع يفع وهو المحل المرتفع

قال : فما لونه قال ، اشتبه عن الأبصار لونه ، لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه ، قال : أخبرني عن أصل الإنسان ما هو : قال: أصله من حيث شرب الماء يعني رأسه، قال : فما هذا النور الذى فى العينين : قال : مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح : قال فعلى كم جبل وطبع هذا البدن ؟ قال : على أربع طبائع : المرة السوداء وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة والدم وهو حار رطب ، والبلغم وهو بارد رطب ؛ قال : فلم لم يكن من طبع واحد ؟ قال : لو خلق من طبع واحد لم يأ كل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك ! قال : فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما ؟ قال : لم يجز لأنهما ضدان يقتتلان ! قال : فمن ثلاث ؟ قال : لم يصلح موافقان ومخالف ! فالأربع هو الاعتدال والقيام ، قال : فأجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة ؟ قال : كل حلو حار وكل حامض بارد وكل حريف حار وكل مرّ معتدل وفى المرّ حار و بارد ، قال : فأفضل ما عولج به المرة الصفراء ؟ قال : كل بارد لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال : كل حار لين ، قال : فالبلغم : قال : كل حار يابس ، قال : فالدم ؟ قال : إخراجه إذا زاد ، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة ، قال : فالرياح ؟ قال بالحقن اللينة ، والأدهان الحارة اللينة : قال : أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم ! قرأت فى بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ! و إن الجهل كل الجهل من أ كل ما قد عرف مضرته ، و يؤثر شهوته على راحة بدنه ، قال : فما الحِمْيَةُ ؟ قال : الاقتصاد فى كل شيء ، فإن الأ كل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ، و يسدّ مسامَّها ، قال : فما تقول فى النِّساء و إتيانهن ؟ قال : كثرة غشيانهن ّ ردىء ، و إياك و إتيان المرأة المسنة ، فإنها كالشنّ [1] البالى تجذب قوتك ، وتسقم بدنك ، ماؤها سم قاتل ، ونفسها موت عاجل ، تأخذ منك الكلّ ، ولا تعطيك البعض ، والشابة ماؤها عذب

---

(١) القربة الخلق الصغيرة

زلال ، وعناقها غُنْج ودلال ، فوها بارد ، وريقها عذب ، وريحها طيب ، وَهَنُهَا[١] ضيق ، تزيدك قوة إلى قوتك ، ونشاطاً إلى نشاطك ، قال : فأيهن القلب إليها أميل ، والعين برؤيتها أسر ، قال إذا أصبتها المديدة القامة ، العظيمة الهامة[٢] واسعة الجبين ، قنواء العِرْنين[٣] ، كحلاء[٤] لعساء[٥] صافية الخد ، عريضة الصدر ، مليحة النحر[٦] فى خدها رقة ، وفى شفتيها لعس ، مقرونة الحاجبين ناهدة الثديين ، لطيفة الخصر[٧] والقدمين ، بيضاء ، فرعاء[٨] جعدة[٩] غضة بضة[١٠] تخالها فى الظلمة بدراً زاهراً ، تبسم عن أقحوان[١١] وعن مبسم كالأرجوان[١٢] كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، وأنزه من الفردوس والخلد ، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد ، تفرح بقربها ، وتسرك الخلوة معها قال : فاستضحك كسرى حتى اختلجت[١٣] كتفاه ! قال : ففى أى الأوقات إتيانهن أفضل ؟ قال : عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى ، والنفس أهدأ ، والقلب أشهى ، والرحم أدفى ، فإن أردت الاستمتاع بها نهاراً تسرّح عينك فى جمال وجهها ، ويجتنى فوك من ثمرات حسنها ، ويعى سمعك من حلاوة لفظها ، وتسكن الجوارح كلها إليها ! قال كسرى : لله درك من أعرابى ! لقد أعطيت علماً ، وخصصت فطنة وفهما ! وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

وقال (الواثق بالله) فى كتابه المسمى (بالبستان) إن الحرث بن كلدة مر بقوم وهم فى الشمس ، فقال : عليكم بالظل فإن الشمس تنهج الثوب[١٤] وتنقل الريح وتشحب[١٥] اللون ، وتهيج الداء الدفين ، ومن كلام الحرث : البطنة بيت الداء

---

(١) فرجها (٢) الرأس (٣) قنواء : بينة القنا وهو ارتفاع أعلى الانف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه . والعرنين : الانف كله أو ماصلب من عظمه. (٤) شديدة سواد العين أو التى كأنها مكحولة وان لم تكحل (٥) فى شفتها ولثتها سواد (٦) أعلى الصدر أو موضع القلادة (٧) بفتح فسكون وسط الانسان (٨) تامة الشعر ومن سجعات الاساس : لابد للقرعاء ، من حسد للفرعاء . (٩) أى غير سبطة الشعر (١٠) ناعمة رخصة الجسد رقيقة الجلد ممتلئة (١١) نبت من نبات الربيع مفرض الورق رقيق العيدان له نور أبيض كأنه ثغر جارية حديثة السن (١٢) صبغ أحمر (١٣) اضطربت وتحركت (١٤) أى تخلقه . (١٥) تغير

والحمية رأس الدواء ، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد . وقيل : هو من كلام عبد الملك ابن أبجر ، وقد نسب قوم هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوله (المعـــدة بيت الداء) وهو أبلغ من لفظ البطنة . وروى عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه أنه قال : من أراد البقاء ، ولا بقاء ، فليجوّد الغذاء ، وليتمش بعد العشاء ، ولا يبت حتى يعرض نفسه على الخلاء ، ودخول الحمام على البطنة من شر الداء ، ودخلة إلى الحمام فى الصيف خير من عشر فى الشتاء ، وأكل القديد اليابس فى الليل معين على الفناء ، ومجامعة العجوز تهدم أعمار الأحياء . وروى بعض هذه الكلمات عن الحرث بن كلدة وفيها : من سره النساء ولا نساء ، فليكر العشاء ، وليباكر الغـــذاء ، وليخفف الرداء ، وليقل غشيان النســاء . ومعنى (فليكر) فليؤخر . والمراد بالرداء الدين ، وسمى الدين رداء لقولهم هو فى عنقى وفى ذمتى فلما كانت العنق موضع الرداء سمى الدين رداء . وقد روى من طريق آخر وفيه (تعجيل العشاء) وهو أصح . وروى أبو عوانة : وليعجل العشاء وليخفف الرداء وليقل الجماع . وروى حرب بن محمد قال : حدثنا أبى قال قال الحرث بن كلدة : أربعة أشياء تهدم البدن : الغشيان على البطنة ، ودخول الحمام على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجامعة العجوز . وروى داود بن رشيد عن عمرو بن عوف قال : لمــا احتضر الحرث بن كلدة اجتمع إليه الناس فقالوا : مرنا بأمر ننتهى إليه من بعدك ، قال : لاتتزوجوا من النساء إلا شابة ولا تأكلوا الفاكهة إلا فى أوان نضجها ، ولا يتعالجن أحد منكم ما احتمل بدنه الداء ؛ وعليكم بالنورة فى كل شهر فإنها مذيبة للبلغم مهلــكة للمرة منبتة للحم ؛ وإذا تغدى أحدكم فلينَمْ على أثر غدائه ، وإذا تعشى فليتخط أربعين خُطوة . ومن كلام الحرث أيضاً قال : دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً ، ولا تشربه إلا من ضرورة ، فإنه لايصلح شيئاً إلا أفسد مثله . وقال سليمان بن جلجل : أخبرنا الحسن بن الحسين ، قال: أخبرنا سعيد بن الأموى قال : أخبرنا عمى محمد بن سعيد بن عبد الملك بن عمير ،

قال : كان أخوان من ثقيف من بنى كُنَّة يتحابان لم ير قط أحسن ألفةً منهما ، فخرج الأكبر إلى سفر فأوصى الأصغر بامرأته ، فوقعت عينه عليها يوماً غير متعمد لذلك ، فهواها وضَنِيَ(١) ، وقدم أخوه فجاءه بالأطباء ، فلم يعرفوا ما به إلى أن جاءه بالحرث بن كلدة ، فقال : أرى عينين محتجبتين وما أدرى ما هذا الوجع ، وسأجرب ، فاسقوه نبيذاً ، فلما عمل النبيذ فيه قال :

ألا رفقاً ألا رفقاً قليلًا ما أكوننّه
ألِمَّا بى على الأبيا تِ بالخيف أزُرْهنَّه(٢)
غزالًا ما رأيت الـ ـيوم فى دور بنى كُنَّه
أسيل الخد مربوب وفى منطقه غُنَّه(٣)

فقالوا له : أنت أطب العرب ! ثم قال : ردوا النبيذ عليه فلما عمل فيه قال :

أيها الجيرة أسلموا وقفوا كَىْ تكلّموا
وتقضوا لُبَانةً وتحيوا وتنعموا(٤)
خرجتْ مُزْنة من الـ ـبحر ريًّا تجمجم(٥)
هى ما كنّتى وتز عُمُ أنّى لها حَمُو(٦)

فطلقها أخوه . ثم قال : تزوج بها يا أخى ! فقال : والله ما تزوجتها ! فمات وما تزوجها . وللحرث بن كلدة الثقفى من الكتب (كتاب المحاورة) فى الطب بينه و بين كسرى أنو شروان . ومنهم :

(١) أى مرض مرضا مخامرا كلما ظن برؤه نكس .
(٢) الالمام : الزيارة غبا وقد ألم به وألم عليه . والخيف : الناحية وما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . وهو اسم لمواضع كثيرة . (٣) الاسيل من الخدود الطويل اللين الخلق المسترسل . ورب الصبى : أحسن القيام عليه ووليه حتى فارق الطفولية . وهو مربوب وربيب . والغنة : صوت يخرج من الخيشوم والاغن الذى يتكلم من قبل خياشيمه (٤) اللبانة بالضم الحاجة (٥) قال المجد : الجمجمة أن لايبين كلامه كالتجمجم . (٦) الكنة : بالفتح امرأة الأخ أو الابن والمراد هنا الأول . وحموا المرأة : أبو زوجها ومن كان من قبله كالاخ وغيره ، وحمو الرجل أبو امرأته أو أخوها أو عمها . أو الاحماء من قبلها خاصة وحمو من الاسماء التى لاتكون الا مضافة وقد جاء فى هذا الشعر مفردا

النضر بن الحرث بن كلدة الثقفي

كان النضر ابن خالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأحبار والكهنة واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، واطلع على علوم الفلاسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان يعلمه من الطب وغيره ، وكان النضر يواتى[1] أبا سفيان فى عداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكونه كان ثقفياً كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « قريش والأنصار حليفان ، وبنو أمية وثقيف حليفان » وكان النضر كثيرا لأذى والحسد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة كيما يحط من قدره عند أهل مكة ، ويبطل ما أتى به بزعمه ، ولم يعلم بشقاوته أن النبوة أعظم ، والسعادة أقدر ، والعناية الآلهية أجل ، والأمور المقدرة أثبت ، وإنما النضر اعتقد أنه بمعلوماته وفضائله وحكمته يقاوم النبوة ، وأين الثرى من الثريا ؟ والحضيض من الأوج ؟ والشقى من السعيد ؟

ولما كان يوم بدر والتقى فيه المسلمون ومشركو قريش كان المقدم على المشركين أبي سفيان ، وعدتهم مابين التسعمائة والألف ، والمسلمون يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وأيد الله تعالى الإسلام ، ونصر نبيه عليه الصلاة والسلام ، ووقعت الكسرة على المشركين ، وقتلت فى جملتهم صناديد قريش ، وأسر جماعة من المشركين ، فبعضهم استفكوا أنفسهم ، وبعضهم أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم . وكان من جملة المأسورين عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحرث ابن كلدة ، فقتلهما عليه الصلاة والسلام بعد منصرفه من بدر . قيل : قتل عقبة ابن أبى معيط صبراً ، أمر عاصم ابن ثابت بن أبى الأفلح الأنصارى فضرب عنقه ، ثم أقبل من بدر حتى إذا كان بالصفراء قتل النضر بن الحارث بن كلدة

---

(١) يوافق

الثقفى أحد بنى عبد الدار ، أمر على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أن يضرب عنقه ، فقالت أخته قتيلة بنت الحرث .

أيا راكباً إنّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبح خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ[1]

بَلِّغْ به مَيْتاً فإنّ تحيةً ... ما إنْ تزالُ بها الركائبُ تَخْفُقُ

منى إليه ، وعبرةً مسفوحةً ... جادت لمائحها وأخرى تخنُقُ[2]

فَلْيَسْمَعَنّ النضرُ إن ناديتُهُ ... إنْ كان يَسمع ميّتٌ أو ينطِقُ[3]

ظلّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُهُ ... لله أرحامٌ هناك تُمزّقُ[4]

صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيَّد وهو عانٍ مُوثقُ[5]

أمُحَمَّدٌ ولأنتَ نَسْلُ نجيبةٍ ... فى قَوْمِها والفحلُ فحلٌ مُعرِقُ[6]

ما كانَ ضَرّكَ لو منَنْتَ وربما ... مَنّ الفتى وهو المَغيظُ المحْنَقُ[7]

والنّضرُ أقرب من أخذت بزلةٍ ... وأحقُّهم إن كان عتقٌ يعتقُ

لو كنتَ قابلَ فديةٍ لفديته ... بأعزّ ما يفدى به من ينفقُ

قال أبو الفرج الأصبهانى . فبلغنا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لو سمعت هذا قبل أن أقتله ماقتلته » فيقال إن شعرها أكرم شعر وأعفه ، وأكفه وأحلمه ، وكأنه عليه الصلاة والسلام إنما أخر قتل النضر بن الحرث إلى أن وصل الصفراء ليتروّى فيه ، ثم إنه رأى الصواب قتله فقتله . ومنهم .

---

(١) الأثيل : موضع فيه قبر النضر . والمظنة : موضع الظن . تريد أن الاثيل مظنة أن تصل اليه فى صبح الليلة الخامسة ان وفقت الى الطريق ولم تحد عنه . (٢) ان بعد « ما » زائدة ، وتخفق : تتحرك . ومسفوحة : مصبوبة . والمائح : النازل فى البئر ليملأ الدلو . ومعنى البيتين : اذا وصلت هذا المكان فبلغ ساكنه تحية لاتزال الركائب تتحرك بها منى اليه ، وبلغه عبرة مصبوبة استنزفها من العين فقده وأخرى آخذة بالحلق . (٣) تقول : ان كان الميت يسمع أو ينطق وهو محال فعلى النضر أن يسمع نداءك (٤) تنوشه : تتناوله . واللام فى (لله) التعجب . والمعنى لم يقتله أحد غير بنى أبيه فعجبا من أرحام تنقطع هناك (٥) المنية : الموت . ورسف المقيد : مشى المقيد اذا جاء يتحامل برجله مع القيد . (٦) النجيبة : الكريمة . والمعرق : من له عرق فى الكرم . ويروى « ضنء » موضع « نسل » وهو الولد .
(٧) الحنق : الغيظ أو أشده — ومعنى هذه الأبيات ظاهر .

ابن حذيم (١)

كان ابن حذيم له قدم راسخة فى علم الطب . وله فيه أطول باع . قال الزمخشرى فى المستقصى : ابن حذيم رجل كان من أطباء العرب . وقال أبو الندى : ابن حذيم رجل من تيم الرباب ، كان أطب العرب . وكان أطب من الحرث بن كلدة . وقال ابن الأثير فى المرصع : ابن حذيم شاعر فى قديم الدهر يقال إنه كان طبيباً حاذقاً يضرب به المثل فى الطب . فيقال : أطب فى الكىّ من ابن حذيم . وقال الميدانى عند قولهم : أطب من حذيم : هذا رجل كان معروفا بالحذق فى الطب . ونقل ماذكره أبو الندى من تفضيله على ابن كلدة وتقدمه . وأهل اللغة على ذلك ؛ وقد ذكره الشعراء فى شعرهم ونوهوا بشأنه . ومنهم . الأوس بن حجر فإنه ذكره فى أبيات قالها لبنى الحرث بن سَدُوس بن شيبان . وهم أهل (القرية) باليمامة حيث اقتسموا مِعْزَاه وقيل اقتسمها بنو حنيفة و بنو سحيم . وكان أوس بن حجر أغرى عليهم عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، ثم جاور فيهم فاقتسموا معزاه . ومن الأبيات قوله :

فهل لـكمُ فيها إلىّ فإننى   طبيبٌ بما أعيا النطاسىّ حِذْيَمَا (٢)

---

(١) سماه جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية (ج ١ ص ١٧٧) : حزيم بالزاى وهو خطأ فاضح ولولا أنه كرره لكنا نحمله على انه خطأ مطبعى !

(٢) أورده المحقق الرضى فى شرح الكافية على أن فيه حذف مضاف أى ابن حذيم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه لأنه علم أنه العالم بالطب والمشهور لاحذيم فانه ورد فى الأمثال « أطب من ابن حذيم » . . . قال العلامة البغدادى فى الخزانة : واورد صاحب الكشاف هذا البيت عند قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » على أن التسمية واقعة على المضاف والمضاف اليه جميعا وأما مايرد من نحو قوله عليه الصلاة والسلام « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » فهو من باب الحذف لا من الالباس كما حذف الشاعر « ابن » من ابن حذيم . قال : وقد خالف كلامه هنا فى (المفصل) فانه قال اذا أمنوا الالباس حذفوا المضاف وقد جاء اللبس فى الشعر . قال ذو الرمة :

عشية فر الحارثيون بعد ما   قضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

وقال « بما اعيا النطاسى حذيما » أى ابن هوبر وابن حذيم . وهو فى قوله هذا تابع لأبى على فى ايضاح الشعر — الى أن قال — وقد قال يعقوب ابن

فأخرجكم من ثوب شمطاء عاركٍ مشهّرة بلّت أسافِلَهُ دَمَا

ولو كانَ جارٌ منكم فى عَشيرتى إذاً لَرَأوْا للجارِ حَقًّا ومحرما

ولو كانَ حَوْلِى من تميم عصابة لمـا كان مالى فيكم متقسما

ألا تتقونَ الله إذ تعلفونها رضيخَ النَّوَى والعُضْ حولاً مجرما

وأعجبكم فيها أغرّ مشهَّر تلاد إذا نام الربيض تغمغما

قوله : فهل لـكم فيها إلخ قال المفضل بن سلمة فى الفاخر وابن الأنبارى فى الزاهر : الطب الفطنة والحذق ومنه سمى الطبيب لعلمه وحذقه وأنشد هذا البيت ، وأعياه الشيء إذا لم يهتد لوجهه ، والطناسى بكسر النون قال ابن السكيت : العالم الشديد النظر فى الأمور . قال أبو عبيـد : ويروى النَّطاسى بفتح النون . قال الجوهرى : التنطس المبالغة فى التطهر . وكل من أدق النظر فى الأمور ، واستقصى علمها فهو متنطس ، ومنه قيل للمتطبب نطيس كفسيق ونطاسى بكسر النون وفتحها . أى اننى طبيب حاذق بالداء الذى أعجز الأطباء فى مداواته وعلاجـه ، وضمير فيها للمعزى ، وفيه حذف مضاف أى فهل لـكم ميل فى رد المعزى إلىّ . وقوله : فهل لـكم فى ثوب شمطاء[1] الخ . الشمطاء المرأة التى فى رأسها شمط بالتحريك ، وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواد والرجل أشمط . والعارك الحائض ، والشهرة : وضوح الأمر . يقول : هل لـكم فى رد معزاى فأخرجكم من سبة شنعاء تلطخ أعراضكم وتدنسها كما تدنس الحائض ثوبها بالدم فأغسله عنـكم ، وهذا مثل ضربه . وقوله : ألا تتقون الله الخ . يقول : لولا أنك سرقتها لأى

السكيت فى شرح هذا البيت من ديوان أوس بن حجر : حذيم رجل من تيم الرباب وكان متطببا عالما . هذا كلامه فعنده أن الطبيب هو حذيم لا ابن حذيم . وتبعه على هذا صاحب القاموس فلا حذف فيه ولا شاهد على ماذكر .. وقوله « طبيب » روى ابن السكيت بدله « بصير » والبصير العالم ، والنطاسى مفعول أعيا وحذيم بدل من النطاسى وفاعل أعيا ضمير ما الموصولة الواقعة على الداء . أى أننى طبيب حاذق بالداء الذى أعجز الأطباء فى مداواته وعلاجه . (١) قوله « شمطاء « ورد فى كتاب تهذيب الألفاظ ص ٥٤١ طبعة اليسوعيين ــ « شحطاء » وهو تحريف فاحذره !

شيء تعلفها يقول فردها ولا تعلفها . والرضيخ : بالضاد والخاء المعجمتين المدقوق ، يقال رضخت الحصى والنوى كسرته . والعُضّ بضم العين المهملة وتشديد الضاد المعجمة . قال ابن السكيت : هو القت . وقال الجوهرى : علف أهل الأمصار مثل الكسب والنوى المرضوخ ، والمجرَم بالجيم على وزن اسم المفعول التام والكامل . وقوله : وأعجبكم فيها أغر الخ . قال ابن السكيت : الأغر الأبيض ، والتلاد : القديم من المال . والربيض : ههنا الغنم . وقوله : تغمغما يعنى هذا الأغر ، والغمغمة : هبابه أى لا ينام و إنما يعرض بهم و يفترى عليهم ، وقد ذكر ابن أصيبعة كثيراً من أطباء العرب فى كتابه الطبقات .

نبذة من أسماء العلل التى وصفتها العرب

من تصفح كتب اللغة وجد فيها كثيراً من العلل التى وصفها قدماء العرب ووضعوا لها الأسماء الكثيرة ، ونحن نذكر هنا نبذة يسيرة من ذلك استدلالاً بها على ما كان للقوم من المعرفة بهذا الفن « الحمى » وتكنى بأم مِلْدَم ، وهى الحرارة التى توجد من تعفن الأخلاط ، تقول حم حُمَّى واحدة ، فلا تنون حمى ، وهو محموم وحم حميين وثلاثاً . والحمى أنواع كثيرة يقال : فلان يُحَمُّ الغِبُّ إذا أخذته يوماً وتركته يوماً ، والربع أن تأخذه يوماً وتدعه يومين يقال رُبِعَ فهو مربوع وقد يقال أُرْبِعَ حوِّل إلى الربع ، ومنهم من قال : حمى الربع هى للتى تقع النَّوْبة الثانية بعد النوبة الأولى بيومين فتكون فى اليوم الرابع ، ومن عدّ النَوْبة و يوم الراحة دوراً مستقلاً سماها المثلثة ؛ و يحم الصالب للتى معها الصُّداع ؛ والنافض والراجف التى معها رِعدة وقد نَفَضته الحمى . ويحم حمَّى مغبطة ومردمة أى دائمة عليه لا تقلع ؛ وتسمى الحمى المطبقة أيضاً ؛ ومن أنواعها حمى الروح وحمى الدق « السبات » أن يغمى عليه فى الحمى وهو مغمى عليه ومغشى عليه ؛ فإن كان مع الحمى بِرْسام فهو مُوم ؛ والوَعْك : الحمى . وقد وُعك

فهو موعوكٌ ، وورد فهو مورود ، والوِرْد يومها . والقِلْد يوم يأتيه الرِبْعُ وقد غبت الحمى ، وفلان شاكٍ و به شكاة ، وموصَّم يجد تكسيراً فى عظامه ، ووصب : وجع ؛ ومنهوك : براه المرض ، ومُثْبَت : لا يبرحُ الفراش ، ونصب أسهره المرض ، والمُستَهاض : الذى يُنكَس بعد ما يبرأ ، وأول ما يحس بالحمى فهو مسّها ورسّها ، فإن كانت هناك قِرّة فهى العُرَوَاء ، والعرق فيها الرُّخصاء ، ووجد رمضة ومليلة للحرقة والتكسير .

ومن العلل : اليرقان وهو داء يصفر الإنسان « والصداع » وجع الرأس و « الشقيقة » وجع فى شقه « والسُّعال » وجع فى الصدر « والزكام » وهو اندفاع فضلات تحلبا من الزائدتين فهو أخص من النزلة لكونها تقال على ما اندفع مطلقاً « الزَّحير » وهو من أمراض المِعَى وهو حركة من المستقيم تدعو إلى دفع البراز اضطراراً « الحصر » احتباس البطن « الأُسْر » احتباس البول « الحصى » يقال به حصاة وهى كالحجر فى مجرى البول « الحكّة » تغير سطح الجلد فى اللمس مع لذع مستلذ إذا حك . ومنهم من لم يفرق بينها و بين الجرب « الحصَف » بثور شوكية مختلفة الأوضاع « الحَصْبَة » داء كالجُدَرِى يحمر منه الجلد « الحمرة » ورم حار شفاف براق يسهل غمزه و يبيض به ثم يعود الجُدَرِى وهو من الأمراض العامة الوبائية وصورته نتوء يستدير غالباً ثم يطفو ومنه ما يتصل وما ينفصل (الشرى) بَثْر بين الجلد واللحم يقال شرى شرىً (الُحماق) شىء كالجدرى يصيب الرجل وحمق أصابته الحُمَيْقاء (القُوَباء) بثرة يتقوّب عنها الجلد أى ينقطع من أصله (والثُّؤْلول) ما يخرج فوق الجلد ولا يبرأ بسرعة وجمعه ثآليل (والجرَب) وهو من الأمراض العامة الظاهرة فى سطح الجلد (والعَر)[1] الجرب الأبيض « والجذام » داء معلوم وهو من الجذم وهو القطع سمى بذلك لأنه يقطع الأعضاء أو النسل أو العمر ، ويسمى أيضاً داء الأسد لجعله سخنة

---

(١) انظر الفرق بين العر بالفتح ، والعر بالضم ، فى (ص ٣٠٥) من الجزء الثانى .

الإنسان كسخنة الأسد ، أو لأنه تعتريه ، أو يفترس البدن كافتراسه « وداء الثعلب » وهو نقص الشعر ، أو ذهابه وفساد منابته ، و يسمى أيضاً داء الحية ، وسمى بذلك لأنه يعترى هذين الحيوانين ، أو لأن الثعلب يفسد الزرع بتمرغه كما يفسد هذا الداء الشعر الذى هو زرع البدن . « داء الفيل » هو داء يعترى الرجلين فترمان من الركبة إلى النهاية ، وسمى بذلك لأنه يعترى الفيل ، أو لشبه الرجل فيه برجله « الدُّوَار » وهو أن يتخيل الشخص أنه دائر بجملة أجزائه ، أوْ أن المكان دائر عليه « الوباء » وهو تغير يعرض للهواء يخرج به عن اعتدال الصحة إلى إيجاب المرض « الهَيْضَة » وتسمى الفَضْجة وهى من أدواء البطن وهو ما يستوجب القىء والإسهال . قال الجوهرى : يقال هاضنى الشىء إذا ردك فى مرضك ، ويقال بالرجل هَيْضَة أى به قُيَاء وقيام جميعاً « النملة » وهى بثور صغار مع ورم يسير ثم تتقرح فتسعى وتتسع ، و يسميها الأطباء الذباب ؛ وتقول المجوس : إن ولد الرجل إذا كان من أخته ثم خط على النملة شفى صاحبها . وقال :

ولا عَيْبَ فينا غيرُ عرقٍ لِمَعْشَرٍ كرامٍ وأنا لانخطّ على النمل (١)

والنملة أيضاً عيب من عيوب الخيل وهو شق فى الحافر من الأشعر إلى المقطّ ، وفرس نمل القوائم إذا كان لا يستقر « الجنون » داء يستوجب زوال العقل ، أو استتاره بحيث ينقص ، أو يعدم التميز أو الشعور ، وهو إما مطبق

(١) قال ابن السيد : هذا البيت لا أعلم قائله ، وفيه روايتان ، نخط بالخاء معجمة ، ونحط بالحاء غير معجمة ؟ فمن رواه بالخاء معجمة أراد بالنمل القروح التى تخرج فى الجنب . يعرض برجل كان أخواله مجوسا . كذا قال ابن قتيبة فى كتاب المعانى وانشد :

* ولا عيب الا نزع عرق لمعشر * . ومن روى نحط بالحاء غير معجمة فله معنيان : أحدهما ان يكون الحط الدلك من قولهم حططت الجلد اذا دلكته فيكون معناه كالمعنى فى رواية من رواه بالخاء معجمة . والثانى أن يريد بالنمل الحيوان المعروف ولا يريد القروح فيكون تأويله انا لانحفر بيوت النمل نستخرج مافيها مهانة وخساسة . فيكون على هذا قد عرض بقوم كانوا يفعلون ذلك . والتفسير الصحيح هو الأول ، وهذا التفسير الثانى ليس بشىء ، وقد أنكره ابن قتيبة انتهى وقال أبو أحمد العسكرى ان الحاء المهملة تصحيف من ابن الاعرابى ذكره فى كتاب التصحيف من كتابه . وبقى فى البيت كلام يطلب من الاقتضاب ص ٢٩٠

أو منقطع أما بأدوار معلومة أولا « البيضة » من أنواع الصُّدَاع وهى ماعم فى قول أو خصَّ وسط الرأس « الخدر والفالج والإفلاج » وهى متقاربة معلومة « البثور » واحدها بثرة وهى عبارة عن تأكل الجلد أو نتوؤه على أوضاع مخصوصة « الحَزَاز » من أمراض الرأس الظاهرة وهى خشونة منفصلة تنسلخ قشوراً كالنخالة . وقد يطلق هذا الإسم على القوابى « الحدبة » خروج بعض فقرات الظهر عن السمت الطبيعى بخلط ونحوه فتبرز « الطرش » وهو نقص السمع أو زواله وكذلك الصمم « الطلق » هو تغير المزاج عند إرادة الوضع « الُجْشَاء » وهو من أمراض المعدة عند فساد حالة من حالاتها « الباسور » زيادات غير طبيعية جذبتها القوى الضعيفة على غير وجه طبيعى نحو الأغوار الباطنة كبطن الأنف والرحم والمقعدة وكثيراً ما يطلق فيراد به باسور المقعدة ويقيد غيره « والناسور » عرق يتفتق منه قرح دائم « البهق » وهو داء كالبرص ويسمى الأسود منه عند كثير القوابى والحزازة والتعطيش ويسمى الأبيض منه الوضح . وفى المبادىء : وبه بهق بياض كالنكتة غير ناصع « والبرص » إذا تقشرت جلدته ونَصَعَ بياضه فإذا كان هناك وضح كالبرص قيل به برش ، وفسر البرص بأنه تغير اللون إلى بياض أو سواد غير طبيعيين « الكلف » كدرة تعلو الوجه « والمغس والمَغَص » وجع فى الأمعاء وتقطيع « والذُّبَحَة » الخناق وهى من تبيّغ الدم أى هيجانه وغلبته « الاستسقاء » وهو من أمراض الكَبِد أو الطحال ، وهو اسم لما خبث من الخلط « الإغماء » وهو من أمراض الباطن ويكون عاماً وخاصاً ، وحقيقته عجز البدن أو العضو عن فعل ما من شأنه فعله كـكلالة بواسطة ما انصبَّ إليه « الاختلاج » وهو حركة العضو والبدن غير إرادية تكون عن فاعل هو البخار ، ومادىّ هو الغذاء المبخر ، وصورى هو الاجتماع ، وغاذى هو الاندفاع « البَخَر » هو تغير رائحة الفم أو البدن بسبب تعفن الخلط « والفُوَاق » هو الذى يأخذ الإنسان عند النزع ،

وكذلك الريح التى تشخص من صدره « والثُّؤَباء » نفس تفتح له فاك مع تمطٍ وفترة « والجشاءة » نفس من الصدر على شبع أو ريّ « والقَلس » دسعة تخرج من الحلق عند الامتلاء . إلى غير ذلك مما يطول استقصاؤه ، وكانوا يعالجون هذه الأدواء ونحوها بعقاقير جربوها أو بكيّ أو رقية ، وفى كتاب (زاد المعاد) و (الداء والدواء) تفصيل ذلك . والمقصود مما نقلناه أن القوم لم يكونوا غافلين عن هذا العلم الجليل غير أنهم لم يكونوا متقنين له كل الإتقان ، وذلك شأن كل من لم يتوغل فى الحضارة وما تقتضيه ؛ وفى مقدمة ابن خلدون كلام مفيد على هذا الموضوع ، والله الموفق لما يرضيه . ومن علومهم :

علم الريافة

وهو معرفة استنباط الماء من الأرض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده فيعرف بعده وقربه بشم التراب ، أو برائحة بعض النباتات فيه ، أو بحركة حيوان مخصوص ، وهو من فروع الفراسة ، وهى موجودة فى بعض أعراب نجد ؛ وقد أخبرنى بعض الثقات أنه شاهد بعض هؤلاء قال : يضع أذنه على الأرض فيخبر بما يتبين له من وجود الماء وعدمه وقربه وبعده ، فإذا حفروا وجدوا الأمر كما وصف ؛ ويسمى من له هذه المعرفة بين العرب اليوم (بالنصّات) ولا ينبغى لمن لا استعداد له لهذه القوة أن ينكرها فإن كلّ أمة من الأمم ، وكلّ قبيلة من القبائل ، وكل فرد من الأفراد ، مختصٌّ بأشياء وهبت له ، ومُنَّ بها عليه من العلوم والصنائع والمعرفة والأخلاق والسير والمحاسن والقبائح . ونحن نرى ألوفاً من الناس يتعاطون صنعة واحدة ؛ ويتدارسون علماً واحداً ، فلا يبرع منهم إلا الواحد بعد الواحد ، وكل يفاض عليه على حسب استعداده . ومن علومهم :

علم الاهتداء في البراري

وهو علم يتعرف به أحوال الأمكنة من غير دلالة عليه بالأمارات المحسوسة دلالة ظاهرة أو خفية بقوة الشامة فقط لا يعرفها إلا من تدرب فيها كالاستدلال برائحة التراب ، ومسامتة الكواكب الثابتة ، ومنازل القمر ، إذْ لكل بقعة رائحة مخصوصة ، ولكل كوكب سمت يهتدى به كما قال الله تعالى (وهو الذى جَعَلَ لكم النجومَ لتهتدوا بها فى ظُلمات البرّ والبحر) ونفع هذا العلم عظيم بيِّن و إلا لهلكت القوافل . وضلت الجيوش ، فضاعت فى البرارى والقفار . والعرب لوقوفهم على معرفة الكواكب والأنواء ومهب الرياح وصفاتها ، ولوجانهم فى البرارى والقفار ، كانوا أعرف الناس بهذا العلم ؛ ولا بد من إيراد مثال لذلك ليعلم من وقف على هذا المقام كيفية اهتدائهم واستدلالهم . فمن أراد منهم أن يسافر إلى (مكة) نظر إلى أثبت النجوم دلالة وأقواها وهو القطب الشمالى لأنه لا يزول عن مكانه ، و يمكن لكل أحد معرفته لكن تختلف دلالته باختلاف الأقاليم ، فبالعراق وما وراء النهر يجعله من قصد مكة من المسافرين خلف أذنه اليمنى ، وبمصر خلف أذنه اليسرى ، و باليمن قبالته مما يلى جانبه الأيسر ؛ و بالشام وراءه ، وقيل ينحرف بدمشق وما قاربها إلى الشرق قليلًا ، ثم بعد ذلك الجدى والفرقدان ، والقطب نجم شمالى خفى حوله أنجم دائرة كفراشة رحى أو كسمكة فى أحد طرفيها الفرقدان ، وفى الطرف الآخر الجدى ، والقطب فى وسط الفراشة لا يبرح من مكانه دائماً ، ولا يراه إلا حديد البصر فى الليلة الظلماء ، و يستدل عليه بالجدى والفرقدين فإنه بينهما ، والجدى هو الذى على طرف بنات نعش الصغرى ؛ فكواكب بنات نعش الصغرى سبعة : أر بعة منها على شكل منحرف يسمى نعشاً ؛ والنيران منهما يسميان الفرقدين ؛ وثلاثة على خط معوج تسمى بناتاً ؛ وطرف الثلاثة النيّر يسمى الجدى ؛ فالقطب فيما بين الجدى والفرقدين كما ذكرنا .

ومما يستدل به من قصد (الكعبة) من العرب المجرة فإنها تكون فى الشتاء أول الليل فى ناحية السماء ممتدة شرقاً وغربا على الكتف الأيسر من الإنسان إذا كان متوجهاً إلى المشرق ثم تصير فى آخره ممتدة شرقاً وغربا أيضاً على كتفه الأيمن ، وأما فى الصيف فإنها تتوسط السماء لكن دلالتها أضعف من دلالة ما تقدم ، والمجرة كواكب صغار متقاربة متشابكة كثيرة جداً لا تمايز حساً بل هى لشدة تكاثفها وصغرها صارت كأنها لطخات سحابية ، وقيل غير ذلك ، ومما يستدل به على (الكعبة) أيضاً الشمس والقمر ومنازلهما الثمانية والعشرون وكذلك يستدل به بما تقترن بهذه المنازل أو يقاربها فإنها كلها تطلع من مشرق وتغيب بمغرب . فالهلال يكون فى أول الشهر إلى ثلاثة عن يمين قاصد الكعبة عند غروب الشمس ، وفى ثالث ليلة يكون عند غروب الشمس أمامه ، وفى عاشر ليلة يكون على سمت الكعبة وقت العشاء بعد مغيب الشفق الأحمر ، وفى الليلة الثانية والعشرين يكون على سمتها وقت طلوع الفجر ، وهذا كله على سبيل التقريب . ومما يستدل به الرياح ، ويعسر الاستدلال بها فى الصحراء ، وأما بين الجبال والبنيان فتدور وتختلف فتبطل دلالتها ، ومما يستدل به على الكعبة الجبال الكبار فكلها ممتدة عن ميمنة قاصدها إلى ميسرته ، ودلالتها قوية تدرك بالحس لكنها تضعف من حيث اشتباهها على ذلك القاصد هل يجعل ممتدها خلفه أو قدامه فتحصل الدلالة على جهتين والاشتباه على جهتين ، هذا إذا لم يعرف وجه الجبل فان عرفه استدبره لأن وجوهها للكعبة ووجه الجبل ما فيه مصعده ، إلى غير ذلك من الدلائل على كل جهة يقصدونها ؛ وكان من لم يعرف الطرق من العرب معيباً بينهم مذموماً عندهم : كل ذلك تحرزاً عن غلبة خصومهم وتطاول الاعداء عليهم ، والله الهادى الى سواء السبيل .

علم العرب بأدواء الخيل ودوائها وعيوبها ومحاسنها

قد سبق منا كلام موجز فى ذلك أواخر الجزء الثانى من هذا الكتاب وحيث إنا بصدد تعداد معارفهم ، وذكر علومهم الفطرية ، اقتضى إعادة الكلام بأبسط مما ذكرناه أولاً . اعلم أن العرب كانوا فى معرفة شؤون الخيل وأحوالها بمنزلة لم يصل إليها غيرهم وربما بقيت هذه المعرفة فى أفراد منهم إلى اليوم جائلين فى الفيافى والفَلوات فيعرفون أدواءها ودواءها معرفةَ حاذق متقن ، ولهم فى ذلك قدم راسخة ، وباع طويل ، وروت عنهم ثقات الرواة أخباراً طريفة تستلذها الاسماع ؛ وقد جمع ما ورد عنهم فى هذا العلم ، وما شخصوه من أدواء الخيل ، وسائر ذوات الاربع مع وصف دوائها على أتم وجه وأبينه .

وقد وجدت منه نسخة سقيمة الخط ، غير مأمونة من الغلط ، فى خزانة كتب (المدرسة الاحمدية) إحدى مدارس بغداد المحمية ، فأمعنت النظر فيها ، والتقطت منها بعض الفرائد وغرر الفوائد ؛ وفى هذا العلم كثير من التصانيف القديمة والحديثة ؛ ومن أحسنها وضعاً ، وأتمها جمعاً ، (كتاب الخيل) لابى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافىّ رحمه الله تعالى فانه لم يهمل فى كتابه هذا شيئاً مما يتعلق بالخيل وغيرها من الدواب ، وقد ذكر طرفاً من عيونها ، وما يستحب منها فى بابين من ذلك الكتاب ، ولعظم ما يترتب على هذين البابين من النفع للقارئين لخصتهما فى هذا المقام رجاء المثوبة والفوز بالمغفرة .

عيوب الخيل

العيوب فى الخيل لا تحصى بعدّ ، ولا تعرف بحد ، فان كل عضو من أعضائها من الممكن أن يعرض له ما يعيبه أو يحسنه ، غير أن الذى ثبت عن العرب تسميته مائة عيب : فى جريها أربعة وعشرون ، وفى خلقتها ستة وخمسون وعشرون حادثة ، فأما التى فى جريها « فالطموح » وهو السامى ببصره صُعُداً فلا

يبالى أين وقعت قوائمه « والمنكس » وهو الذى إذا جرى طأطأ رأسه من ضعف خلقته « والجموح » الصلب الرأس الذى يعتز فارسه على رأسه حتى يغلبه « والمُعتزم » وهو الذى يجمح أحياناً وَيَدَعُ الجماح أحياناً « والغرب » وهو المدّاد المترامى الذى لايُوَرِّعه الكف حتى يبعد بفارسه « والشموس » هو الذى يمنع السرج والمس « والحرون » هو الذى إذا درَّ جريه قام لاعن كلال « والبالح » إذا انقطع جريه ضعفاً « والضغن » وهو الذى يَتَلَكأ[1] ويتوقف فى الُحضْر ويقصر عن الحران « والخُفّاش » وهو المتنسب حضراً ثم يرجع القهقرى « والرَّوَّاغ » وهو الذى يجدّ فى حُضْره غير مستتب يميناً وشمالاً « والفَيُوش » وهو الذى يظن به جرئ وليس عنده شىء « والحبوص » وهو الذى يعدل يميناً وشمالاً فى استقامة حضر « والمشتق » وهو الذى يدع طريقه ويعدل ثم يمضى على عدوله لايروغ ولا يحيص « والشبوب » وهو الذى يقوم على رجليه ويرفع يديه « والعاجِر والمُعاجر » وهو الذى يعجر برجليه كقِمُاص الحمار وهو أن يرفع رجليه ثم يضعهما معاً « والعَذُوم والعضوض » وهو الذى يعض ماسايره « والشادخ » وهو الذى يعدل عن طريقه ولا يبالى ماركب « والجرور » وهو البطىء إعياء وقطافا فَيُجَرُّ بالحبل « والمُنعَثِل » وهو الذى يفرِّق بين قوائمه فإذا رفعها كأنما يَنزِعها من وَحَل يخفق برأسه ولا تتبعه رجلاه « والجربذ » وهو الذى يقارب الخطو يقرب سنابكه من الأرض ولا يرفعها رفعاً شديداً . قال الشاعر :

جربذتْ دونها يداك وأزرى بك لؤم الآباء والأجداد[2]

« والمشاغر » وهو أن تطمح قوائمه جميعاً متفرقة ويكون بعيد القدْر ولاضَبْرَ له[3] « والمتراد » هو أن ينقص حضره من ابتداء مايجرى « والفاتر » هو الذى عجز عن نفسه وفتر فى حضره ولم تساعده قوائمه على مايطالب به

(١) تلكأ عليه اعتل . وعنه أبطأ (٢) يقول : ضعف جريك لما سابقت وتقارب خطوك فعل الفرس المجربذ الذى لايقوى على رفع قوائمه من الأرض شديدا ولحقك ضعف بآبائك وأجدادك ولؤمهم . (٣) الضبر : الوثب

نفســه « والموكل » وهو الذى لايسير إلا بسير غـيره وفيه وكال « والخروط » وهو الذى يخرط رسنه عن رأسه « والرَّموح » وهو الذى يرمح بإحدى رجليه « والضروح » وهو الذى يرمح بكلتيهما . وهذه الأربعة ليست من الباب ، وإنما بعضها من سوء العادة وفساد الرياضة .

العيوب التى تكون خلقة فى الخيل

وهى ستة وخمسون عيبا « الأخدَى » وهو المسترخى أصول الأذنين على الخدين « والأمعَر » وهو الذى ذهب شعر ناصيتــه حتى لم يبق منه شىء « والأسفى » وهو الخفيف الناصيــة وهو محمود فى البغـال « والأغم » وهو الذى تغطى الناصية عينيه « والأسعف » وهو الذى فى ناصيته بياض « والأحول » وهو الذى ابيض مؤخر عينيه وغار السواد من قبل مآقيــه « والأزرق » الذى فى إحدى عينيه بياض أو فيهمـا « والأقنى » وهو الذى فى أنفه احديداب « والمغرب » وهو الذى تبيض أشفـار عينيه مع زرقها « والأدنّ » وهو الذى اطمأن عنقه من أصله « والأهنع » وهو الذى اطمأن عنقه من وسطها « والأقصر » وهو الذى فى عنقه قصر وَيَبُسْ معطف « والأكتف » وهو الذى فى أعـالى كتفيه انفراج وانــكشاف « والأزور » وهو أن تدخل إحدى فَهْدَتَيْ[1] صدره وتخرج الأخرى « والأقعس » وهو المطمـئن الصُّلب من الصهوة[2] المرتفع القطاة والحارك « والأبزخ » وهو المطمئن الصلب والقَطاة « والمخطف » وهو الذى لحق ماخلف مَحْزِمه من بطنه « والأهضم » وهو المستقيم الضلوع الذى دخل أعاليه « والصَّقِل » وهو الطويل الصُّقْلَة « والأنجل » وهو الذى خرجت خاصرته ورقّ صِفاته وهو جلد البطن « والأفرق » وهو الذى أشرفت إحدى وركيه على الأخرى « والأرسح » وهو القليل لحم الصّلا وهو ماأسهل من جانب

(١) فهدتا الفرس: لحمتان ناتئتان فى زوره . (٢) مقعد الفارس

الورك « والأعصل » وهو الملتوى عسيب الذنب حتى يبرز بعض باطنه الذى لا شعر عليه « والأكشف » وهو الذى التوى عسيب ذنبه حتى يصير على إحدى كاذتيه وهما لحم أعالى الوركين « والأصبغ » وهو المبيض الذنب « والأشعل » وهو الذى فى عرض ذنبه بياض « والأشرج » وهو ذو بيضة واحدة « والأفحج » وهو الذى تباعد كعباه « والأبد » وهو الذى تباعدت يداه « والأصك » وهو الذى يصطك كعباه إذا مشى « والأحلّ » المنمسح النّسا الرخو الكعب « والأقفد » وهو المنتصب الرُّسْغ المقبل على الحافر وهو فى الرجل خاصة «والأصدف » وهو الذى تدانى ذراعاه وتباعد حافراه فى التواء الرسغين و « الْمُوَجَّه » وهو الذى به قليل صدَف قدر ما يشك فيه « والأقدر » وهو الملتوى الرسغ من عرضه الوحشىّ [1] « والأقسط » وهو الذى رجلاه منتصبتان غير منحنيتين « والأمدش » وهو المصطكّ بواطن الرُسْغَيْن من شدة الفدع « والأحنف » وهو الملتوى الحافرين يقبل كل واحد منهما على صاحبه فى التواء الرسغين « والمتلقف» وهو الذى يخبط بيده فى استقامة لا يقبلها نحو بطنة « والأرجز » وهو المضطرب الرجل والكفل فإذا اضطربت فخذه « والشِّخْت » القليل اللحم الحمش العظام [2] « والرطل » وهو الضعيف الخفيف « والمكبون » وهو القصير الدوارج أى القوائم القريب من الأرض الرحيب الجوف « والعش » وهو الضاحى العظام أى ظاهرها لقلة لحمه « والسَّغِل » وهو الصغير الجسم . قال سلامة يصف فرساً :

ليس بأسفى ولا أقنى ولا سَغِلٍ   يعطى دواء قفىّ السَّكْنِ مربوبِ [3]

« والجأب » وهو القصير الغليظ . قال أبو دُوْاد :

أسيل سلجم المُقْ   بل لا شَخْتٍ ولا جأبِ [4]

---

(١) الايسر (٢) اى الدقيق العظام (٣) يقول : ليس هذا الفرس بخفيف الناصية ولا صغير الجرم ولا من الخيل التى فى انوفها احديداب ، وهو يؤثر بما يعد لمن يكرم من أهل البيت ويربى بمختار الطعام . (٤) يقول : رقيق الخد مستطيله مصدر غليظ المقدم لارقيق العظام ولا غليظها .

« والملواح » وهو الصغير السريع العطش « والصلود » وهو البطىء العرق « والضاوى » وهو الذى أضواه [١] أبواه « والمقرف » وهو الذى أمه عتيقة وأبوه غير عتيق « والهجـين » وهو الذى أبوه عتيق وأمه ليست كذلك « والمحمق وهو الذى لا ينتج منـه إلا أحمق » والـكوسِىّ وهو الذى إذا جرى نـكس فى إقراف كالحمار « والجاسىّ » وهو الذى ترى معاقده وفَقَار ظهره [٢] وعنقه فى تمعكه [٣] وتمرغه جاسية غير لينة .

العيوب الحادثة فى الخيل

وهى على ما سبق عشرون « الانتشار » وهو انتفاخ العصب للاتعاب حتى تنفتق وشائجه « والشَّظَى » وهو تحرك العظم اللاصق بالركبة « والفتوق » وتسميه العامة البيض وهو انفتاق من العصب على الأوظفة ويشدها كالمسـامير عليها « والدخس » وهو ورم فى أطْرة الحافر « والزوائد » أطراف عصب تفرق عند العجاية « والعرن » جُسُوء ويبس فى رسغ الرجل خاصة لشقاق أو مشقة فيرم « والشقاق » تبزل يصيبه فى أرساغه وربما ارتفع إلى أوظفته ويسمى (الحلاوة) . « والجَرَذ » ما حدث فى عرض عرقوبيه ظاهراً وباطناً من تزيد وانتفاخ عصب ويكون مع المفصل طولاً كالموزة « والملح » انفتاق من العصب أسفل العرقوب لمادة تنصب إليه كالبلوطة « والقمع » عظم قمعة العرقوب « والمشش » وهو كل ما شخص فى الوظيف وله حجم وليست له صلابة العظم « والارتهاش » وهو أن يصك بعرض حافره عرض عجايته من اليد الأخرى وربما أدماها وذلك لضعف يصيب يده « والرهصـة » وهو ماء يصير فى الحافر « والوجى » وهو ما يصيب الحافر من الخشونة والحجارة تأكله « والرَّقق » وهو ضعف ورقة فى الحافر « والنملة » وهو شق فى الحافر من الأشعر إلى طرف السُّنْبك « والسَّرطان »

---

(١) الضوى : دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو الهزال (٢) الفقار : ما انتضد من عظام الصلب ، من لدن الكاهل الى العجب (٣) التمعك : التمرغ وهـو التقلب والتلوى من وجع يجده .

وهو داء يأخذ فى الرسغ فييبس عروقه حتى يقلب حافره (والعزل) وهو أن يعزل ذنبه فى شق عادة (والِخباق) صوت من ظبية الأنثى (والبَجَر) وهو أن تكون الرَّهَابة غير ملتئمة فيعظم ما والاها من جلد السرّة (والرَّهابة) عظم مشرف على البطن .

محاسن الخيل وما يستحب فيها من الخلق

مما يستحب فيها الأذن المؤلّلة[١] والناصية المعتدلة ، التى ليست بسفواء ولا غماء[٢] ، والجبهة الواسعة ، والعين الطامحة السامية ، والخد الأسيل ، ورحب المَنْخُرَيْنِ ، وهَرت الشِدْقَيْن[٣] وقَوَد العنق[٤] ولينها حتى لا تكون جاسية ، ورقّة الجَحْفَلتين[٥] ، وارتفاع الكتفين ، والحارك والكاهل ؛ ويستحب أن يشتد مركب عنقه فى كاهله لأنه يتساند إليه إذا أحضر ، وعِرَض الصدر ، وضيق الزَّوْر[٦] ، وارتفاع اللَّبان[٧] وأن يشتد حَقْوُه[٨] لأنه معلق وركبه ورجليه فى صلبه ، وعظم جوفه وجنبيه ، وانطواء كشحه ، وإشراف القَطَاة وقصر العسيب ، وطول الذنَب ، وشنج النّسا (وهو التقبض فى الجلد وغيره واستواء الكفل حتى لايكون أفرق) وملاسة الكفل ، وقصر الساقين ، وطول الفخذين ، وتوتير الرجلين حتى لا يكون أقسط[٩] وتأنيف العُرقوب[١٠] حتى لا يكون أقمع ، وغلظ الرُّسغ ، وقصر الرُّسغ ، وأن تكون الحوافر صلاباً سوداً أو خضراً . والشواهد على ذلك من كلام العرب مفصلة فى محلها .

---

(١) المحددة (٢) السفواء : الخفيفة ، والغماء : الكثيرة الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا منه . (٣) الهرت : السعة . والشدق : جانب الفم (٤) القود : طول العنق (٥) الجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير . (٦) ملتقى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت (٧) الصدر (٨) كشحه (٩) هو الذى فى رجليه انتصاب (١٠) العرقوب : من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها . وتأنيفه : تحديد طرفه .

ما كان للعرب من العلم بخلق الإنسان

قد مرت على العرب شؤون وأطوار مختلفة ، وأدوار متباينة ، فى الترقى والانحطاط ، فلا يمكن أن يستدل على أحوالهم بدور من أدوارهم بل أن لغتهم وشعرهم وأمثالهم تخبر عما كانوا عليه . فمن نظر إلى الكتب المؤلفة فى بيان خلق الإنسان ، وما ورد عنهم فيما اشتمل عليه بدن كل حيوان ، علم أن العرب فى سابق قرونهم كانوا ممن له إلمام ومعرفة بكيفية تركيب أجزاء البدن وترتيبها ، وما فيه من العروق والأعصاب والغضاريف والعظام واللحم ، وغير ذلك من أحوال كل عضو ، وما تركب منه ، وما أعد له من الوظائف والمنافع ، وهو العلم المسمى لدى المتأخرين (بعلم التشريح) فلا ينبغى أن نسلب عنهم هذا العلم بما حدث له من الاسم ! والكتب المؤلفة فى خلق الإنسان كثيرة ومن أحسن ما رأيت منها (كتاب خلق الإنسان) للإمام اللغوى أبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافى ، فإن كتابه جمع فأوعى حيث اشتمل على ترتيب سن الإنسان من حين ولادته إلى آخر عمره ، وأسماء جملة خلق الإنسان ، والرأس وما تركب منه وما له من الصفات ، والشعر وأقسامه وألوانه ، والأذن وما تركبت منه وأقسامها ، والوجه وما تركب منه ، والحاجب وأنواعه وما يحمد منه وما يذم ، والعين وأصنافها وطبقاتها ومجارى دمعها وغير ذلك مما اشتملت عليه ، والأنف وما تركب منه وبيان أقسامه ، والفم وما تركب منه ، والأسنان وعددها وأسماء أصنافها وأجزائها ومنابتها ، واللسان وما اشتمل عليه من الأجزاء والعظام التى فى أسفله ، والحلق وبيان ما فيه من اللغاديد ، واللغانين[1] والحنجرة[2] والغلصمة[3] والبلعوم ، والحلقوم واللحيان وبيان محلهما وأسماء ما تركبا منه ، واللحية وأسماء أجزائها وأقسامها وألوانها وسائر

---

(١) جمع لغدود ولغنون وهما لحمة فى الحلق (٢) الحلقوم (٣) اللحم بين الرأس والعنق ، أو العجرة على ملتقى اللهاة والمرىء أو أصل اللسان .

أوصافها ، والعنق وماتركبت منه ، والمنكب والكتف وما اشتملا عليه ، واليد وما تركبت منه من العظام والأعصاب والعضلات والعروق وماوضع لذلك من الأسماء والأصابع وأسمائها وأجزائها ، والظفر وأقسامه وأسمائه ، والصدر وما تركب منه ، والثديان وما فيهما ، والجنبان وعدد أضلاعهما وأسمائها ومايلحق ذلك ، والبطن وما حوى ، والجوف وما اشتمل عليه من القلب والكبد والطحال والرئة والكليتان والمصارين والأمعاء والأعفاج[1] والحشى والحوايا[2] والكرش والمبعر وما فى هذه الجوارح من الأجزاء وأسمائها وأدواء البطن ومالها من الأسماء ، والظهر وماتركب منه من العظام والعصب والعروق وغير ذلك ، والركب وماتكونت منه ، والذكر وماتركب منه ومغرزه وما وضع لذلك من الأسماء ، والأنثيين وأسماء مافيهما من الأجزاء ، وبيان ما يعرض لذلك من الأدواء والعلل ، والفرج وما تركب منه وأسمائه ، وما انفردت به المرأة دون الرجل ، والرحم وموضعه وماتركب منه ، والوركين ومافيهما ، والدبر ومافيه ، والفخذين وما فيهما من الأجزاء وأسمائها ، والساق ومافيه ، والقدم وما اشتملت عليه ، والحمل والولادة وما يتعلق بذلك ، وقد أطنب المؤلف فى بيان كل واحد مما ذكر ، وبين موضعه ، وما اشتمل عليه ، وما وضع له من لغة العرب ، واستشهد على ما ادعاه بالشعر الجاهلىّ ، وذلك مما لايشك الواقف عليه أن للقوم الباع الطويل فى هذا العلم إذ لولاه لم يمكنهم الوقوف على مثل هذه الدقائق ، ووضع الأسماء لها ، لاسيا القلب ومافيه من العجائب ، ولغات الأمم شهود عدول على أحوال أربابها ومن علومهم :

(١) جمع عفج بفتح فسكون وهو مايصير الطعام اليه بعد المعدة (٢) الأمعاء

علم الرمى بالسهام

وهو علم يتعرف منه رمى النبال بالمزاولة ليكون عملها على وجه الإصابة ؛ وكان للعرب مزيد اعتناء بتعلم هذا العلم بالتلقى والعمل ، فإن القسىّ والرمى بالسهام كانت من أنكى أسلحتهم ، ولم تزل كذلك إلى أن ظهر ماظهر من الأسلحة ؛ وقد ألف أهل الفضل قديماً وحديثاً فى علم الرمى بالقوس رسائلَ كثيرةً نظماً ونثراً ، و بينوا فيها كيف يقف الرامى ، وكيف يمسكها ، وحال الرمى قرباً و بعداً ارتفاعا وانخفاضاً ، و بيان أحوال السهام ، و برى النبال ، وغير ذلك مما هو مفصل فى هاتيك الرسائل ؛ وهذا العلم فى الشريعة معتنى بشأنه ، وقد وردت نصوص فى الحث على تعلمه ؛ والمقصود من ذلك تعلم كل مايعين فى الحرب ، ويكون من عدده وفنونه ، وكان العرب يتسابقون فى أشياء كثيرة ، ولهم لعب شهيرة مشحون منها كتب اللغة وقد أبطل الشرع السَّبَق (بفتح الباء) وهو المال الذى يؤخذ على المسابقة فى جميعها إلا ما استثناه الحديث وهو قوله عليه السلام (لاسَبَق إلا فى خف أو حافر أونصل) أراد بالخف المسابقة على الإبل ، وأراد بالحافر المسابقة على الخيل ، وأراد بالنصل المراماة بالسهم ، كل ذلك أباح فيه الخطر الذى كان عليه العرب أيام جاهليتهم لما فى ذلك من المصالح والفوائد التى تعين فى الحرب ، وتستوجب الفروسية ، ويجترئ بها الإنسان على المناضلة والنزال ، والسبق فى غير الأخير قد مرّ بيانه أثناء الكلام على الخيل ، وأما السبق بالنصل وهو المراماة بالسهم فهذا ملخص الكلام عليه من كتاب (عيون الفنون) و بالله نستعين :

المراماة بالسهم والسبق بالنصل

إعلم أن الإصابات على سبعة أوصاف . ذكر الإمام الشافعى رحمه الله تعالى منها أربعاً ، وذكر أصحابه ثلاثاً ؛ أما ماذكره الشافعى فالخاصل والخازق والخاسق

والحابى : فالخاصل الذى يقرع الشنّ[1] ولا يخدشه ، والخازق الذى يخدشه ولا يثقبه ، والخاسق الذى يثقبه ويثبت فيه ، والحابى أن يذنى الرامى يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض فيصيب الغَرَض[2] ؛ وأما ما ذكره الأصحاب فالمارق والخارم والمزدلف : فالمارق الذى يمرق الشن أى يثقبه وينفذ فيه ، والخارم الذى يخرم طرف الشن أى يقطعه ، والمزدلف الذى يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الغرض .

النضال وأنواعه

النضال يتنوع ثلاثة أنواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة ، فالمبادرة أن يشترطا إصابة عشرة من عشرين فيبتدر أحدهما إلى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة أن يقولا نرمى عشرين رشقاً على أن من فضل صاحبه بخمس إصابات فقد نضله ، فاذا اشترطا ذلك ، ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً وأصابا إصابات نظر إن استويا فى الإصابة لم يحصل النضل ، وإن تفاوتا فى الإصابة حط الأقل عن الأكثر ، فإن بقى لصاحب الأكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه ، وإن بقى له أقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل ؛ والمناضلة أن يشترطا عشرة من عشرين على أن يستوفيا جميعاً فيرميان معاً جميع ذلك ، فإن أصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل ، وإنْ أصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها فقد نضل صاحبه .

القوس وما وضع لها ولأجزائها من الأسماء

كانت العرب تتخذ القسىّ من شجر الضَّال والنبع والشَّوْحط والسدر والشِّرْيان والسراء والتين والأشكل والحماط والتَّالب والنَّشَم . وحيث كانت القوس لدى العرب بما ذكرناه من المنزلة وضعوا لها ولأجزائها أسماء كثيرةً ،

(١) القربة الخلق الصغيرة (٢) الهدف يرمى فيه

ذلك شأن كل ما كان لهم به اعتناء ، ولحظوه بعين العناية ، فقالوا : القوس وكبدها ما بين طَرَفَى العِلاقَة ، والكُلية تلى ذلك ، ثم الأبهر يلى الكلية ، ثم الطائف وهما طائفان الأعلى والأسفل ، والسِيَة ما عُطِف من طَرَ فيها ويدها أعلاها ورجلها أسفلها والعَجْس والمِعْجَس مقبضها ، وإنسيها ما أقبل على الرامى ، ووحشيها ما إلى الصيد ، والفرض والفرضة الحزة التى يقع فيها طرف الوتر المعقود ، ومافوق الفرضة الظفر ، والكُظْرة والنعل العقبة التى تلبس ظهر السية ، والجلائز العقب على طائفيها وأصول سِئَتَيها ، والخِلَلُ الجلود التى على ظهر السئتين ، والمذروان ما عن يمين المقبض وشماله ، والرصائع السيور المضفورة تشد إليها العلاقة وهى التى علقت به ، والغِفارَةُ رقعة على الفرضة والسِيَةَ ليلف فوقها إطْنابة الوتر ، وهى سير يوصل بطرف الوتر ، قال الشاعر :

لها إطْنابَةٌ ولها فضولٌ تلاثُ على الغِفارَةِ من مُعالِ [1]

أى من فوق . والشِرْعة الوتر ، والدُرْكة حلقة الوتر التى تقع فى الفرضة ، والعَتَل القسىّ الفارسيّة ، وقوس فِلْق وشريجة إذا كانت من شقة لاغصن صحيح والقضيب التى من غصن صحيح ، وقوس فَجّاء وفَجْوَاء ومُنْفَجّة ، وفارج وفُرُج بانَ وَتَرُها عن كَبِدها ، ويفعل ذلك بالتى للقتال لا الصيد يحتبس صاحبها بالتفريق ، والكَتُوم التى ليس فيها شق ، والعاتكة التى احمرت قدماً ، والجَشْء الخفيفة ، والمِجْدلة التى فيها ميل ، وزاغت انقلبت عن عطفها الذى عطفت عليه ، وقوس عاطل ومعطلة بلاوتر وقد وترتها وحططت وترها ، وحط قوسك وانبضت عنها قرعتها للوتر ، ويقال أطَرْت القوس أى عطفتها وحنوتها وهى حنية . ويقال للقواس الماسخىّ وأصله لرجل من أزد السَّراة ، ثم اتسع فيه كما قيل لكل حداد هالكى ، قال الجعدىّ :

---

(١) يقول : لهذه القوس موصول مطرف الوتر ولها جلود تلف على الرقعة الجامعة لفرضتها وسلتها .

بعيسٍ تَعَطَّفُ أعناقُها كما عَطَّفَ الماسخيُّ القياسا (١)

وتقول نزعت فى القوس ورميت عنها وعليها وبها ، وعروتا الوتر عقداه .

السهم وما وضع له من الأسماء وما يتعلق بذلك

السهم والنَّشَّاب والمنزع والنبل سواء ، إلا أن النبل جمع لا واحد له من لفظه ، ويجمع على نبال . والمِرْماة سهم الهدف ، والمِرِّيخ سهم طويل له أربع آذان يُغالى به . قال الجعدى :

يَمُرُّ كمِرِّيخِ المغالى انتحتْ به شمالُ عباديٍّ علا الريح أعسرا

(يقول : يمر هذا الفرس مر هذا السهم إذا أعمله فى رميه يد رجل من هذه القبيلة أعسر ترمى شماله فتعين الريح على رفعه) والمِعْبلة والمِشْقَص سهم عريض النصل ، وخشبه قبل أن يعمل نَضِيٌّ وجمعه أنضاء فإذا خرق موضع نصله فهو قِدْح . والمَخْشوب الذى لم يتم عمله ، وفوق السهم برد طرفه وجعل له فُوق وهو موضع الوتر ، وإنفاق السهم انكسر فُوقه ، وشرخا الفوق جانباه ، والأُطْرَة العَقَب الذى على الفُوق ، والحَقْو موضع الريش ومستدقّه ، والزافرة مستغلظه والمتن وسطه ، والرُّعْظُ الخرق الذى يدخل فيه سِنْخُ النَّصْل ، والعَقَب الذى فوقه الرِّصاف والواحدة رَصَفَةٌ ، ويقال برى القوس والسهم بريا ، والطريدة قصبة يوضع فيها السكين فتبرى بها القداح والمغازل ، والقذذ ريش السهم ، والأقذ السهم الذى لا ريش له . والمريش ذو الريش ، وراش سهمه بظهار لؤام إذا صير بطن قذة وهو الشق الأطول إلى ظهر أخرى وهو الأقصر فيلتئم ، فإن التقى بطنان أو ظهران فهو ريش لغب ولُغاب ، قال بشر :

وإنَّ الوائلىَّ أصاب قلبى بِسَهْمٍ لم يَكُن يكسى لُغابا (٢)

---

(١) يقول بابل بيض تنحنى فى السير أعناقها كانحناء هذه القسى التى يحنوها هذا القواس (٢) ويروى :

فان الوائلى أصاب قومى بسهم ريش لم يكس اللغابا

والمعراض سهم لا ريش عليه يذهب عرضاً ، والنكس الذى انكسر فوقه فجعل أسفله أعلاه فلا يزال ضعيفاً ، ويشبه به الرذل من الناس ، والمحشور والحشر اللطيف القذذ ، ونبل قران وصيغة مستوية ، والمربظ الذى تمرط ريشه وجمعه مراط وسهم طائش لا يقصد ، ومعظعظ مضطرب ، وزالج يمر على وجه الأرض ، وصادر نافذ ، وحابض يقع بين يَدَى الرامى لخروج الفُوق من الوتر ، والدابر سهم يدبر الهدف دبراً أى يقع وراءه ، وصائف عادل عن الهدف ، وطالع يتجاوزه وقاصره لا يبلغه ، قال الشاعر :

فما بُقيَا علىَّ تركتمانى ولكنْ خفتما صَرَد النبال [1]

والخاسق والخازق المقرطس جميعاً ، ويسمى الغَرَض قرطاساً يقال : رمى فقرطس إذا أصابه ، والأهزع سهم يبقى فى الكنانة ، ونصل السهم حديدته وله العير كالجُدَيِّر وسطه . وفى الصحاح : عير النصل الناتئ منه فى وسطه ، وظُبَتهُ وقُرْنته وحدُّه وشفَرْتاه وغِراره حداه ، والكليتان ما عن يمينه وشماله ، والقطبة نصل الهدف ، وكذلك القترة والسِّرْوة ، ونصل مُدمَمْلكٌ ليس له عَرْض ، والقِطْع : القصير العريض الحديدة ، وما يحفظ فيها السهام تسمى الجعبة والوفضة والكنانة . والقرن والجفير جعبة مشقوقة فى جنبها ، وإنما يفعل ذلك لكى تدخل الريح على السهام فلا يأتكل ريشها . والله ولى التوفيق . ومن علومهم :

علم نزول الغيث

هو علم باحث عن كيفية الاستدلال بأحوال الرياح والسّحاب والبرق على نزول المطر ، والعرب لهم مزيد اختصاص بهذا العلم لأنهم أحوج الناس إلى الغيث إذ به حصول معايشهم من السقى والرعى ، وقد حصل لهم هذا العلم بكثرة التجارب ، ودليله الدروان بين أحوال السحب والأمطار ؛ وقد ذكرنا عند الكلام على مخايل العرب فى الأنواء من كلامهم ما يوضح المقصود ويثبته ،

(١) يقول : لم تتركانى وتتركا قتالى طلبا للابقاء على ولكن خفتما سهامى التى تنفذ فيكما .

ومالم يذكر من منظوم كلامهم ومنثوره فى هذا الباب شىء كثير ! وفى الأغانى[١] لأبى الفرج الأصبهانى بسنده قال : خرج أعرابىّ مكفوف البصر ، ومعه ابنة عم له ، لرعى غنم لهما فقال الشيخ : أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى فقالت : أراها كأنها ربرب[٢] معزى هزلى ، قال : ارعى واحذرى ، ثم قال لها بعد ساعة : إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى ، قالت : أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها ، قال : ارعى واحذرى ، ثم مكث ساعة ثم قال : إنى لأجِد ريح النسيم قد دنا فانظرى ، قالت : أراها كأنها بطن حمار أصحر ، فقال : ارعى واحذرى ، ثم مكث ساعة فقال : إنى لأجد ريح النسيم فما ترين ؟ قالت : أراها كما قال الشاعر :

دانٍ مسفٌّ فويقَ الأرض هَيْدَبُهُ ... يكاد يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بالرَّاح[٣]
كأنما بين أعلاه وأسفله ... رَيْطٌ منشَّرة أو ضَوْء مصباح[٤]
فمن بمحفله كمن بنجوته ... والمستكنّ كمن يمشى بِقِرْواح

فقال : أنجى لا أبا لك ! فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما . ثم أخذ أبو الفرج يشرح تلك الألفاظ ؛ وملخص ذلك : أن الأصحر : الأبيض وفيه حمرة ، ومعنى فمن بمحفله كمن بنجوته : فمن هو بمحفله أى مجرى معظم السيل كمن بنجوته أى ناحيـة عنه سواء لـكثرة المطر ، والقرواح الفضاء ، ومن تتبع كتاب الأغانى يجد كثيراً من ذلك ، وحيث إن الرياح وأوصافها ، والسحب وأنواعها ، والرعد والبرق ، من جملة ما يستدلون به على هذا العلم ، ويتوصلون به إلى معرفة نزول الغيث ، لابد من التعرض لذكر نبذة مما ورد عنهم فى هذه الأمور مما رواه ثقات الرواة :

---

(١) ج١٠ ص ٦ ـ طبعة مطبعة التقدم بمصر (٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش (٣) المسف : الدانى من الأرض . والهيدب : السحاب الذى يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة . (٤) الريط : جمع ريطة وهى كل ثوب لين رقيق .

الرياح وأوصافها

وأمهات الرياح أربع : الشمال ، والجنوب ، والصَّبَا ، والدبور ؛ وبذلك نطقت أشعارهم « فالشمال » مهبها من كرسى بنات نعش إلى مغرب الشمس صيفاً ، وكانت العرب تكرهها لبردها وذهابها بالغيم والحيا والخِصْب بزعمهم ، وهى عندهم الشامية ، ولم تزل العرب تتمادح بالإنفاق والكرم إذا هبت هذه الريح « والجنوب» مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الشمس شتاء « والصَّبَا » مهبها من مطلع الشمس إلى مطلع العيوق وهو كوكب نيِّر أحمر شمال مطلع الثريّا قدر ثلاث قامات رمح أو أرجح نظراً للرائى ويسمى رقيب الثريّا ، وكانت العرب تحب الصبا من بين الرياح لرقتها ولأنها تجىء بالسحاب والمطر ، وفيها الرىَ والخِصْب وهى عندهم اليمانيـة . قيل : إنما سميت صبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها والصبوة الميل . يقال . صبا إلى كذا إذا مال إليـه ، وفى الأثر ما بعث نبىّ إلا والصَّبَا معه « وأما الدبور » فمهبها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل . وما بين كل واحدة من هذه الرياح الأربع نكباء وسميت بذلك لتنكبها طريق الرياح المعروفة . ولـكل من هذه الرياح صفات وخواص يعرفها ذوو الخبرة منهم ، وتفصيل ذلك فى كتب الأنواء . وقال الشيخ أبو عبـد الله الإسكافىّ فى كتاب المبادئ عند الـكلام على الرياح . الشمال عن يمين المصلى ، وبإزائها الجنوب ، والصبا من وراء المصلى ، والدبور تجاهه ؛ ولعل ذلك باعتبار بعض الأقطار ، وإلا فالأصل ما ذكرناه . ثم قال . وكل ريح عدلت عن مهابّ هذه الأربع فهى نكباء ، ونسمت الريح تنسم نسيماً ونَسَماناً ضعفت فى استقامة من غير أن تحرك شجراً أو تعفو أثراً . ويقال للشمال الجِرْبياء ومَحْوة ونِسع ومِسع ، وفى الصحاح . الجربياء على فعلياء بالـكسر والمد النكباء التى تجرى بين الشمال والدَّبُور وهى ريح تقشع السحاب . قال ابن أحمر :

بِهَجْل من قسا ذفر الخُزَامى   تهادى الجِرْبياء به الحنينا[1]

وَللجنوب النُّعامى والخزرج والأزيب والهيف ، وللصبا القبول وإيرٌ وهيرٌ ، وأيْرٌ وهَيِّرٌ ، وقيل للدبور مَحْوَة ، ومن أوصافها الغالبة عليها : الديدانةُ اللينة كالنسيم ، والذاريات والمعصرات تجىء بالمطر ، وقيل . الساطعة بالسماء مستديرة ، واللواقح والبوارح والرُّخاء والجفول المسرعة . والجافلة والمُجْفَلُ والنائجة والُهوج والسوافى والَحزُوق والنُّؤُوج والمتذابة التى تجىء من هنا وثَمَّةَ ، والمُسَفْسِفة تجرى على وجه الأرض ، والدَّروج هى التى يرى لها مثل ذيل الرَّسَن فى الرمل ، والَخجُوج والسَّيْهوج والسَّهوج والسَّهوك والَهفْهافة والَهبْوة والمَذْعذِعة وهدوج والهجوم والعاتية والعاصفة والمعصفة والقاصفة : التى تكسر كل شىء ، والزعازع والإعصار والَحنون والزفزافة والروامس والنافجة : أول كل ريح بشدة (الرياح الباردة) الحرجف والصرصر والعَرِيَّة وخازم ، والبَليل فيها برد وندى ، والشفان والهلاّب والنضيضة وهى التى تنضُّ بالماء فيسيل (الرياح الحارة) السُّهام والهيف والبارح والسموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار والمعمعان .

السحب وأنواعها

قد ذكر الثعالبى نبذة من أنواعه وأسمائها فى القسم الأول من كتاب لباب الآداب ، وكذا الشيخ أبو اسحق الطرابلسى فى الكفاية ، والاسكافىّ فى المبادىء وغيرهم من أئمة اللغة . فمن السحاب « العَمَاء » وهو الغيم الرقيق وكذلك الطخاء والطهاء « والصبر » السحاب الأبيض « والَحبىُّ » السحاب الذى يعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء . قال امرؤ القيس :

(١) الهجل : المطمئن من الارض ، وقسا : موضع بعينه . والخزامى : نبت طيب الريح . والذفر : الطيب الأريح . وتهادى الجربياء : كثر حنينها ويروى « تداعى الجربياء » والبيت من أبيات لخلف فى وصف ظليم . راجع تهذيب المنطق للتبريزى ج١ ص ٧٣ من الطبعة المصرية .

أصاح ترى برقاً أريك وميضه   كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مكلّل

والحبا كعصا مثله . ويقال سمى به لدنوه من الأرض « والنِّشَاص » السحاب المرتفع بعضه فوق بعض « والمكفهِرّ » السحاب الغليظ المتراكب والكَنَهْوَر نحوه « والجهام » وهو السحاب الذى قد أراق ماءه « والهف » الذى لا ماء فيه والزبرج نحوه « والصُّرَّاد » سحاب بارد ندى وليس فيه ماء « والغمام والمزن » السحاب الأبيض « والرَّباب » السحاب الأبيض والأسود . وفى الكفاية : الرَّباب السحاب المتعلق دون السحاب « والسَّيِّقُ » وهو السحاب الذى طردته الريح « والخَلَقُ » السحاب الذى يرجى منه المطر « والنجاء » السحاب الذى يسرع « والهَيْدَب » ما يتدلى من السحاب كأنه هدب القطيفة « والجِلْبُ[1] » السحاب الرقيق الذى ليس فيه ماء . قال تأبط شراً :

ولستَ بجُلْبٍ جلب ريح وقرّةٍ   ولا بصفا صلد عن الخير معزل[2]

و بعضهم يقول : هو السحاب الذى يعترض كأنه جبل وليس فيه ماء « والدجن » السحاب المطل على الأرض . قال أبو زيد : والدُجُنَّة من الغيم المطبق تطبيقاً الرَّيان المظلم الذى ليس فيه مطر ، يقال يوم دجن ويوم دجنة ، وكذلك الليلة على الوجهين بالوصف والإضافة . قال : والداجنة الماطرة المطبقة نحو الديمة ، قال : والدجن المطر الكثير وسحابة داجنة ومدجنة وأدجنت السماء دام مطرها قال لبيد :

من كلّ سارية وغادٍ مُدْجنٍ   وعَشيةٍ متجاوبٍ إرْزامُها[3]

« والمرزم » السحاب المصوت بالرعد والإرزام صوت الرعد ، وكذلك الهزيم والمرتجس والأجش . و بعضهم يقول : هزيم الرعد صوته ، يقال تهزم الرعد تهزماً وغيث هزم متبعق لا يستمسك ، قال يزيد بن مفرغ :

---

(١) بالضم ويكسر (٢) يقول : لست برجل لانفع فيه ومع ذلك فيه أذى كذلك السحاب الذى فيه ريح وقر (أى برد) ولا مطر فيه . (٣) السارية : السحابة الماطرة ليلا . والمدجن الملبس أفاق السماء بظلامه لفرط كثافته . والارزام : التصويت .

سقى هَزِمُ الإرعادِ منبجسُ العرُى — منازلَها من مَسْرُقانَ فَسُرَّقا[1]

« والقاصب » السحاب الشديد صوت الرعد « والبارق » السحاب الذى فيه برق ، والقَلَعَة القطعة العظيمة من السحاب والجمع قلع ، قال ابن أحمر :

تفقأ فوقَهُ القَلَعُ السوارى — وجُنّ الخازِبازُ به جُنونا[2]

والقَزَعُ قطع من السحاب رقيقة الواحدة قزعة . قال ذو الرُّمّة يصف ماء فى فلاة :

ترى عُصَبَ القَطَا هملاً عليها — كأنّ رعالَهُ قزع الجَهام[3]

وفى الحديث : « كأنهم قَزَعُ الخريف » والضبابة سحابة تغشى الأرض كالدخان والجمع الضباب .

الرعد والبرق

من جملة ما يستدلون به على نزول الغيث الرعد والبرق ، فإن الرعد إذا أرزم أى صوّت صوتاً غير شديد استدلوا به على بعد المطر ، واذا تهزَّم أى صوّت أشدّ صوت استدلوا به على قرب المطر ، والقعقعة تتابع صوته فى شدة وله دلالة أخرى على حال الغيث ، والرّجسان وهو صوته الثقيل فإذا رَجَسَ علموا أن المطر يكون بشدة ، واذا أصعق أى رمى بالصاعقة وهى نار تسقط فى رعد شديد ، وإذا أزَّ ورزَّ أى صوّت الرعد من بعيد ، قال الراجز :

جارتنا من وائلٍ ألا اسْلمى — ألا اسلمى أُسْقِيتِ صوب الدِّيَمِ
صوبَ ربيعٍ باكر لم يُنم — يرزُّ رَزًّا من وراء الأكم

(١) مسرقان : نهر نحورستان عليه عدة قرى وبلدان يسقى ذلك كله ومبدؤه من تستر ، وسرق : كورة بالاهواز ومدينتها (دوزق) . وموضع بظاهر مدينة سنجار . (٢) تفقأت السحابة عن مائها : تشققت وتبعجت . والسوارى : جمع سارية وهى السحابة الماطرة ليلا والخازباز : صوت الذباب سمى الذباب نفسه به . والهاء فى (فوقه) و (به) عائدة الى (هجل) فى البيت قبله وقد مر فى ص ٣٦١ . (٣) العصب : جمع عصبة وهى الجماعة من الناس والخيل والطير . وقوله « هملا عليها » أى سدى ترعى بغيرراع . والرعال : الجماعات . والجهام : السحاب الذى لاماء فيه أو الذى قد هراق ماءه .

رَزَ الرَّوَايا بالمزَاد المُعصَمِ [١]

« وأما البرق » فمنه المستطير وهو المتفرق ، ومنه السلسلة وهى برقة دقيقة بالنهار ، ومنه الوميض وهو الضعيف من البرق ، ومنه الخافق وهو المضطرب ، والخفو لأخفى ما يرى منه ، ومنه المتكلح ، وهو المستديم المتتابع ، ومنه الرامح والماصع وهو السريع الخفيف ، ومنه الخُلَّب وهو الذى ليس فيه مطر كأنه يخلب من تشيمه [٢] أى يخدعه ، ومنه البرق المنعقق ، والانعقاق تشقق البرق ومثله التبوج ، وقد سبق فى الحديث وكثير من منثور العرب فى مخايل العرب فى الأنواء كيف استدلوا بذلك على الغيث ونزوله ، وما ذكرناه نبذة يسيرة ملخصة من كلام الأئمة فى بيان مقصدنا ، ومن أراد استيعاب ذلك فعليه بمفصلات كتب اللغة والأدب .

ما كان للعرب من المعرفة بعلم الملاحة

إعلم أن من العرب من كان يسكن جزيرتهم سواحل بحر القُلْزُم ، ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القُلْزُم ، ومن جهة الشرق بحر فارس الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بلاد البحرين ، وهنالك بلاد كثيرة من اليمن والحجاز وعمان والبحرين ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، وكان سكنة هذه الأقطار والبلاد كلهم من العرب ، ولهم متاجر فى الهند والحبشة والروم وغيرهم ، فكانوا ممن تمس حوائجهم إلى ركوب البحر ، ومعاناة سيره ، والقيام بمايعين على ذلك وهو (علم الملاحة) الذى أطنب المؤلفون الكلام عليه ؛ وفى عدة آيات من الكتاب الكريم دلالة على ركوبهم البحر ، وجرى الفلك بهم ، واهتدائهم

---

(١) يقول : يا أيتها المرأة المجاورة لنا من هذه القبيلة كونى فى سلامة وسقاك الله تعالى حيث حللت الحيا حتى تجنى ابلك ويسمن مالك مطرا لاينقطع ولا يغفل عن سقى محلك بصوت من وراء الجبال الصغار لشدة وطئه كصوت الروايا المملوءة ماء اذا اضطرب الماء فيها فسمعت له طبطبة كطبطبة السيل (٢) شام البرق : نظر اليه أين يقصد وأين يمطر .

فى سيرها إذا اشتد الظلام بنجوم السماء وكواكبه المعلومة لديهم ؛ وكذلك فى الأحاديث ما يفيد ذلك ، وفى شعرهم أيضاً مايستدل به على ما ذكرنا . قال عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته :

ملأْنا البَرّ حتى ضاق عنا   وماء البحرِ نملؤه سَفينا

إذا بلغَ الفطامَ لنا صبيٌّ   تخرُّ له الجبابرُ ساجِدينا!

يقول عممنا الدنيا براً وبحراً فضاق البر عن بيوتنا والبحر عن سفيننا ، وإذا بلغ صبينا وقت الفطام سجدت له الجبابر من غيرنا ؛ وقال طرَفَةُ بن العبد البكرى :

كأنَّ حُدوجَ المالكيةِ غُدْوَةً   خلايا سَفِينٍ بالنواصف منْ دَدِ[1]

عَدَوْليةٌ أومن سَفين ابن يامنٍ   يجورُ بها الملاحُ طَوْراً ويهتدى

يَشُقُّ حُبابَ الماء حَيزومها بها   كما قَسَمَ التُّرْبَ المفايلُ باليدِ[2]

العدولية : سفينة منسوبة إلى قرية فى البحرين يقال لها عَدَوْلَى ، وبعضهم يقول عدولى قبيلة من قبائل العرب والعدولى الملاح ، وابن يامن : رجل من أهل تلك القرية ، وروى أبو عبيدة (ابن نبتل) وهو رجل آخر منهم ، والشعر فى هذا الباب كثير ، وفى لغتهم أيضاً مايستدل به على ما ذكرناه : فالمركب اسم لما يركب فى البر والبحر ، والسفينة وهى الجارية من سفنه يسفنه قشره ، وسميت بذلك لقشرها وجه الماء جمعها سفائن وسفن وسفين ، وصانعها سفان . وحرفته السفانة . والدسار واحد الدسر وهى خيوط تشد بها ألواح السفينة . ويقال هى

(١) الحدوج : جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة الى بنى مالك قبيلة من كلب . والخلايا : جمع خلية وهى السفينة العظيمة . والسفين : جمع سفينة والنواصف : جمع ناصفة وهى أماكن تتسع من نواحى الأودية مثال السك وغيرها . ودد : قيل اسم واد فى هذا البيت . وقيل : دد مثل يد اللهو واللعب . (٢) حباب الماء : أمواجه الواحدة حبابة : والحيزوم : الصدر . والفيال : ضرب من اللعب وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شيء ثم يقسم نصفين ويسأل عن الدفين فى أيهما هو ؟ فمن أصاب قمر ومن أخطأ قمر . شبه الشاعر شق السفن الماء بشق المفايل التراب المجموع بيده .

المسامير . وفى التنزيل (وحملناه على ذات ألواح ودُسُر) ودُسُر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر . . قال بشر :

مُعَبَّدَة السقائف ذات دُسْرٍ   مُضبَّرة جوانبها رداح[(١)]

والجداف ما تجدف به السفينة ، قال ابن دريد : مجداف السفينة بالدال والذال جميعاً لغتان فصيحتان ، وهومأخوذ من جدف الطائر يجدف جدوفاً إذا كان مقصوصاً فرأيته إذا طار كأنه يردْ جناحيه إلى خلفه والقِلْع بالكسر الشِّراع والجمع قلاع ، قال قائلهم :

يكبّ الخلية ذات القلاع   وقد كاد جُؤجُؤها ينحطم[(٢)]

وسفن مُقْلعَات إذا كان لها قلاع ، وأقلعت السفينة رفعت شراعها ، والشراعة كالملاءة الواسعة فوق خشبة تصفقه الريح فتمضى بالسفينة ، جمعه أشرعة وشرع ، والدَّقل سهم السفينة وأصله الأول . والقلس حبلها ويسمى الجمل وهو حبل ضخم من ليف أو خوص من قلوس السفن والجؤجؤ صدرها ، والكَوْثَلُ ذنبها . والمردي والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة ورأسها فى الأرض ، قال شاعرهم :

وجاريةٍ قعدتُ على صلاَها   أداريء صَدْرَها بالقيقلان[(٣)]

والمِرساة آلة ترسى بها السفينة وتسميها الفرس (لنكر) وهى حديدة تلقى فى الماء متصلة بالسفينة فتقف ، والمَرْساة بفتح الميم البقعة التى رست فيها السفينة . والرُّبَّان بالضم رئيس الملاحين كالربانى ، والنُّوتى الملاح والجمع النَّواتى ، والعرَكىّ الملاَّح أيضا ، والملاح الذى يلى الشراع ، والمِلاح ككتاب ريح تجرى بها السفينة والنوْلُ جُعْلُ السفينة . إلى غير ذلك مما هو معلوم للمتتبع ؛ ومن أسماء السفينة : الفلك ، والقرْقُور . والجارية . والخلية . أسماء للسفينة الكبيرة . ومن أسماء الصغيرة

---

(١) المعبدة : السفينة المقيرة . والرداح : الواسعة (٢) الخلية : السفينة العظيمة . والجؤجؤ : الصدر . وينحطم : ينكسر (٣) يقول : ورب سفينة قعدت على مدفرها أقوم مقدمها بالمجداف .

الزورق والبوص وقال الجوهرى : والبُوصىُّ ضرب من سفن البحر وهو معرب ، قال الأعشى :

مثل الفراتىّ إذا ما طمى   يقذف بالبُوصىّ والماهر[١]

والقارب سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم . وعلم الملاحة علم واسع موقوف على معارف كثيرة : منها معرفة سموت الأبحر ، ومعرفة مهاب الرياح وعواصفها ورخائها وممطرها وغير ممطرها وسائر الأنواء ، ومعرفة مافى البحر من الجبال والجزر ، ومعرفة صناعة النجارة . فقد قال ابن خلدون : قد يحتاج إلى صناعة النجارة فى إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسر ، وهى أجرام هندسية صنعت على قلب الحوت ، واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكلكله ، ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح ؛ وربما أعينت بحركة المقاذيف كما فى الأساطيل إلى آخر ما قال . وأنت تعلم أنَّ السفن فى قديم الزمان ، لم تكن صناعتها متقنة كل الإتقان ، فماء ولا كصدّاء[٢] ، ومرعى ولا كالسعدان[٣] .

كتابة العرب في الجاهلية

كتابة العرب فى الجاهلية مما دل عليه شعرهم ولغتهم ، قال لبيد بن ربيعة :

وجلا السّيولُ عن الطلُول كأنها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أقلامُها

يقول : وكشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها ، فكأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها ؛ شبه كشف السيول عن الأطلال

---

(١) الفراتى : الماء المنسوب الى الفرات . وطمى : ارتفع . والبوصى : يطلق على الزورق وعلى الملاح . والماهر : السابح المجيد . (٢) مثل يضرب لما يحمد بعض الحمد ويفضل عليه غيره . أى هذا مما لابأس به ولكن ليس كماء صداء وهى بئر أوركية لم يكن عند العرب ماء أعذب من مائها . (٣) يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله . والسعدان : نبت أخثر العشب لبنا واذا خثر لبن الراعية كان أفضل مايكون واطيب وادسم . ومنابت السعدان السهول وهو من انجع المراعى فى المال ولا تحسن على نبته حسنها عليه .

التى غطاها التراب بتجديد الكتاب الدارس ، وظهور الأطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد دروسها ؛ وقال رجل كندى من دومة الجندل يمن على قريش :

(و) تَجْحَدُوا نعماء بشرٍ عليكم فقد كان مَيْمُونَ النقيبةِ أزْهَرَا[1]
أتاكم بخطّ الجَزْم حتى حَفِظْتُمُ من المال ما قد كان شتى مُبَعْثَرَا
وأنفيتم ما كان بالمــال مهملاً وطامنتم ما كان منه مبقرا
فأجريتم الأقلامَ عوداً وبداْةً وضاهَيْتُمُ كتَّاب كسْرَى وقَيْصَرَا
وأغنيتمُ عن مسند الحىّ حِمْيراً وما زبرتْ فى الصحف أقلام حميرا

فان أول من كتب بخطنا هذا (وهو الجزم) مرامرُ بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة كما فى القاموس ، وهم من طىء تعلموه من كاتب الوحى هود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق والحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فى بلاد العراق فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان) فتعلم منه جماعة من أهل مكة ، فلهذا كثر الكتاب فى قريش يومئذ فامتن الكندى على قريش بذلك . وسمى خط العرب بخط الجزم لأن الخط الكوفى كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الكوفة لأنه جزم أى اقتطع وولد من المسند الحميرى ، ومرامر هو الذى اقتطعه . . وقد تكلم الصُّولى فى (أدب الكتاب) على هذه المسألة ، وأتى بباب مفيد لخص فيه ما ثبت لديه من الأقوال ، وكذا السيوطى فى المزهر ، وجماعة من أهل الأدب ؛ وكتب ابن خلدون فى مقدمته فصلاً مفيداً يتعلق بغرضنا ، وبين أن الكتابة فى العرب كانت أعز من بيض الأنوق وأن أكثرهم كانوا أميين ولا سيما أهل البدو ؛ ومن قرأ منهم أو كتب كان خطه قاصراً وقراءته غير نافذة ؛ لأن هذه الصناعة من الصنائع

---

(١) ميمون النقيبة . مبارك النفس مظفر بما يحاول

التابعة للعمران ،ولهذا قد كان الخط العربى بالغاً مبالغه من الإحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو الخط المسمى بالحميرى وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبية والمجددين لملك العرب بالعراق ، ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك . قال : ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش . ويقال : إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية أو حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ؛ وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم وهو أمية بن أبى الصلت الثقفى :

قومى إياد لو أنهم أمم   أولو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم ساحة العراق إذا   ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية ، وإنما معنى قول الشاعر : انهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها ، فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ، ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال ؛ وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها متصلة ، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا باذنهم ، ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ، ولا مائلة إلى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة ، واستغناء البدو عنها فى الأكثر ؛ وكانت كتابة العرب بدوية وأما مضر فكانوا أعرق فى البدو ، وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر ، فكان الخط العربى لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والاتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة ، وبعدهم عن الصنائع ،

ثم قال : واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية ، والكمال فى الصنائع إضافى ، وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال ، و إنما يعود على أسباب المعاش ، و بحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على مافى النفوس ؛ وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالا فى حقه و بالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها ، وليست الأمية كمالا فى حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية ، فان الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا .

فوائد لغوية تتعلق بالكتابة وآلاتها

من أدلة وجود الكتابة فى العرب مافى لغتهم من الألفاظ الموضوعة لآلات الكتابة والكتاب ، ولو لم يعرفوها لم يضعوا تلك الألفاظ لمعانيها ؛ فمن ذلك الدَّوَاةُ وجمعها دوًى وَدَويات ودُوِىٌّ ، وقولهم لموضع المَليق مِمْلَقَةٌ خطأ والصواب ملاقةُ لأن المليق ميمه زائدة وهو من لِقْتُ الدواة ألقيها وألقتها ، والمليق اسم القطن أو الصوف الذى يلصق به المداد ، وهو من قولك لاقَ به الشىء يليق إذا لصق به فلا تدخل ميم زائدة على ميم أخرى مزيدةٍ : وسمى المداد مداداً لأنه يمد الكاتب ، ومددت الدواة صببت فيها ماء ومدها ، وتقول مُدَّنى أى أعطنى مَدَّةً من الدواة . وقد خَثُرَت الدواة خُثُورة وَخثارة إذا ثَخُنَ نِقْسُها وهو المداد يقال نِقْس وأنقاس لقطع منه ، والقلم قبل أن تبريه أنبوبة فاذا بريته فهو قلم ، وما يسقط منه عند البرْىِ البراية ، و بطَّنت القلم رقَّقت بطنه وأنْفته حدَّدت طَرَفَه ، وشباته حدّه ، ولَيَّطته إذا وضعت فى شقه ليطة توسع بها ضيقه ، والليطة قشر القصب . وقططته قطًّا ، والمِقَطُّ ما يُقَطُّ عليه ؛ والقَطُّ القطع عَرْضاً ، والقد أن يُقطع الشىء طولا ، ويقولون قلم رشاش ؛ وذلك إذا حاف الشق على أحد جانبيه

فذقّ وتعثَّر بِشَظايا الـكتاب ، و رشّش المداد ، وتقول كتبت كتاباً وهو مصدر ، ثم يسمَّى المـكتوب على السَّمَة كتاباً ، والـكتابة صِناعة الكاتب ، والطِّرْس الـكتاب الممحوُّ الذى يستطاع أن تعاد فيه الـكتابة ، والتطريس فعلك به ، وطَرَّس الباب سوّده ، والطِّلْس باللام كتاب لم ينعم محوه فيصير طِرْساً ، والمَجْمَجَةُ تخليط الـكتْب و إفساده بالقلم كالجَمْجَمة باللسان ، وهو أن لا يُبيّن الكلام من غير عىّ ، والصُّحُف ما كان من جلود ؛ والقِطُّ الـكتاب ، والمجـلة صحيفة كانوا يكتبون فيها الحـكمة · قال النابغة :

مَجَلَّتُهمْ ذاتُ الإلهِ ودينهم   قويمٌ به يرجون خـير العواقب[1]

والعُهْدة كتاب الشراء ، وكتب له منشوراً وهو ما لا يُشَدُّ ، و رُجْعة الـكتاب و رُجْعانه جوابه ، و يقال أجابه فى هامشة كتابه إذا كتب بين السطرين وهو من قولك تهامش القوم إذا دخل بعضهم فى بعض ، وهَمَشَ الجراد إذا تحرك ليثور ؛ وتقول نَقَطْتُ الـكتاب وأعجمته وشكَلْته وقيّدته فالنقط لمـا كان مدوّراً والنُّقْطة الاسم ، وهذا كتاب غُفْل كقولك دابة غُفْل إذا لم يكن موسوماً ، والسجلُّ كتاب العهد ، وتقول : أمليت الـكتاب وأمللته واستَمْلى إذا سأل أن يملى ، وكذلك استملّ والزَّبور والرَّقيم الـكتاب ، وزَبَرْت ورَقَمْت كتبت وقَرْمَطْت قاربت بين الحروف ، وطويت الـكتاب وأدرجته وسحيته أسحاه سَحْياً إذا قلعت منه سِحاةً وهى القِشْرة تأخـذها عن القرطاس ، وخزمته ثقبته وحزمته شـددته ، ويقـال تَرَّبْت الـكتاب وأتْرَبته وتَرّبته وطِنْتُهُ أطينـه طَيْناً ، وختمته والاسم الختام ، وعنونته أعنونه وأرّخت الـكتاب تاريخاً ، وهذه إضْبارة من كتب وإضْمامة ، والـكُرّاسة ما تـكَرَّسَتْ أوراقه وتلبّدت ، والمصحف سمى مصحفاً لأنه أُصْحِفَ أى جعل جامعاً للصحف المـكتوبة بين الدفتين ، وهما اللوحان اللذان يكتنفانه ، وله الوعاء والغلاف وفيه العروتان ، والمِعْلاق مايعلَّق

---

(١) يقول : صحيفتهم التى فيها وصاياهم مثبتة على طاعة الله ، ودينهم مستقيم يرجون به ثواب الله تعالى

به ، وفيه الفكوك والواحد فَكٌّ وهو مايستر الأوراق من جانبيه ، والعِلاوة من أعلاه والحلق واحدتها حلقة . وفى الحلق الذوائب وهى السيور التى فى أطرافها ، والأشراج والواحد شَرَج وهو السير المرسَّع أسفل الحلق والتَّرسيع ضفر السير على نحو معروف وفى المصحف المخارز وهى المواضع التى تُخرَزُ منه ، وله الآذان ، وفى الدفتين المسامير والكراكِبُ ؛ فأما المِحبرَةُ والحِبْرِيّة فالتى فيها الحبر وهو الزّاج ، ولها المِمْلاق وهو خيط أو سير يشد إلى عراها ، والرَّشْقُ صوت القلم . والقشفة كقطنة فى جوف القصبة ، وحَضْرَمَ القلم براه ، والمِرْقَم القلم ؛ ومثل ذلك كثير فى كتب اللغة والأدب لاسيما كتاب (أدب الكتاب الصُّولى) فقد ذكر فيه كل مايتعلق بهذه الصناعة .

مكاتبات العرب ومراسلاتهم وما لهم في ذلك من العوائد

خير الكلام لدى العرب ما أدى المقصود بكماله بلفظ وجيز ، وعبارة مختصرة ومدار البلاغة عندهم على ذلك ؛ والكتب والمراسلات من ضروريات الأمم التى لا يمكن الاستغناء عنها ؛ وحيث أن الكتابة لم تكن فى جميع العرب لقربهم يومئذ من البداوة قل الترسل فيما بينهم تحريراً قبل شيوع الكتابة فيهم ، وكانوا يستغنون عن ذلك بإرسال الرسل يبلغون عنهم مقاصدهم إلى من يرومون وربما ألغزوا عنها اخفاءً لها إذا كانت مما يجب إخفاؤها وإسرارها .

وربما كتبوا أبياتاً من الشعر تؤدى مقاصدهم إذ الشعر كان يومئذ ديوان العرب ، وقد صادفت من ذلك مالا يستقل ، ففى كتاب (مروج الذهب) عند ذكر سابور ذى الأكتاف وغلبة العرب على سواد العراق قال : وكانت جمرة العرب ممن غلب على العراق ولد إياد بن نزار ، وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد ، وملكها يومئذ الحرث بن الأغر الأيادى ، فلما بلغ سابور من السن ست عشرة سنة أعد أساورته بالخروج إليهم والإيقاع بهم ؛ وكانت إياد تصيف

بالجزيرة وتشتو بالعراق ، وكان فى حبس سابور رجل منهم يقال له لقيط فكتب إلى إياد شعراً ينذرهم به ، ويعلمهم خبر من يقصدهم ، وهو :

سلامٌ فى الصحيفة من لقيط   على من فى الجزيرة من إياد
بأنَّ الليثَ يأتيكم دلاقاً   فلا يحسبكم شوكَ القَتَاد(١)
أتاكم منهم سبعون ألفاً   يجرّون الكَتائبَ كالجراد(٢)
على خيل ستأتيكم ، فهذا   أوان هلاككم كهلاك عاد

فلم يعبأوا بكتابه ، وسراياه تكرّ نحو العراق وتغير على السواد ، فلما تجهز القوم نحوهم أعاد إليهم كتاباً يخبرهم أن القوم قد عسكروا وتحشدوا لهم ، وأنهم سائرون إليهم ، وكتب إليهم شعراً أوله :

يا دارَ عبلة من تذكارها الجزعا   هيّجتِ لى الهمّ والأحزان والوجعا
أبلغ إياداً وحلل فى سَراتهم   إنى أرى الرأى إن لم أعص قد نصعا(٣)
أن لا تخافون قوماً (لا أبالكم)   مشوا إليكم كأمثال الدّبَى سرعا(٤)
لو أن جَمْعَهُمُ راموا بهدّتهم   شمّ الشماريخ من ثَهْلان لانصدعا(٥)
فَقَلّدوا أمركُم لله دَرُّكُمُ   رحْبَ الذراع بأمر الحرب مضْطلعاً(٦)

فأوقع بهم فعمهم القتل ، فما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع بعد ذلك أكتاف العرب فسمى بعد ذلك سابور ذا الأكتاف ، وصحيفة المتلمس مشهورة ، وفى كتب الأدب مذكورة ، وكانت على ذلك الأسلوب أيضاً ، ولا بد من ذكر خبرها وقصتها المستطرفة .

---

(١) قوله « يأتيكم دلاقا » أى مسرعا مندفعا . والقتاد : شجر صلب له شوكة كالابر . ويضرب به المثل فى الخشونة والشدة كما قال أبو تمام :

نبا خبر كأن القلب أمسى * يجر به على شوك القتاد

(٢) الكتائب جمع كتيبة وهى الطائفة من الجيش مجتمعة . (٣) السراة : جمع سرى وهو الرئيس ونصع الأمر : اذا وضح (٤) الدبى : أصغر الجراد والنمل (٥) الشماريخ : رؤوس الجبال . وثهلان : جبل (٦) أنظر ص ١١٤ من هذا الجزء

صحيفة المتلمس

إن المتلمس (وهو شاعر مشهور اسمه جرير بن عبد المسيح) وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو المذكور ، فنزلا منه فى خاصته ، وكانا يركبا معه للصيد فيركضان طول النهار فيتعبان ، وكان يشرب فيقفان على بابه النهار كله ولم يصلا إليه فضجر طرفة ، فقال فيه :

فَلَيْتَ لنا مكانَ المَلْكِ عمروٍ رَغُوثًا حَوْلَ قبتنا تخور[1]

لعمرُكَ إن قابوسَ بنَ هندٍ لَيَخلِطُ ملكه نُوْكٌ كثير[2]

وقال أيضاً :

ولا خَيْرَ فيه غَيْرَ أن له غنى وأنَّ له كَشْحًا إذا قام أهْضَمَا[3]

تظلُّ نساء الحى يعكفْنَ حوله يَقُلْنَ عسيبٌ من سَرَارةِ مَلْهَمَا[4]

فى أبيات مشهورة ؛ فبلغ ذلك عمرو بن هند فهمّ بقتل طرفة ، وخاف من هجاء المتلمس له لأنهما كانا خاليلين ، فقال لهما : لعلكما اشتقتما لأهليكما ! فقالا : نعم ! فكتب لهما بصحيفتين وختمها ، وقال لهما : اذهبا إلى عاملى بالبحرين ، فقد أمرته أن يصلكما بجوائز ! فذهبا فمرّا فى طريقهما بشيخ يحدث ويأكل تمراً ويقصع قملاً ، فقال المتلمس : ما رأيت شيخاً كاليوم أحمق من هذا ! فقال الشيخ : ما رأيتَ من حمقى أُخرجُ خبيثاً وأدخل طيباً وأقتل عدواً ! وإنَّ أحمقَ منى من يحمل حتفه بيده وهو لايدرى ! فاستراب المتلمس بقوله وطلع عليهما غلام من أهل الحيرة فقال له المتلمس : أتقرأ يا غلام ؟ قال : نعم ! ففض الصحيفة وقرأها فإذا فيها : إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً !

---

(١) الرغوث : كل مرضعة . وتخور : تصيح (٢) النوك : الحمق . (٣) الكشح : الخصر . والاهضم . الدقيق (٤) العسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها والسرارة : خيار الشىء وصفوته . وملهم : موضع كثير النخل . شبه كشحه الاهضم بجريدة نخل من خيار نخل هذا المكان

فقال لطرفة : ادفع إليك صحيفتك فإن فيها مثلَ هذا ! فقال : كلا ! لم يكن ليجترئ عليّ ! فقذف المتلمس بصحيفته فى نهر الحيرة وقال :

قذفت بها فى اليم من جَنْبِ كافرٍ كذلك أقْنُو كلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ (١)
رضيت لها بالماء لما رأيتها يَجُولُ بها التَّيَّارُ فى كل جَدْوَلِ (٢)

ثم مضى المتلمس إلى هشام ، وذهب طرفة إلى عامل البحرين فأعطاه صحيفته ، ففصده من أكحليه فنزف (٣) حتى مات ، وقيل فى قتله غير ذلك (٤) . ومن قوله فى السجن يخاطب عمرو بن هند :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتى ولم أعطِكُم بالطوع مالى ولا عرضى
أبا منذرٍ أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهونُ من بعض (٥)

تغير أسلوبهم

ثم تغيرت عوائدهم فى ذلك فكانوا يبتدئون فى كتبهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ثم يذكرون مقاصدهم ، وفى (أدب الكتاب للصُّولى) بسنده : أن قريشاً كانت تكتب فى جاهليتها باسمك اللهم ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك ، ثم نزلت سورة هود وفيها « بسم الله مجريها ومرساها » فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتب فى صدر كتبه : بسم الله ، ثم نزل فى سورة بنى إسرائيل « قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى » فكتب : بسم الله الرحمن ، ثم نزل فى سورة النمل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فجعل ذلك فى صدر الكتب إلى الساعة ؛ وغير الصُّولى ذكر مثل ذلك أيضاً ؛ ونقل المسعودى فى المروج عن جماعة منهم ابن السائب الكلبى

---

(١) أقنو : اتخذ ، والقط : الصك تكتب فيه الجائزة (٢) التيار : الموج ، والجدول : النهر الصغير . (٣) الأكحل : عرق فى الذراع يفصد . ونزف دمه : سال حتى أفرط (٤) لهذه الحكاية مثال فى تاريخ قدماء اليونان تعزى الى بليروفون Bellérophon (٥) راجع ص ١١١ من هذا الجزء .

أن أول من كتب من قريش (باسمك اللهم) أمية بن أبى الصَّلت الثقفى ، وذكر فى سبب ذلك قصة طويلة لا غرض لنا فى نقلها ؛ ومنهم من كان يكتب بعد البسملة : من فلان إلى فلان ، ثم التحية ، ثم يأتى (بأما بعد) ثم يذكر مقصده بأوجز عبارة ؛ وقد اختلف فى أول من ابتدأ ذلك على أقوال ذكرها الصُّولى ، وعقد لذلك فى كتابه باباً أطال الكلام فيه ؛ وعن أبى حاتم السجستانى فى كتاب المعمَّرين عند ذكر قُسّ بن ساعدة : أنه أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا ، وأول من قال : أما بعد ، وهو أول من كتب : إلى فلان ابن فلان ؛ ورجح الصولى أن أول من قال « أما بعد » كعب بن لؤى وكان أول من سمى « الجمعة » وكانت تسمى « العروبة » قال : وهى فصل الخطاب ، ومعناه على هذا أنه إنما يكون بعد حمد الله ، أو بعد الدعاء ، أو بعد قولهم من فلان ابن فلان إلى فلان ، فيفصل بين الخطاب المتقدم و بين الخطاب الذى يجىء بعد ، ولا تقع إلا بعد ما ذكرناه ، ألا ترى قول سابق البربرى لعمر بن عبد العزيز :

باسم الذى أنزلت من عنده السور ... الحمد لله أما بعد يا عُمَرُ !
فإن رضيت بما تأتى وما تذر ... فكن على حذرٍ ، قد ينفع الحذر !

قال : والمعنى فى أنها لا تقع مبتدأة أن المراد بها أما بعد هذا الكلام (يعنى الذى تقدم) فإن الخبر كذا وكذا . ثم أطال الكلام فى وجوب ذكر الفاء بعد أما بعد ، و بيان معناها ؛ وكان من عوائد العرب فى كتبهم أيام جاهليتهم إذا كتبوها نثراً لم يلتزموا فيها السجع بل أرسلوه إرسالا ؛ والسجع لم يلتزمه منهم إلا الكهان ، واستعمالهم فى الخطب والوصايا قليل ، وذلك لأنهم جبلوا على الميل إلى السهل من كل شىء والنفرة من كل متكلف فى أفعالهم وأقوالهم وغير ذلك ، والسجع لكونه متكلف الألفاظ مما تنفر عنه الطباع ، وتمجُّه الأسماع ، والمستحب منه هو مقدار يجرى من الكلام مجرى الطراز من الثوب ، والعلم

من المطرف[1] ، والخال[2] من الوجه ، والعين من الإنسان ، والسّواد من الحدقة ، والإشارة من الحركة ؛ وقد علمت أنه متى كثرت الخيلان من الوجه وغمرته كان ترادف أجزاء السواد ذاهباً ببهجة تمام الحسن .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن رومان أنه قال : كتب سليمان عليه السلام (بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن داود إلى بِلْقِيس ابنة ذى شرح وقومها : أَلَّا تعلوا علىّ وأْتونى مسلمين) وقد حكى ذلك الكتاب الكريم ، فلما وصل الكتاب إلى بلقيس ، واطلعت عليه ، وصفته بالكرم لكونه مختوماً . وفى الحديث « كرم الكتاب ختمه » وعن ابن المقفع « من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به » . وهكذا كان أسلوب العرب فى تراسلهم ، ومكاتبات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الملوك وغيرهم أيضاً على هذا الأسلوب ، وهكذا كان أسلوب أهل الصدر الأول والثانى ، وهكذا إلى أن تغير ذلك الوضع بما هو مذكور فى كتب الإنشاء من الألفاظ المتكلفة ، والأساليب التى ينفر عنها الطبع ، وما أحسن ما كان عليه العرب ، وما أسهله ، وما أعذبه وألطفه ! وعرب نجد إلى اليوم على طريقة أسلافهم فى ذلك الأسلوب . وقد ذكر الصُّولى فى (أدب الكتاب) عوائد المتأخرين فى سائر فنون مكاتباتهم ومراسلاتهم ، وكيف يخاطب الناس ملوكهم ، والملوك أمراءهم ورعاياهم ، وكيف يخاطب الناس بعضهم بعضا ، وكيف المنشورات والتقاليد وغير ذلك من كتب العهد والتولية والقضاء ؛ وأفرد باباً فى بيان ما يتكاتب به الناس فى عصره ، و بقيت للعرب سنن وعوائد التزموها فى كتبهم ، منها : الابتداء بالبسملة من حاشية القرطاس ، ثم التحية من تحتها ، ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلا بقليل ، ولا يكتبونها وسطاً ويكون الدعاء فاضلا ؛ وكان من الكتاب الإسلاميين من يرى أن يجعله وسطا فى أسفل الكتاب بعد انقضاء الدعاء الثانى ، والتاريخ إذا

---

(١) ثوب من خز له أعلام (٢) الشامة ، والجمع خيلان

احتاج إلى تبيين نسخة كتاب متقدم أو حساب ليفرق بين منزلته من صدر الكتاب و بين عجزه ؛ وقد ذهب إليه قوم ، ولا يفسح ما بين البسملة و بين السطر الذى يتلوها من الدعاء ، ولكن يفسح ما بين الدعاء إذا استتم و بين سائر المخاطبة ولا يتجاوز بالدعاء ثلاثة أسطر ، ولا يستتم السطر الثالث على المشهور من مذاهب أجلاء الكتاب الإسلاميين ؛ ومنها تتريب الكتاب وتطيينه ، و إعادة النظر عليه بعد الكتابة ، والخاتم وآدابه ، والعنوان ، وغير ذلك مما كانوا عليه ؛ وقد بسط الصُّولىّ الكلامَ على هذه الأمور فى (أدب الكتاب) .

ما كان يكتب فيه العرب

لم يكن للعرب قبل الإسلام القرطاس المعهود اليوم ، و إنما ظهر هذا عند العرب سنة العشرين بعد المائة من الهجرة النبوية ، وهم الذين اخترعوه على قول بل كان القرطاس عندهم يومئذ كل ما يمكن أن يكتب عليه كالرق (بفتح الراء وهو جلد رقيق تحسن الكتابة عليه) وهو أغلب قراطيسهم ، وكذلك فى صدر الإسلام ، ومنه قوله سبحانه (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور) وربما كانوا يكتبون على العسب والجريد وما شاكل ذلك ؛ وكما كانوا يسمون ما يكتب عليه بالقرطاس يسمونه (مُهْرَقاً) و (صحيفة) و (سفراً) وقد ورد ذكر القرطاس فى التنزيل وكذلك الصحف والأسفار : وهو مما يدل على معرفتهم به وشيوعه بينهم ؛ وكانت العرب تشبه المنزل إذا خلا ودرجت عليه الريح وصار أرضاً بالمُهْرَق ، قال الأعشى :

سلا دارَ ليلى هل تبين فتنطق وأنَّى تردّ القولَ بيضاء سَمْلَقُ ![1]
وأنّى تردّ القولَ دارٌ كأنها لطول بلاها والتقادم مُهْرَقُ !

وشبه أبو نواس الناقةُ البيضاء بالقرطاس فقال من أبيات :

« يَقِق كقرطاس الوليد هجان[2] »

(١) السملق : القاع الصفصف (٢) أبيض يقق : شديد البياض

خصَّ قرطاس الوليد لأنه معه كالرسم لم يكتب فيه بعد ، والهجان : الكرام من الإبل وغيرها ، وقد استوفى جعفر بن حمدان الكاتب وصف القرطاس بقوله :

في يديه من القراطيس كالمز ... نة جادت بواكفٍ مدرارِ(١)
كالملاء الرّحيض كالبيض بيض ... الهند، كالبيض، كالمياه الجوارى(٢)
كالسراب الرقراق في عنفوان الصيـ ... ـف نصف النهار في أيار(٣)
ما تبالى أجلت عينك فيه ... حين يطوى أم في خصور العذارى؟
يسبح الخط فيه عفواً فما يكـ ... ـبو بوعْثٍ فيه ولا بجبار(٤)

والكلام في هذا الباب يطول ، وما ذكرناه فيه الكفاية ، وبالله التوفيق .

حساب العرب أيام جاهليتهم

كان للعرب حساب غير ما هو المعهود اليوم ، فإنه مما يحتاج إلى آلة فاجتنبوه ورأوا أن ما قلت آلته وانفرد الإنسان فيه بآلة من جسمه ، كان أسهل وأفيد وأنسب لغرضهم ، وهو حساب عقود الأصابع ، وقد وضعوا كلا منها بأزاء عدد مخصوص ، ثم رتبوا لأوضاع الأصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً ، ووضعوا قواعد يتعرف بها حساب الألوف فما فوقها بيد واحدة ، وقد ألف فيما ورد عنهم من ذلك عدة رسائل ، منها : رسالة شرف الدين اليزدى وهى من أحسن ما ألف في هذا العلم ، ونظم فيه أراجيز كثيرة ، منها : أرجوزة لطيفة لابن حرب أورد فيها ما يحتاج إليه من هذا العلم ، ومنها أرجوزة أبى الحسن على الشهير بابن المغربى

(١) الواكف : المطر ، والمدرار : الكثير الدر ، أى السيلان (٢) الملاء جمع ملاءة وهى الريطة ذات لفقين ، والرحيض : المغسول (٣) السراب : ماتراه نصف النهار كأنه ماء ، والرقراق : المتحرك ، وعنفوان الشيء بالضم أوله أو أول بهجته . (٤) كبا يكبو : انكب على وجهه ، والوعث : الطريق العسر ، والجبار : الاثر .

وقد شرحها عبد القادر بن على بن شعبان العوفى ، وأورد فى شرحه فوائد كثيرة تتعلق بهذا العلم [١] ، وما روى عن العرب من الشعر المشتمل على هذا الحساب ، ولشمس الدين محمد بن أحمد الموصلى الحنبلى رحمه الله منظومة موجزة فى بيان قواعد هذا الحساب مشتملة على لب لبابه ، وهى هذه بعد البسملة :

بِحَمْدِكَ ياربّاه أبدأ أولاً ... فمازلت أهلا للمحامد مفضلا
وأتبع حمدى بالصلاة على الرضا ... أبى القاسم المهدىّ خير من أرسلا
ومن بعد هذا أيها السائل استمع ... حساب اليد إذْ عنه سلْتَ مفصلا
ففى عـدد الآحاد ياصاح أفردن ... ليمنى يديك اعلم و إياك تجهلا
فللواحدا قبض خنْصِراً ثم بنْصِراً ... للاثنين والوسطى كذاك التـكملا
بعدٍّ ثلاث ثم للخِنْصِر أرفعنْ ... بأربعة والبنصِر الخمسة أكملا
وفى الستة اقبض بنصِراً دون كلها ... على طرف للراحة اسمعه وانقلا
وفى السبعة اقبض تحت الابهام خنصراً ... وفى طرف للراحة القبض فاجعلا
وللبنصر ارفع ثم فى الثامن اضممنْ ... إلى خنصر فى القبض للبنصر اعقلا
وفى التسعة الوسطى اضمن معهما وفى ... جميع الآحاد افعلن ذا و إن علا
وفى عشرة مع عقد الإبهام فاستمع ... تحلق رأساً للمسبحة افعلا
وللظفر من ابهامك اجعله بين إص ... بعيك هى العشرون فاعلمه واعملا
وما بين رأس للمسبحة اجعنْ ... ورأس للابهام الثلاثون حصلا
و إن تركب الابهام ياصاح فاحتفظ ... لسبابة للأربعـين مكملا
وابهامك اجعل تحت سَبابةٍ إذا ... تعمدت للخمسين فاحفظْه تـكملا
وتركب الابهام المسبحة استمع ... كقابض سهم وهى ستون احملا
وعدك للسبعين فى بطن ثالث ... لسبابة ابهامك اعقده تجملا

---

(١) نشرتها (أنا) مع شرحها « لوح الحفظ » فى الجزء الثانى من المجلد الخامس من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق .

والإبهام من تحت المسبحة اجعلنْ بنانا على ظفر ثمانين أكملا
وفى عدّ تسعين المسبحة اقبضنْ لما بين إبهام وما بينها اجتلى
وابهامك اجعل فوقها مثل حيّة تروم وثوباً والمئين الا اجعلا
بيسراك كالآحاد ياذا العلوم مِنْ يمينك فاحفظْهُ وإياك تعولا
كذا العشرات من يمينك انها بيسراك يا هذا الوف على الولا
وعشرة آلاف لابهامك اجمعن وذلك مع سبابة يا أخا العلا
بيسراك وامهده كحلقة استمع اذا طُوِيَتْ والرأس فاجعله أسفلا
وقد نجزت والحمد لله وحده ميسرة تبغى أخا مفضّلا
يسامحها فيما يرى من عيوبها فما أحد عن ذاك ياصاحِ قد خلا
فخذها عروساً قد سمت شمس ضحوة و بدر دياجٍ قد بدا متهللا
فإن تمتنع كالبكر عند امتناعها على بَعلها عند الزّفاف تدللا
فصفت لها ذهناً غزيراً محوّداً وغُصْ فى بحار الفكر ثم تأمّلا
ترى لمعانيها بُزُوغاً ككوكب ويأتيك منها العلم والفضل مُقبلا

— و بعض أهل الفضل ذكر فى بيان مراتب الأعداد فى العقد مانصه : عند العشرة تجعل السبابة حلقة ، والعشرين تجعل الإبهام بين السبابة والوسطى ، والثلاثين تجعل رأس السبابة على رأس الإبهام ، والأربعين تجعل رأس الإبهام خلف السبابة ، والخمسين تجعل الإبهام جالساً ، والستين تجعل ظهر رأس الإبهام على الفصل الأعلى من باطن السبابة ، والسبعين تجعل رأس الإبهام على الفصل الأسفل من باطن السبابة ، والثمانين تجعل رأس السبابة على ظفر الإبهام ، والتسعين تجعل السبابة حلقة غير مجوفة ؛ المائة تجعل رأس السبابة اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرة ؛ المائتين تجعل الإبهام اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرين ، وعلى هذا القياس إلى الألف فى كل مائة كما فى العشرات لكن اليد اليسرى ؛ ثم تأخذ الألف كما تأخذ الآحاد إلى العشرة من اليد اليسرى ، ثم تأخذ العشرة

الآلاف ، وهو أن تجعل جنب رأس الابهـام على جنب رأس السبابة انتهى .
وبقى كلام كثير يطلب من محله ؛ وقـد ورد حساب اليد فى عـدة أحاديث ،
وفى كلام كثير من رجال الصـدر الأول وأجلة السلف ، وبه ينحل كثير من
أبيـات المعانى التى حيرت الأفهام . (ومن العرب) من كان يحسب بالحصى
و يضبط عـدده به كما دل عليه شعرهم . قال الأعشى ميمون من أبيـات فضل
فيها عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة :

إنْ ترجع الحقّ إلى أهله ... فلستَ بالمسدى ولا النائر(١)

ولستّ فى السِّلم بذى نائلٍ ... ولست فى الهيجاء بالجاسر(٢)

ولستَ بالأكثر منهم حصًى ... وإنما العزّةُ للكاثر

ولست فى الأثرين من مالك ... ولا أبى بكر أولى الناصر(٣)

هُمْ هامةُ الحى إذا مادعوا ... ومالك فى السؤدد القاهر

الحصى · العـدد والمراد به هنا عـدد الاعوان والأنصار . قال بعض شارحى
هـذه الأبيات : وانمـا أطلق الحصى على العـدد لأن العرب أُميون لا يعرفون
الحساب بالقلم ، وانما كانوا يعدون بالحصى وبه يحسبون المعدود ، واشتقوا منه فعلاً
فقالوا : أحصيت ، ومن العرب من كان لا يحسن الحساب أصلاً حتى نقل الصولى
فى كتاب (أدب الـكتاب) أن بعض العرب باع جوهراً نفيساً بألف درهم فقيل
له : كان يساوى أكثر من هـذا فقال : ما ظننت أن عـدداً أكثر من ألف !

---

(١) المسدى : من السدى وهو مامد من الثوب . والنائر : اسم فاعل من نرت الثوب نيرا بالفتح جعلت له نيرا بالكسر وهو علم الثوب وهدبه ولحمته . وهذا مثل يضرب فى التبرى من الشىء كقولهم « لافى العير ولا فى النفير » وهذا خطاب مع علقمة (٢) النائل : بمعنى النوال وهو العطاء . والهيجاء : الحرب . والجاسر : من الجسارة وهى الجراءة والشجاعة .

(٣) الاثرين : جمع أثرى جمع تصحيح بمعنى ذى ثروة . ومالك : هو جد عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأبو بكر : عم جده واسمه عبيد (بالتصغير) ابن كلاب بن ربيعة المذكور بأبو بكر أخو جعفر بن كلاب . . .

فلذلك كانوا يمدحون من يحسن الحساب والعدد ، ويصفونه بالحذق ، وينسبونه الى حكمة وعدل ، قال النابغة للنعمان فى اعتذاره :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نَظَرَتْ ... إلى حمام سِراعٍ وارد الثَّمَدِ [1]

قالت : ألا ليتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فَقَدِ [2]

فحسّبوه فألْفَوْهُ كما زَعمَتْ ... تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يَزِدِ [3]

فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسْرعَتْ حِسْبةً فى ذلك العدد [4]

يريد كُنْ حكيماً فى إنصافى كما حكمت جارية كانت لها حمامة فرأت قطاً فحزرته ستاً وستين فقالت . ليت الحمام ليه ، الى حمامتيه ، أو نصفه قديه ، ثم الحمام مايه ! قالوا : وكانت لها قطاة ، وجعلت القطاة حماماً . وهذا قول الأصمعى ، وبعضهم قال : أراد النابغة أحكم علىّ بعدل كما حكمت هذه الفتاة فى العدد فأصابت ! والأول أجود . أفلا ترى إلى النابغة كيف حكى هذا ، ونسب تلك الفتاة إلى حكمة وعدل حين أحسنت العدد ؟ قال أبو عبيدة : وكان يقال للجارية (الزرقاء) واسمها (عنز) وكانت من جديس . وقال غيره : القائلة لهذا هند بنت الخس ، وقد مر الخلاف عند الكلام على حكيمات العرب من الجزء الأول[5] . وكان حساب اليد مرجحاً على غيره بين الكتاب فى الدولة العباسية على ما ذكره الصُّولىّ فإنه قال : أجمع الحساب من كل جنس وملة بكل خط ولغة على أن تراكيب الحساب لا تعدو أربعة : عدد يضرب فى عدد ، أو قسمة عدد على عدد ، أو إلقاء عدد من عدد ، أو زيادة عدد على عدد . وتكلموا فى أوائل العدد ونهاياتها بكلام كثير أحسنه

---

(١) الثمد : الماء القليل . (٢) يستشهد النحويون بهذا على أن (ما) اذا اتصلت بليت فالاكثر اهمالها لعدم اختصاصها حينئذ بالاسماء ويجوز اعمالها كما وردت الرواية فى (الحمام) وقوله فقد أى فحسب . (٣) قوله : « فحسبوه » بعضهم يشدد السين لئلا تتوالى أربع متحركات . وبعضهم يخففها ويقول بجوازها فى (البسيط) وألفوه : وجدوه . (٤) أنظر تعليقنا على هذه القصة فى ص ٣٤١ من الجزء الاول . (٥) ص ٣٤٠ و٣٤١ و٣٤٢

ما قال الهند إن الأعداد تبتدئ من واحدة وتنتهى إلى تسعة ثم تكون العشرة راجعة إلى حال الواحد على الرتبة ، وعلى هذا وضعوا حروفهم التسعة ، وقالوا : الحساب الهندى أخرج لكثير العدد إلا أن الكتاب اجتنبوه لأن له آلةً ، ورأوا أن ما قلت آلته وانفرد الإنسان فيه بآلة من جسمه كان أذهب فى السر ، وأليق بشأن الرئاسة ، وهو ما اقتصروا عليه من العقد بالبنان و إخراج رؤوس (الجمل) فى أواخر التطور ، وحط التفضيلات عنها واحداً دون آخر وفرعاً دون أصل . قال : وَعُنِيَ بعض الكتاب بذلك حتى خف عقده ، وصار يلحق ببنانه مثل ما يلحق ببصره ولا يستبين الناظر مواقع أنامله ، قال : وقد شبه عبد الله بن أيوب أبو محمد التيمى وميض البرق بخفة يد الحاسب فقال :

أعنى على بارق ماطر　　خفى كواحيك بالحاجبِ
كأنَّ تألقَهُ فى السّما　　يدا كاتب أو يدا حاسب

وقال بعض الكتاب :

وناطق تخبر ألفاظه　　عن نَغمات العود بالزمر
بينا تراه عاقداً خمسةً　　وستة صار إلى عشر
وصار من بعد إلى واحد　　كحاسب أخطأ فى كسر

ومن أحسن ما قيل فى تشبيه يد الحاسب بوميض البرق بعد قول التيمى قول عنترة من أبيات :

وفرضتَ للناس الكتابة فاحتذَوْا　　فيها مثالك والعلوم فرائضُ
و إذا خططْتَ فأنت غيثٌ معشب　　و إذا حسبت فأنت برقٌ وامِضُ
و إذا نهضتَ فأنت نجم ثاقب　　و إذا جلست فأنت ليث رابِضُ
فيك التمثل حين ينعت فاضلٌ　　و إليك يُرْجَعُ حين يشكل غامِضُ

معايش العرب وأسبابها أيام جاهليتهم

كل أمة من الأمم لابد لها ما يقوم بضروريانها ، وسد فم حوائجها ، بأسباب متفاوتة ، وأعمال مختلفة ، يهديهم اليها خالقهم ، ويجعلها سبب أرزاقهم ؛ والعرب من الأمم القديمة التى مضى عليها أعصر متطاولة ربما كانت السبب فى خفاء كثير من أحوالهم على من بعدهم غير أنّ اللغةَ والشِّعْرَ يقيّدان كل شارد ، وينطقان بشؤون كل ما أسدل عليه حجاب الخفاء ؛ ومن المعلوم أن أسباب المعايش والكسب وأصولها منحصرة فى أمور ، منها :

التجارة

وهى من أشرف الأسباب وأعلاها قدراً ، ولهذا ورد فى الحديث (التاجر الصدوق مع الكرام البررة) ويدخل فيها كل بيع وشراء ، وكانت من أهم أسباب معايشهم لاسيما سكنة الحجاز ونجد وما شابههما من الأقطار المقحطة والبلاد القليلة الخِصْب ؛ وكانت العرب على ماذكر فى فتح البارى شرح صحيح البخارى تتمادح بكسب المال ولاسيما قريش ، وكان النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم محظوظاً فى التجارة ، وكان لقريش فى السنة رحل أربع على ماذكره بعض المفسرين فى تفسير سورة قريش ، فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف : أحدهما هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به فى تجارته إلى الشام . الثانى : عبد شمس وكان يؤالف إلى الحبشة . والثالث : المطلب وكان يرحل إلى اليمن . والرابع : نوفل وكان يرحل إلى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتجرين ، فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الأخوة فلايتعرض لهم أحد . وفى هؤلاء الأخوة يقول الشاعر[1] :

---

(١) ج ٢ ص ٢٨٤

يا أيها الرجلُ المحوِّلُ رحله هَلاَّ نزلتَ بآل عبد منافِ
الآخذونَ العهدَ من آفاقها والراحلونَ لرحلة الإيلافِ
والرائشون وليس يوجد رائشٌ والقائلونَ هَلُمّ للأضيافِ
والخالطونَ غنيَّهُم بفقيرهم حتى يصيرَ غنيهم كالكافي

« وقال مساور بن هند يهجو بني أسد »

زعمتم أنّ أخوتكم قريشٌ لهم إلف وليس لكم إلافُ
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وقد جاعَتْ بنو أسدٍ وخافوا

ومن المفسرين من قال : كان لقريش رحلتان رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى بصرى من أرض الشام ، كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ؛ وكانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى ، وولاة بيته العزيز ، فلا يتعرض لهم ، والناس بين مختطف ومنهوب ؛ وعلى ذلك نزلت السورة الكريمة . وذكر عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن السبب فى هاتين الرحلتين هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا[1] إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له تِربٌ[2] من بنى

---

(١) هذا من أوابدهم فى الجاهلية ويسمى (الاعتقاد) : قال الزمخشرى فى الاساس : « اعتقد الرجل اذا أغلق الباب على نفسه ليموت جوعا ولا يسأل . ولقى رجل جرية تبكى فقال : مالك ؟ قالت : نريد أن نعتقد . وأنشد ابن الاعرابى :

وقائلة ذا زمان اعتقاد ومن ذاك يبقى على الاعتقاد »

وفى التاج وغيره عن محمد بن انس « أنهم كانوا اذا اشتد بهم الجوع أغلقوا عليهم بابا وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعا ، وقال النظار بن هاشم الاسدى :

صاح بهم على اعتقاد زمان معتقد قطاع بين الاقران

قال شمر : وجدته فى كتاب ابن بزرج : اعتقد الرجل بالقاف وذلك أن يغلق عليه بابا اذا احتاج حتى يموت » .

وقد كانوا يفعلون ذلك ترفعا عن ذلة السؤال وخساسة الاجتداء . وقوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » وما ورد من مثله فى الصحيح مبطل لهذه الفعلة الشنيعة ، والعادة الجاهلية الفظيعة . (٢) أى لدة ، وهما مترادفان الذكر والانثى فى ذلك سواء ، يقال : هذه ترب هذه أى لدتها ، وقيل : الترب من ولد معك .

مخزوم يحبه و يلعب معه ، فشكا إليه الضر والمجاعة ، فدخل أسد على أمه يبكى ، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع ، فقام هاشم خطيباً فى قريش فقال : إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع ، قالوا : نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف ، فجمع كل بنى أب على الرحلتين فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنىّ قسمه بينه و بين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش . وهذا معنى قول شاعرهم فيهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

هذا ما كان من أمر قريش ، وسائر أهل الحجاز . وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ، ومعايشهم وافرة ، لما فى بلادهم من من الخِصْب والرخاء ، والذخائر المتنوعة ، والمعادن الجيدة ، وغير ذلك من أسباب الثروة والغنى . وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم فى الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب فى رفاهية العيش ، ورواج التجارة ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق (كل سوق له موسم من السنة على ما أسلفناه فى الجزء الأول) فيجتمعون فيها للتجارات وغيرها . ولهم أسواق أخر غير ما ذكرناه لأجل ذلك . و يسمون السوق أيضاً القسيمة ، و يقولون : نفقت السوق أى راجت ، وانحمقت : كسدت ، والسوم : عرض السلعة على البيع ، و بعته ناجِزاً بناجزٍ[1] و يداً بيد ، والناجش الذى يزيد فى ثمن السلعة ، وليست من حاجته لينفقها على صاحبها . وقد ورد فى الحديث النهى عن ذلك . و يقولون للذى يبيع البز : البزاز ، وللذى يبيع الثياب : السمسار وللذى يبيع الأكسية : الكساء ، وللذى يبيع الفرا : الفراء وللذى يبيع الرق : الرقاق ، وللذى يبيع الخل : الخلال ، وللذى يبيع البقول :

---

(١) اى تعجيلا بتعجيل ، وهو منصوب بأبيعك ونحوه . ويروى بالرفع .

البقال . وللذى يبيع الدهن : الدهان ، وللذى يبيع الرؤوس الرَّآس ، ولا يقال له رواس ؛ وللذى يبيع الطير الجدال ، والزجال الذى يرسلها من مكان إلى مكان ، وللذى يبيع العطر العطار ، وللذى يبيع الأدوية الصيدلانى والصيدنان ، وللذى يبيع اللؤلؤ اللآل ، وللذى يبيع الآلية اللاء . ومنها :

الصنائع

وهى أيضاً من أسباب المعايش المحمودة ، وورد فيها « الحرفة أمان من الفقر » وكان فى العرب صنائع تقوم بما تَمَسُّ إليه حوائجهم ، وتقتضيه ضرورياتهم ، ولا بد لهم منها ، لا سيما البلاد التى قدم عليها عهد الحضارة . وقد تكلم ابن خلدون فى مقدمته على هذا الموضوع ، وذكر أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وعلّل ذلك بأنهم أعرق فى البدو . وأبعد عن العمران الحضرى ، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها ، وقد أطنب فى بيان ذلك إلى أن قال : وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحِمْير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة ، واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع ورسخت ، فلم تبل ببلى الدولة ، فبقيت مستجدة حتى الآن ، واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشى والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها . وذكر رحمه الله فصولا مهمة فى هذا الباب لها من الحقيقة أوفر نصيب ؛ بَيْدَ أَنّى أذكر ما كان للعرب من أمهات الصنائع التى زاولوها للقيام بحاجاتهم ، وإن قلت فيهم ، ولم تصل إلى نهاية الاتقان ، ولم تبلغ نصاب الكمال فإنى بصدد بيان أسباب معايشهم على أن الكثير منهم كان بمعزل عن ذلك لما جبلوا عليه من الميل إلى المعالى ، والتفاخر بالشجاعة والفروسية ، والتفاضل بالإقدام والجراءة ، والوفاء بالعهود ،

والقيام بواجب الأضياف ، وحفظ الذمار والذمام والكرم ، وغير ذلك من الشيم وعلو الهمم ؛ والقائم بأمر الصناعة لديهم دون غيره فى المكانة والشرف فدونك ما كان لديهم من الصنائع التى مست إليها حوائجهم ، وهدتنا إليها لغتهم — فمنها :

صناعة البناء

هذه الصناعة كانت منحصرة لأهل الحضر من العرب لأنهم الذين تمس إليها حوائجهم . وهى معرفة العمل فى اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان فى المدن . وعلل ذلك ابن خلدون فى مقدمته : بأن الإنسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها ، ثم ذكر كلاماً مفيداً يتعلق بهذه الصناعة ليس من غرضنا ، والقائمون بهذه الصناعة من العرب متفاوتون فيها فمنهم البصير الماهر ، ومنهم القاصر ؛ وكانت فى اليمن أبنية عظيمة ، وقصور مشيدة ، وكذلك فى غيرها كما ذكره الأصبهانى فى كتاب (جزيرة العرب) وأبنيتهم كانت متفاوتة . فمنها البناء بالحجارة ، ومنها البناء باللبن ، ومنها البناء بالآجرّ ، ومنها البناء بالطين والتراب ؛ وهى على أوضاع مختلفة ، وأشكال متفاوتة ، وتفصيل ذلك لا يليق بهذا المختصر . فمن أبنيتهم الدار . ويقال لها : الدارة والمنزل والمنزلة والمباءة والمعان والوطن والمغنى والمثوى والمربع ، ويقال لصحن الدار : حُرّ الدار وقاعتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبحبوحتها ؛ وفى الدار البيت وجمعه أبيات والكثير البيوت ، والمخدع البيت فى البيت ، والنّفق والسّرب البيت تحت البيت ، والغرفة فوقه وهى العلية وجمعها علالى ، والخِزانة وهى التى يحفظ فيها الشىء ، قال امرؤ القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه   فليس على شىء سواه بخزان [١]

---

(١) راجع ص ١٠١

والمرقد المضجع والحائط والجدار ما أطاف من البناء بالشى ، والأُسُّ أصل الحائط والرِّهص البناء من الطين الموطوء يُنَضَّدُ بعضه فوق بعضٍ طريقةً طريقةً ويقال لكل عرق من الحائط دِمص ما خلا العرق الأسفل فإنه رهص ، والخط الواحد منه ساف والجمع أسؤف وسؤف . ويقال للصف الواحد من اللبن أيضاً سأف فإذا أقيم الآجرّ بعضه فوق بعض فهو السميط ، ويقولون : ارتفع الحائط إذا بلغ أن يوضع عليه عقد الأزَج أو أن يغمى أو أن يقبب أو أن يسنم ، وبيت مغمى إذا سقف بالخشب ، والغماء ما يغمى به ، وبيت مقبّب ومسنَّم على هيئة السنام فى تضايق أعلاه واتساع أسفله ، والبرزخ الفُرْجَةُ بين الأزجين فى صَهْوَةِ البيت ، والهدَف تُرْس الأزج .

وفى الدار الصُّفة وجمعها صِفاف ، ومنها الشرقية التى تقابل المشرق ، والغربية التى تقابل المغرب ، والفراتية التى لا تقع الشمس فيها رأساً ، والمقنوءة مكان ظله دوم كالأماكن التى يجمد فيها الماء ، وبحذائها المشرقة ، والزاوية ملتقى الحائطين فى البيت ، والكوّة الثقب فى أعالى البيت ينفذ ، ويقال لها : الشاروق ، والمشكاة التى فى الحائط يقال لها الأوقة ويقال بيت مأوّق . قال امرؤ القيس :

وبيت يفوح المسك فى حجراته بعيد من الآفات غير مُأوَّق

ويقال للسطح : الإجار والصَّهوة ، وسقف البيت أعلاه الداخل ، وسمكه ما بين قراره إلى سقفه . والطّاية السطح ومربد التمر . والدرج ما يُرتقى فيه إلى السطح فإن كان من خشب فهو السُّلَّم ، والعَتَب الدَّرج وكل مِرْقاة منها عتبة والجمع عتب وعتبات ، والفَرْع الخلاء بين المِرْقاتين ، والتفاريج والطُّنُف آجرٌّ أو نحوه يجنح به أعلى الحائط ليقيه المطر أن يسيل عليه ، وهو السكنة والإفريز وأفرز حائطه وطنّفه ، وفى نحوه ، قال الهذلى :

وماضَرَبٌ بيضاء يأوى مليكها إلى طُنُف أعيا براقٍ ونازلِ [1]

---

(١) الضرب : العسل الابيض .

والعِلاوة أعلى الحائط الذى لا يُغَمَّى ، وقد يكون الطنف قراميد ، ويقال واحدها قرمد وهو الآجر الطويل . قال :

أَوْ دُمْيَةٍ فى مَرْمَرٍ مرفوعة بُنِيَتْ بآجرّ يُشادُ بِقَرْمَدِ[1]

ويقال : الهَرَادة من الخشب لأعالى الحيطان ، والنَّجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره ، والعَرْس حائط أو اسطوانة يقام فى البيت يوضع عليها طرف الجائز وهو العارضة ، والروافد خشب فوق العارضة ، واللَّبِن واحدته لَبِنة ، واللَّبَّان الذى يضرب به ، والملبن الذى يُضرب به ؛ والسابَلُ الذى ينقل عليه ، والسَّميقان والأسمقة خشبات يدخلن فى السابل ، والطُّوب الآجرّ والطَّوَّاب الذى يطبخ أتُّونه ، والأطيمة أتّون الجرار والقِصاع ونحوها ، والبَلاط الحجارة تُفْرَشُ بها الأرض ، يقال : دهليز مُبَلَّط ودار مفروشة بالآجرّ والبلاطِ ، ويقال للبنَّاء : الهاجرى . قال لبيد :

كَعَقْرِ الهاجرى إذَا بناه بأشباهٍ حُذين على مثالِ[2]

والهاجرى : نسبة إلى قبيلة ، وأول من بنى كان من هذه القبيلة ، وقال الجوهرى : وهاجرى نسبة إلى هجر ، ومنه قيل للبناء هاجرى ، والطَّيَّان الذى يطين الحائط والسطح ونحوها ، والملاط ما رقّ من الطين ونحوه السَّياع ، ويقال للمالج الذى يمسح به وجه الحائط المِسْيَعَةُ والمِسَجَّةُ والمِطْمَرُ الخيط الذى يقدر به البناء ، والشِّيد والقِصُّ الجصُّ ، والجصَّاصة موضع الجص ، والملاحة مَجْمَدُ الملح . والثَّلاجة مكبِس الثلج ، والجيَّار والكاس الصَّاروج . قال الجوهرى : الصاروج النورة وأخلاطها فارسىّ معرب ، وكذلك كل كلمة فيها صاد وجيم لأنهما لا يجتمعان فى كلمة واحدة من كلام العرب .

وفى الدار الكنيف وأصله الحظيرة ، ويقال له الُحْشُّ والُمسْتَرَاحُ والمَخرجَ ، فأما الكِرْياس فالكنيف على السطح بقناة إلى الأرض وربما كان ناتئاً مكشوفا

(١) الدمية : الصورة المنقشة من الرخام. ويشاد : يبنى (٢) العقر : القصر

والمِرْحاض المغتسَل ، وللمِرْزاب والميزاب جميعاً المِثْعَب ، ويكون من خشب وغيره ؛ والبالوعة ثقب فى وسط الدار ، وكذلك البلوعة والجمع البلاليع ، ويقال للأسطوانة الآسية والسارية . قال جرير :

وجدنا بيتَ ضَبَّةَ فى مَعَدّ كبيت الضَّبِّ ليس له سوار(١)

وَطَوار الدارِ فِناؤها ، ومثله الجْناب والعَذِرة ، وجعلت اسما لما يقوم عنه الإنسان إذا كان يُلقى بها ، والنُّوىُ حاجز حوْل الخيمة يُحْفَرُ للمطر ، والدِّمنَ آثار الدار والكِرْس ما تلبد من الأبوال والأبعار ، والطلل ما شَخَص من الآثار ، والرَّوْسَم الرَّسْم وهو كل أثر لا شخص له .

وفى الدار المطبخُ وهو موضع الطبخ ، والمخبز موضع التنور ، والمِسْعَرُ والوطيس والتنور والهيلَمُ واحد ، والكرامة طبق التنور ، والمناقة حُجْرهُ ، والساعور تنور فى الأرض صغير .

ومما يتصل بالدار الإصْطَبْلُ ويجمع على اصطبلات وأساطب ، وفيه المَرْبط وهو الموضع الذى تربط فيه الدواب ، والمِرْبَطُ بكسر الميم الحبل الذى تربط به الدابة ، وفيه المعلف وهو موضع العلف ، والآرِىّ والآخية محبس الدابة ، يقال تأرى أى تحبَّس .

وفى الدار القصر ويقال له المِجْدَل والفَدَن والعَقْر والصرح وهو كل بناء مرتفع . والأُطُمُ والأجم الحصن وجمعهما آطام وآجام . قال قيس بن الخطيم :

فلولا ذُرَى الآطام قد تعلمونه وترك الفَلاشُور كنتم فى الكواعب(٢)

والسُّور حائط الحصن ، والرَّبَض حائط حول السور ، والشَّرَفُ ما أشرف فوق الحائط واستشرف الناس من ورائه أى رفعوا رؤوسهم ، والبلد ، ثم المدينة

(١) يقول : وجدنا شرف هذه القبيلة شرفا غريبا ضعيفا واهيا فيما بين العرب كبيت الضب الذى هو جحر فى الأرض لا دعامة له فاذا ضرب بأصغر معول تهدم عليه فكذلك بيت شرف هذه القبيلة . (٢) يقول : لولا أعالى الحصون التى عرفتم التجاءكم اليها وهربكم من الصحراء — لسبينا نساءكم وشركناكم فى النواهد منهن .

وهى أصغر من البلد ، ثم القرية وهى أصغرمن المدينة ؛ ومن أبنيتهم البُرْأة والقُتْرَة والناموس والدُّجية والقُرْموص وهى مواضع يستتر فيها من الصيد ، والمَرْقَب : موضع الطليعة وهو الدَّيْدَبان[1] ، والحِواء مكان الحىّ الحِلال ، والموسم مكان السُّوق . والمَحْفِل مجمع الرجال ، والمأتم مجمع النساء ، والنَّدِىّ مجمعهم للسَّمَر والحديث والمصطبة مجتمعهم لعظام الأمور ، والخان مكان مبيت المسافرين ، والحانوت مكان الشراء والبيع ، والسُّدَّة ما بنى أمام الحانوت ، والعِضادة حانوت صغير قدام الحانوت الكبير ، والحانة مكان التسوّق فى الخمر ، والماخور مكان الشرب فى منازل الخمارين ، والديماس الحمام ، والآتون موقد ناره ، هذا كله مما يدلك على أن القوم ممن كان له فى هذه الصناعة اليد الطولى ، والقدم الراسخة كيف لا وفى أرضهم المبانى القديمة ، والقصور المشيدة ! وقد بقيت إلى اليوم أطلالها ، ولم يمح من وجه البسيطة رسمها ولا مثالها !

بيوت أهل البادية من العرب

بيوت العرب على عشرة أنحاء : خِباء من صوف ، وبِجاد من وَبَر ، وفُسْطاط من شعر ، وسُرَادِق من قطن ، وقال الجوهرى السرادق واحد السردقات التى تمد فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف القطن فهو سرادق ، قال رُؤْبة :

يا حكم بن المنذر بن الجارود سرادق المجد عليك ممدود

ويقال بيت مسردق ، قال الشاعر يذكر أبرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة :

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه صدور الفيول بعد بيت مُسَرْدَقِ

ومن بيوتهم القَشْع وكانوا يتخذونه من الجلود ، والقَشْع : الجلد اليابس ، قال متمم بن نُوَيْرة يرثى أخاه مالكا :

---

(١) العراقيون اليوم يبدلون الياء زايا فيقولون : « الدزدبان » .

ولا بَرَماً تهدى النســاء لعرسه   إذ القَشْع من برد الشتاء تقعقعا[1]

والطِّراف بيت كان الأغنياء منهم يتخذونه من الأديم ، قال قائلهم :

رأيت بنى الغبراء لا ينـكروننى   ولا أهل هذاك الطِّراف الممدّد

وبنو الغبراء : هم الفقراء ، يريد أن الممدوح يعرفه الفقراء والأغنياء .

والحظيرة بيت كانوا يتخذونه من شَذَب وهو جمع شذبة بالتحريك وهو ما يقطع مما تفرق من أغصان الشجر ولم يكن فى لبه ، قال الجوهرى : والحظار الحظيرة تعمل للابل من شجر لتقيها الريح والبرد ، والمحتظر الذى يعمل الحظيرة ، والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر ، والجمع خيمات وخيم مثل بدرة وبدر ، والخيم مثل الخيمة والجمع خيام مثل فرخ وفراخ ، وتخيم بمكان كذا ضرب خيمته به والأُقْنة بيت يبنى من حجر والجمع أُقَن مثل ركبة وركب قال الطِّرِمّاح :

فى شَنَاظى أُقَنٍ بينها   عُرّة الطير كصوم النعام[2]

والـكُبّةُ بيت يبنى من لبن . وهذه البيوت العشرة لم يتفق عليها أهل اللغة بل اختلفوا فى بعضها ، وهذه البيوت لأهل البوادى أحب لديهم من القصور المشيدة والبيوت المزخرفة ، وفى ذلك يقول قائلهم :

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيـه   أحبُّ إلىَّ من قصرٍ مُنيفِ[3]

(وقال آخر)

الحسن يظهر فى شيئين رَوْنَقُه   بيت من الشِّعْر أو بيت من الشَّعَر

وسبحان من تصرف فى قلوب عباده كما شاء واختار ، ومنها :

---

(١) ج ١ ص ٧١ (٢) شناظ كثمان جمع شنظوة وهى أعلى الجبل و«بينها» يروى فى موضعه «دونها» وعرة الطير: ذرقه. وعر الطير يعر: سلح. والصوم : سلح النعام (٣) البيت لميسـون امرأة معـاوية رضى الله عنه . وسيأتى عند الكلام على (سـكنة البوادى من العرب وما امتـازوا به عن الحضريين) .

صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات كل أمة من الأمم لاسيما أهل العمران ، وقد بينا أن العرب منهم أهل حضر وحاجتهم إلى هذه الصناعة من الضرورى ، فانه لا بد لهم من السقف لبيوتهم ، والأغلاق لأبوابهم والكراسى لجلوسهم ؛ ومنهم سكنة البوادى وهم الأعراب ، ولابد لهم من العمد والأوتاد لخيامهم ، والحدوج لظعائنهم ، والرماح والقسىّ والسهام لسلاحهم إلى غير ذلك وكل واحدة من هذه الأمور فالخشب مادة لها ، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة ، والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها . قال ابن خلدون : فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولا إما بخشب أصغر منه أو ألواح ، ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصورة المطلوبة ، وهو فى كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص ؛ والقائم على هذه الصناعة هو النجار ، وهو ضرورى فى العمران ، ثم إذا عظمت الحضارة ، وجاء الترف ، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف : من سقف أو باب أو كرسى أو ماعون ، حدث التأنق فى صناعة ذلك ، واستجادته بغرائب من الصناعة كالية ليست من الضرورى فى شىء مثل التخطيط فى الأبواب والكراسى ، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط بحكم بريها وتشكيلها ، ثم تؤلف على نسب مقدرة ، وتلحم بالدساتر فتبدو لرأى العين ملتحمة ، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا فى كل شىء يتخذ من الخشب فيجىء آنق ما يكون ، وكذلك فى جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أى نوع كان ، ثم بين الأمور التى تحتاج إلى هذه الصناعة ، وما تتوقف هى عليه من المعارف ، ومن تعاطى هذه الصناعة من الأوائل والأقدمين ، والمقصود من نقل كلامه بيان حقيقة هذه الصناعة

وتعريفها ، فإنه لم يعرج على بيانها غيره ، وأن العرب كان منهم من زاول هذه الصناعة ومارسها وتقدم فيها على حسب استعداده وقابليته ؛ وقد رأيت فى كلام الأئمة من أهل اللغة فى ذكر أسماء أوصال الصور والأشكال المخصوصة ما يفيد كمال وقوفهم على هذه الصناعة ، وكذلك ما ورد عنهم من أسماء آلات النجارة ما لو لم يمارسوها لما عرجوا عليها ، ولنورد مما ذكروه شيئاً من القسمين لازدياد البصيرة : —

أوصال الباب ، وأسماء أجزائها

الباب من ضروريات الدار ، ومن الأمور التى لا بد منها ؛ وهى إنما تتكون بصناعة النجارة ، والعرب قد وضعوا لكل جزء مما تركب منه اسماً كما وضعوا لجلتها أسماء ، فمن أسمائها : الباب والرتاج ، قال امرؤ القيس :

له كَفَل كالدِّعْص لَبَّدَهُ النَّدَى إلى ثَبَجٍ مثل الرتاج المضبَّب [1]

ويقال له إذا كان واحداً فرد ، فإن كان زوجاً فهما مصراعان ، وهى أبواب أفراد وأبواب مصاريع ، ومن أسماء الأوصال : ففى الباب ألواحه والواحد لوح ففيه المنكبان وهما جانباه ، والمِرْدَمَ والمِرْدَى ما يضم أسفل المنكبين ، والمِقْعَمُ ما يضم أعلاهما وهو اللوح المعروض بينهما ويقال له المِلْحَام ، والصفائح الألواح العراض بينهما والواحدة صفيحة ، والزافر الذى يقال له أنف الباب ، ويد الباب أعلاه الذى يدور فى الُحْقّ الأعلى ، ورِجْلِهِ الذى يدور فى الُحْقّ الأسفل ، فإن كان من حديد فهو قطب ! ويقال للحق الأسفل الجُبْرور والنَّجْران . قال الشاعر :

صبَبْتُ المـاء فى النَّجْران صبًّا تركت الباب ليس له صَرِيرُ

وصريره صريفه وهو صوته ، والفائز الخشبة المثقوبة التى تدور فيها يد الباب ، ويروى فى الألغاز :

(١) أى لهذا الفرس كفل كالرمل المتراكب . لبده الندى : اى ركب المطر بعضه على بعض . الى ثبج : اى مع ثبج وهو مفرز الكاهل . والمضبب : الذى عليه ضبات الحديد .

وما عَزِيزٌ سُرَّ يوماً فَعَطِب وفائزٌ والنَّارُ فيه تَلْتَهِبُ[1] ؟

وللباب العِضادتان وهما خشبتان تكتنفانه ، والأُسكُفَّةُ الخشبة التى تضم العِضادتين من أسفل ، والعَتَبة التى تضمها من فوق ؛ وهذه الأربع إذا أدخل بعضها فى بعض فصارت مربعة فهى إطارُ الباب كما يقال إطار المنخل . والسَّقيفة ما فوق العتبة من الخشبة التى توصل بها ، وإياد الباب وسَنَدَه ومَلاذَته خشبة تركب على ظهره تنفذُ إليها أذناب المسامير ، وتوثَّق بها ألواح الباب ؛ والمسامير ما كان من حديد والواحد مسمار ، والوَدّ الوَتِدُ من خشب وجمعه أوتاد ، والبوان خالفة الباب ، وفى المجمل : البوان عمود البيت ، وقال الجوهرى : البِوان بكسر الباء وضمها عمود من أعمدة الخباء والجمع بُون بالضم ؛ وللباب حَلَقته ومِقْرَعته وهى التى يقرع بها الباب ، قال الشاعر :

من قَرَعَ البــابَ وَلَمْ يعجز عن القرع دَخَلْ[2]

فإذا كان مكانها سَيْرٌ فهو وَذَم ، والرزة الحلقة التى يقع فيها الزِّرْفين إذا أغلق ، وكتائف البــاب وَضَبَّاته ما يركب عليه من الحديد والواحدة ضَبَّة ، والـكَتيفة الورد ، واللَّوْلَب حديدتان متركبتان ذكر وأنثى ، والمِغْلَق موضع المِغْلاَق والمِغْلاَق ما يفتح بالمفتاح ، والمِعْلاق بالعين غير معجمة ما لا يحتاج إلى مفتاح ، والقَعْوجحر الغلق ؛ وفى الغلق البلاطيط والواحد بلطاط ، وهى الخشبات التى تقع فى الثُّقَبَ التى ينغلق الباب بها ، ويقال : قَلْقِل الغَلَق حتى تقع البلاطيط فى أقماعها ، والمِقْلاد المفتاح وجمعه مقاليد ، وأسنان المفتاح هى التى ترفع البلاطيط عن الأقماع للفتح ، والخَرْق فى الباب يسمى الصير وهو الشق ، وفى الحديث « من نظر فى صير

---

(١) يقول : ما ولد كريم على والديه قطعت سرته فكان سبب هلاكه ؟ وهذا ما الغزت به الشعراء لانه يتوهم أن « سرَّ » من السرور ، وانما براد به قطع السرة ، والسرور لا يكون سببا للعطب كما يكون قطع السرة سببا له . وقوله « فائز » يقول : وما فائز تحرقه النار ؟ والفائز الذى ينال الفوز فكيف يفوز من التهبت فيه النار ؟ وانما المراد بالفائز الخشبة التى فى الباب .

(٢) يريد أن من دام على طلب أمر ولم يفتر عنه وصل الى مراده منه .

باب ففقت عينه فهو هَدَر » فإن كانت فى الباب خروق فهو مخرّق ، فإذا لم تكن ألواحه متضامَّةً ، وكانت بينها فرج ، قيل : باب مُضَلَّع ومُخَلَّل ، ويقال لما كان كذلك من خشب غير ألواح مشبّك ، وباب مصَفّح إذا كان من صفائح عراض حَسْبُ ، وتقول : أصفقت الباب وَسَفَقته إذا ألصقته بالعَتَبة ، وأجفْته إذا تركت فيه فرجة ؛ وقد رددت الباب فهو مردود غير مصفّق ، وبلقت الباب فتحته وانبلق انفتح ، والبلق الباب المفتوح ، وأغلقته فهو مغلق ، والمحصن القفل وقد أقفلته فهو مقفل ، وللقفل عموده وهو حديدته الطويلة ، والفراشة التى تغيب فى مغلق القفل منشب ، ونُعام الفراشة الحدائد المستطيلة المركبة عليها ، وأعيار الفراشة ما نتأ منها والواحد عير . ويقال للقفل : الجِلازة ، وقشّ القفل إذا عالجه بشىء يحشوه به فيفتحه من غير مفتاح .

أدوات النجارين وآلاتهم

لا يخفى أن لهذه الصناعة أدوات كثيرة لا يمكننا استيعابها فى مثل هذا المقام ، وإنما نذكر بعضاً منها استدلالا على مقصدنا . فمن آلاتهم (الفأس) وهى مؤنثة وجمعها أفؤس وفُؤوس (والخصِينُ) بالخاء معجمة والصاد غير معجمة : فأس ذات خلف واحد (والحَدأة) ذات رأسين والجمع حَدَأً ، قال الشماخ :

يُبَاكِرْنَ العِضَاهَ بِمُقْنِعَاتٍ نواجِذُهُنَّ كَالحَدَإ الوقيع[1]

أى المحدود المضروب بالمطارق (والصافور) الفأس العظيمة التى لها رأس واحد دقيق تكسر به الحجارة وهو المِعْوَلُ أيضاً ، وقد صقرت الحجارة صقراً إذا كسرتها بالصاقور (والكرزن) والكِرزين بالكسر فأس عظيمة يقطع بها الشجر ومثله الكَرْزَم والكرزيم والكرزوم ، قال جرير :

وأورثك القين العَلاةَ ومرجلًا وأصلاح أخرات الفُؤوس الكرازما[2]

---

(١) يقول : تغدو هذه الابل الى العضاه — وهو شجر له شوك — فتنفض أغصانها كأنما أسنانها التى تعمل فيها فؤوس قد حددت وضربت بالمطارق .

(٢) القين : الحداد . والعلاة : السندان . والمرجل : القدر .

(والقَدُوم) الفأس الصغيرة ، وهى مخففة ، قال الشاعر :

تُنيفُ برأسٍ فى الزمام كأنه قَدُومُ فُؤوسٍ ماجَ فيها نِصابُها[1]

وقال الجوهرى : والقدوم التى ينحت بها مخففة ؛ والجمع قدم ، قال الأعشى :

أقام به شاهبور الجنـو د حولين تضرب فيه القدم

وجمع القدم قدائم مثل قاص وقلائص ؛ والخُرْت ثقب الفأس ، ونصابها خشبتها ، ويسمى الفِعال . وأنشد ابن الأعرابىّ :

أتته وهْى جانحـة يداها جنوح الهِبْرقىّ على الفعـال[2]

وغرابها حدُّها ، والوَشِيظة والنِّخاسة عويد يجعل فى خُرتها أو فى فتق نصابها ليضيق ، وذلك إذا ضمر النصاب ولم يتماسك ، يقال وشظته ونخسته ، وقلقت الفأس، وماجت إذا اتسع خُرتها واضطربت فى نصابها ، فإن خرجت منه قيل نَصَلت تنصل نصولاً . قال الراعى :

فى مَهْمَهٍ قلقت به هاماتها قَلَقَ الفُؤُوس إذا أَرَدْنَ نصولا[3]

ومنها (المِنْشار) وهو ما ينشر به الخشب أى يقطع ويقـال نشرته وأشرته ووشرته ، ولذلك يقال أيضاً مِئْشـار ، والنشارة ما سقط منه ، ومنها (المِحْفَرَة) وهى آلة يحفر بها الخشب ، ومثلها المنقار ونقرت الشىء إذا ثقبته بالمنشار ، ومنها (المِسْحَلُ) وهو مِبْرَدٌ أخشن من مبرد الحديد ، وهو الذى يسحل به الخشب أى ينحت ، والصغير من ذلك مِسْرَد ، ومنها (المِثْقَب) وهى آلة يثقب بهـا الخشب ، ومنها (الـكلبتان) وهى آلة يجذب بها النجار المسمار من الخشب ، ويأخذ بها الحداد الحديد المحمى ؛ ومنها (العتلة) وهى آلة من حديد كأنها رأس فأس (وبيرم النجار) وتطلق أيضـاً على العصا الضخمة من الحديد لهـا رأس

---

(١) يقول : ترفع مع الزمام رأسا يشبه فى رقته وايصاله بعنق كانها حديدة فأس مع نصالها وهى تضطرب فيه . (٢) يقول : جاءته وهى معتمدة يديها كاعتماد الهبرقى (أى الحداد) على النصاب اذا اراد ان يعمل بحديده فيه .

(٣) يقول : اضطربت رؤوس هذه الابل فى هذه الصـحراء كما تضطرب الفؤوس اذا ارادت الخروج .

مفلطح يهدم بها الحائط . إلى غيرذلك من الآلات والأدوات المفصلة فى كتب اللغة ، ولولا معرفتهم بهذه الصناعة لم يستعملوا تلك الأسماء لهذه الأدوات ، ومنها :

الحدادة

وهذه الصناعة أيضاً من ضروريات الأمم ، ولا يمكنهم الاستغناء عنها بوجه ومنافع الحديد للناس فى معايشهم ومصالحهم ليست بخفية على أحد ، إذ ما من صنعة من الصنائع ولا عمل من الأعمال إلا والحديد أو ما يعمل به آلتها ، وفى التنزيل : «وأنزلنا الحديدَ فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوىّ عزيز » وهذه الصناعة من الصنائع القديمة فى العالم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزل مع آدم عليه السلام الميقعة والسندان والكلبتان . وروى أنه نزل ومعه المر والمسحاة . وفى خبر نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والإبرة والمطرقة والميقعة وفسرت بالمسن وتجىء بمعنى المطرقة أو العظيمة منها أو ماتحد به الرحى . وفى حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة وهى آلات الصناع أو سكة الحرث وليس بعربى محض . وكانت العرب تسمى صاحب هذه الصنعة القين : قال الجوهرى : القين الحداد والجمع القيون . وعن ابن السكيت يقال للحداد ما كان قين ولقد قان يقين قينا . يقال قن اناءك هذا عند القين . وقنت الشىء أقينه قينا لممته وأصلحته ، وأنشد :

ولى كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها   صدوع الهوى لو كان قينٌ يقينها

وفى المثل (إذا سمعت بسرى القين فإنه مصبح) وهو سعد القين . صار مثلًا فى الكذب والباطل يقال دهدرين . سعد القينَ . ويقال لبنى القين من بنى أسد بلقين كما قالوا بلحرث وبلهجيم وهو من شواذ التخفيف . وكان القيون مختلفين فى الأعمال فمنهم من كان يعمل اللجم والازمة لدوابهم وهى مشتملة على أجزاء كثيرة وأوصال مختلفة ، قال أبو عبد الله الإسكافى فى كتاب المبادىء :

فى اللجام الشكيمة وهى الحديدة المعترضة فى الفم ، والفأس الحديدة المنتصبة من الشكيمة ، والفَرَاشــتان جانبا الشكيمة ، وإليهما يربط العِذَاران والخُطَّافان والشاكلتان حديدتان مُعَقَّفتان للعِنان والكَلُّوبان خُرْتان يدخل فيهما طرفا العنان ، والحَكَمة الحديدة التى تستدير حول الأنف والحنك الأسفل وهما حكمتان ، والمِسْحَلان حديدتان تكتنفان الشِّدقين ، والحديدة الواقعة على الصُّدْغ صُدْغ ، والطَّرف ما فى أطراف السيور وقد يكون من فضة والنِّكْلُ لُجُمُ البغال . وقد أطنب فى الكلام عن اللجام وما اشتمل عليه . والمقصود بيان أن هذه الصناعة كانت راسخه فيهم حتى تمكنوا من صنعة دقائقها ، ومنهم من كان يعمل لهم السيوف . وقد اشتهر بهذا العمل رجل اسمه سريج كان ماهراً فى صنعتها متقناً لها . والسيوف . السريجيات نسبة إليه ، وكانوا يسمون الذى يطبعها أى يعملها الطباع والصيقل هو الذى يصقلها . وفى ذكر أسماء ما اشتمل عليه السيف يعلم دقة صنعته وما يحتاج إليه من زيادة المعرفة فى هذه الصناعة . فحديدته هى النَّصل والسيلان سِنْخه فى القائم ، ومتن السيف ظهر النصل يقال سخَّن متنه أى أحماه ، وصدر السيف مقدمه ، وعرضاه وصفحاه وصفحتاه وأَللاه بطنه وظهره ؛ فأما حداه فهما الدلقان والذبابان والغراران والشفرتان ، ومَضْربه ما تُضْرَب به الضريبة وظُبَتُهُ طرف المضربة ، وشباته طرف الظبة ، وصَبيَّا السيف ناحيتا الشباة ، وعَيْراه حرفان مرتفعان وسط متنه يقال سيف مُعَيَّر . والعُرْصان ما بين العَير إلى الحدَّين ، ورونقه ماؤه وفرِنْدُهُ ، وأُثْرُهُ كدبيب النمل فى متنه وهو مأثور ، وسيف مشطَّب ومشطوب فى متنه شطبة وهى طريقة فيه مرتفعة عنه ، وتسمى سِفْسِقة السيف ، أو السَّفقة ما بين الشُطْبتين على صفحة السيف طولاً ، وللسيف القائم وهو مقبضه ، وفى القائم القبيعة وهى الفضة أو الحديدة فى طرفه كالكرَة ، ويسمى أعلى القبيعة القُلَّة ، يقال : سيف مقلَّل . قال الهذلىّ :

ولقد شهدتُ الحيَّ بعد رقادهم   تُفْلَى جماجمهم بكلّ مقلَّل

والمسمار الذى فى طرَفَى القبيعة وفى القائم الكلب والحِرْباء ، والشعيرتان طرفا الحرباء وفى إحداهما حَلَقة فيها السير الذى يسمى القلس والنَّعفَة والذؤابة والعلاقة ، والمسمار الذى فى وسط القائم أيضاً حرباء وكلب وفى كل قائم كلبان ، والسَّفَن الجلد الأحرش المحبَّب الخشن يلبس القائم . والربأس من فضة أو حديد يجمع بين طرفى السَّفَن ، وقد يسمى القائم رئاساً . قال مُعَقّر بن حمار البارقىّ :

هما بَطَلانِ يعثرانِ كلاهما   يُريد رئاس السيف والسيف نادِرُ (١)

وغاشية القائم فضة أو حديد تُوارى رأس الجفْن إذا أغمد ، وشارباه طرفا الغاشية وما تحت الغاشية من الجفن الزافر ، والأسائن جمع أسينَةٍ وهى سيور أدخل بعضها فى بعض وضُفِرَتْ على القائم ، والجَفْن الغِمْدُ والقراب ، وإزاره الجلد الذى يلبس ظاهراً ، وخِلَّتُهُ جلد يبطن به ، والنعل حديدة أسفل الجفن . والمِحْمَل والحمالة والنِجّاد وهو السير الذى يركب العاتق ويحمل به . قال الشاعر :

إلى مَلِكٍ لا تَنْصُفُ النعلُ ساقَهُ   أجَلْ لا وإن كانت طوالا محامُله (٢)

أى لا تبلغ نعل سيفه نصف ساقه لطول قامته ، قال الشاعر :

كأنَّ عليها خِلَّةً فارسيَّة   يُقطِّعُها بين الجفون الصياقلُ (٣)

لأنَّ الخِلَّة كانت جلوداً منقوشة . والرصائع جمع رضيعة وهى سيور تُضْفَرُ بين الجفن والنجاد قال الشنفرى :

هَتوف من المُلْسِ المتون يزينها   رصائعُ قد نيطت إليها ومِحْمَلُ (٤)

والبكرات الحلق التى فى النجاد كَفُتُوخ النساء وهى مُدَوَّرات فى أطراف

---

(١) يقول : هما شجاعان يسقط كل واحد منهما صاحبه ويريد أن يعتمد على الرئاس والنصل قد خرج قائمه . (٢) أى الى ملك تام القامة فاذا تقلد السيف لم تبلغ نعل سيفه نصف ساقه وان كانت حمائله طويلة .

(٣) يقول : لم يبق من آثار هذه الدار الا آثار كأنها جلود منقوشة يقطعها الصياقل ليغشوا جفون السيوف . (٤) يقول : قوس ترن اذا جذب وترها من القسى اللينة الليط ويزينها ما رصع به جعبتها ومحمل سيف مقرون بها . والرصائع : سيور تضفر بين الجفون والنجاد .

الحمائل تمسك القيود ، والقيود حلق فى أحد جانبى الجفن ، والزوائد أطراف القيود ، وقد يشد فيها السيور ، فإذا سهل خروجه من غمده قيل سَلِسَ ودَلَقَ ، وإن تعسر قيل نَصِبَ ولَحِجَ ، فإن ارتدّ عن الضريبة قيل نَبَا ، فإن انكسر قيل انقصف ، وقيل صابيته أملت طرفه نحو الأرض كمُصاباة الرماح ، وهززته فاهتزّ أى اضطرب . . ومنهم من كان يصنع لهم النبال والمسامير والسكاكين والأوانى وسائر الأدوات والآلات ، والكلام فى بسط ذلك يطول ، وقد أطنب فى بيان ذلك أبو عبد الله الإسكافى فى كتاب المبادىء ، وكذا غيره من أئمة اللغة .

أدوات الحدادين وآلاتهم

من جملة آلاتهم وأدواتهم ، القرْزُم والعَلاة ، وهى السندانة ، وعن ابن دريد أنّ القرزم بالقاف مضمومة لوح الإسكاف المدور ، (والمِطْرَقة) وهى آلة يضرب بها الحديد ، و (الفطيس) أكبر منها وهى الميقعة أيضاً ، يقال : وقعت الحديدة أقعُها وقعاً (والمِبْرد) الذى يبرد به الحديد . والبرادة ماسقط منه ، وفسالة الحديد ما تناثر منه عند الضرب إذا طبع (والمِشْحَذُ) مبرد للحديد أعظمها وأخشنها . وقال الجوهرى : المشحذ المسنّ ، والمفْراص ، للحديد كالمقراض للثوب . وقال الجوهرى : والمفرص والمفراص الذى يقطع به الفضة ، قال الأعشى :

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم   لساناً كمفراص الخَفَاجىّ ملحبا

(والخفاجى) نسبة إلى خفاجة بالفتح حى من بنى عامر مشهورين بهذه الصنعة (والمنفاخة) ما ينفخ به الكير . والكير الذى ينفخ فيه . وفى الصحاح : كير الحداد زقّ أوجلد غليظ ذو حافات ، وأما المبنىّ من الطين فهوالكور (والمُشَرْجَعُ) مِطْرَق لا حروف لنواحيه ، ومطرقة مشرجعة أى مطولة لا حروف لنواحيها ، وإذا كان الشىء مربّعاً فأمرت بنحت حروفه قلت شَرْجِعْهُ (والعَسْقَلَان) آلة

للصائغ وهو أصغر مطرقاته ، والغُدَاف الحديدة التى يدخل فى أحد طرفيها الخاتم ويركُزُها على الجبأة وهى الخشبة التى بين يديه ؛ قال الشاعر :

* كَوَقْعِ العَسقَلاَن على الغدَاف * والِحمْلاج : منفاخه وهو حديده مجوّفة ينفخ فيها الصائغ إذا أراد النفخ فى كيره وله الكلبتان والمثقب . ومنها :

الحياكة والنسج

هذه الصناعة من الصناعات التى كانت من مكاسب العرب ، وهى أيضاً من ضروريات الأمم ، فإن كل أمة ولاسيما أهل الحاضرة محتاجون لهذه الصناعة لأجل لبوسهم وفرشهم وحمل أثقالهم ونحو ذلك ؛ وقد امتن الله تعالى عليهم بقوله : (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) الآية . وبهذه الصناعة يعرف كيفية نسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سداً فى الطول وإلحاماً فى العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة ، فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس . وبلاد العرب من العمران المعتدل فالدفء ضرورى لهم ولابد لهم من سرابيل تقيهم الحر والبرد ، وربما استغنى عن هذه الصناعة أهل البلاد المنحرفة إلى الحر كما ينقل عن كثير من السودان أنهم عراة فى الغالب . وسيجىء إن شاء الله ذكر ما كان ينسجه العرب ، وكان من المستجاد لديهم نسج اليمن .

أدوات الحياكة والنسج

كل حرفة من الحرف ، وصناعة من الصناعات ، لابدّ لها من آلات تخصها ، وأدوات تتوقف عليها ، فمن آلات هذه الصناعة عند العرب : « الحَفُّ » وهو الذى تلْمَظُ به اللحمة أى تلقم ويصْفَقُ ليلتقمها السدى ، والجمع الِحفَفَة . وقال الجوهرى نقلا عن الأصمعى : الحفة المنوال ، وهو الخشبة التى يلف عليها الحائك الثوب . قال والذى يقال له الحفّ هو المِنْسَج ، ونقل عن أبى سعيد : الحفة

المنوال ، ولا يقال له حف وإنما الحف المنسج ؛ ومن أدواتها (الوشيعة) وهى المِنْسَج وهى قصبة فى طرفها قرن يُدْخل الغزل فى جوفها وتسمى السهم ، وقال الجوهرى : الوشيعة لفيفة من غزل وتسمى القصبة التى تجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج وشيعة ، قال ذو الرُّمّة :

به ملعبٌ من معصفات نَسَجْنَهُ كنسج اليمانى برده بالوشائِع

(والمِشْيَعَةُ) ما يلف عليه الغزل (والثناية) التى يثنى عليها الثوب (والعَدْل) خشبة لها أسنان كأسنان المِنْشار يقسم بها السدى ليعتدل (والصيّصة) عود من طرفاء كلما رمى بالسهم فألحمه أقبل بالصيصة وأدبر بها . وفى الصحاح : الصيصة شَوْكة الحائك التى يسوّى بها السداة واللحمة . قال دُرَيْدُ بن الصِّمّة :

فجئت اليه والرماحُ تَنُوشُه[1] كَوَقْعِ الصَّياصى فى النسيج الممدّد

ومنه صيصة الديك التى فى رجليه (والنِير) الخشبة المعترضة التى فيها الغزل وثوب منيَّر ذو نيرين مضاعف النسج ، ومن اللغويين من يقول : النير لحمة الثوب فاذا نسج على نيرين كان أصفق وأبقى (والمداد) عصاً فى طرفيهـا صِنَّارتان يمـدد بها الثوب (والصنَّارة) رأس المغزل (والـكُفَّة) الخشبة المعترضة فى أسفل السدى (والِحماران) يوضعان تحتها ليرفع السدى من الأرض ، والمُهْرَةُ والرَّفيد بالفارسية تلَهْ (والمِثْلَث) قصبات ثلاث تسمى بالفارسية سِكَانَه (والمبرم والبريم) الحبل الذى جمع بين مفتولين ففتلا حبلاً واحداً . والمبرم من الثياب المفتول الغزل طاقين ومنه سمى المبرم وهو جنس من الثياب . وسدّى الثوب تسديةً إذا مد الغزل ليسقيه الخزيرة وهى كالحساء من دقيق (والشَّفْشِقَة) والشفاشق قصب يُشَقّ ويوضع فى السدى عَرْضاً ليتمكن به من السقى (والدعائم) خشبات تنصب ويمد عليها السدى ، والسدى والستى واحد وسَدّى مبرم وسدى سِحيل

(١) أى تناوشه وتأخذه .

واللَّحمة بالفتح ما يُلْحَم به ، وأداة الحائك المنصوبة تسمى (المنوال) وهو النول أيضاً قال قائلهم :

حوكت على نَوْلين إذ تحاك وتخبط الشوك ولا تشاك[1]

ومنها :

الخياطة

وهذه الصناعة أيضاً من ضروريات العمران ؛ وكانت من مكاسب العرب وأحد أسباب معايشهم ، وعرفها (ابن خلدون) بأنها تقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة . قال : وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضرى لما أن أهل البدو يستغنون عنها ، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً ، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها . ثم بين سر تحريم المخيط فى الحج ، وقدم هذه الصنعة ، والتى قبلها ومن ابتدأ بها ، ومن وقف على كسوة العرب وما كانت تلبسه وتفترشه وما ورد عنهم فيها من الأسماء تبين له كمال وقوفهم على هذه الصناعة ، وهذه نبذة منها : —

كسوة العرب

الكسوة هى الثياب التى تلبس ، وقد ذكرنا أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب أن أهل البادية من العرب (وهم الرحل الذين لا يقيمون بمحل ، كان شعارهم لبس المخيط فى الغالب ، ولبس العمائم تيجاناً على رؤوسهم ، وربما ألقوا رداءاً على ظهورهم واتزروا بإزار ، وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم فكانوا

(١) يصف رداءة نسجت على نيرين فهى فى غاية من القوة والمتانة حتى انها تضرب الشوك ضربا شديدا ولا يخرقها ولا يؤثر فيها لصفاقتها .

يتفننون فى لبوسهم ، ويختلفون فى كسوتهم ، فكان الكاهن لايلبس المصبغ والعرّاف لايدع تذييل قميصه وسحب ردائه ، والحكم لايفارق الوبر ؛ والشاعر منهم كان إذا أراد الهجاء دهن إحدى شقى رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة ، وكان لحرائر النساء زىّ ، ولكل مملوك زى ولذوات الرايات زى[1] وكانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا من الحرم يتقلدوا القلائد ، ويعلقوا عليهم العلائق ، وإذا أذوم[2] أحدهم الحج تز يا بزى الحاج ، وإذا ساق بدنة أشعرها[3] حتى إنهم خالفوا بين سمات الإبل والغنم ، وأعلموا البحيرة بغير علم السائبة وأعلموا الحامى بغير علم الفحول ، وكذلك الفرَع والرجبية[4] والوصيلة والعتيرة من الغنم ، وكذلك سائر الأغنام السائمة ، وإذا كانت الإبل من حباء ملك غرزوا فى أسنمتها الريش والخرق ، ولذلك قال الشاعر :

يَهبُ الهِجانَ بريشها ورِعاثها   كاللَّيْلِ قبل صباحه المتبلِّجِ

وإذا بلغت الإبل ألفاً فقأوا عين الفحل ، فإن زادت ففأوا العين الأخرى فذلك هو المفقأ والمعمى ، وقال شاعرهم :

فقأتُ لها عينَ الفحيل تَعَيُّفاً   وفيهنّ رَعلاء المسامع والحام[5]

وقال الآخر :

وهَبْ لنا وأنت ذو امتنان   تفقأ فيها أعينُ البُعْران

وقال الآخر :

فكانَ شكر القوم عند المنن   كىّ الصحيحات وفَقْء الأعين

والمقصود أنهم مختلفون فى اللباس والزى والسيماء ، حتى انهم اعتبروا

---

(١) مر ذكرهن فى الجزء الثانى ص ٤ و٥ (٢) أو ذم الحج : أو جبه على نفسه (٣) البدنة : ناقة أو بقرة تنحر بمكة ، وأشعرها : أعلمها أى جعل لها علامة وهو أن يشق جلدها أو يطعنها فى سنامها حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدى . (٤) الرجبية : شاة كانوا يذبحونها فى رجب لآلهتهم . وشرح الكلمات الباقية : فى أوائل هذا الجزء . (٥) التعييف : التكهن وزجر الطير . والرعلاء : الطويلة الاذن ، والناقة تشق جلدة من أذنها فتعلق فى مؤخرها .

ذلك فى غيرهم مما يخصهم ولو بسطنا الـكلام على ملابسهم، وماقالوا فيها من الشعر ، وما ورد عنهم من الأسماء ، لأدى ذلك إلى سفر كبير ؛ وكذلك الـكلام على فرشهم ، وأرائـكهم ، وما يتصل بذلك ، فإنه يطول جداً ، ونخص الـكلام على ماورد عنهم فى العمائم والنعال ، وكان ذلك من زيهم العـام : —

العمائم وماورد عنهم فيها من الشعر

كانت العمائم تيجانهم وبها عزهم ، وفى الحديث « كانت عمائم العرب محنكة » أى طرف منها تحت الحنك ، ومن أسماء العمامة : العِصابة ، والمِقْطَعة ، والمِعْجَر ، والمِشْوَذ ، والـكوارة ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث سَرِيَّة فأمرهم أن يمسحوا على المشاوذ والتساخين . وهى العمائم والخفاف ، وفلان حسن الشيذة : أى حسن العمة ؛ وفى ﴿ كتاب لباب الآداب ﴾ : وكانت السادة من العرب تلبس العمائم المهراة وهى الصفرة ، قال الشاعر :

رأيتك هربت العمائم بعدما عمرت زماناً حاسراً لم تعـمم

فزعم الأزهرى أن تلك العمائم المهراة كانت تحمل إلى بلاد العرب من هراة فاشتقوا لها وصفاً من اسمها ، وأحسبه اخترع هذا الاشتقاق تعصباً لبلده هراة كما زعم حمزة الأصبهانى وهو أن السام الفضة وهو معرب عن سيم ؛ وإنما نقول هذا التعريب وأمثاله تـكثيراً لسواد المعربات من لغات الفرس وتعصباً لهم .

وكان الزبرقان يصبغ عمامته بصفرة ، وذكره الشاعر[١] فقال :

وأشهدُ من عوف حُلولاً كثيرةً يحجُّونَ سِبَّ الزِّبرِقان المُعَصْفَرَا[٢]

وكان أبو أُحيحة سعيد بن العاصى[٣] إذا اعتم بمكة لم يعتم معه أحدٌ هكذا

(١) هو المخبل السعدى (٢) السب : الخمار والعمامة ، ويروى (المزعفرا) بدل « المعصفرا » (٣) كذا والصواب «العاص» وقد رأيت كثيرا من المؤلفين والطابعين يغلطون فيقولون « العاصى » بالياء فى هذا الرجل (أنظر البيـان والتبيين : ج ٣ ص ٥١ وفى عمرو بن العاص وغيرهما من أبناء هذا البيت . والحقيقة أنه من « العوص » لا من « العصيان » ولذلك يقال لهم الاعياص .

فى الشعر . ولعل ذلك أن يكون مقصوراً فى بنى عبد شمس . وقال أبو قيس ابن الأسلت :

وكان أبو أُحَيْحَةَ ، قد علمتم ... بمكةَ غيرَ مهتضم ذميمِ
إذا شدَّ العِصابة ذات يومٍ ... وقام إلى المجالس والخصوم
فقد حَرُمَتْ على من كان يمشى ... بمكةَ غير مُدَّخلٍ سقيم[1]
وكان البَخْتَرِىَّ غداةَ جمعٍ ... يدافعهمْ بلُقْمانَ الحكيم[2]
بأزهرَ من سَرَاة بنى لؤىٍّ ... كبدر الليل راقَ على النجوم[3]
هو البيت الذى بُنِيَتْ عليه ... قريشُ السرِّ فى الزمن القديم
وَسَطْتَ ذوائبَ الفَرعيْنِ منهم ... فأنت لُباب سِرِّهم الصَّميم ![4]

وقال غيلان بن خرشة للأحنف : يا أبا بحر ! مابقاء مافيه العرب ؟ قال : إذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العمائم ، واستجادوا النعال ، ولم تأخذهم حمية الأوغاد ! قال : وما حمية الأوغاد ؟ قال : أن يعدوا التواهب ذلا ! قال الجاحظ[5] : وإذا قالوا سيد معمم فإنما يريدون أن كل جناية يجتنيها الجانى فى تلك العشيرة فهى معصوبة برأسه. قال دُرَيْد بن الصِّمَّة :

أبلغ نُعَيْماً وأوفى إنْ لَقِيتَهُمَا ... إن لم يكن كان فى سَمْعَيْهِما صَمَمُ
فلا يزالُ شهاباً يستضاء بهِ ... يَهدِى المقَانبَ مالم تهلك الصِّمَمُ[6]
عارى الأشاجِع معصوبٌ بِلِمَّتِهِ ... أمرُ الزّعامة فى عرْنينه شَمَمُ[7]

وقال الكنانى :

---

(١) وفى هذا المعنى يقول الآخر :

أبو احيحة من يعتم عمته ... يضرب وان كان ذا مال وذا عدد

ويزعم الزبيريون أن هذا البيت باطل موضوع (الكامل للمبرد ج ١ ص١٦٥ طبع مطبعة التقدم بمصر . (٢) البخترى : الحسن المشى والجسم .
(٣) سراة : جمع سرى وهو الشريف . (٤) أى توسطت فكنت أنت الواسطة بين الفرعين . (٥) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٢ (٦) المقانب : جمع مقنب وهو الجيش ، والصمم : جمع صمة وهو الشجاع . (٧) الاشاجع : جمع الاشجع وهى عروق ظاهر الكف . واللمة : الشعر المجاوز شحمة الاذن . والعرنين : الأنف ، والشمم : الارتفاع .

تَنَخَّبْتُها للنسل وَهْىَ غريبة فجاءت به كالبدر خِرْقاً معَمَّما[1]
فلو شاتم الفتيانَ فى الحى ظالماً لَماَ وجدوا غيرَ التكذّب مَشْتما

ولذلك قيل لسعيد بن العاصى « ذو العصابة » وقد قال القائل[2] :

كَعَاب أبوها ذُو العِصابة وابنُهُ وعثمانُ ما أكفاؤها بكثير

وقيل لأعرابى : إنك لتكثر لبس العمامة ! قال : إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أنْ يوقى من القر . وذكرت العمامة عند أبى الأسود الدؤلى . فقال : جُنَّةٌ فى الحرب ، ومكنة من الحر ، ومدفأة من القرّ ، ووقار فى النَّدِى[3] ، وواقية من الأحداث ، وزيادة فى القامة . وهى تعد عادة من عادات العرب . قال عمرو ابن امرئ القيس :

يا مالِ والسيد المعمَّمُ قد يبطره بعدَ رأيه السَّرَفُ[4]
نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأى مُختلِفُ

وكان من عادة فرسان العرب فى المواسم والجموع ، وفى أسواق العرب كأيام عُكاظ وذى المجاز ، وما أشبه ذلك التقنُّعُ إلا ما كان من أبى سليط طريف ابن تميم أحد بنى عمرو بن جندب فإنه كان لا ينقنع ، ولا يبالى أن يثبت عينه جميع فرسان العرب[5] : وكانوا يكرهون أن يعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم همّ غيرهم ، فكان هذا من شأنهم ، وربما مع ذلك أعلم الفارس منهم نفسه بسيماء : كان حمزة يوم بدر معلماً بريشة نعامة حمراء ، وكان الزبير معلماً بعمامة صفراء ، ولذلك قال درهم بن زيد :

---

(١) الخرق: الفتى الحسن الكريم الخليقة (٢) هو خالد بن يزيد بن معاوية. والبيت من بيتين قالهما فى زوجته آمنة بنت سعيد بن العاص بن أمية حينما طلقها وتزوجها الوليد بن عبد الملك . والبيت الثانى :

فان تفتلتها والخلافة تنقلب بأكرم علقى منبر وسرير

— ومعنى تفتلتها : تأخذها فجاءة . (٣) المجلس (٤) يامال : ترخيم « يامالك » (٥) أنظر الشرح فى ص ١٨٥ من الجزء الثانى .

إنك لاقٍ غداً غُوَاة بنى الْمَلْـــكاء فانظرْ ما أنت مُزْدَهِفُ(١)
يمشون فى البَيْض والدروع كما تمشى جِمال مصاعبٌ قُطُفُ(٢)
فأبْدِ سيماك يَعْرفوك كما يبدون سيماهُمُ فَتَعْتَرِف

وقال آخر :

إذا المرء أثرى ثم قال لقومه : أنا السيد الْمُفْضَى إليه المعمَّمُ
ولم يُعْطِهم شيئاً أبَوْا أنْ يَسُودَهُمْ وهانَ عليهم زَعْمُهُ وهو الأوَمُ(٣)

وقال آخر :

إذا كَشَفَ اليومُ العَمَاسُ من استِهِ فلا يرتدى مثلى ولا يتعمَّم !(٤)

قالوا : وكان مصعب بن الزبير يتعمم العقداء وهو أن يعقد العمامة فى القفاء ، وكان منهم من يعتم الميلاء ، قال الفرزدق فى محمد بن سعد بن أبى وقاص :

ولو شَهِدَ الخيلَ ابنُ سَعْدٍ لقنَّعوا عمامته المَيْلاءَ عَضْبًا مُهَنَّدا(٥)

وقال شمعلة بن أخضر الضَّبِّى :

جَلَبْنَا الخيلَ من أطرافِ فَلْجٍ ترى فيها من الغزْوِ اقْوِرارا(٦)
بكلِّ طِمِرَّةٍ وبكلّ طِرْفٍ يَزِينُ سوادُ مُقْلَتِهِ العِذارا(٧)
حوالَى عاصبٍ بالتاج منَّا جبينَ أغرَّ يستلبُ الدُّوَارا(٨)
رئيسٌ ما ينازِعُـــهُ رئيسٌ سِوى ضربِ القِداحِ إذا استشارا

وأنشد :

إذا لَبِسوا عمائمهم طَوَوْها على كَرَمٍ ، وإنْ سَفَروا أناروا

---

(١) الازدهاف : الدنو والتقمم فى الشر والعداوة والاهلاك (٢) البيض : جمع بيضة وهى هنا بيضة الحديد . ومصاعب : جمع مصعب وهو الفحل الذى تركته فلم تركبه ولم يمسسه حبل حتى صار صعبا . والقطف : جمع قطوف وهى الدابة التى تسىء السير . (٣) أى وهو حقيق بأن يلام .
(٤) يوم عماس : أى شديد . وكشف من أسته : كناية عن الشدة والمكروه
(٥) قنعوا : ضربوا والعضب المهند : السيف المعمول فى الهند .
(٦) فلج : اسم بلد . والاقورار : الضمور والتغير (٧) الطمرة : الفرس الجواد المستعد للوثوب والعدو . والطرف: الكريم الطرفين من الآباء والامهات. والمقلة : الحدقة . والعذار من اللجام ما سال على خد الفرس —(٨) الدوار : شبه الدوران يأخذ فى الراس فيخيل لصاحبه أن المنظورات تدور عليه .

يَبيعُ ويشترِى لهمُ سواهُمْ ولـكنْ بالطِّعان هُمُ تجارُ
إذا ماكنتَ جار بنى لؤىٍّ فأنت لأكرم الثقلين جارُ

وربما جعلوا العمامة لواءً ، ألا ترى أن الأحنف بن قيس يوم مسعود بن عمر حين عقد لعبس بن طاق اللواء انما نزع عمامته من رأسه فعقدها له ، وعلى ذلك قول زيد بن كثوة العنبرىّ :

منعتَ من العُهَّار أطهارَ أُمِّهِ وبعضُ الرجال المدَّعين زَنَاء[1]
فجاءتْ به عَبْلَ القَوام كأنما عمامته فوقَ الرجال لواء[2]

وربما شدوا بالعمائم أوساطهم عند الجهدة ، وإذا طالت العقبة ، ولذلك قال شاعرَهم :

فسيروا فقد جَنَّ الظَّلامُ عليكم فباسْتِ الذى يرجو القرى عنا عاصم
دفعنا إليه وهو كالذَّيخ حاظياً نشدّ على أكبادنا بالعمائم[3]

وقال الفرزدق :

بنى عاصم إن تَلْحبوها فإنـكم ملاحى للسوْءات دُسْمُ العمائم[4]

وقال آخر :

خليلىّ شُدَّا لى بفضل عمـامتى على كَبِدٍ لم يبق إلّا صميمُها

وقد ورد فى العمامة شعر كثير . وفى العمامة الـكور والجمع أكوار وهى الطرائق التى يعصب بها الرأس ؛ ولاثها : أدارها حول رأسه . والصوقعة مدخل الرأس فى العمامة . والذؤابة ما أرسل منها على الظهر ، والقفدة أعلى العمامة ، واعتم القفداء كفها على رأسه ولم يسدلها، واعتم عمة عجراء أى ضخمة ، وتلحاها أدار دوراً منها تحت الذقن وهو المأمور به ، واقتطعها لأنها على رأسه ولم يدرها تحت

---

(١) العهار : الفجار . والزناء : الضيق . (٢) عبل : ضخم. (٣) الذيخ . الذئب الجرىء وذكر الضباع وخطا يخطو : مشى الخطيا وهو مشى رويد
(٤) لحب الطريق : سلكه ، والمرأة جامعها . ودسم العمائم : سود العمائم .

الحنك وهو المنهى عنه ، فإذا أدارها على بعض فمه فذلك اللثام ، وإذا أدارها على فمه فهو اللفام ، فإن بلغ بها أصل فمه فذلك النقاب ، فإذا لم يظهر منه إلا العينان فهو الاحتجار والتوصيص .

ما ورد عنهم من الشعر فى النعال

العرب لم تزل تلهج بذكر النعال ، والفرس تلهج بذكر الخفاف ، وفى الحديث المأثور : إن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر ، ويقولون : هو من زينة نساء آل فرعون . وأما قول شاعرهم :

إذا اخضرَّتْ نعال بنى غُرابٍ   بَغَوْا ووجدتَهمْ أسرى لئاما

فلم يرد صفة النعل ، وإنما أراد بأنهم إذا اخضرّت الأرض وأخصبوا ، طغوا وبغوا ، كما قال الآخر :

وأطول فى دار الحفاظ إقامةً   وأوزن أحلاماً إذا النعل أخضلاَ

ومثله قوله :

يا ابنَ هشام أهلكَ الناسَ اللَّبَنَ   فكلهم يسعى بسيفٍ وقَرَنْ[1]

وأما قول الآخر :

وكيف أرَجّى أنْ أسود عشيرتى   وأُمِّىَ من سلمى أبوها وخالها

رأيتكمُ سُوداً جِعَاداً ومالكٌ   مخصَّرَةٌ بِيضٌ سِباطٌ نِعالُها

فلم يذهب إلى مديح النعال فى أنفسها ، وإنما ذهب إلى سباطة أرجلهم وأقدامهم ، ونفى الجعودة والقصر عنهم وقال النابغة :

رقاق النّعال طَيّبٌ حُجُزاتهمْ   يحيّونَ بالرَّيْحان يوم السّباسِبِ[2]

---

(١) القرن : حد السيف والنصل (٢) قوله « طيب حجزاتهم » أى اعفاء والحجزة : معقد الازار . والسباسب : أيام السعانين أو الشعانين من أعياد النصارى . انظر ص ٣٤٨ من الجزء الأول .

يَصُونون أجساداً قديم نَعِيمُها بخالصة الأردان خُضْر المناكب

وبنو الحرث بن سدوس لم ترتبط حماراً قط ، ولم تلبس نعلا قط إذا نقبت وقد قال قائلهم :

ونُلقى النعــال إذا نقبت ولا نَستعينُ بأخلاقِهـا

ونحنُ الذُّؤابة من وائلٍ إلينـــا تمدُّ بأعماقِها(١)

وهم رهط خالد بن معمَّر الذى يقول فيه شاعرهم :

مُعاوِىَ أَمِّرْ خالد بن مُعمَّر فإنك لولا خالدٌ لم تؤمَّرِ

وقائلهم يقول :

أغاضبةٌ عمرو بن شيبان إن رأت عديدين من جرثومةٍ ودَخِيس(٢)

فلو شاء ربى كان أيرُ أبيكمُ طويلا كأير الحرث بن سَدُوس(٣)

وأما قول الآخر :

يا ليت لى نَعلَيْنِ من جلد الضَّبُعْ وشُرُكا من استِها لا تنقطعْ

كلُّ الحِذاء يَحتذِى الحافى الوَقِعْ(٤)

فهذا كلام محتاج ، والمحتاج يتجوز ، وقال النَجاشىُّ لهنـــد بن عاصم :

إذا الله حيَّا صالحاً من عباده كريماً فحيَّا الله هندَ بنَ عاصم

وكلُّ سلولىّ إذا ما لقيتــه سريعٌ إلى دار النَّدَى والمكارم

ولا يأكل الـكلب الـسَّروقُ نعالهم ولا تنتقى المخّ الذى فى الجماجم(٥)

---

(١) الذؤابة : من العز والشرف وكل شىء أعلاه (٢) الجرثومة : الاصل. والدخيس : العدد الكثير (٣) أير الحرث : يضرب به المثل فى كثرة الاولاد وكان له أحد وعشرون ذكرا. والعرب تقول «فلان طويل الاير» اذا كان كثير الاولاد. ومما ينسب الى على رضى الله عنه « من يطل أير أبيــه ينتطق به » أى من كثرت اخوته استظهر بهم وضرب المنطقة اذ كانت تشد الظهر مثلا لذلك .

(٤) هذا الرجز ينسب الى أبى المقدام جساس بن قطيب .. والشرك : جمع شرك وهو سير النعل . والاست : الدبر . وقوله : كل الحذاء الخ مثل يضرب عند الحاجة تحمل على التعلق بما يقدر عليه . ووقع الرجل يوقع وقعا اذا حفى من مره على الحجارة (٥) انتقى العظم : استخرج مخه .

قال يونس «كانوا لا يأكلون الأدمغة ولا ينتعلون إلا بالسِّبْتِ[1] »
وقال كثير :

اذا نُبِذَتْ لم تُطِبِ الـكلابَ ريحُها ‏ ‏ ‏ ‏ وإن وُضِعَتْ فى مجلسِ القوم شُمَّتِ

وقال قتيبة بن الحرث :

الى مَعْشَرٍ لا يخصِفُونَ نِعالَهُمْ ‏ ‏ ‏ ‏ ولا يَلْبَسونَ السِّبْتَ مالم يُخَصَّرِ

وقال الأحنف « استجيدوا النعال ، فانها خلال الرجال » واذا مدح الشاعر النعل بالجودة فقد بدأ يمدح لابسها قبل أن يمدحها ومعنى قول قائلهم :

(و) قام بناتى بالنعال حواسراً ‏ ‏ ‏ ‏ وألصقْنَ وقعَ السِّبْتِ تحتَ القلائدِ

أن النساء ذوات المصائب إذا قمن فى المناحات كنّ يضربن صدورهن بالنعال ،
وقال خلف الأحمر :

سقى حجّاجنا نَوْءُ الثُّريّا ‏ ‏ ‏ ‏ على ما كان من مَطْلٍ وبُخلِ
هُمُ جمعوا النعال فأحرزوها ‏ ‏ ‏ ‏ وسدُّوا دونها باباً بقُفْلِ
اذا أهْدَيْتُ فاكهةً وشاةً ‏ ‏ ‏ ‏ وعَشْرَ دجائجٍ بعثوا بنَعْلِ
ومِسْواكَيْنِ طولهما ذِراعٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وعشر من ردى المُقْل خَشْلِ[2]
فان أهديت ذاك لتحملونى ‏ ‏ ‏ ‏ على نعلٍ فدَقَّ اللهُ رِجلى

وقال كثير :

كأنَّ ابنَ ليلى حين يبدو فتنجلى ‏ ‏ ‏ ‏ شجوفُ الخباء عن مَهيبٍ مشمّتِ[3]
مقاربُ خَطْوٍ لا يغيِّرُ نعلَه ‏ ‏ ‏ ‏ رهيف الشِّراك سهلة المتسمّتِ[4]
اذا طُرِحت لم تطب الـكلبَ ريحُها ‏ ‏ ‏ ‏ وان وُضِعتْ فى مجلس القوم شُمَّتِ

---

(١) جلود البقر وكل جلد مدبوغ (٢) المقل : ثمر شجر الدوم . والدوم: شجرة تشبه النخلة فى حالاتها . ويقال للمقل خشل اذا كان يابسا
(٣) السجوف : جمع سجف وهو الستر . ومليك مشمت . أى محيى من معنى حياه اذا دعا له بالتحية (٤) رهيف الشراك : رقيق سير النعل ومسمت النعل : أسفل من مخصرها الى طرفها .

وقال بشار :

اذا وُضعتْ فى مجلس القوم نعلُها　　تضوّعَ مِسْكاً ما أصابتْ وعنبرا

ولما قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لصعصعة بن صوحان فى المنذر الجارود ما قال ، قال صعصعة « يا أمير المؤمنين ! لئن قلت ذاك انه لنظّار فى عطفيه ، تفال فى شراكيه ، تعجبه حمرة بُرْدَيْه » وذمّ رجل ابن التوأم فقال : رأيته مشحم النعل ، دَرِنَ الجورب(١) ، مغضّن(٢) الخف ، دقيق الجربان(٣) » وقال الهيثم « يمين لا يحلف بها إلا الأعرابى أبداً أن يقول : لا أوردالله لك صادراً ، ولا أصدر لك وارداً ، حططت رحلك ، ولا خلعت نعلك » .

وقال آخر :

عَلِقَ الفؤاد بريّقِ الجهلِ(٤)　　وأبَرّ واستعصى على الأهْلِ

وصبا وقد شابَتْ مفارِقهُ　　سَفَهاً وكيف إصابة الكهْلِ(٥)

أدركت مُعْتَصَرِى وأدركنى　　حلمى ويَسّرَ قائدى نَعْلى(٦)

وقال آخر :

كم أرى من مُستعجب من نعال　　ورضائى منها بلبس البَوالى

كلُّ جَرْداءَ قد تحيّفها الخصْفُ بأقْطارِها بِسرْوِ النّعال(٧)

لا تُدَانى وليس تشبه فى الخِلْقة إنْ أبْرِزَتْ نعال المَوالى

لا ولا عن تقادُمِ العهد منها　　بليَتْ لا ولا لِكَرِّ الليالى

ولقد قلت حينَ أوثرُ ذا الودِّ　　عليها بثرْوَتى وبمالى

منْ يُغالى من الرجال بنعلٍ ؟　　فسوائى إذَنّ بهنّ يغالى

أوْ بغاهُنّ للجَمال فإنى　　فى سِواهُنّ زينتى وجَمالى

---

(١) وسخ　(٢) مجعد　(٣) جربان القميص : طوقه الذى فيه الازرار مخيطة فاذا أريد ضمه أدخلت الازرار فى العرا فصم الصدر الى النحر

(٤) ريق كل شيء : أوله وأصله　(٥) المفارق: جمع مفرق وهو وسط الرأس الذى يفرق فيه الشعر . والكهل : من وخطه الشيب　(٦) المعتصر : الهرم والعمر　(٧) الجرداء : المجردة من الشعر . وتحيفها : تنقصها من أطرافها .

فى إخائى وفى وفائى ورأيى وعفَافى ومَنْطقى وفعَالى
ما وقانى الحفا وبلّغنى الحـا جَةَ منهـا فاننى لا أبالى

وشعر العرب المشعر بلبسهم للنعال ، وإيثارهم لها على غيرها مما يلبس بالأرجل لا يمكن استيعابه فى مثل هذا المقام ، وماذ كرناه وافٍ بالمقصود . ومنها :

الفلاحة

وهى من أسباب معايش العرب العامة ، لا سيما سكنة اليمن والبحرين وعمان وهجر وغالب بلاد نجـد ، فسكنة هـذه البلاد كلها غالب معايشهم من الحرث والغرس ، ولهم فى غرس النخيل اهتمام وأى اهتمام ! وما ورد عنهم فى شأنه كلام طويل ، ومعرفتهم بشؤونه كمعرفتهم بالخيل ؛ وحيث أن أرضهم وبلادهم صالحة لإنبات أ كثر نبات العالم ، وشجر الدنيا ، اتسع نطاق معارفهم فى هذه الصناعة ومن تتبع الـكتب المؤلفة فى النبات والشجر لاسيما كتاب (أبى حنيفة الدينورى) اعترف بما ذ كرناه مع ما فى لغتهم من الشهود العدول عليه ؛ وغالب من تعاطى هذه الصناعة سكنة البوادى منهم ؛ وبين السبب فى ذلك ابن خلدون فقال : اعلم أن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش ، فان اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله ، والابتداء بما هو ضرورى منـه ، ونشيط قبـل الحاجى والـكمالىّ ، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسـة والزراعة ، ومنهم من ينتحل القيـام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها ، واستخراج فضـلاتها ، وهؤلاء القـائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو ، لأنه متسع لمـا لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك ، فـكان اختصاص هؤلاء بالبـدو أمراً ضروريا لهم ، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم فى حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والـكنّ والدفء انما هو بالمقدار الذى يَحْفَظُ الحياة ، ويحصـل بُلْغة العيش من غير مزيد عليه ،

للعجز عما وراء ذلك ؛ ثم أخذ يذكر أسباب الحضارة وموجباتها ، والحاصل أن ما ذكرناه غالب مدار معايش العرب ، وما يقوم بدفع ضرورياتهم ، وما تمس اليه حوائجهم ؛ ولهم أسباب أخر كالغوص على اللؤلؤ ؛ والى اليوم سكنة البحرين وهجر وغير ذلك من سكنة السواحل يعيشون عليه ، والبحث على اللؤلؤ والأصداف ، وكيفية صيده ، وما ورد عن العرب فى ذلك مما لا يسعه المقام ، ومنهم من كان يعيش على صيد البر والبحر ، ولهم فيه مذاهب وعوائد مفصلة فى كتب الحديث ، ومنهم من كان يعتاش بالمواشى والأنعام ، كالغنم والبقر والإبل ، ولهم فى القيام عليها وتربيتها قدم راسخة ، وعلم واسع .

ما أوجب تقدم العرب

من وقف على أحوال العرب ، وتصفح كتب أخبارهم ، وعرف شؤونهم على اختلاف طبقاتهم وأزمانهم ، تبين له أن العرب أمة قديمة مضى عليها أمد طويل ، وأتى عليها حين من الدهر لا يعلم له مبدأ معين ؛ وهم فى كل ذلك ما بين ارتفاع وانحطاط ، وترقٍّ وهبوط ، وائتلاف واختلاف ، وسعادة وشقاء ، وعزّ وذل ، وعسر ويسر ، ومن استقراء أحوالهم تبين أن مدار تقدمهم وارتقائهم على مِنَصَّة السؤدد ، وذروة العز ، أمور (منها : بالعلم) فانّ العلم على اختلاف فنونه ، وتشعب غصونه ، من أعظم أسباب سعادة الانسان ، وهو نور محض به يهتدى أولو البصائر والعرفان ، ولا نعنى به إلا العلم النافع الدافع لحاجات النوع الإنسانى وضرورياته ، فدخل فيه جميع العلوم العقلية والنقلية ، الفرعية منها والأصلية . وأما الجهل فهو أساس كل بلاء ، وأصل كل جهد وعناء ، فلذا ترى كل أمة استنارت عقولها بالعلم ، وتحلت بحلى الفضل ، لم تزل تتدرج فى مدارج الارتقاء ، وتتلألأ منها أنوار الهداية لسلوك سواء السبيل ، وكل أمة امتد عليها رواق ظلام

الجهل ، واستحكم فيها داء الغباوة ، انسدّتْ عيون بصائرها ، وفسدت نتائج أفكارها ، فضلّت عن سلوك الجادة ، وحرمت اجتناء ثمار السعادة ، واتصفت بالصفات الذميمة ، وتخلقت بالاخلاق الغير المستقيمة ، وتاهت فى بيداء الحرمان وجاءها موج البلاء من كل مكان ، فبالعلم النافع تكون الثروة ، وبالعلم تتهذب الأخلاق ، وبالعلم يسود الذليل ، وبالعلم ينتصر على العدو ، وبالعلم يقهر الخصم الألد ، وبالعلم تفك أغلال الأعناق من أسر التقليد ، وبالعلم تدرك الأمانى ، وينال كل مقصد بعيد ، ومن باد من العرب وهلك إنما كان من الجهل بعد العلم والغيّ بعد الهدى » «ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد[1] وثمود الذين جابوا الصخر بالواد[2] وفرعون ذى الأوتاد[3]

(١) عاد : جيل من العرب العاربة أو البائدة ، يقول النسابون انه من ولد عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال الشيخ محمد عبده : وسواء صح النسب أم لم يصح فقد كان ذلك الجيل معروفا باسم عاد ويلقب أيضا بارم وبقي مشهورا عند العرب بذلك ، قال : وذات العماد وصف لارم التى هى قبيلة عاد نفسها ، ومعنى ذات العماد سكان الخيام حلا وارتحالا أو ذات العماد الرفيعة والقوة المنيعة . عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة. وكانت منازلهم بالرمال والاحقاف الى حضرموت ، وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغا لم يصل اليه سواها فى عهدها ولذلك قال: التى لم يخلق مثلها فى البلاد. والاستفهام فى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » للتذكير والتقرير انتهى . وهذا هو التحقيق الذى يقطع به العقل السليم . ولاضعفه المفسرين الذين أصيب الاسلام منهم بداهية دهياء وفاقرة عظمى ورزية كبرى ، حكايات خرافية وأقاصيص منحولة وأساطير مفتعلة فى تصوير ارم ذات العماد يسود من ذكرها وجه القرطاس وتتلكأ البراعة فى الجرى بها واللسان فى تلاوتها . وكان يجب أن ينزه عنها كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولكن أنى لتلكم العقول السخيفة والادمغة المعصبة الجافة أن تتحرر من أغلال التقليد الاعمى فتتمتع فى نعمة العقل تحت ظلال الحق .. ؟

فاذا وقع اليك أيها الاخ اللبيب شيء من كتب أولئك « المخلوقين » فانبذه وراءك ظهريا واياك وان ثغرك الكنى والالقاب ! (٢) ثمود : قبيلة من العرب البائدة . وجابوا الصخر : قطعوه ونحتوه كما قال تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » فقد أنعم الله عليهم بالقوة والعقل حتى صنعوا لانفسهم بيوتا من الصخر بذلك الوادى الذى كانوا يقيمون فيه . وقد يصح ما قال بعضهم ان معنى جابوا الصخر بالواد انهم قطعوا الصخر واتخذوا منه واديا يخزنون فيه الماء لمنافعهم . ولا يفعل ذلك الا أهل القوة والفهم من الامم .

(٣) فرعون : حاكم مصر فى عهد موسى عليه السلام . والاوتاد : المبانى العظيمة . وللشيخ منزع غريب فى اختيار تفسير الاوتاد بالمبانى العظيمة لم اره لغيره .

الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب[1] إن ربك لبالمرصاد[2] » . وهكذا من بقى منهم إنما تفرق جمعهم ، وتشتت شملهم وأدركهم الذل والهوان ، والفقر والخسران ، بعد أن ضاقت عنهم الحزون والسهول ، ودوخوا البلاد والأقطار ، بسيوف لم يصبها فلول ، لما خيم عليهم غمام الجهل ، وعصفت عليهم عواصف الغواية ، واتباع الأهواء كما هو مفصل فى كتب التفسير والحديث . هؤلاء أولاد اسماعيل عليه السلام ، ولا سيما قريش منهم إنما كانوا من العز بمكان مكين ، ومن السؤدد بحصن حصين ، بسبب ما كان لهم من العلم أوفر نصيب ، فافُزن منه بالقدح المعلى والرقيب فذلت لهم يومئذ القبائل ، ودانت لهم البلاد ، فلم يكن دونها حائل ، و بذلك سموا قريشاً كما قال الشاعر :

وقريشٌ هى التى تسكُنُ البحـ ... ـرَ بها سُمِّيَتْ قُرَيْشٍ قُرَيْشا
تأكلُ الغثَّ والسَّمين ولا تتـ ... ـرك فيه لذى جَنَاحَين ريشا
هكذا فى البـلادِ حىُّ قريشٍ ... يأكلونَ البلادَ أكْلاً كميشا[3]

ولم يزالوا على عزهم ومجدهم ، واقبالهم وشرفهم ؛ إلى أن تناقص منهم العلم وتقلص عنهم ظل المعارف والفضائل ، وذلك قبيل الإسلام بنحو ثلثمائة سنة ، وهو المعنى بزمن الجاهلية على قول منصور ، فحينئذ شاع فيهم الجهل ، واختلت منهم الأحوال ، وفسد منهم أكثر الخلق المحمود ، وارتفعت منهم البركات ، وفشى فيهم المنكر ، وتقاعدت منهم الهمم ، وفترت منهم العزائم ، وتفرق منهم الشمل ، وكثرت فيهم البدع والأهواء ؛ إلى أن أشرقت عليهم أنوار بدر

(١) السوط : لفظ شاع استعماله فى الجلد المضفور الذى يضرب به وان كان فى الاصل اسما للخلط والمزج . وصب السوط انزاله بشدة مع توالى ضرباته بلا انقطاع (٢) هو المكان الذى يقوم به الرصد وهو القوم الذين يرصدون أى يرقبون بالخير او الشر . والكلام على التمثيل أى ان ربك القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده لا يفوته من شئونهم شىء ، ثم هو مجاز كل عامل بعمله ذلا يفلته أحد فلا يظنن أهل الطغيان الذين يكثرون فى الارض الفساد أن يتفلتوا من الله وعقابه . (٣) سريعا .

الإسلام ، وبعث الله تعالى من أنفسهم رسولاً مؤيدًا بالآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة ، مكرمًا بطهارة الأعراق ، مشرفا بما جبل عليه من مكارم الأخلاق ، التى نقض بها عوائد الفطر ، وباين لها جميع البشر : من فروسيته وشجاعته وبأسه ونجدته ، وعزمه وهمته ، وعلمه وحلمه ، وزهده وعبادته ، ورضاه وصبره ، وحمده وشكره ، وذكره وفكره ، واعتباره وتبصره ، وخوفه وخشوعه ، وتواضعه وخضوعه ، وكرم آبائه وجدوده ، وسخائه وجوده ، وفصاحته وصدق لهجته ، ورعايته للعهد ، ووفائه بالوعد ، وأمانته وشفقته ، وحسن خَلْقه وخُلُقه ، وحيائه ولينه ، وثقته ويقينه ، وعفوه ورحمته ، وصفحه ورأفته ، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة ، والشمائل السديدة ؛ فوجدهم إذ ذاك ما بين عابد أوثان ، ومستمرٍ على إيقاد النيران ، وجاهد فى تخريب البلاد ، وتعذيب العباد ؛ وجاثمٍ على السجود للشجر ، والخضوع للحجر ، إلى غير ذلك من الضلال والمنكر ، هذا مع ما كانوا عليه من الاستعداد والقابلية لقبول الخير ، ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ؛ فجد حينئذ بدعائهم إلى مافيه سعادتهم ، وكابد ما كابد فى تغيير عوائدهم ، لاسيما قومه وعشيرته ، فقد نال منهم ما تشيب منه النواصى ، وتنهد له الصياصى ، فإن العرب ولا سيما قريشًا — كما وصفهم الكتاب الكريم — كانوا من الدهاء واللدد عند الخصومة وخلابة الألسنة ، وبلاغة المنطق ، والتمسك بما ألفوه من العوائد ، على جانب عظيم — إلى أن جمعهم على كلمة الإيمان ، وعلمهم من المعارف والكمالات ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى ، ومرّنهم على محاسن الأخلاق ، وحثهم على السعى والتكسب ، وأصلح لهم ما أفسدوه ، وجدد لهم مابدلوه وغيروه ، حتى نبعت من قلوبهم ينابيع الحكم الجمة ، والمعارف النورانية ، وفاضت على الصدور والألسنة ، وامتلأ منها الكتب والدفاتر ؛ وأصبحوا أعلم من فى الأرض ، فما من دابةٍ فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا وكان لهم به علم ومعرفة ! وبذلك تقدموا

يومئذ ذلك التقدم الذى بهر العقول ؛ واستولوا على غالب أقطار المعمورة ، وجلوا عن القلوب ظلماتها ، وأشادوا الدين الحق على أمتن أساس ، وأنقذوا العالم من لجج الفساد .

ومن أسباب تقدمهم اتفاق كلمتهم

من المعلوم الذى لا يستراب فيه أن القوم متى اتفقت آراؤهم ، واجتمعت كلمتهم، صاروا يداً واحدة على من سواهم ، وانتصروا على عدوهم ، وتشيد بنيان مجدهم ، وهابهم من سواهم ؛ وكان العرب أيام جاهليتهم لاتجمعهم كلمة ، ولا ينظمهم سلك نظام ، وعادى بعضهم بعضاً ، وانتشرت بينهم الحروب والمنازعات ، كما أخبرت بذلك كتب أيامهم[1] فلذلك فشى فيهم يومئذ الذل والصغار ، وعمّهم الهوان ، إلى أن أخذت العناية الإلهية بأيديهم من ذلك العناء ، وجمع شملهم بكلمة الحق وأوجب عليهم الدين المبين الاعتصام بحبل الله ، وأن لا يتفرقوا ، وأمرهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد إذا شكا عضو منه شكا جميعه ؛ وكان بين الاوس والخزرج حروب أيام الجاهلية تطاولت نحو مائة وعشرين سنة حتى قارب أن يفنى الحيان ؛ فلما جاءهم الإسلام ، وتشرفوا به ، ارتفعت الشحناء من بينهم ، وأصبحوا يداً واحدة على من سواهم ، وذلك قوله عز اسمه (يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حُفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبيِّنُ الله آياته للناس لعلهم يتقون) فلما ألف الله كلمة العرب على الإسلام ، وتوجهوا لطلب ما فى أيدى الأمم من الملك ، لم يكن دونه حمى ولا وَزَر ، فكان لهم من الملك الواسع ما هو معلوم لمتتبعى كتب الأخبار ؛ فلذلك كان خطباؤهم وحكماؤهم ينادون عليهم بالألفة ،

---

(١) أى حروبهم .

ويحذرونهم من التفرق واختلاف الكلمة ، وينذرونهم بما يستتبع ذلك من العواقب الوخيمة والنتائج الفاسدة ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم من هذا الكتاب مادل على ذلك من شعرهم وخطبهم ووصاياهم ما فيه الكفاية ومنها :

العدل

العدل إذا كان شاملاً فهو أحد قواعد الدنيا التى لا انتظام لها إلا به ، ولا صلاح فيها إلا معه ، وهو الداعى إلى الألفة ، والباعث على الطاعة ، وبه تتعمر البلاد ، وبه تنمى الأموال ، ومعه يكثر النسل ، وبه يأمن السلطان ، وليس شىء أسرع فى خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه ليس يقف على حد ، ولا ينتهى إلى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل ؛ والعرب لما استناروا بنور الدين المبين ، وجمعت متبدد شملهم كلمة الحق ، ودان لهم من دان من الأمم ، شملوا الناس بالعدل فى أحكامهم إذْ كان من أهم مقاصد الشريعة الغراء ، وأعظم مطالبها وأجلّ قضاياها ؛ وبذلك نطقت آيات التنزيل . منها : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به إن الله كان سميعاً بصيراً) وفى الحديث « بئس الزاد إلى المعاد ، العدوان على العباد » إلى غير ذلك من النصوص التى يضيق عنها المجال ، ومن وقف على سير الخلفاء الراشدين وغيرهم من أمراء العدل من العرب ، تبين له أن ما كان من استقامة ملكهم واتساعه إنما هو بالعدل الشامل ، ووضع الأمور فى مواضعها ؛ والعدل باب واسع يجرى فى أمور كثيرة ومرجعه إلى عدل الإنسان فى نفسه ، ثم عدله فى غيره ، فأما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح ، وكفها عن القبائح ؛ ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير ، فإن التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أجور ؛ وأما عدله فى غيره فهو على أقسام :

منها عدل الإنسان فيمن دونه : كالسلطان فى رعيته ، والرئيس مع صحابته ، ويدخل فيه الرجل مع أهل بيته ، والأستاذ مع تلامذته ، والسيد مع خدامه وأرقائه ، ففى الحديث « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » والعدل ههنا يكون باتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق فى الميسور ، فإن اتباع الميسور أدوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسلط أعطف على المحبة ، وابتغاء الحق أبعث على النصرة ؛ وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتدبيره أظهر ، وفى الحديث « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه » وعن بعضهم « ليس للجائر جار ، ولا تعمر له دار » وعن آخر « أقرب الأشياء صرعة الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم » ومنها : « عدل الإنسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها ، وعائلة الرجل معه » وغير ذلك ، فقد يكون بإخلاص الطاعة ، وبذل النصرة ، وصدق الولاء ، فان إخلاص الطاعة أجمع للشمل ، وبذل النصرة أدفع للوهن ، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور إن لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه ، واضطر إلى اتقاء من يتقى به ، قال البحترى :

متى أحْوَجْتَ ذا كرمٍ تخطّى إليكَ ببعض أخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع ، وفساد صلاح شامل ، قال بعض الأكابر « أطع من فوقك يطعك من دونك » ومنها : عدل الإنسان مع أكفائه ، وذلك بترك الاستطالة ، ومجانبة الإدلال ، وكف الأذى ، لأن ترك الاستطالة آلف ومجانبة الإدلال أعطف ، وكف الأذى أنصف ؛ وهذه أمور إن لم تخلص فى الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا ؛ وهذا كلام إجمالى على العدل وأقسامه ، والمتكفل بتفصيله ، واستيعاب جزئياته كتب الشريعة ؛ والمقصود هنا بيان أن من جملة ما أوجب تقدم العرب بعد انحطاطهم

لزومهم جادة العدالة ، والانحياد عن مسالك الظلم ، والبغي والعدوان ، وقد تنبه بعض أكابرهم أيام الجاهلية لما يترتب على العدل من المصالح فتعاهدوا بينهم على مجانبة الظلم ، والمباعدة عن الجور ، وترك البغي على الناس ، فعقدوا حلف الفضول وغيره في مكة على ما سبق بيانه أوائل الكتاب ، وقد أعرضت عن ذكر أمور أخر أوجبت تقدمهم فإنها تترتب على ما ذكر من الأصول الثلاثة التي هي منشأ كلِّ خير ، وبالله التوفيق .

سكنة البوادي من العرب وما امتازوا به عن الحضريين

البادية هي الأرض التي ليس فيها بناء من دور وقصور وغير ذلك ، وهي البدو أيضاً والنسبة إليه بدوي ، وفي الحديث « من بدا جفا » أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب . والبداوة الإقامة بالبادية وهو خلاف الحضارة ، والمبدى خلاف المحضر ؛ ولما كان سكنى البادية تقتضي صيانة العز والشرف رجحها غالب العرب على الحضر ، وكثر حنينهم إليها ، وذكر وحشها وطيرها ورياضها ونبتها وشجرها وأغوارها وأنجادها ورياحها ومياهها ، ولا زالوا يفخرون في شعرهم بسكناها قال القَطَامي[1] :

وَمَنْ تكُنِ الحَضَارة أعْجَبَتْهُ ... فأيُّ رجال باديةٍ تَرَانا[2]

---

(١) بفتح القاف وضمها كما نص عليه ابن الشجري في أماليه ، والمجد في قاموسه ، وعبد الرحيم العباسي في معاهده ، وقول ابراهيم اليازجي في مجلة الضياء : ان الصواب الضم ، وهم من أوهامه الناشئة من غروره وهوسه ، وقلة تتبعه ودرسه ! والقطامي لقب غلب عليه واسمه عمير بن شييم ، وهو شاعر اسلامي مقل ، رقيق الحواشي ، كثير الامثال ، حسن التشبيب .. وهو صاحب هذا البيت :

أنا محيوك فاسلم أيها الطلل ... وان بليت وان طال بك الطيل

الذي انتحل صدره جميل الزهاوي المتفلسف فقال في مدح أمير عربي :

أنا محيوك فاسلم أيها الملك ... ومصطفوك لعرش شاءه الفلك !!

(٢) يقول : ان كل ما أعجبك من رجال الحضر فهو أكثر بيننا منهم وان كنا أهل بادية .

ومَنْ رَبَطَ الجحاش فانَّ فينا قنَاً سُلُباً وأفراساً حِسانا[1]
وكُنَّ إذا أغَرْنَ على جَنَابٍ وأعْوَزَهُنَّ نَهبٌ حيثُ كانا[2]
أغَرْنَ من الضّباب على حلول وضَبَّةَ إنهُ مَنْ حانَ حانا[3]
وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجدْ إلاَّ أخانا[4]

وقال آخر من قصيدة يمدح بها قوماً من سكنة البادية :

الموقدونَ بنجدٍ نارَ باديةٍ لا يحضرون وفقد العز فى الحضر

وقال آخر :

هذا أبو الصّقرِ فرداً فى محاسنهِ من نَسْل شيبانَ بين الضّال والسَّلم[5]

— وروى أن ميسون بنت بَحْدَلٍ لما اتصلت بمعاوية ، ونقلها من البدو إلى الشام ، وكانت تكثر الحنين إلى أناسها ، والتذكر لمسقط رأسها ، فاستمع عليها ذات يوم وهى تنشد هذه الأبيات : —

لَبَيْتٌ تخفق الأرواحُ فيه أحبُّ إلىّ من قصر مُنيفِ[6]
ولبس عباءةٍ وتَقَرّ عينى أحبُّ إلىّ من لبس الشفوف[7]

---

(١) يقول : واذا رضى أهل الحضر باقتناء الحمير وربطها فانا لا نرضى الا بما عندنا من الرماح التى تسلب النفوس والخيل الحسان التى تعين على دفع الأعداء . (٢) وكن : أى الخيل أنزلها منزلة أربابها وهم المغيرون . وجواب اذا أول البيت بعده والجملة خبر كن (٣) معنى البيتين ذاك وهذا : أن أرباب الخيل منا كانوا اذا أغاروا على ناحية ، وتعسر عليهم السلب والنهب من الاباعد عطفوا على الاقارب : الضباب وبكر وغيرهم . والحلول . الذين يكونون فى مكان واحد وقوله « انه من حان حانا » هذا التفات كأنه التفت الى انسان وقال له : انه من هلك بغزونا فقد هلك (٤) «على بكر» متعلق بفعل مضمر دل عليه ما قبله كأنه قال :وأحيانا أغر على بكر . (٥) شيبان : بن ذهل وشيبان بن ثعلبة قبيلتان . والضال والسلم : شجرتان من شجر البادية . و فردا : منصوب على المدح أو الحال . والمعنى : هذا المشار اليه صاحب الاسم المشهور اذا ذكر رجلا فردا فى محاسنه و فضائله من نسل شيبان واولاد هذه القبيلة المقيمين بالبادية والاقامة بها مما تتمدح به العرب لأن فقد العز فى الحضر! والبيت من شواهد المعانى . و قائله ابن الرومى الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، (٦) قوله «لبيت» اللام لام الابتداء وتخفق :تضطرب والأرواح والأرياح :جمع ريح . والمنيف العالى . (٧) تقر :منصوب بأن مضموة بعد الواو ، و « أن تقر » فى تأويل مصدر معطوف على مصدر وهو «ولبس عباءة» والشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق سمى بذلك لانه يرق فيحكى ما تحته.

وأكل كُسَيْرَة فى كِسْر بيتى أحبُّ إلىَّ من أكل الرغيف(١)
وأصوات الرياح بكلِّ فجٍّ أحبُّ إلىَّ من نقر الدُّفوفِ
وكلب ينبح الطُّرَّاقَ دونى أحبُّ إلىَّ من قطٍ ألوف(٢)
وبَكر يتبع الأظعان صعب أحبُّ إلىَّ من بغل زفوف(٣)
وخِرْق من بنى عمى نحيف أحبُّ إلىَّ من عِلج عليفِ(٤)

فلما سمع معاوية الأبيات قال لها : ما رضيت ابنة بَحْدَل حتى جعلتنى علجاً عنيفاً ؟ وهذا من حنين أهل البادية إليها ، والتبرية من الحضر ، وذكر الراغب أن امرأة ضبية تسمى حسانة قعدت على بركة فى روضة بين الرياحين والأزهار فى ألطف وقت وأبهجه — وكانت قد احتملت من البادية إلى الحضر — فقيل لها : كيف حالك هنا ؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية ؟ فأطرقت ساعة ، ثم تنفست وقالت : —

أقولُ لأدنى صاحبىَّ أسِرُّهُ وللعين دمع يُحْدِرُ الكحل ساكبُهْ :
لَعَمْرِى لَنهْرٌ باللِّوى نازح القَذَى بعيد النواحى غير طَرْقٍ مشاربه(٥)
أحَبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئَتْ للعب ولم تَمْلُحْ لدى ملاَعبه(٦)
فياحَبَّذا نجدٌ وطيبُ ترابه إذا هضبته بالعشى هواضبه(٧)

---

(١) الكسيرة (بالتصغير) القطعة من الخبز . والكسر : طرف الخباء من الارض (٢) الطراق : جمع طارق وهو الذى يأتى ليلا . (٣) البكر : (بفتح الموحدة) الفتى من الابل . والاظعان : جمع ظعينة وهى المرأة ما دامت فى الهودج وقيل غير ذلك (أنظر ج ٢ ص ١٣٤) وصعب : صفة لبكر . وروى سقب وهو الذكر من ولد الناقة . والزفوف : المسرع (٤) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة والعلج : الرجل الضخم ، ويحتمل أن تريد أن الامرد أحب اليها من ذى اللحية . قال أبو زيد : يقال لكل ذى لحية علج ولا يقال الغلام اذا كان أمرد علج . والاول أنسب لقولها (عليف) أى مسمن بالعلف. قال الأعلم : تعنى به معاوية لقوته وشدته ، مع سمنه ونعمته (٥) اللوى : ما التوى من الرمال . والنازح : القذى الصافى الذى لا يشوبه كدر والطرق : الماء الذى خاضته الابل وبالت فيه (٦) الصهاريج جمع صهريج وهو حوض يجتمع فيه الماء وبركة مصهرجة معمولة بالصاروج وهو شىء يخلط بالنورة ويطلى به الحياض ونحوها وهو معرب (٧) هضبت السماء : فاضت ، والهاضبة : السحابة .

وريح صَبَا نجدٍ إذا ما تَنَسَّمت ضحى أو سرت جنحَ الظلامِ جنَائبه[1]
وأقسمُ لا أنساه مادمت حيةً وما دام ليل من نهار يعاقبه
ولا زال هذا القَطْر يُسفِرِ لوعة بذاكراه حتى يترك الماء شاربه

وقال آخر[2] وقد تذكر بعض أودية البوادى فصبا إليه :—

وحَبَّذا حين تُمسى الريحُ باردةً وادى أُشَيٍّ وفِتيانٌ به هُضُمُ[3]
ياليتَ شعرى عن جَنْبَىْ مُكَشَّحَةٍ وحيثُ تُبْنَى من الحِنَّاءة الأُطُمُ[4]
عن الإشاءة هل زالَتْ مخارِمُها وهل تغيّر من آرامها إرَمُ[5]
وجنة مايذم الدهر حاضرها جبارها بالندى والحمل محتزم[6]

وقال أعرابى انتقل من البداوة إلى الحضارة فرأى المكاء (وهو طائر برى) فى الحضر ، وكان قد عهده يفرخ على شجر الألاء والأرطى[7] ، فقال لهذا الطائر : فارق هذا المكان فإنه ليس لك فيه الشجر الذى تعشش عليه ، وأشفق من أن تمرض كما مرضت ؛ وذلك معنى قوله :

ألا أيها المكاء مالك ههنا ألاء ولا أرطى ، فأين تبيض ؟

---

(١) الجنائب : ريح تهب من مطلع سهيل فى الجنوب الى مطلع الثريا .

(٢) هو زياد بن حمل بن سعد بن عميرة بن حريث ، ويقال له زياد بن منقذ أحد بنى عدى من بنى تميم ، وكان قد نزل (صنعاء) فاستوبأها ، وكان منزله بنجد فى (وادى أشى) فنظم قصيدة مطربة مشجية يتشوق فيها الى بلاده ، ومنها هذه الابيات . وقد أوردها أبو تمام فى باب النسيب من ديوان الحماسة .. (٣) برد الريح يدل على القحط لوقوعه شتاء . ووادى أشى : موضع بالوشم . والوشم : واد باليمامة فيه نخل . وهضم . جمع هضوم وهو الذى يصرف ماله ويبذله كيفما شاء فى الضيافة (٤) مكشحة : موضع باليمامة يشتمل على خمس قرى عليها سور واحد من لبن وفيه نخيل وزروع . وقال الحفصى : هو نخل فى جزع الوادى قريبا من اشى ، والحناءة : رمل من رمال عالج ، والاطم : الحصن . (٥) من الاشاءة : بدل من « جنبى مكشحة » وهو موضع ايضا والمخارم : الطرق فى الجبال . والارم : الطريق — ومعنى البيتين : ياليت علمى بأحوال هذه المواضع هل هى باقية على ما عهدتها أم تغيرت (٦) الجبار : النخلة الطويلة ، والندى : الرطوبة . والحمل : الطلع . والاحتزام : الالتفاف والمراد فيها الخصب . يقول : واستخبر أيضا عن أحوال جنة تحمل أبدا وتدوم مخضرة معمورة بالنخل التى يجتنى منها الثمر .

(٧) الألاء : كسحاب شجر مر دائم الخضرة . والأرطى : شجر كنور الخلاف وثمره كالعناب مرة تأكلها الابل غضة وعروقه حمر .

فاصعد إلى أرض المكاكىّ واجتنبْ قرى المصر، لا تُصْبِح وأنت مريض

وقال عبد لبنى قريط يقال له (مطير) اشتاق إلى أرضه :

ألا لَيْتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً و(صدّاء) منى و(البَيَاض) بعيد[١]

بوادٍ من اللعباء أعلاه عوسجٌ وأسفله رِمْثٌ عليه جهيد[٢]

وهل أسمعنَّ الدهر أصواتَ فتيةٍ بذى الهوزوى من ناشىء ووليد

وقال آخر :

أيا جَبلَىْ غورىْ تهامةَ كلما تطاللت نجداً أشرقت لى ذراكما

عدمتكما لا يونس الناظر الذى به الشوق شيئاً دونه قلتاكما

أصابكما من حبٍّ نجد حرارة وغلّ فلا يروى بماء صداكما

وقال قائد بن حكيم متشوقاً إلى أرضه :

متى العيسُ من مصر بنا رافعاتنا إلى نجد أو باد لعينى قلالها[٣]

ومزج إليها الطرْف حتى يرده قوس القرى فى البعد يخفق آلها[٤]

على متن عادى كأن أماره رجال تنادى أفلتنها جمالها

وقال :

خليلى إنْ حانَتْ بمصر منيتى وأزمعتما أن تحفرا لى بها قَبْرا

فلا تنسيا أن تقرآ لى على الغَضَى ونجد سلاماً لا قليلاً ولا نَزْرا

وإن سرت ياسبحان ربى بالغَضَى أو المرت من نجد مُخَيَّسة صعرا

وقال آخر :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بصحراء مابين الجثوم إلى شعر ؟

---

(١) صداء : ماء معروف (بالبياض) وهو بلد بين سعد بن زيد مناة وكعب ابن كلاب — عن نصر (٢) الرمث : مرعى للابل من الحمض وشجر يشبه الغضى . ومرعى جهيد : جهده المال . وهذا كلأ يجهده المال اذا كان يلح على رعيته (٣) العيس : الابل البيض يخالط بياضها شقرة (٤) يقال : قمست الآكام فى السراب (وهو الآل) اذا ارتفعت فرأيتها كانها تطفو (٥) المرت : المفازة بلا نبات أو الارض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها . والمخيسة : الابل التى لم تسرح ولكنها حبست للنحر او القسم .

وهل أرِدَنّ العينَ والشملُ جامعٌ مقيم النّوَى قدحان ذاك على قدرى ؟
وهــل أرينّ الرمل يا أمّ خالدٍ رميث اللوى من قصد مطلع الفجر ؟
فكيفَ ولم أصبح أحــدث فتية كرام المساعى من ربيعة أو وبر ؟
حمى سِرْبهم فى كل يومٍ كريهةٍ مصاعيب أمثال المعبّــدة الزّهر (١)

وقال آخر :

ألا يا ديارَ الحىِّ والحى جــيرة بحيث تهنت فى العروقِ جَبوبهــا
ســقتك نِجــاءٌ من ربيع تتابعت عليك وهبت غــير نحس جنوبها (٢)
ألاليت شعرى هل يَعُودنّ مامضى لنا فيك ، أم هل تغفرنّ ذنوبها ؟

وقال آخر :

لقد كان بالدهنا حياة لذيذةٌ ومحتطب لا يشــترى بالدراهم

وقال صدقة بن نافع العقيلى متشوقاً إلى دياره وكان بالجزيرة :

أرقت بحران الجزيرة مَوْهِناً لبرق بدالى ناضب متعــال (٣)
بدا مثلَ تلماع الفتاة بكفِّها ومن دونه نأىٌ وغــبر قلال
فَبِتُّ كأن العين تــكحل فلفلا وبى عس حمى بين وملال
فهل يَرْجِعنْ عيش مضى لسبيله وأظلال ســدر يانع وسَــيَال ؟
وهل ترجعنْ أيامنا بِمُتَــالعٍ وشرب بأوشــال لهن ظلال ؟
وبيض كأمثال المَها يستبيننا بقيل ، وما مع قيلهن فعــال ؟

إلى غــير ذلك من الشعر المشــتمل على الحنين إلى البادية وما فيها ، والشعراء الإسلاميون سبقوا الجاهليين إذا سلــكوامسلــكهم ومنهاجهم ، والأموىّ فى نجدياته وعراقياته أتى بما لم يسبق إليه . من ذلك قوله :

وأسرى بعيس كالأهلة فوقها وجوهٌ من الأقمــار أبهى وأنورُ

---

(١) السرب : القطع من الظباء والنساء وغيرها (٢) النجاء ككتاب جمع النجو للسحاب (٣) الموهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه .

ويعجبنى نفحُ العَرار ورُبما ... شمختُ بِعرِنينى وقد فاح عَنبر(١)
ويخدش غمدى بالحمى صفحة الثرى ... إذا جَرّ من أذياله المتحضّرُ
فما العيش إلى الضّبّ يحرشه الفتى ... وورد بمستنّ اليرابيع أكدر(٢)
بحيث يلفّ المرء أطنـاب بيته ... على العز والكومُ المراسيل تنحر(٣)
ويغشى ثراه حين يستعتم القرى ... ويسمو إليه الطـارق المتنوّر(٤)

وقوله :

خليلى هذا ربْعُ ليلى بذى الغَضى ... سقى الله ليلى والغَضى وسقاكما !
وقد كنتما لى مسعِدَين على البكا ... فما لكما لا تسعِدان أخاكما ؟
أظلّ وحيداً لا أرى من أحبُّه ... فهل بالحمى لى من خليل سواكما
ولو غاب عنى واحدٌ منكما وَهَت ... قوَى الصبر لا أوهى الزمان قواكما
فكيف أذود الهم عنى تجلُّداً ... وقد غبتما عن أرض نجدٍ كلاكما

وقوله :

بمنشط الشِيح من نجد لنا وطنٌ ... لم تجرِ ذكراه إلا حنّ مُغترِب(٥)
إذا رأى الأفق بالظلماء مختمراً ... أمسى وناظره بالدمع منتقب
ونشقة من عَرَار هزّ لمتـه ... رويحة فى سراها مسها لغَب
تشفى غليلا بصدرى لا يزَحزِحه ... دمعٌ تهيب به الأشواق منسكب(٦)

وقوله :

ونفحة من ربَى ذى الأثل قابلنى ... بهـا نسيم يزيد القلب أحزانا
ولم يطب تربها من روضةٍ أنف ... فهاجَ رياه أطراباً وأشجانا(٧)
لكنّ ذا الأثل طاب الواديانِ به ... حيث الرّباب تجر الذيلَ أحيانا

---

(١) العرار : بها رالبر والعرنين : الانف (٢) حرش الضب يحرشه : صاده
(٣) الكوم : القطعة من الابل . وناقة كوماء : عظيمة السنام طويلته .
والمراسيل : الخفاف التى تعطيك ما عندها عفوا (٤) الطارق : الزائر ليلا .
(٥) منشط مفعل من نشط اذا خرج . والشيح : نبت (٦) أهاب به ،
زجره (٧) روضة انف : لم ترع .

ولم يكن لى أكناف الحمى وطناً ولا الفوارس من نبهان جيرانا

إلى غير ذلك ممـا يطول ذكره ، وقد أطنب المسعودى فى اختيار العرب سكنى البوادى وسببه (وهذا ملخص ما ذكره) قال : ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقـاعها على الأيام أشبه بالعز ، وأليق بذى الأنفة ، وقالوا نـكون محكمين فى الأرض نسكن حيث نشاء أصلح من غيره . قال : وذكر آخرون أن القدماء من العرب لمـا ركبهم الله من سمو الأخطار ، وتيل الهمم والأقدار ، وشـدة الأنفة والحمية من المعرة والهرب من العار ، بدأت التفـكر فى المنـازل ، والتقدير للمواطن فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها معرة ونقصاً ، ومنهم من قال : إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسـام ، وتلحقها الآفات ، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالهـا من الصلاح إذ الهواء ربما قوى فأضر بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قطانه ، ومنهم من قال إن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف فى الأرض ، ومقطعة عن الجولان ، وتقييد للهمم ، وحبس لمـا فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة ، وقالوا إن الأبنيـة والأطلال تحصر الغذاء ، وتمنع اتساع الهواء ، وتسد سروحه على المرور ، وقذاه عن السلوك ، فسكنوا البر الأفيح الذى لا يخافون فيه من حصر ، ولا من منازلة ضر ، هذا مع ارتفاع الأقذاء ، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء ، وتهذيب الأحلام فى هذه المواطن ، ونقاء القرائح فى التنقل فى المساكن ، وصحة الأمزجة وقوة الفطنة ، وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام ، فإن العقول والآراء ، تتولد من حيث تولد الهواء . وطبع الهواء الفضاء ، وفى هذا أمن من العاهات والأسقام والعلل والالام ؛ فآثرت العرب سكنى البوادى والحلول فى البيـداء ، فهم أقوى الناس هما ، وأشدهم أحلاما ، وأصحهم أجساماً ، وأعزهم جاراً ، وأحماهم ذماراً ، وأفضلهم جواراً ، وأجودهم فطناً ، لما أكسبهم إياه صفاء الجو ، ونقاء الفضاء ، لأن الأبدان تحتوى أجزاؤها على متكاثف الأكدار ، وعنـاء

الأقذار ، بما يرتفع إليه ، ويتلاطم فى عرصاته ، واقفة من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه ، ففى أكنافه جميع ما يتصعد إليه ، وكذلك تراكيب الأقذاء والأدواء والعاهات فى أهل المدن ، وتركبت فى أجسامهم ، وتضاعفت فى أشعارهم وأنثارهم ، ففضلت العرب على سائر ما عداها من بوادى الأمم المعترضة ، لما ذكر من تخيرها الأماكن ، وارتياد المواطن ، قال المسعودى : وكذلك جانبوا فضاضة الأكراد ، وسكان الجبال ، من الأجيال الجافية ، وغيرهم الذين سكنوا خروت الأرض ودهاسها ، وذلك لأن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها فى انخفاضها وارتفاعها لعدم استقامة الاعتدال فى أرضها ، فلذلك كانت أخلاق قطانها على ماهى عليه من الغلظ :

وقد وفد على كسرى أنوشروان بعض خطباء العرب فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها واختيارها البدو ؟ فقال : أيها الملك ملكوا الأرض ولم تملكهم ، وأمنوا من التحصين بالأسوار ، واعتمدوا على المرهفات الباترة ، والرماح السامرة ، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له يردون منها خيارها ويقصدون ألطافها ، قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟ قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدى مشرفين على الأرض بحسب ذلك ! قال : فما رياحها ؟ قال : أكثرها النكباء بالليل والصبا عند انقلاب الشمس ، قال فكم الرياح ؟ قال أربع فإذا انحرفت واحدة منهن قيل نكباء ، وما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب ، وما بازائهما مما يستقبلهما من المغرب شمال ، وما جاء من وراء الكعبة فهى دَبور ، وما جاء من قبل ذلك فهى صبا ، قال : فما أكثر غذائهم ؟ قال : اللحم واللبن والنبيذ والتمر ، قال فما خلائقهم ؟ قال : العز والشرف والمكارم وقرى الضيف واذمار الجار وإجارة الخائف وأداء الحمالات[1] وبذل المهج فى المكرمات ،

---

(١) الحمالة : الدية والغرامة .

وهم سراة الليل ، وليوث القيل ، وعمار البر ، وأنس القفر ، ألفوا القناعة ، وسبقوا الضراعة ، لهم الأخذ بالثار ، والأنفة من العار ، والحماية للذمار ! قال كسرى : لقد وصفت هذا الجيل كرماً ونبلا ، وما أولانا بانجاح ذلك فيهم ! فتخيرت العرب البرارى والمهامه والمصاف ، فمنهم المنجد والمتهم ممن سكن أغوار الأرض كغوربيسان وغور غزة من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكنه من لخم وجذام ؛ ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وقطع من الأرض يعرجون عليها كالرها والسماوة والتهائم وأنجاد الأرض والبقاع والقيعان والوهاد ، ولست ترى قبيلا من العرب توغل عن الأماكن المعروفة لهم ، والمياه المشهورة بهم ، كماء ضارج وماء العقيق والسباط وما أشبه ذلك من المياه وقد استوفاها الزمخشرى وأبو لغدة الأصفهانى وغيرهما من الأئمة فى كتبهم المشهورة .

ما امتاز به عرب البوادى عن أهل الحضر

الفرق بين سكنة البوادى وبين سكان البلاد والقرى مما يظهر لكل أحد وذلك فى الأجسام والحواس الظاهرة والباطنة والصور والأخلاق والقوة والضعف ولهجة اللسان وسماحة اليد والجرأة والشجاعة وغير ذلك مما يطول ذكره حتى إن من وازن بين نبات البادية ونبات البلد وجد بينهما فرقا من وجوه مختلفة ، وكذلك وحشه ودوارجه وطيره وسائر ما يكون فى البر فإنه ممتاز عما يتكون فى البلد فى الخواص والأوصاف ، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته عدة فصول مشتملة على فروق بين الفرقين .

« منها » أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه ، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها لأن البدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم العاجزون عما فوقه ، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال فى أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه ، ولأن الضرورى

أصل والكمالى فرع ناشىء ، فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضرورى ، ولا ينتهى إلا الكمال والترف إلا إذا كان الضرورى حاصلاً فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، وأطال الكلام فى بيان ذلك .

« ومنها » أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، وذلك لأن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول مايرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، وبقدر ماسبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ، ويصعب عليها اكتسابه ، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير ، وحصلت له ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه ، وكذا صاحب الشر لذا سبقت إليه أيضاً عوائده :

« ومنها » أن أهل البدو أقرب للشجاعة من أهل الحضر ، وذلك لأن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم ، والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم ، فلا تهيجهم هيعة ، ولاينفر لهم صيد ، فهم غارّون آمنون قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم ، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة ، وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لايكلونها إلى سواهم ، ولايثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق ، و يتجافون عن الهجوع إلا غِراراً فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ، ويتوجسون للنبآت والهيعات ، ويتفردون فى القفر والبيداء ، مدلين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً ،

والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ ، وأهل الحضر متى خالطوهم فى البادية أو صاحبوهم فى السفر فهم عيال عليهم لا يملكون عليهم شيئاً من أمر أنفسهم ، وذلك مشاهد بالعيان حتى فى معرفة النواحى والجهات وموارد المياه ومشارع السبل .

« ومنها » أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ، ذاهبة بالمنعة منهم ، وأن الحضر لا يمكنه سكنى البدو بل لا يمكن أن يسكنه الا القبائل ، وأن الصريح من النسب إنما يوجد لأهل البادية من العرب لا أهل الحضر منهم ، وأن أهل البادية أقدر على التغلب ممن سواهم ، وأن الأمة إذا كانت بدوية وحشية كان ملكها أوسع ، وأن أهل البادية من العرب لا يتغلبون الا على البسائط ، وأن البدويين إذا تغلبوا على الأوطان أسرع اليها الخراب بخلاف أهل الحضر ، وأن أهل البادية من العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ، وأن أهل البادية من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ، وأن أهل البادية قاصرون عن سكنى المصر الكثير العمران . وقد أطنب فى الكلام على بيان أسباب هذه الفروق مما لا حاجة إلى نقله ، ومن أمعن النظر ، ودقق فى أحوال الفريقين ، ظهرت له فروق أخر ، وسبحان من ميز كل قوم بخصائص لا توجد فى غيرهم ، وصفات لا تتعداهم الى من سواهم (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآياتٍ للعالمين) .

خاتمة الكتاب

هذا آخر ما يسّره ولى التوفيق والانعام ، من بيان ما كان عليه العرب قبل الاسلام ؛ وقد جاء بحمد الله تعالى بهجةً للناظرين ، ونزهةً للقارئين ، بَيْدَ أنّ ما أوردته فى كل باب ، درّةٌ عقد نحر وقطرة من بحر عُباب ، فإنّ أحوال طبقة واحدة من طبقات أولئك الأخيار ، لا يقوم باستيعابها عدة أسفار ، ولو

سلك القلم سبيل الاختصار ، وعسى الله تعالى أن يقيض لإنجاز هذا المرام ، بعض ذوى الهمم العلية من أئمة الأدب الأعلام ، فقد سهل الطريق ، على من ساعده التوفيق ، فالعرب ممن ينبغى الاعتناء بذكرهم ، ويفحص عن طيب خبرهم فهم أهل المآثر ، وأصل الفضائل والمفاخر ، بمزاياهم تزينت صفحات الطُّرُوس ، وبحميد سجاياهم تبسم وجه الدهر العبوس ؛ وسنفرد إن شاء الله تعالى أحسن كتاب ، يستوعب أحوال من بقى اليوم من أولئك القوم الأنجاب ، وقد انتشروا فى البلاد ، وملأوا الأغوار والأنجاد ، وفيهم مما كان عليه أسلافهم بقايا ، وفيهم من هاتيك المكارم والسجايا ولست أعنى بهم كل من تكلم بلغتهم أو سكن فى خطتهم ، واتسم بسمتهم :

فما كلّ مخضوب البنان بثينة　　ولا كل مصقول الحديد يمانى

وأسأل الله تعالى الأجر الجزيل ، والذكر الجميل ، إذا فنى الجسم ، ونسى منى الاسم ، والحمد لله ذى الأنعام ، فى البدء والختام ، وهو الأول بلا عدد ، والآخر بلا أمد ، الحكيم بغير توقيف من أحد ، الذى أحسن لما أدب ، وأجزل لما وهب ، حمداً متصل المدد ، جارياً على الأبد ، وصلى الله على النبىّ الأمىّ ، ذى الأصل الزكىّ ، والقلب الذكىّ ، والكف الندىّ ، والزند الورىّ ، ذى الرسالة الصادعة ، والمقالة الناصعة ، والعترة الصالحة ، والأسرة الناصحة ، صلاة جامعة بينه وبين أهله الطاهرين الأبرار ، الطيبين الأخيار .

وكان الفراغ من تسويده غرة جماد الآخرة من السنة الرابعة بعد الثلثمائة والألف من الهجرة ١٣٠٤ ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ؟

أنظر الفهارس

ثلاثة فهارس

الفهرس الأول ــ فى موضوعات الكتاب

الفهرس الثانى ــ فى أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثالث ــ فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

الفهرس الأول

فى موضوعات الكتاب

أنظر الفهرس الثانى

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

(ح)

(خ)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(غ)

(ف)

انظر الفهرس الثالث

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

(ت)

(ث)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

ملحق

يشتمل على الشروح والفوائد — بقلم الشارح

الجزء الأول

صفحة سطر

١١ — ١٣ (الأنداس) فى ضبط هذه الكلمة اختلاف ، ولعل ضبطنا الذى اعتمدنا به على التاج أصح من غيره .

٣٩ — ١٢ (دردى وزير المعارف الخ) كذا فى الأصل ، والصواب : دورويْ Victor Durwy كما جاء فى محاضرة (الجامعة السورية) لصديقنا الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار الدمشقى .

١٣٧ — ٥ (إذ سامه الخ) سامه الأمر : كلفه إياه وأكثر ما يستعمل فى الشر والعذاب . والخطة بالضم : الأمر والطريقة . والخسف : الذل والقهر وتحميل الانسان ما يكره . وجار صوابه : حار ، أى يا حارث فهو منادى مرخم بحذف آخره .

١٧٤ — ١٤ (لفضلنا النساء . . .) المشهور : لفضلت النساء . . .

» — ١٦ (سيما) كذا بسقوط أداة النفى (لا) . وقد نصوا على وجوبها واستشهدوا بقول امرىء القيس « ولا سيما يوم بدارة جلجل » وقال أئمة اللغة : إن من أهملها فقد أخطأ . انظر مادة (س و ى) فى تاج العروس . وخاتمة الأشمونى فى باب الاستثناء .

٢١٨ — ٩ (الجد) هو الكاتب البليغ ، والأديب الضليع ، واللغوى المفسر الشهير السيد محمود شهاب الدين بن السيد عبد الله الألوسى : صاحب تفسير (روح المعانى) وغيره من المؤلفات الجليلة .

صفحة سطر

وترجمته مفصلة فى كتابينا (ذكرى الامام الألوسى) و (مشاهير العراق فى القرن الثالث عشر والرابع عشر) .

٢٤٣ — ١٤ (أباجارتا . . .) انظر الجزء الثانى ص ٤٩

٢٤٤ — ٩ (اليوم يبدو . . .) انظر الجزء الثانى ص ٢٩١

٢٤٦ — ٦ (الناسة) وردت فى معجم البلدان (٨ : ١٤٠ — مصر) : « النسناسة » خطأ . فلينتبه !

٢٤٨ — ٥ (أشرق ثبير) توجيه معناه فى (ثبير) من معجم البلدان .

٢٦٨ — ٣ (حولى أسيد . . .) هكذا هى الرواية المشهورة . ورواية ابن برى :

حولى فوارس من أسيّد شجعة وإذا نزلت فحول بيتى خَضَّمُ

وقد فسرنا (خضماً) بالجمع الكثير من الناس كما هو المشهور . وقيل : بل خضم هنا لقب للعنبر بن عمرو بن تميم وغلب على القبيلة وانما سموا بذلك لكثرة أكلهم ومضغهم بالأضراس ، وأسيّد : قبيلة من قبائل عمرو بن تميم .

٢٧٦ — ١٤ (تيم بن مرة . . .) البيتين . هكذا هما فى الأصل . ووردا فى كتاب الأحكام السلطانية (ص ٦٦) لأبى الحسن الماوردى كذلك وعلق المصحح عليهما هذه العبارة : « هكذا فى الأصل ولم نقف على تصحيح ذلك فليحرر » .

٢٨١ — ٢ (لعمرى . . . الابيات) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه . والنَدَى : الجود . والجدا : العطية .

٣٨١ — ٦ (روى بن الكلبى) انظر صبح الاعشى (١ : ٣٧٨) .

٢٨٣ — ٨ (واناليوث . البيت) قوله (والكلا) هكذا ورد فى (نهاية

صفحة سطر

الأرب للقلقشندى ، وغيرها ، والصواب « انطلى » وهى الأعناق أو أصولها .

٣٢٩ — ٥ (جمعة) وردت هذه الكلمة فى الطبعة الأولى (خمعة) بالخاء المعجمة ولما رجعنا إلى الأصول المعتمدة : كالقاموس ، وتاج العروس ، واللسان ، والبيان والتبيين ، والأغانى ، و (تذييل فى نساء العرب) للمستشرق پرون Perron وغيرها — وجدناها كلها تقول جمعة بالجيم فأذعنا لها وحملنا ما فى الكتاب على الخطأ المطبعى ثم بعد طبع الكتاب اطلعنا فى مجلة لغة العرب البغدادية على تحقيق هذه الكلمة للاستاذ رحمه الله فإذا به يثبت أنها (خمعة) كما أوردها فى بلوغ الأرب . وهذا نص عبارته (اليوم وجدت فرصة لنقل ماذكرت لكم فذهبت إلى خزانة كتب مدرسة السليمانية وراجعت شرح حديث أم زرع للقاضى عياض ، وذكر فى هذا الشرح على سبيل الاستطراد نبذة يسيرة من كلام من اشتهرن بالفصاحة من نساء الجاهلية فقال : ومنهن خُمعة بضم الخاء وفتح الميم والعين المهملة كما ضبطه صاحب العباب والمحكم وابن الشجرى فى كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه . يقال خمع فى مشيته أى ظلع وبه خماع أى ظلع والخامعة الضبع — إلى أن قال : واختلف فى نسبها والمشهور أنها ابنة الخس ، أخت هند ، وقيل غير ذلك) انتهى

٣٥٥ — ١ (أزدشير) هكذا بالزاى وهو خطأ مشهور ، والصواب (أردشير) و٣٦٣ر٩ و١١ر١٤ بالراء .

٣٥٩ — ٦ (كنيسة القيامة) كنيسة للنصارى بالبيت المقدس . قال ياقوت وغيره واللفظ له : وصفها لا ينضبط حسناً وكثرة مال وتنميق عمارة وهى وسط البلد والسور يحيط بها ولهم فيها مقبرة يسمونها

صفحة سطر

القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها . والصحيح أن اسمها (قمامة) لأنها كانت مزبلة أهل البلد . وكان فى ظاهر المدينة يقطع بها أيدى المفسدين ويصلب بها اللصوص فلما صلب المسيح فى هذا الموضع عظموه كما ترى . . . الخ .

٣٥٩ — ١٩ (الأحد الجديد) : وورد فى صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤١٨) : (حد الحدود) . ولعل الأول أصح ، وذلك لأنهم — كما قالوا — يجددون فيه الآلات وأثاث البيوت واللباس . . .

٣٦١ — ١٩ (عيد المظال) ويقال عيد المظلة . وقد ذكر الأستاذ المصنف أنه ثمانية أيام . وفى صبح الأعشى (٢ : ٤٢٦) هو سبعة أيام .

٣٦٣ — ٦ (عيد الفور) ورد فى الصبح (٢ : ٤٢٧) : عيد الفوز بالزاى !

٣٨٧ — ١٣ (وقد نقدت الخنساء . . . الخ) تقدم لنا فى ص ٢٥ نقد هذه الرواية فأغنى عن إعادته .

الجزء الثانى

صفحة سطر

١٣ — ١٥ (ولن تصادف . . البيت) ضبطنا كلمة (المنتجع) فيه بالفتح وهى المنزل فى طلب الكلأ . ولعل الأولى (منتجع) بكسر الجيم اسم فاعل . يقال : انتجع فلان أى طلب الكلأ فى موضعه ،

٥٣ — ١٤ (الأعياص) هم أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر بن عبد مناف وهم : العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، وهم أخوة حرب وأبى حرب وسفيان وأبى سفيان ويقال لهؤلاء (العنابس) قال أبو النجم العجلى :

صفحة سطر

لكن أخلائى بنو الأعياص هم النواصى و بنو النواصى
منهم سعيد وأبوه العاصى ؟

وقال الليث : أعياص قريش كرامهم ينتمون إلى عيص وعيص فى آبائهم .

١٢٢ — ١١ (ولأنت أشجع من أسامة الخ) نسبة هذا البيت إلى الأعشى لا تصح وإنما هو للمسيب بن علس وبعضهم يرويه هكذا :
ولأنت أشجع من أسامة إذ دُعِيتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذعر
ويعزوه لزهير ابن أبى سلمى وهو وهم قديم لصاحب الصحاح وغيره والصواب الذى عليه المحققون أنه مركب من بيتين أحدهما لزهير والثانى للمسيب بن علس . قال الشيخ عبد القادر البغدادى : (هو مركب من بيتين فإن البيت الذى فيه دعيت نزال وهو لزهير صدره كذا) :

ولنعم حشو الدرع أنت إذا دعيت نزال ولج فى الذعر
وقوله « ولأنت أشجع من أسامة إذ » إنما هو صدر بيت للمسيب ابن علس ، وعجزه « يقع الصراخ ولج فى الذعر » وهذا ليس فيه دعيت نزال . والبيت الشاهد كما ذكرناه هو رواية سيبويه وسائر النحويين . و بين المسيب بن علس على مارتبناه هو رواية الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . وقد رأيت البيتين فى ديوانيهما كذلك انتهى . وفى تصحيح لسان العرب للعلامة أحمد تيمور باشا زيادة تفصيل لذلك . . .

١٤٦ — ١٠ « لا تقبرونى . . البيت » قبره ، دفنه وواراه فى التراب . وأقبره . جعل له قبراً . قال الفراء : وقوله تعالى « ثم أماته فأقبره » أى

صفحة سطر

جعله مقبوراً ممن يقبر ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع كأن القبر مما أكرم به بنو آدم ، ولم يقل فقبره لأن القابر هو الدافن بيده ، والمقبر هو الله لأنه صيره ذا قبر وليس فعله كفعل الآدمى .

ويقال : أقبر القوم أى أعطاهم قتيلهم ليقبروه .

١٥٧ — ١٤ (من مبلغ الحيين الخ) أنظر الجزء الأول ص ٣٢ .

٢١٢ - ٢ (القليس) انظر الشرح فى ص ٢٥١ من الجزء الأول .

٢٣٦ — ٩ (يا أقرع بن حابس . البيت) مر فى الجزء الأول ص ٣٠١ وغيرها ولم نتعرض له بشىء ، وقد كتبنا فى هذا المقام ما فيه الكفاية .

٣٠١ — ٥ (سنة أزمة . الأبيات) هذه الأبيات — الا الأخير منها — مدمجة مداخلة ، وقد أساء المنضد ترتيبها على الوجه الصحيح . فليتنبه !

٣١٩ — ٢١ (بخسته لا ينفع التبخيس) لعل الأولى : نجسته لو ينفع التنجيس .